المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
قسم الدراسات العليا
التاريخية والحضارية

الآثار السياسية والاجتماعية للأتراك العثمانيين في السودان {١٢٣٦-١٣٠١هـ / ١٨٢٠-١٨٨٥م}

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الاسلامي

اعداد الطالب
كمال الدين نور الدين إبراهيم

اشراف الأستاذ الدكتور
محمد سيد محمد

١٤١٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد ،،،

* ملخص رسالة الماجستير بعنوان : (**الآثار السياسية والاجتماعية للأتراك العثمانيين في السودان** " ١٢٣٦ – ١٣٠١ هـ / ١٨٢٠ – ١٨٨٥ م ") .

ان الحكم التركي الذي بلغ مدته خمسة وستين عاما في السودان قد ترك بصمات واضحة على صفحات الحياة السياسية والاجتماعية . لذا فان الرسالة انقسمت تلقائيا الى بابين رئيسيين ، **الباب الأول** عن الآثار السياسية واشتمل على خمسة فصول ، و**الباب الثاني** عن الآثار الاجتماعية واحتوى على سبعة فصول ، اضافة إلى مقدمة وخاتمة .

فالجانب السياسي من الرسالة قد تضمن البحث في ظهور السودان كيانا سياسيا موحدا ، ثم الآثار التي خلفها عدم التزام الولاة بقانونية العلاقات التي تحكم الدولة العثمانية بكل من مصر والسودان ، كما تناول أيضا انشاء المدن لتكون مراكز سياسية للحكم التركي ، وأبرز أعمال الحكام الأجانب من الأوربيين وفسادهم السياسي ودورهم في تقويض دعائم الحكم التركي في السودان ، وقد انتهى الباب الأول بانهيار الحكم التركي في السودان والآثار التي ترتبت عليه .

أما الجانب الاجتماعي ففيه تقصي لدور الحكم التركي في استقطاب ولاء القبائل ومدى التأثيرات التي خلفها ذلك الاستقطاب ، كما أن الرسالة تناولت العناصر غير السودانية التي كان للحكم التركي أثر مباشر في قدومها للسودان واستيطانهم فيه ، كما تناولت محاولات الحكم التركي لتوطين البدو الرحل ، ودوره أيضا في التركيز على الطرق الصوفية والمساعدة في نشر بعضها ، كما غطت الرسالة موضوع عمليات التنصير ونشاطات الجمعيات التنصيرية ومدى تأثيرها على فكر وعقيدة أهالي البلاد ، اضافة الى عرض ظاهرة الرق والاسترقاق من حيث أصله التاريخي وموقف الاسلام منه ، وعن الجهود المحلية والدولية في سبيل انهائه ، كما اشتملت الرسالة على أثر الحكم التركي على الثقافة والعادات والتقاليد واللهجات ، كما تعرضت لمشكلة جنوب السودان وجذورها . هذا وقد انتهى البحث الى النتائج التالية :

(١) تغلغل الأوربيين في الدولة العثمانية وملحقاتها في شكل خبراء وأوصياء هو جزء من المخطط العام للهيمنة على العالم الاسلامي وامتداد للحروب الصليبية .

(٢) مشكلة جنوب السودان لم تكن بدايتها وجذورها في عهد الاستعمار الانجليزي كما يتبادر للأذهان وانما بدأت منذ العهد التركي في السودان .

(٣) الحكم التركي مسئول مسئولية مباشرة عن قدر كبير من شكل الحياة السياسية والاجتماعية الحالية في السودان .

(٤) جهود السودانيين في انهاء ظاهرة الرق كانت وفق تعليمات الشريعة ، أما الجهود الدولية في هذا الشأن فكانت في صورة منع صارم ومتعسف وكانت تخفي وراءها أهدافا استعمارية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية	المشرف	الطالب
د. عابد محمد السفياني	د. محمد سيد محمد	كمال الدين نور الدين

شكر وتقدير

شكـــــــر وتقديــــــر

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومـن والاه . .

وبعـــــــــــد . . .

فالحمد لله الذى هدانى لاكمال هذا البحث ونسأله جل شأنـــه أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم ، وأن يرزقنا سبحانه وتعالى الاخلاص فى القول والعمل .

ثم أتقدم بالشكر الجزيل لكل القائمين على أمر جامعة أم القـــرى وعلى رأسهم معالى مدير الجامعة ، الدكتور/ راشد الراجح ، وعميد كليـــة الشريعة السابق ، الدكتور/ صالح بن حميد ، سعادة الدكتور/ سليمان ابن واثل التويجرى/ عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية الحالـــــــى لاتاحتهم لنا فرصة الدراسة فى هذه الجامعة العريقة ، فى هذا البلـــــد الأمـين .

كما اتقدم بالشكر لرئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية السابق الدكتور ابراهيم نجيب عوض ، ورئيس قسم الدراسات العليـــــا التاريخية والحضارية الحالى الدكتور عبد اللطيف عبد الله بن دهيش .

كما اتقدم بالشكر الجزيل لسعادة استاذى الدكتور/ محمد سيد محمد المشرف على الرسالة لما وجدت منه من رعاية وعناية وتوجيهات قيمة كـــان لها الأثر الكبير فى انجاز هذه الرسالة ، فقد منحنى الكثير من وقتـــه وعلمه الغزير فجزاه الله عنى وعن طلاب العلم خير الجزاء .

واتقدم بالشكر لرئيس قسم التاريخ الاسلامى السابق الدكتـور يوسف بن رابع الثقفى ، ورئيس قسم التاريخ الاسلامى الحالى ، الدكتـور فواز بن على الدهاس واساتذتى الذين تتلمذت عليهم بالقسم لمـا تلقيته منهم من علوم جمة .

والشكر لكل الاخوة الذين أفدت من مكتباتهم واستشاراتهـم ونصائحهم وآرائهم التى ساعدتنى كثيرا فى اتمام هذه الرسالة .

والشكر لله على نعمه الظاهرة والباطنه من قبل ومن بعـد . .

المقدمة

المقدمه

كان السودانيون قبل عام ١٢٣٦/١٨٢٠ يعيشون فى مجتمعات اتسمت حياتها بعدم التعقيد فى ظل سلطنات اسلامية مثل سلطنة سنار التى كانت تتكون من عدة دويلات صغيرة عمادها القبيلة الواحدة والوراثة فى مجال الزعامة السياسية ، ومثلها سلطنة الفور فى غرب السودان ، وسلطنة تقلى فى وسط السودان .

وقد بذل قادة هذه السلطنات جهودا كبيرة فى استقطاب العلماء والفقهاء للعيش فى سلطناتها وممارسة الحياة العلمية فيها بنشر الدين الاسلامى واللغة العربية وبالتالى نشر الوعى والمعرفة ، كما أراد السلاطين بذلك ربط المجتمعات العربية فى السودان بمنابع ثقافتها ولغتها ، ولتشجيع العناصر العربية على التقاطر الى السودان لتكثيف الوجود العربى المسلم .

واذا جعلنا جهود أولئك السلاطين نوعا من العلاقات الخارجية التى تربط ممالكهم بغيرها من المجتمعات والأمم ، الا أنه رغم ذلك فقد ظلت بلاد السودان منغلقة على نفسها ويعيش أهلها حياة محلية ، لذلك انتشرت النزاعات بين تلك السلطنات بل كانت الصراعات تقوم بين أُولى الأمر فى السلطنة الواحدة مما اضاف الى ذلك الوضع السياسى المفكك ، انحلالا وتفككا اكثر ، مما أغرى ذلك القوى الكبيره على مد نفوذها وبسط سلطتها على البلاد السودانية .

فلما رأى محمدعلى باشا والى مصر تلك الحالة فى السلطنات السودانية قرر ضم السودان ومد ملكه جنوبا لتحقيق قيام دوله عظيمةولتأمين ظهر بلاده وزيادة ثرواتها واثراء خزانتها ، وأيضا لحماية منابع النيل الذى هو أساس الحياة الاقتصادية لمصر . ولأسباب أخرى اشرت اليها فى أحد

مباحث التمهيد لهذا البحث.

وبلغت فترة حكم محمدعلى باشا وأسرته للسودان مدة خمسة وستين عاما ، حيث ترك الحكم التركى المصرى بصمات واضحة على صفحات الحياة السياسية والاجتماعية فى السودان لذلك أحببت أن أدلى برأيى فى الآثار السياسية والاجتماعيةللحكم التركى المصرى فى بحث مقدم للماجستير فى التاريخ الحديث .

وترجع أهميةالموضوع وسبب أختيارى له الى مايأتى :-

أولا : ان قدرا كبيرا من شكل الحياة السياسية والاجتماعية للسودان الحديث كان نتيجة ، وأثرا مباشرا للحكم التركى .

ثانيا : يلاحظ تكالب الدول الأوروبية وبصورة محمومة لانشاء علاقات مع الدولة العثمانية ومصر ، مما ادى الى انعكاسات ونتائج خطيرة على السودان باعتبارها دولة تابعة للدولتين ، ومازالت تلك الآثار يعانى منها أهل السودان على الصعيدين السياسى والاجتماعى ، فوددت التعرض على تلك الانعكاسات بالبحث والتنقيب .

ثالثا : ان السودانيين يعيشون فى أوضاع قبلية ويتعاملون مع عناصر وعادات وتقاليد وألفاظ وتعابير تركية ، وشامية ومصرية ومغربية وأوروبية صاحبت الحكم التركى المصرى ، ويتعامل معها السودانيون دون معرفة مصدرها ، فحاولت فى هذا البحث تفنيد هذه الظواهر والعادات .

وقد حفزنى الاستاذ الدكتور محمد سيد محمدعلى كتابة هذه الرسالة فقد رعاها منذ أن كانت فكرة ، فخطة ، ثم صارت رسالة بهذا المستوى المتواضع ، وقد تعلمنا منه الكثير منذ أن كنا فى مرحله البكالوريوس ، فجزاه

الله عنى كل خير، وبارك فى عمره ونفع به .

وقد اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وبابين ، يحتوى كل منهما الى عدة فصول .

أما المقدمة فتشتمل على أهمية الموضوع وسبب اختيارى له كما تشتمل على عرض لأبواب وفصول البحث .

فالتمهيد يحتوى على اعطاء خلفية تاريخية عن :

(١) الاسباب التى دفعت الحكم التركى المصرى لضم السودان .

(٢) الوضع السياسى والاجتماعى للسودان فى عهد ماقبل الحكم التركى المصرى :

أ) سلطنة سنار.

ب) سلطنة دارفور .

ج) سلطنة تقلى .

وتحدثت فى الباب الأول عن الآثار السياسية وقد قسمته الى خمسة فصول ، فكان الفصل الأول عن ظهور السودان كيانا سياسيا موحدا ، تناولت فيه خطوات الحكم التركى المصرى فى ضم مساحات وبلاد الى السودان صارت اليوم أجزاء عزيزة من ترابه يستميت السودانيون فى الدفاع عنها والذود عن حماها ، وأصبحت وحدة بعد شتات ، وقوة بعد ضعف ، وأهم من ذلك كله أن يحكم السودان شماليه وجنوبيه وشرقيه و غربيه - ولأول مرة فى تاريخه - تحت ادارة حكومية واحدة .

وتحدثت فى الفصل الثانى عن النظام السياسى ، وتناولت فيه الوضع القانونى لعلاقة مصر بالدولة العثمانية ، وبالتالى الوضع القانونى للسودان بالنسبة لمصر ، والاثار التى خلفتها عدم التزام الحكم التركى المصرى بقانونية تلك العلاقات .

وفى الفصل الثالث تناولت دور الحكم التركى في انشاء المدن لتكون مراكز سياسية تساعد فى ادارة الدولة ، وبينت كيف أن تلك المجهودات أدت الى قيام مدن لم تكن فى السابق شيئا مذكورا ، كما أدت الى أن تطورت بعض القرى الى مدن صارت فيما بعد من المدن السودانية الكبيرة والمهمة .

أما الفصل الرابع فقد تعرضت فيه الى الحكام الأجانب فى السودان وفسادهم السياسى والأخلاقى ودورهم فى تقويض دعائم الحكم التركى المصرى فى السودان ، وماخلفت تلك الأعمال من آثار ضارة على الأصعدة السياسية والاجتماعية فى السودان .

وقد ختمت الباب الأول بموضوع عن انهيار الحكم التركى في السودان والاثار التى ترتبت على ذلك الانهيار.

ثم خصصت الباب الثانى للآثار الاجتماعية للحكم التركى : والذى قسمته الى سبعة فصول ، جعلت الفصل الأول عن الاوضاع القبلية ، وحاولت تقصى دور الحكومة التركية فى التأثير على الوضع القبلى فى السودان من حيث تغيير أساسه ، ومدى التأثير الذى خلفه استقطاب الحكومة لولاء بعض القبائل دون بعضها الآخر

وكان الفصل الثانى عن العناصر غير السودانية ، وكيف قدموا الى السودان وكيف استقروا فيه حتى صاروا فيما بعد مواطنيين سودانيين وما دورهم فى السودان بعد ذلك .

والفصل الثالث عن محاولات الحكم التركى ، لتوطين الرحل

والفصل الرابع عن دور الحكم التركى فى تركيز الطرق الصوفيه والمساعدة فى تشر بعضها .

وفى الفصل الخامس تناولت دور الحكم التركى المصرى فى عمليات التنصير وقيام الحركات التنصيرية ومدى تأثيرها على عقيدة وفكر السودانيين .

والفصل السادس تحدثت فيه عن الرق والاسترقاق فى عهد الحكم التركى المصرى وقد تناولت الاصل التاريخى للرق فى السودان ، كما تناولت جهود الحكم التركى المصرى فى انهاء الرق اضافة الى الجهود الدولية فى هذا المجال .

أما الفصل السابع والأخير فقد جعلته للحديث عن أثر الحكم التركى المصرى على الثقافه والعادات والتقاليد واللهجات فى السودان .

ثم خاتمة البحث والتى تحتوى على أهم النتائج .

ومما تجدر الاشارة اليه أننى قد اخترت ((الآثار السياسية والاجتماعية للاتراك العثمانيين فى السودان)) عنوانا للرسالة وذلك لان للدولة العثمانية - من الناحيــة القانونية - حقوقا فى السياده على السودان ، كما أن الولاة أنفسهم فى مصر كانوا أتراكا ثم أن أسماعيل بن محمد على عندما فتح السودان لم يكن ضمن قواته مصريا واحدا - كما ذكر بعض المؤرخين - هذا فضلا عن أن فتح السودان قد تم باسم خليفة المسلمين فى استانبول ، كما أن معظم الحكمداريين وكبار قادة الجيش ورؤساء الادارات فى السودان كلهم كانوا من العنصر التركى اضافة الى أن اللغة التركية كانت هى اللغة الرسمية للحكومه فى السودان فى ذلك العهد .

ولكنى استخدمت عبارة (الحكم التركى المصرى) وهذه تعتبر صحيحة من الناحية الرسمية ، وذلك لان السودان كان يحكم من مصر فى ذلك العهد ، ويعين به الولاه والحكمداريين وكل أموره تدار من القاهره .لذلك

لجأت الى استخدام جملة (الحكم التركى المصرى) فى جميع موضوعات البحث ولا أرى تناقضا فى استخدام العبارتين .

وبهذا ارجو أن أكون قد وفقت فى انجاز الرسالة بصورة مستوفية فان كان كذلك فلله الحمد والمنة ، وان كان غير ذلك فنسأله جل شأنه ان يغفر لنا وان يوفقنا لأداء ماهو أفضل انه سميع مجيب .

تمهيد

تمهيـــــد :

١) الأسباب التي دفعت بالحكم التركي المصري الى ضم السودان :

ليس بالغريب أن يفكر محمدعلى باشا [1] فى ضم السودان فالتاريخ يحدثنا أن معظم الحكام الذين استقلوا بحكم مصر، فكروا فى مد حكمهم جنوبا الى السودان .

---

(١) محمد على باشا ـ تركى الجنسية ولد فى ١١٨٥هـ/١٧٦٩م فى مرفأ قوله الذي يقع الان فى بلاد اليونان ، وكان موظفا حكوميا صغيرا ، ثم تزوج من ابنة عمدة مدينة قوله وأنجب منها ثلاثة أولاد هم ابراهيم، وطوسون واسماعيل ، كان أول ظهوره فى مصر سنة ١٢١٥هـ/١٧٩٩م متطوعا فى الجيش التركى حيث كان يتولى قيادة فرقة البانية وصلت سنة ١٢١٩هـ/١٨٠٣ الى مايزيد عن عشرة الآف رجل ، استفاد من الصراع بين المماليك والأتراك وتسلم زمام الأمور فى القاهرة بحجة المحافظة على الامن وبعد قضائه على المماليك فى مذبحة القلعة فى ١٢٢٧هـ/١٨١١م أصبح هو الحاكم الوحيد فى مصر.
انظر عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٦م ، ص١٦.
ـ **باشا** ، وهو لقب رسمى للأمراء والوزراء وكبار رجال السلك العسكرى فى الدولة العثمانية ، وقد تكون تحريفا لكلمة : " باى شاه" الفارسية ، والتى تعنى أساس الملك ، أو موطىء أقدام الملك أو العاقل يأمر السلطان ، انظر عبد المنعم السيد الراقد ، الغزو العثمانى لمصر ، القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة ، الطبعة وتاريخها غير موضحين ، ص ٢٦٨ .

ويصور الكاتب شوقي الجمل امتداد الادارة المصرية سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م للسودان ، أى امتداد حكومة محمدعلى للأراضى الواقعة جنوبا فيما وراء حدود الولاية المصرية العثمانية ، بأنه عملية فتح استعمارى ، من نوع التوسع الأوربى الذى ساد فى القرون الحديثة أى من نفس نوع حركات الامتداد التى قام بها الأوروبيون فى القرن التاسع عشر - والواقع أن هذا التصور بعيد كل البعد عن الحقيقة ، والخطأ فى هذه الفكرة راجع الى أننا نصور الأمور فى ذلك الوقت من وجهة نظرنا اليوم ، فنحن نضع الرجل وعصره فى موضعنا الحاضر ونجرى فى ذهنه مايجرى فى أذهاننا (١) .

ولكن الكاتب ضرار صالح ضرار يقول أن محمدعلى بعد استيلائه على مصر وتثبيت سلطانه فيها ، اتجه الى أن يعمل جاهدا لتوسيع رقعة البلاد التى يحكمها لأنه لم يكن قانعا بما لديه من الأراضى المصرية ، ومن الواضح أن محمد على كان ينظر شرقا الى الجزيرة العربية وغربا الى ليبيا وجنوبا الى السودان حتى منابع النيل كما زاد فيما بعد طموحه فشمل تهديده للدولة العثمانية شمالا (٢) .

كما أن محمدعلى قد رأى ان مصر أضحت فريسة للأطماع الغربية ، وخاصة فرنسا وانجلترا . أما فرنسا فانها احتلت الأراضى

---

(١) شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ، حضارته وعلاقته بمصر / جـ٢ ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م ، ص ٧.

(٢) ضرار صالح ضرار ، تاريخ السودان الحديث ، دمشق ، مطابع ساحة الحجاز ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩٥/١٩٧٥ ، ص ٢٠.

المصرية فى عام ١٧٩٨ بقيادة نابليون ،ولم يخرج الفرنسيون الا بعد صلح " أميان " "Amiennes" الذى عقد بين انجلترا وفرنسا فى عام ١٢١٨هـ/١٨٠٢م ثم حاولت انجلترا أن تغزو مصر فى عام ١٨٠٧/١٢٢٣ وهبطت الجيوش البريطانية فى رشيد ولكن المدير المصرى على بك السلانكلى استطاع أن يصد ذلك الغزو فى ١٢٢٣/ مارس ١٨٠٧ بجهاد فيه الكثير من البطولة.

لذا أدرك محمدعلى أنه لكي يصد الغزو الأوروبى فى المستقبل عليه أن يجند جيشا قويا يستطيع أن يدافع عن مصر، وعلى هذا الجيش أن يتدرب على الطرق الحديثة ،وأن يستعمل الأسلحةالمستحدثة وكان يعرف أن جنوده الألبانيين هم آخر من يقبل النظام الجديد الذى كان ينوى العمل به ،وذلك لقلة اهتمامهم وعدم رغبتهم فى اطاعة الأوامر، لذا فقد قرر أن يستجلب الجنود من السودان الذى كان دائما مصدرا حسنا لاستجلاب الجنود من بين رجاله ،اذ كان الفراعنه دائما يستعينون بالجندى السودانى [١] ، والذى يوءتى به كمملوك فى الأصل. كما استعان الفاطميون أيضا بالعنصر السودانى فى تشكيل جيوشهم.

لذا فان الدافع الأول لضم السودان هو استجلاب الرقيق[٢] لاستخدامهم كجنود مطيعين يبنى بهم جيشه الجديد ولاستخدامهم للعمل فى الزراعة والصناعة. ذلك ان محمد على يعتقد أنه يوجد بجنوب السودان مستودع لا يفرغ من الأهالى الأفريقيين الذين يمكن أن يمدوه

---

(١) ضرار - تاريخ السودان ،مرجع سابق ،ص٢١.

(٢) Hill, Richard. Egypt in The Sudan: 1821-1881. Oxford University press London.

بحاجته [١] .

فليس الحصول على الرقيق أهم من التنقيب والمعادن الأخرى بل أنه كان أهم أسباب الفتح جميعا [٢] ذلك لأن محمد على له رسائل كثيرة الى قواده الفاتحين فى السودان تشير الى حرصه لتحقيق هذا الهدف ، ففى رسالة الى عبدى أغا قال فيها :" أن غرضنا الوحيد من انتداب نجلنا اسماعيل باشا الى ديار السودان البعيدة وايفاد ولدنا الدفتردار الى بلاد كوردفان ، هكذا . . بهذه الاستعدادات والتكلفات الكثيرة معززين بسواد من الجنود ومزودين بكثير من المهمات هو الاهتداء الى طريق جلب هؤلاء الرقيق المطلوبين لدينا كما أن المقصود من ارسالهم الى دنقلا وارسال محمد بك الى بربره هو رغبتنا فى الرقيق الذين نطلكم بمساعى المشار اليهم بدون أن يمسهم تلف . .) [٣].

ولعل أكبر دافع لمحمدعلى للتفكير فى استخدام رقيق السودان كعنصر بناء لجيشة وقوته الجديدة ، هو أن القوة متعددة الجنسيات أكثرهم من العرب والمغاربه والألبانيين والأتراك والأورناؤد والباشبوزق، هذه القوات المؤلفة من تلك العناصر كانت تنقصها بداهة عنصر التجانس والنظام ،كما تنقصها أهم صفات الجيش وهى الطاعة ،فكان

---

(١) شوقى الجمل ،تاريخ سودان وادى النيل ،ص٢٢ ، مرجع سابق .

(٢) حسن احمد ابراهيم- محمدعلىفى السودان ، دار التأليف والترجمة والنشر - دار الطباعة جامعة الخرطوم- السودان ص ٢٥.

(٣) حسن أحمد ابراهيم - محمدعلىفى السودان ،ص٢٦ ، مرجع سابق ،فى دفتر ١٠ ،معية تركى ،ترجمة الوثيقة ٣٤٢ بتاريخ ١٩ ذى الحجة ١٢٣٧هـ.

مثلا الجنود الباشبوزق[1] يعملون فى جيش محمدعلى بعقود شهرية دفعت لهم بموجبها مرتبات أكبر بكثير من المرتبات التى دفعت لغيرهم من الجنود .

والجنود الأورناؤد[2] الذين أرسلوا لحملة السودان دفعت لهم مرتبات سته أشهر مقدما لفتح البلاد حتى دنقلا ، ولعل الباشا قد اتفق معهم فى بادئ الأمر للعمل معه حتى فتح دنقلا فقط ، ويبدو أن تلك حيلة من محمدعلى أراد بها تفادى امتناعهم عن التحرك ، فاذا قبلوا تنفيذ تعليماته وتم لهم الاستيلاء على دنقلا أغرى الباشا هؤلاء الجنود بالاستمرار فى فتح البلاد حتى سنار ، فقبل الجنود ذلك العرض لكسب المزيد من المال بعد أن تأكدوا من احتمال النصر على

---

(١) الباشبوزق : هى تسمية للقوات غير النظامية ،" وباشى بوزوك " تعنى فى التركية " الجرة المشروخة " وهو اصطلاح يدل على الوحشية والهمجية .
انظر الايطالى ، مجهول الاسم ، على تخوم العالم الاسلامى ، الخرطوم : ترجمة من الايطالية الى الانجليزية ريتشارد هل ، وترجمه من الانجليزية الى العربية عبد العظيم محمد احمد عكاشة ، المطبوعات العربية ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ / ١٩٨٧ ، ص٣١
وانظر أيضا ب . م . هولت ، المهدية فى السودان ، القاهرة : ترجمة جميل عبيد واحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار الفكر العربى ، بدون تاريخ ص ١١ .

(٢) الأورناؤد أو الأورناؤط : هم الرقيق البيض ، أو الرقيق الأبيض عرف هذا العنصر الحياة العسكرية التقليدية فى ظل النظام العثمانى .
أنظر ابراهيم شحاته حسن ، مصر والسودان ، الاسكندرية : منشأة المعارف ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص ٧٨ .

اعدائهم [١] .

ولهذه الأسباب كان لابد لمحمدعلى أن يتخلص من هـؤلاء الجنود غير المطيعين وذلك بارسالهم لفتح السودان لتحقيق أحد أمرين امابانتصارهم وفتحهم السودان أو الفتك بهم ، وكلا الهدفين يسعى اليهما محمد على ، وذلك اما بموت البعض منهم أثناء القتال ، أو موت البعض الاخر نتيجة لعدم ملائمة الجو لهم وتعرضهم للأمراض والأوبئة ، أو بقاء بعضهم فى السودان والاستيطان فيه وترك العمل فى جيش محمد على والتكيف مع بيئة السودان وأجوائه ـ وقد حدث هذا بالفعل ، مما أضاف الى السودان عناصر جديدة من السكان .

وقبل ارسال الأورناؤد الى السودان ، سبق أن ارسل محمدعلى منهم جيشا لقتال ملك الدولة السعودية الأولى فى الجزيرة العربية ، كما أرسل منهم فرقا أخرى متعددة فى شكل حملات ضد بكوات المماليك [٢] .

ومن الأسباب التى دفعت محمدعلى لضم السودان ، كانت رغبته فى القضاء على المماليك ورغم أنه قتل معظمهم فى مذبحة القلعة ١٢٢٧هـ/ ١٨١١م الا أن عددا منهم فرّ الى صعيد مصر جنوبا حيث أرسل اليهم محمد على ابنه ابراهيم باشا الذى قضى على عدد كبير منهم ، مما أجبر القلة الباقية الى مغادرة الصعيد الى السودان جنوبا ، لذا كان واجبا فى اعتقاد محمد على أن يتعقبهم .

ومن المرجح أن محمدعلى كان يخشى انتقام المماليك مهما

---

(١) . حسن احمد ابراهيم ، محمدعلى فى السودان ، مرجع سابق ص ٢٩ .

(٢) حسن احمد ابراهيم ، المرجع نفسه ص. ٣

كانت قلة عدد الهاربين منهم ، فهو فيما يبدو ينظر الى أنه وحده (أى محمد على) استطاع أن يمتلك مصر ويكون له جيشا كبيرا يستطيع أن ينفذ به أهدافه التوسعية ولكن رغم ذلك فان الثلاثمائة من المماليك الذين هربوا الى السودان [1] قد يكونوا قادرين على ابتلاع القبائل والسلطنات الصغيرة وتكوين دولة فى شمال السودان ، بل قد يكونون قوة من الرقيق تنافس محمدعلى فى سلطته وتكبح جماح طموحاته التوسعية وبذا يكونون مصدر خطر عليهوعلى مصر ، كما اشتهر السودان أيضا بين حكام مصر منذ أقدم العصور بأن أراضيه غنية بالذهب ،وكان محمدعلى من أكثر الناس حاجة الى ذلك الذهب حتى يستطيع أن ينفقه على جيشه الكبير الذى يود بناءه ،وقد سمع محمدعلى أن جنوب السودان رماله الذهب وأن فيه من الخيرات مالو استغل لساعد فى ايجاد المال اللازم لما يريده من اصلاح ومن تأسيس دولة قوية ذات عزة ومنعة [2] ولن يكون ذلك الذهب السودانى مصدر غنى للخزينة المصرية فحسب ولكن سيمكن الباشا من تطوير البلاد المصرية زراعيا وعسكريا وصناعيا ، لذا فان محمد على كان الأجدر بالاستحواذ على هذه الكنوز لأنه باعث نهضة وتطور بلاد وادى النيل .

بامتداد ممتلكات والى مصر الى السودان سيصبح له ميدان متسع للتقهقر متى استدعى الأمر ، وذلك اذا حدث أن هاجمته

---

(١) نعوم شقير ، جغرافيه وتاريخ السودان ، بيروت : دار الثقافة ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢ ، ص ٤٢٧ .

(٢) . مكى شبيكه ، السودان عبر القرون ، دار الثقافه ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٦٥ ، ص ٩٣ ، انظر ايضا ضرار ، تاريخ السودان الحديث ، ص ٢٢ ، مرجع سابق .

احدى الدول الأوروبية المستعمرة سواء أكانت تلك الدولة فرنسا أم انجلترا ، فانه سيجد أرضا واسعة ينسحب اليها ويعد فيها جيشا لملاقاة أى اعتداء خارجي غير أن خط التقهقر لابد وأن يكون مأمون الجانب وأن يكون الساكنون فيه على مودة مع الوالى [١] لذا كان لزاما لمحمد على ضم السودان الى مصر لبسط الأمن فى ربوعه ، وجعله عمقا استراتيجيا لمصر ولكي يضمن من خلال ذلك خط الرجعة والا فما سر متابعة فلول المماليك الهاربين الى السودان ، اذ أن مذبحة القلعة وحدها كافية لأن تكون درسا لا داعى لأن يعقبها أى اجراء آخر.

ولاحظ محمدعلى أن مصر تعتمد فى حياتها اعتمادا كليا على مياه النيل وأنه هو السبيل الوحيد لرى أراضيها الزراعية ، لذا كان يهمه التحكم فى وادى النيل بما فى ذلك منابعه التى لم تكن معروفه بعد [٢] .

وكان من شأن الاحتفاظ بالسودان أن يتمكن محمدعلى من تلافى اخطار تحويل مجرى النيل ومنع مياهه لا عن مصر فقط بل عن السودان نفسه كذلك [٣] .

وكانت نظرة محمد على لمسألة التحويل هذه نظرة مستقبلية فقد ظل التهديد بتحويل مجرى النيل وقطع مياهه عن مصر باقيا طوال العصور كلها وخلال القرن التاسع عشر ، بل ان هناك كثيرين

---

(١) ضرار ، تاريخ السودان ص ٢٢ مرجع سابق .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣ ، ص١٢ .

اعتقدوا حتى عهد قريب أن تحويل مجرى النهر عمليه ممكنة[١] ويبدو أن صاحب هذا الرأى يشير الى الخلاف المصرى السودانى حول مياه النيل فى بداية عهد كل من عبد الناصر وعبد الله خليل رئيس وزراء السودان الأسبق "١٣٧٤-١٣٧٥" / "١٩٥٧-١٩٥٨" والذى هدد بتحويل مجرى النيل ،وكانت تلك احدى النتائج المباشرة لنزاع الحدود بين مصر والسودان ،والذى عرف بمشكلة " حلايب"[٢] .

كما أن بعض المؤرخين ذكروا بأن من ضمن الأسباب التى أدت بمحمد على الى فتح السودان هو انتشار الفوضى والفساد فى ربوع السودان فى أواخر عهد دولة القونج/إذ لجأ بعض الزعماء السودانيين الى محمدعلى طالبين منه مساعدتهم لاصلاح أحوال بلادهم والقضاء على الفتن. وقد أعطى الكاتب رأفت غنيمى الشيخ مثالاً لذلك بقوله :
" كاستنجاد بعض زعماء القبائل السودانية بمحمدعلى أثناء التنافس على الزعامة ،فاستنجد ملك بربر بالباشا عام ١٨١٣ ضد مناوئيه فى السلطة ، وكذلك حضر الى القاهرة عام ١٨٢٠ " أبو مدين" من أقارب سلطان دارفور يستنجد بالمصريين ضد محمد الفضل الذى اغتصب السلطة من أسرته[٣] .

وذكر البعض أنه " من المؤكد أن بعض الزعماء السودانيين ذهبوا لمصر وطلبوا من محمدعلى أن يعد جيشا لفتح السودان من هؤلاء: ادريس ود ناصر من البيت السنارى ونصر الدين ملك الميرفاب ،وبشير ود عقيد[٤] أحد زعماء الجعليين وغيرهم ،الا أن هؤلاء الزعماء ،لم يستنجدوا

---

(١) محمد فؤاد شكرى ،مصر والسودان ص١١ ،مرجع سابق .

(٢) محمد أحمد محجوب ،الديمقراطيه فى الميزان ،بيروت: دار النهار للطباعة والنشر الطبعة الاولى ١٣٩٣ / ١٩٧٣ ،ص١٧٩ ، ١٨٠ .

(٣) رأفت غنيمى الشيخ ،مصر والسودان فى العلاقات الدوليه ، القاهرة : عالم الكتب ،١٣٩٩هـ-١٩٧٩م ،ص:

(٤) كلمة (ولد) تنطق (ود) فى اللهجة السودانية .

بمحمد على لتحقيق مصالح البلاد العليا وانقاذها من الفوضى وانما فعلوا ذلك لتحقيق مطامع وأغراض شخصية ، فبشير ود عقيد مثلا هرب الى القاهرة بعد أن ضيق عليه سلطان سنار الخناق وأرسل رسلا خلفه على اثر وشياية من الملك نمر ليتعقبوه ويقتلوه . ونصر الدين غادر بلاده للاستنجاد بعاهل مصر ضد منافسه فى الحكم على ود تمساح وطميل بن الزبير ذهب الى مصر متلمسا مددا من الجند والعتاد ليحارب أعداءه المماليك ،كما طلب ود هاشم معونة الباشا ضد أعدائه فى كردفان وهكذا فيما أن هؤلاء الزعماء ذهبوا الى مصر مستنجدين بمحمد على لتحقيق مآرب شخصية ، فهم لم يمثلوا الا أنفسهم ،ولذا لا تقبل الزعم القائل بأن فتح السودان تم بناء على رغبة أهله" (١)

اضافة الى ماسبق من أسباب دفعت محمدعلى لضم السودان،فان هنالك من ذكر بأن بريطانيا نصحت محمد على بضم السودان ،وقد سافر قنصلها الى لندن قبل ذلك لاجراء مشاورات فى هذا الخصوص ويبدو أنه حدث ذلك من جانب بريطانيا بشرط أن لا تتعدى أطماع محمد على الى مدخل البحر الأحمر الجنوبى من جهته الغربية. (٢)

---

(١) .. حسن أحمد ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

(٢) سليمان بن محمد الغنام ،قراءةجديدة لسياسة محمدعلى باشا التوسعية ،جدة : تهامة للطباعة والنشر ،الطبعة الأولى ، ١٤٠٠/١٩٨٠ ، ص ٤٩ .

٢) الوضع السياسي والاجتماعي في السودان قبل ضمه الى الحكم التركي

(أ) سلطنة سنار : (الفونج)

عرفت في التاريخ باسم سلطنة الفونج أو سلطنة سنار كما عرفت أيضا بالسلطنة الزرقاء(١) ، واختلفت الآراء حول أصل حكام الفونج .

فمنهم من ذهب الى انهم من عمان ، ومنهم من قال أنهم جاءوا من بلاد برنو في وسط أفريقيا ، (٢) ومنهم من ذكر بأن أصلهم من قبيلة الشلك بجنوب السودان (٣) ، لكن المعروف أنهم كانوا قوم يدينون بالاسلام ويتحدثون اللغة العربية ويتمسكون بالعادات والتقاليد والأعراف التي كانت سائدة في الجزيرة العربية وكان يحكم السودان الشمالي قبل قيام دولة الفونج ثلاث ممالك : هي مملكة "المقرة" في الشمال وعاصمتها دنقلا ، ومملكة "علوة" على النيل الأزرق وعاصمتها سوبا ، ومملكة "البجة" في شرقي السودان ومقر ملكها في هجر(٤)

وبالرغم من أن الهجرات العربية الى السودان قد بدأت منذ زمن بعيد الا أنها زادت بشكل ملحوظ بعد زوال دولة "المقرة" وكانت تعرف باسم دولة النوبه عقب مصرع الملك المسيحي داود في عهد الظاهر بيبرس (٦٨٢هـ/١٢٧٦م) ، أما الدولة المسيحية الأخرى في

---

(١) يطلق في السودان كلمة أزرق لمن كان لونه أسمر ، وكلمة أحمر لمن كان لونه أبيض ومن هنا عرفت السلطنة في سنار بالسلطنة الزرقاء .

(٢) AJ. Arkell "More about Fung Origins"

(٣) جيمس بروز (١٧٣٠ - ١٧٩٤) والذى زار سنار سنة ١٧٧٢ .

(٤) ضرار صالح ضرار ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

وسط السودان وهى دولة "علوه" ، فانها لم تلبث أن أخذ العرب يطبقون عليها من كل جانب.

تم تحالف الفونج بقيادة زعيمهم "عماره دونقس" مع عرب القواسمه بزعامة "عبد الله جمّاع" ضد دولة علوه وحاصروا عاصمتها سوبا وخربوها وتم لهم النصر، حتى صار خراب سوبا مضرب الأمثال في السودان حتى الآن ونشأت دولة اسلامية عربية جديدة على رأسها السلطان عماره رونقس، وعبد الله جمّاع الذى أصبح وزيره ويليه فى الأهمية[١] وبذلك تم الاتفاق على أن يكون السلاطين من الفونج والوزراء من العبدلاب[٢] وكان ذلك فى سنة ٩٢٠هـ/١٥٠٤م .

اتسعت رقعة سلطنة الفونج وأصبحت حدودها تمتد من حدود الحبشة حاليا شرقا الى النيل الابيض غربا ومن الشلال الثالث شمالا الى جبال فازوغلى جنوبا ، وكان الحد بين مملكة سنار ومشيخة "قرّى"[٣] التى سيطر عليها العبدلاب هو مدينة "أربجى" قرب المسلمية التى قيل أنها اختطت قبل سنار بثلاثين سنة ، وقد اختطها رجل يدعى "حجازى" وكانت المناطق التى تمتد الى الجنوب من أربجى تابعة لملوك الفونج رأسا ، لا دخل لمشايخ قرى فيه ، فى حين ان المناطق التى كانت تمتد شمالا

---

(١) ضرار : مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٢) العبدلاب : نسبه الى عبد الله جماع زعيم القواسمة .

(٣) قرى : هى عاصمه العبدلاب ، وتقع فى الطرف الجنوبى من خانق السبلوقة على الضفة الشرقية لنهر النيل ، انظر محمد عوض محمد ، السودان الشمالى ، سكانه وقبائله ، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٦/١٩٥٦ ، ص ٢٥٢ .

الى الشلال الثالث تابعة لادارة مشيخة قرى تحت سيادة ملوك الفونج .

وقد كانت المملكة مقسمةالى عدة ممالك ومشيخات تضم عناصر من النوبة ، والعرب والحضر والبادية ،وكان كل ملك أو شيخ يدفع الجزيه لملك سنار، الا اذا كان يتمتع بنوع من الاستقلال [1] ، أما البلاد الواقعة بين الشلال الثالث والشلال الأول فقدكانت بيد الكشاف [2] والأتراك .

وكانت مملكة الفونج محاولة لخلق ادارة موحدة فى البلاد ، ولم تكون حكومة بالمعنى الحديث، ولكنها كانت حكومة اقطاعية ،

---

(١) نعوم شقير، جغرافية وتاريخ السودان ، بيروت ،الطبعةالثانية ١٣٨٧/١٩٦٧ ص ٣٨٧ .

(٢) الكشاف : هم حكام شبه مستقلين يدينون بالولاء والطاعة للسيادة العثمانية فى مصر ويرسلون لها الجزية ،وقد بدأ كيانهم يظهر عندما أرسل الاتراك أحد القادة ويدعى "حسن قوسى" فى سرية جند من البوسنة ٩٣٦هـ/١٥٢٠م لمناصرة قبيلة الغربية بجنوب مصر ـ قبيلة الغربية كانت من القبائل الموالية للاتراك ـ ضد قبيلة الجوابرة ،وقد تغلب حسن قوسى على الجوابرة ،وأصبح حاكما على تلك المنطقة وتولى من بعده ذريته وعرفوا بالكشاف الغز وجعلوا عاصمتهم الدر ،أنظر مكى شبيكة ،السودان عبر القرون ،بيروت : دار الثقافة ،الطبعة الثالثة ،بدون تاريخ ،ص : ٦١ .

ـ الكشاف الغز ،هم قوم من عشائر الغز التركية ، وهذه العشائر من قبيلة (قنق) التركمانية وهى مكونة من ثلاث وعشرين عشيرة عرفت فى مجموعها بالأغوز ثم خففت الكلمة الى الغز ، انظر د . عبداللطيف عبدالله بن دهيش،قيام الدولة العثمانية مكة المكرمة ، مطبعة النهضة ،الطبعة الاولى ١٤٠٩/١٩٨٩ ص ٧ .

فللسلطان الأرض وللزعماء الحكم على قبائلهم ، وكانت أهم الصعوبات التي يواجه السلاطين هى اتساع البلاد وصعوبة المواصلات، وكان سلاطين الفونج لا يطلبون من زعماء القبائل ـ الذين يتمتعون بسلطات واسعة على أقاليمهم ـ غير الجزية والخضوع الاسمى لهم (١) .

وفى ظل سلطنة الفونج انتعشت التجارة ،وظل الاتصال بطريق القوافل الى مصر وبواسطة سواكن على البحر الاحمر مستمرا ومن المعروف أن الاتصال بين مصر والسودان قديم موغل فى القدم وذلك منذ عهد الفراعنة ، وقد عرف ملوك سنار ومشايخ القبائل ضرورة هذا المنفذ لهم.

لذلك اهتموا به واتخذوا كل الوسائل لسلامة المسافرين بأمتعتهم وبضائعهم (٢) ، ولم تكن للسلطنة الزرقاء عملتها المحلية بل كانت تستعمل الريال النمساوى (٣) .

وقد دخلت السلطنة الفونجية فى حرب مع الحبشة نتيجة خلافات حدودية وتجارية وخشية سلاطين الفونج من التنصير، حيث كانت البعثات الفرنسية اليسوعية " الجزويت" تعبر الأراضى السودانية الى الحبشة بعد نزولها فى سواكن ، فقام السودانيون بقتل رجال البعثة الفرنسية وقضوا عليها فى ١١٢١هـ/نوفمبر ١٧٠٥م ونتيجة لهذا قام الاحباش بتسيير حملة ضد الفونج انتصر فيها الأحباش أول الأمر

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ص ١٥.

(٢) . مكى شبيكه، تاريخ شعوب وادى النيل ،بيروت : دار الثقافه الطبعة الاولى ١٣٨٥/١٩٦٥، ص ٣٢٠.

(٣) ضرار ، مرجع سابق ص ١٦.

×× الريال النمساوي كان التعامل به ليس في السودان فحسب بل في اقطار افريقية كثيرة وحتى في الجزيرة العربية . وكان انتشار تداوله يرجع الى ان نسبة الفضة فيه كانت عالية . مما يجعل قيمته محفوظة .

الا أن الجيوش السودانية مالبثت أن هزمت الأحباش هزيمة ساحقة ١١٦٠/١٧٤٤ [١] ، وقد أتخذ المنصرون الفرنسيون السودان طريقا لهم الى الحبشة بدلا عن النزول فى مصوع [٢] ،وتلك محاولة منهم لبداية نشاطهم التنصيرى فى السودان ،فان لم يجدوا معارضة من جانب سلطنة الفونج استمروا فى نشاطهم، والا واصلوا سيرهم نحو الحبشة .

ومن أبرز الظواهر فى هذه السلطنة دخول التعليم عن طريق الفقهاء الذين قدموا من الحجاز ومصر والاندلس وغيرها ، وهؤلاء الفقهاء هم الذين ساعدوا كثيرا على نشر الدين الاسلامى ،وكان سلاطين الفونج يجلون الفقهاء الذين تبوأوا مكانة خاصة فى الدولة [٣] .

ومعظم العلماء والفقهاء الذين تقاطروا الى السودان تمركزوا فى دولة الشيخ عجيب المانجلك [٤] شيخ مشايخ العبدلاب .

الا أن اتساع رقعة سلطنة الفونج جعل سلاطينها غير قادرين على بسط نفوذهم على الأقاليم وما بها من قبائل والتى تخضع لهم تارة وتتمرد تارة أخرى ، كما أن العلاقة بين الفونج والعبدلاب أيضا كان يسودها عدم التفاهم أحيانا ، بل ان العاصمة سنار نفسها كانت مسرحا لحوادث دامية اذ كثرت فيها الاغتيالات السياسية ، فكان الوزراء يدبرون المؤمرات ضد السلاطين ، كما أن الوزراء أنفسهم كانوا يقتلون بعضهم بعضا .

---

(١) ضرار ،مرجع سابق ص ١٦ .

(٢) شبيكه تاريخ شعوب وادى النيل ،مرجع سابق،ص ٣٢٠ .

(٣) ضرار ،مرجع سابق ،ص ١٦ .

(٤) شبيكه ،تاريخ شعوب وادى النيل ،مرجع سابق، ص ٣٢٠

ثم ان هذه السلطنة قد دخلت فى حرب ضد قبيلة المسبعات التى حكمت كردفان فى ظل حكم ذاتى مع الاعتراف بسيادة اسمية لسلطان دارفور ،وتمكن الفونج من هزيمتهم وظل قائد الجيش محمد أبو لكيلك حاكما فى كردفان مدة خمسة عشرة سنة بعدها رجع وخلع السلطان بادى أبو شلوخ فى سنار وكان ذلك أمرا طبيعيا نتيجة لضعفه واسرافه فى اللهو وارتكاب المظالم واهانة أهل العلم والصلاح وطلب الأموال من عائلات كبار الفونج الذين كانوا فى حملة كردفان (١)

ومن أبرز المظاهر أيضا فى سلطنة الفونج هو فقدان الشعور بالوطنية السودانية فقدانا تاما ، فان الفونج فشلوا فى خلق مثل هذا الشعور فشلا ذريعا بالرغم من أن الفرص كانت مواتيه لهم أثناء حروبهم المتكررة مع جارتهم الحبشة ، كما أنهم أخفقوا فى ايجاد جيش وطنى ووضع ميزانية موحدة للدولة ، كما اهملت المناطق النائية عن سنار ولم تكن تدعى القبائل للاشتراك فى حروب السلطنة ضد أعدائها ، كما أن عدم وجود خزينة عامة ،جعل من غير الممكن أن تنفق الدولة على مرافق الحياة المختلفة.(٢)

وبذا أضحت بدايات القرن التاسع عشر بمثابة بداية لأفول شمس سلطنة الفونج الضعيفة والمتصارع عليها من قبل أبنائها على السلطة ، ليفتح الباب أمام الطامعين ولم تكن الأطماع هذه المرة من الشرق حيث الاحباش والذين اصبحوا أعداء تقليديين لحكومات السودان بل جاءت من الشمال حيث يحكم الباشا والى مصر صاحب أكبر قوة فى أفريقيا فى ذلك الوقت .

---

(١) . شبيكه ،تاريخ شعوب وادى النيل ،مرجع سابق ،ص٣٢٤ .

(٢) ضرار، مرجع سابق ،ص ١٩ .

(ب) سلطنة الفور :

يذكر أهل البلاد أن " الداجو " [١] هم أول من أسسوا دولة في المنطقة المعروفة الآن بدار فور ، ثم تلاهم " التنجور" [٢] ، ثم "الفور" ومن هذا الاسم الاخير جاء اسم دار فور [٣] .

وهذه السلطنة في صورتها وهيئتها الاسلامية ترجع في الأصل الى العرب الذين وفدوا الى السودان الغربي قادمين من شمال أفريقيا، من مراكش وتونس ومصر ، فقد تغلبوا على القبائل التي تقطن الصحراء ثم نشروا نفوذهم عليها وانشأوا لهم كيانات ، ومن ضمن أولئك من تمكن

---

(١) الداجو : من أقدم عناصر السكان بدار فور ، مواطنهم شرق وجنوب شرق جبل مره ، وتعيش جماعات من الداجو في دار صليح" واداى" وجماعات أخرى في دار مسيرية في جنوب غرب كردفان . انظر محمد بن عمر التونسي ، تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، القاهرة : تحقيق : د . خليل محمود عساكر ، و د . مصطفى محمد مسعد ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٣٨٥ / ١٩٦٥ ، الطبعة الأولى ، ص ١٣٧

(٢) اختلفت الآراء في أصل قبيلة التنجور ، فقيل أنهم من النوبة وقيل انهم من بني هلال ، وأنهم هاجروا الى بلاد النوبة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين واشتهروا هناك باسم التنجور ، وأسسوا دولة في شمال دار فور ، وعاصروا دولة الداجو في جنوب جبل مره ثم بسط التنجور سلطانهم على " واداى" غربي دار فور ، فأدى ذلك الى اضعاف سلطانهم في دار فور خاصة ، ولذا انتزعته منهم اسره من الفور تسمى "كيرا" وأسست سلطنة دار فور ، انظر التونسي ، المصدر نفسه والصفحة .

(٣) التونسي : المصدر نفسه والصفحة .

من انشاء دولة جديده فى " دارفور " [١] ، وقد وجدت فى شمال جبال " مره " بعض آثار هذه الدوله [٢] .

ويجمع المؤرخون على أن أصل سلطنة الفور المسلمة ، هو أصل عربى ، وهناك رواية تقليدية تحكى أصل السلطنة وهى أن شقيقين من الأمراء الأمويين هاجرا بعد زوال امارتهم فى الأندلس وهما أحمد وعلى وحدث أن نشب بينهما خلاف أدى بعلى الى الحاق الضرر بأخيه بأن عقره ـ وعرف فيما بعد (بأحمد المعقور) ـ وسار على وترك أخاه ينزف ومعه بعض خدمه الذين عالجوه وساروا به تاركين بلاد تونس ، ويبدو أنهم وصلوا اليها قادمين من الأندلس بعد القضاء على الحكم الاسلامى هناك الى أن وصلوا منطقة " جبال مره " ،" دار الفور" وكان عليهم حاكم منهم يدعى " شاو دورشيت " .

وقد أعجب الحاكم بسلوك " احمد المعقور" وسعة أفقه ونزاهته فجعله من خاصة رجال دولته وزوجه ابنته ، التى أنجبت له ولدا سمى بسليمان بن أحمد المعقور، والذى أصبح سلطانا بعد وفاة جده السلطان وأصبح بذلك أول حاكم عربى يعتلى عرش سلطنة الفور، وعرف " بسليمان سولونج " [٣] وعرف أيضا بالسلطان سليمان الأول :

---

(١) هكذا كتبت فى النص وتنطق هكذا فى السودان الحالى ، ولكنها فى الأصل دار الفور أوهى منطقة الفور بحكم أنها القبيلة التى لها الغلبة والسلطان فى تلك المنطقة ، بل كانت لكل قبيلة (دار) أو مكان تستقر فيه وتعرف بها حتى فى جنوب السودان ، أهل الشمال يطلقون (دار الدينكا) حيث المكان الذى يكثر ويستقر فيه معظم أفراد قبيلة الدينكا .

(٢) . شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ج ١ ، القاهره : ملتزم الطبع والنشر مكتبة الانجلو المصرية ، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م .

(٣) سولونج : تعنى كلمة " عربى" فى لغة الفور .

السلطان سليمان الأول "١٠٤٣-١٠٦٣"هـ/"١٦٤٠-١٦٦٠م" :

وهو رأس سلاطين الفور ، قيل أنه لما تولى السلطنة لم يكن في جبل مره مساجد للعبادة فبنى المساجد وأقام صلاة الجمعة والجماعة ثم شرع في ضم كلمة المسلمين واستعان بعرب البادية المنتشرين في البلاد فأخضع ملوك المناطق الأخرى المحيطة بجبل مره الى سلطانه وعلمهم دين الاسلام وأخضع ملوك بعض المناطق التي تستطيع قوته أن تصلها في جنوب دار فور، في حين ترك المناطق التي تبعد عن جبل مره فبقوا على الوثنية . فأصبحت دار فور كلها سلطنة واحدة لمن يتولاها من ذرية السلطان سليمان الى يوم انقضائها .

وكان جملة الذين خضعوا للسلطان سليمان وبقوا الى عهد سقوط السلطنة سبعا وعشرين ملكا (١) ، ستة مجوس(هم عبدة الأوثان) والباقون مسلمون (٢) .

ومن أهم سلاطين الفور بعد السلطان سليمان الأول هو :

---

(١) لفظ ملك في سلطنة دار فور يطلق على شيخ القبيلة فصاعدا وهو لفظ استعاره الفور من القبائل العربيه التي هاجرت الى دار فور (انظر هامش رقم (٤) التونسي مصدر سابق ص ٥٤ .

(٢) أما سلاطين المجوس فهم سلاطين كاره ودنقو وفنقرو وبنه وبايه وشالا وكلهم في بلاد فرتيت الى الجنوب الغربي من دار فور، واما ملوك المسلمين فهم : البرقد والتنجور وكبقه والميمه والمسبعات في الشرق من جبل مره، والمراريت والعوره وسيمار والمساليت والقمر وتامة والجيلا وبين ، وأب درق وجوجه وأسمور في الغرب والشمال الغربي وزغاوه وكبّا والميدوب في الشمال والشمال الشرقي ، والبيقو والداجو ورنقا في الجنوب والجنوب الغربي .
انظر شقير ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .

السلطان أحمد بكر :

حكم هذا السلطان بلاد دار فور أربعين عاما من ١٦٨٢م الى ١٧٢٢م وأحبته رعيته لما اشتهر به من الحزم واليه يرجع الفضل في تعميم الاسلام في بلاد دار فور، واعتنى هذا السلطان ببناء المدارس والمساجد واستقدم عددا من المشايخ من مختلف البلاد ومنحهم أراضي واعفاهم من الضرائب، وجعل هذا السلطان عاصمته في "قرلي" واحيانا في جبال "مره" واحيانا اخرى في "أبوعسل" وأخضع جماعات "القِمِر" لسلطانه. واستعان السلطان أحمد بكر بالمماليك في مصر لامداده بالأسلحة لدفع غارات أهل "وادّاي" (١).

السلطان تيراب (٢) : ١٧٣٧-١٧٧٠م

يقول عنه التونسي أنه سلطان يكره الحرب ويؤثر السلامة والأمان وأنه قد أقام في بلده آمرا ناهيا سلطانا ثلاثا وثلاثين سنة وأنه كان سلطانا ضعيفا وانصرافيا، فكان يحب الخلاعة والانبساط وأنه كان يطلق يد أولاده في الرعية يعيثون في الأرض فسادا وكان له ماينوف عن ثلاثين

---

(١) هامش تحقيق تشحيذ الأذهان، ص ٧١.

(٢) معنى تيراب بلغتهم" أي لغة الفور" الحبوب التي تزرع في التراب والتي يعبر عنها أهل مصر بالتقاوي وأهل المغرب بالزريعة، والغريب ان التونسي ذكر بانهم لقبوه بذلك لأنه كان رجلا كريما حليما، واسع الصدر جيد التدبير شفوقا على المساكين وكما سمي "تيراب أرض الشام" لأن الفور يسمعون أن ارض الشام مخصبة وأنها من ارض الجنة، سيما وفيها المحشر، وهي عش الأنبياء، فلقبوه بهذا اللقب لصدور الأفعال الجميلة منه.

انظر التونسي، ص ٧٤ ولكن هذه الصفات تتناقض مع ماسبق وان ذكره التونسي عن أعمال وعدم عدل وتصرفات السلطان تيراب السيئة

ولدا ذكرا غير الاناث، وكانت الرعية ترفع شكايتهم لأبيهم ، فكان لا ينصفهم ولا يقبل منهم شكاية.

وكان قد ولّى المناصب الجليلة لأقارب أزواجه ، فكان جميع وزرائه أقارب زوجاته (١) .

وقد توسعت حدود سلطنة الفور في عهد السلطان تيراب فبلغت النيل شرقا بأن ضم اليه اقليم كردفان بعد أن حارب أسرة المسبعات الحاكمة في كردفان وهي الشق الآخر من الأسرة الحاكمة في دار فور والتي يقول عنها التونسي " ان السلطان سلونج المدعو سليمان الجد الأول لسلاطين الفور ، كان له أخ يقال له : المسبع : فاقتسم هو وأخوه الاقليمين ،فأخذ السلطان سليمان اقليم دار فور وأخذ المسبع اقليم كردفال" (٢) وقد حارب السلطان تيراب،هاشم المسبعاوي الوالي على كردفان من أولاد مسبع والذي طمع في الاستيلاء على دار فور،وادى ذلك الى نهاية سلطة المسبعات وكانت سلطنة دار فور حتى عهد السلطان تيراب تحدها سلطنة وادای غربا ،وبحر الغزال جنوبا (٣) ، وبئر النطرون شمالا (٤) .

وقد بلغت حدودها شرقا عند النيل الأبيض وذلك عند تعقبه

---

(١) التونسي ، مصدر سابق ص ٧٥ .

(٢) وتنطق أيضا كردفان .

(٣) شوقي الجمل ،تاريخ سودان وادى النيل ، جـ١ ، مرجع سابق ، ص ٣١٦ .

(٤) يوسف فضل حسن ـ مقدمة في تاريخ الممالك الاسلاميه في السودان الشرقي / مصر ، مطبعة الجبلاوي الناشر جامعة الدول العربية ـ معهد البحوث والدراسات العربية ،١٩٧١/١٣٩١ ، ص ٩١ .

للسلطان هاشم المسبعاوى والذى هزمه السلطان تيراب وفرّ بعد هزيمته ولجأ الى سلطان الفونج ، وبينما كان السلطان فى تعقبه وجد نفسه فى ديار العبدلاب بالقرب من أم درمان ولما منعه العبدلاب عن ارتياد النهر حاربهم وهزمهم شر هزيمة وغنم نحاسهم المسمى بالمنصورة ، وهو من شارات الملك عندهم ولما سئم أصحابه من طول أمد الحرب قرر السلطان العودة الى بلاده ،ومات فى " بارا " ،قيل انه مات مسموما ،ونقل جثمانه محنطا الى "طره " حيث دفن فى مرقد آبائه[1] ،وبهذا تكون سلطنة الفور قد بلغت اتساعا لم يعهده سلاطينها السابقون .

السلطان عبد الرحمن الملقب بالرشيد :

تولى السلطة بعد صراع عنيف مع اسحق الخليفة ابن السلطان تيراب والذى تميز بالتسلط والهيمنه والظلم ،وكان السلطان عبد الرحمن على عكس اسحاق الخليفه حيث كان تقيا ،ورعا وزاهدا وكان يصوم الخميس والاثنين على الدوام ،ويصوم رجب وشعبان ورمضان وكان يحب أهل العلم ويكرمهم[2] وأنه عندما تولى عرش السلطنة ضرب عرض الحائط بكل العادات والتقاليد المتبعة فى تنصيب السلطان بحجة أنها لم

---

(١) د . يوسف فضل ،مرجع سابق ،ص ٩٢ .

(٢) التونسى : التشحيذ - مصدر سابق ص ١٠١ وقد شجع السلطان أيضا هجرة سكان وادى النيل من الجعليين والدناقلة الذين أصاب حياتهم بعض الفتور من جراء التدهور الذى أصاب مملكة الفونج فى أوخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ،واشتغل هوءلاء بنشر تعاليم الدين الاسلامى والعمل فى التجارة .
انظر أيضا يوسف فضل مرجع سابق ص ٩٤ .

ترد فى الكتاب ولا فى السنة .

وقد تمكن السلطان عبد الرحمن بسياسته وحنكته وضبطه لأمور دولته من توطيد أركانها فذاع صيته وانتشرت سمعته ، ولما ظهر عدل السلطان وحبه للعلماء وأهل الفضل والأشراف ، وفد عليه الأشراف والعلماء من جهات عديده [١]

وما ان استتب الأمر للسلطان عبد الرحمن الرشيد حتى انتقل الى " الفاشر" [٢] على " خور تندلتى" شمالى شرق جبل مره واتخذها حاضرة لمملكته فى سنة ١٧٩١/١٢٠٧ [٣]

وكان كل سلطان من سلاطين الفور يتخذ له فاشرا فى مكان غير فاشر سلفه تقريبا ، فبالنسبه للسلطان عبد الرحمن " كان الفاشر اذ ذاك بالمحل المسمى «قرلى» ، وكان فاشر السلطان تيراب بالريل [٤] ، وفاشر

---

(١) التونسى ، مصدر سابق ، ص ١١٦

(٢) الفاشر : هو مقر السلطان ، وكان يلطق هذا الأسم على مجلس السلطان ، ولما كان هذا المجلس يعقد فى الغالب فى ميدان واسع يقع أمام قصر السلطان ، فقد عرف الميدان كذلك باسم الفاشر ثم صار الاسم بعد ذلك يطلق على أى مكان يستقر فيه السلطان ، ثم عمم الاسم على العاصمة كلها .
انظر التونسى ، مصدر سابق ، ص ٦٤ ، وانظر ايضا يوسف فضل ، مرجع سابق ، ص ٩٣ .

(٣) يوسف فضل ، المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(٤) اسم جبل يقع شمال شرق مدينة نيالا ، باقليم جنوب دارفور انظر هامش التونسى ، ص

الخليفه بجديد راس الفيل[١] ، ثم انتقل السلطان عبد الرحمن بعد ذلك وجعل الفاشر فى المحل المسمى " تندلتى" وهو فاشر ابنه السلطان " محمد فضل" ، ولم يعهد للفور اقامه فى فاشر كاقامتهم فى فاشرهم هذا ، المسمى تندلتى"[٢] .

وفى عهد السلطان عبد الرحمن ازدادت صلة دار فور بالعالم الخارجى ازديادا ملحوظا ، فقد بعث السلطان عبد الرحمن بهديه من العاج والريش الى الخليفة العثمانى باسطمبول وشكره الخليفه بخطاب رقيق ولقبه بالرشيد ثم هنأ القائد الفرنسى نابليون بونابرت عند انتصاره على المماليك الذين كثيراً ماضايقوا قوافل دار فور التجارية عند وصولها لمصر[٣] .

ويحدثنا التونسى " أنه لما دخلت الفرانساويه مصر ، وهرب الغز عنها توجه الى دار فور منهم كاشف يسمى : زوانه كاشف ، قيل أنه من مماليك مراد بيك أو هو أحد كشاف الألفى ، ومعه اكثر من عشرة مماليك[٤] فأكرمه السلطان وأحسن استقباله ولكنه أظهر غدره فيما بعد فأمر السلطان بذبحه .

وزار البلاد الرحاله الانجليزى و . ج . براوان ١٧٩٣-١٧٩٦ ، وكان ذلك كله نتيجة اتساع نطاق التجارة[٥] التى ساعدت بلاد دار فور

---

(١) جديد راس الفيل : اسم يطلق الان على حلة وبئر يقعان شمال شرق مدينة نيالا وشرق بلدة منواشى ، انظر ، التونسى ، مصدر سابق ، ص ١١٤ .

(٢) التونسى ، المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(٣) يوسف فضل ، تاريخ الممالك ـ مرجع سابق ص ٩٥

(٤) التونسى ، مصدر سابق ، ص ١١٨ .

(٥) يوسف فضل ، مرجع سابق ، ص٩٥ .

مساعدة كبيرة فى اقامة علاقات مع العالم الخارجى وبرزت كدوله لهـا كيانها و قيادتها وسيادتها .

السلطان محمد الفضل :

بعد وفاة والده السلطان عبد الرحمن تولى السلطان محمد الفضل السلطة ،وكان صغيرا فى السن فجعل الشيخ محمد كُرّا [١] من نفسه وصيا على عرش السلطنة ،وكان السلطان محمد الفضل قد أجلّ مقام " الاب الشيخ " محمد كرّا وأعلى كلمته حتى صار لا تعلى على كلمته كلمة ،ولذلك كان خير وصى على عرش السلطنة بعد وفاة السلطان عبد الرحمن حيث أمر السلطان بالقراءة وطلب العلم لصغر سنه وعدم خبرته بالأمور [٢].

وكان محمد الفضل سلطانا فى عهد محمد على وقد أرسل اليه محمد على سنة ١٨٢٢ يدعوه للخضوع له فرد بكتاب طويل يرفض فيه ذلك [٣] .

وأهم حدث تم فى عهده أن قام باخضاع سلطنه (وادای) لسلطنة دار فور والزم سلطانها بدفع ضريبة سنوية لسلطان دار فور [٤] .

---

(١) نصب محمد كرا فى منصب "الاب الشيخ" ،وهو أجل المناصب هناك ، صاحبه مطلوق السيف له دولة كدولة السلطان ،وشارات كشارته ، انظر التونسى ـ مصدر سابق ص ١١٦ .

(٢) التونسى ، مصدر سابق ص ١٣١ .

(٣) شوقى الجمل ،تاريخ سودان وادى النيل ،ج ١ ،مرجع سابق ص ٣١٨ .

(٤) شوقى الجمل ،المرجع نفسه والصفحة نفسها .

ولكنه أخير صار أذنا صاغيةللوشايات والدسائس و التى من خلالها ساءت علاقته بوصى عرشه السابق محمد كرا حيث تطور سوء العلاقات بينهما الى حرب لقى فيه الأب الشيخ كرا حتفه (١) .

وتولى بعد السلطان محمد الفضل ابنه السلطان حسين بن محمد الفضل .

وكان آخر سلاطين الفور هو السلطان ابراهيم بن محمد حسين بن محمد الفضل الذى حاربه الزبير باشا وقضى على سلطنته نهائيا في معركة منواشى ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م الا أنه وبعد انقضاء دولة المهدية برز أمير من أمراء الفور وهو (على دينار) بن الأمير زكريا بن السلطان محمد الفضل الذى كتب الى السردار حاكم عام السودان العام بالطاعة وأنه يحكم البلاد على جزية يدفعها لحكومة السودان ،وأسس حكومة في دار فور على غرار سلطنة أجداده (٢) وقد انهيت هذه السلطنة ١٣٣٣هـ/١٩١٦م على يد قوات الحكومة الانجليزية وذلك نتيجة لاتصال الاتراك العثمانيين بالسلطان على دينار وتحريضهم اياه على مهاجمة الانجليز فى الخرطوم .

---

(١) التونسى ، مصدر سابق ،ص ١٣١ .

(٢) شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ،جـ ١ ،مرجع سابق ص ٣١٨ .

نظـــام الحكم فى سلطنـــة الفـــور :

فالسلطان هو رأس السلطنة وسلطته مطلقة لا ينازعة فيها أحـــد ، ويحدثنا التونسى بقوله " واعلم أن جميع البلاد التى فى دار فور مقسمه على أكابر الدولة ، فكل منهم فيها على قدر منصبه وحاله ، فأوسعهـــــم دارا (أباديما) و (التكنياوى) ، لأن كلا منهما تحت يده اثنا عشر ملكـــــا لكل منهم عمل مستقل ، ويسمون ذلك الملك شرتاى" (١) وكان هوءلاء الملـــوك يتولون سلطتهم باذن من السلطان وقد يرث الملك ابنه اذا مات ويدفـــع للسلطان جزية معينه .

والأرض ملك للسلطان لكنه يعطيها للمشايخ والأمراء (الملـوك) نظير الجزية السنوية والعشور ، ويعاون السلطان فى الحكم (الوزير) يعينه السلطان ويقيله متى شاء (٢) وللسلطان مجلس يستشيره فى مهام شئـــــون الدوله ، والسلطان يضع على رأسه كشميرا ويتلثم بشاش أبيض ، يضع علـــى رأسه منه طيات ، وعلى فمه وأنفه لثام منه ، وعلى جبينه أيضا ، بحيث لا يظهـر منه الا الاحداق" (٣) .

وهذه دلالة واضحة على مدى التأثير السياسى والاجتماعى لغرب أفريقيا على شعب وسلطنه دار فور حيث أن نظام الحكم أيضا مستمد مـــن

---

(١) التونسى ، مصدر سابق ، ص ١٥٠ ، أما " الشرتاى" فهو لقـــــب يطلق على حاكم الاقليم ، انظر التونسى ايضاص ٦٨ (هامش) .

(٢) شوقى الجمل تاريخ سودان وادى النيل ، ج ١ ، مرجع سابـــق ، ص ٣١٩ .

(٣) التونسى ، مصدر سابق ، ص ٢١٠ .

الغرب الأفريقي [1] .

وأن الاسلام هو دين الدولة الرسمي ، ومع انتشاره كان انتشار اللغة العربية " فكانت لغة الكتابة والدبلوماسية والتجارة" [2] ، وكانت السلطنة ملتزمة بارسال " صرة " ومحملا الى مكة المكرمة عن طريق مصر ، مساهمة منها في عمارة المسجد الحرام ، كدلالة على عمق الدين الاسلامي عند أهالي تلك البلاد وهي نتيجة مباشرة لمجهودات العلماء ، والفقهاء وتقاطر العناصر العربية والأمم الاسلامية من غرب أفريقيا على غرب السودان .

هذا ومما تجدر الاشارة اليها أن الشريعة الاسلامية هي الأساس والمصدر في القضاء وذلك بجانب العرف والعادات والتقاليد .

---

(١) الشاطر بصيلي عن الجليل ، تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢م ، ص ٣٧٢ .

(٢) يوسف فضل ، مرجع سابق ، ص ٩٨ .

(ج) مملكـــــة تقلـــــى :

يعتبر القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى عصـــــر ازدهار الاسلام والعروبة فى السودان فهو أكثر القرون التى شهد فيه السودان الهجرات العربية ونهاية الدولة المسيحية وقام على أنقاضهـــا الدولة الفونجية الاسلامية وازدهرت فيها سلطنة الفور الاسلامية أيضا .

كما شهد من ضمن تلك الممالك والسلطنات قيام مملكة تقلى ، فـــى اقليم كردفان من ناحية الجنوب فى "جبال النوبا" ومن اسم المنطقـــة يمكن ادراك الوضع الجغرافى ، حيث أنها منطقة جبلية ويسكنها عنصـــر النوبا ، وفى الغالب يكون لهم صلة بعنصر النوبة فى شمال السودان وذلك نسبة لأن الاسم تقريبا واحد ، والأمر الثانى أن لأهل جبال النوبـــا بعض الكلمات فى لهجتهم تتفق مع كلمات فى لهجة النوبة فى شمـــال السودان فى الشكل والمضمون . مما يجعل وجود صلة بين المجموعتـــين أمرا موءكدا . واذا ثبت ذلك ، فانه يعنى أن النوبة قد هاجروا مـــن الشمال الى الجنوب بفعل عوامل وظروف قد تكون سياسية أو اجتماعيـــة أو اقتصادية .

وعلى اثر اندفاع المجموعات العربية واستقرارها فى سهـــول الجزيرة وكردفان واتخذت مجموعات النوبا من جبال جنوب كردفان ملاذا لها وفى هذه الجبال اشتهرت هذه المجموعات باسم النوبا على استقلالها فى كثير من مظاهر ثقافتها ، ولكنها لم تنجح بسبب انعزالها فى قمم الجبـــال وسقوفها وتفرق كلمتها من فرض نفوذها على المجموعات العربيـة الـــتى انتشرت فى السهول وقد مكنت تلك الجبال أولئك النوبا من أن يتفادوا

الامتصاص والذوبان في خضم الثقافه الجديدة ، كما تسببت تلك العزلة في بقاء كثير من العادات والديانات الوثنية بين كثير من أهالي النوبا، وذلك رغم توغل بعض المؤثرات الاسلامية حتى يومنا هذا [١] .

ويرجع تأسيس مملكة تقلى الى هجرة رجل من الزهاد الجعليين ، وما قام به هذا الرجل من معروف للنوبا والنوباويين مثل ماقام به الغرباء العاقلون من دور في ثقافة ورقى الممالك الاسلامية الأخرى في كل من سلطنة الفونج وسلطنة دار فور ،ففي كل من المملكتين قد صادف أن تأثرتا بأحد الغرباء العاقلين في مجال الثقافة الاسلامية والعادات والتقاليد الحسنة ففي مطلع القرن العاشرالهجرى السادس عشر الميلادى ، ربما بعد مولد الفونج جاء الى تقلى أحد الفقهاء ويدعى محمد الجعلى قادما من ديار الجعليين ،ولم يلبث أن اجتذب قلوب السكان بورعه وطيب أخلاقه وأعجبوا بوعيه ورقيه ، وقد شمل تأثيره زعيم مملكة تقلى فقربه اليه وزوجه من ابنته التى أنجبت بعد ذلك ولدا سماه أبوه أبا جريدة [٢] .

وبعد وفاة جده الملك تولى أبو جريدة زمام الأمور في جبال تقلى ولكن سرعان ماضاعت أنساب حكام تقلى ، أحفاد محمد الجعلى اثر اختلاطهم بالنوبا وبقاياهم مازالت الى اليوم تعرف بالتقلاويين تمييزا لهم عن الجعليين والنوبا [٣] .

---

(١) يوسف فضل ، مرجع سابق ، ص ٩٩ ، ١٠٠

(٢) محمد عوض محمد ، مرجع سابق ، ص ٢٥٨ .
انظر أيضا يوسف فضل ، مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

(٣) انظر ، محمد المكى ابراهيم ، الفكر السودانى اصوله وتطوره ، ص ٤٠ .
الخرطوم ، وزارة الثقافة والاعلام ، مصلحة الثقافة ، دار النشر الثقافى
الطبعة الاولى ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .

وبتولى أبو جريدة مقاليد السلطة فى تلك المنطقة بدأ التمكين للدين الاسلامى والثقافة العربية ، ذلك لأن أبا جريدة والذين جاءوا من بعده من ملوك تقلى شجعوا العلماء والفقهاء على التوافد الى جبال النوبا لنشر الاسلام والعروبة وذلك باكرامهم ومنحهم الهبات والعطايا والاراضى الزراعية ،وقد أدى النشاط العلمى للعلماء والفقهاء الى رفع درجة وعى الأهالى ،وأدى ذلك بدوره الى الاستقرار وأدى أيضا الى اجتذاب مزيد من الجماعات العربية التى استطاعت التوغل فى مناطق فى جبال النوبا ومناطق غير مطروقة من قبل .

وان اهتمام ملوك تقلى بنشر الاسلام قد ساعدهم على التوسع فى المناطق المجاورة ،اذ لم يلبثوا ان بسطوا سيادتهم على كل المناطق المجاورة ، ولم تلبث هذه المملكة ان بلغت مساحتها من أبو جبل فى الشمال الى بلدة تلودى فى الجنوب(١) . ومن توكلم وتورجوك غربا حتى أم طلحة شرقا .(٢)

ويبدو أنه نسبة لاتساع المملكة وازدياد عدد رعاياها ونمو حركة تجارتها ، وبالتالى زيادة ثرواتها ، عندها شعر حكامها بالقوة التى دفعتهم الى الغرور فبدءوا يفتعلون المنازعات مع دولة الفونج مما ادى الى دخول الجانبين فى حرب ،وذلك عندما زحف السلطان بادى أبو دقن نحو جبال النوبا بجيشه وانتصر على ملك جبال تقلى وفرض عليه

---

(١) يوسف ،فضل ، مرجع سابق ، ص ١٠٤ .
وانظر ايضا محمد عوض محمد ، مرجع سابق ،ص ٢٥٩ .

(٢) نسيم مقار ، الاسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط، اولى، ١٤٠٥/١٩٨٥ .
ص ٢٦

أتاوة سنوية (١) ، كما تعرضت مملكة تقلى لاعتداءات عدة من سلطنةالمسبعات وسلطنة الفور ، وقد تميز اعتداءات الأخيرين بأنها كانت نتيجة للطمع وذلك عكس ماحدث من جانب الفونج تجاه النوبا ، والذى كان بمثابة رد على اعتداءات النوبا انفسهم.

هذا وعندما امتدت الادارة التركية المصرية الى كردفان حاولت بعد ذلك بسط نفوذها على جبال النوبا وذلك للتمكن من استغلال وتعدين الذهب الموجود هناك فى جبال شيبون ، ولهذا الغرض وغيره من الأغراض اصطدمت الادارة التركية المصرية بحكام مملكة تقلى فقد أرسلت تلك الادارة بعض الحملات العسكرية فى عهد حكمدارية خورشيد باشا ، وأحمد باشا " ابو ودان " لاخضاعهم ، ولكن فيما يبدوا أن تلك الحملات لم تخضع مملكة تقلى ، وقد ظلت مستقلة الى مابعد نهاية حكم محمد على بسنوات ،ولم يتم خضوعها للحكم التركى المصرى الا فى عهد الخديو اسماعيل (٢) .

وعند قيام الثورة المهدية سارع حكام جبال النوبا الى محمدأحمد المعروف بالمهدى وقام ملكهم بالذهاب اليه ومبايعته وذلك فى أوائل

---

(١) يوسف فضل ، مرجع سابق ،ص ١٠٥

(٢) المرجع نفسه والصفحة.

(٣) نسيم مقار، مرجع سابق ، ص٢٦ ،وايضا محمد عوض محمد مرجع سابق ص ٢٥١ .
-" خديو" هو لقب عزيز مصر ،والكلمة فارسية الأصل ومعناها السيد أو الملك أو الوزير ،انظر محمد أحمد محجوب مرجع سابق ، ص٢٥ ، انظر أيضا عون الشريف قاسم قاموس اللهجة العامية فى السودان ، القاهرة : المكتب المصرى الحديث، الطبعة الثانية ١٤٠٥/١٩٨٥، ص ٣٢٦.

عهد الثورة ، ولكن فيما بعد يبدو أن الخلاف قد دب بين ملوك تقلى والدولة المهدية .

وأخيرا فانه يجدر الاشادة بتلك الجهود المخلصة من جانب حكام مملكة تقلى فى نشر الدين الاسلامى والثقافة العربية ومساهمتهم الكبيرة فى تحول الاتجاه الوثنى لأهالى تلك المناطق بمختلف قبائلهم وأجناسهم نحو الاسلام و العروبة ودعمهم لهذا الهدف بتشجيع المهاجرين من السودان الأوسط وضفاف النيل على الاقامة والاستقرار فى مملكتهم وممارسة نشاطهم سواء فى المجال المادى مثل التجارة أو الزراعة مما يساعد هذه الحركة من جانب العرب والمسلمين على نشر اللغة العربية والتقاليد والعادات الاسلامية بين الأهالى فى جبال النوبا .

الباب الأول

الآثار السياسية

الفصل الأول

ظهور السودان كياناً سياسياً موحداً

حدود السودان قبل الفتح التركى :

ان السودان الحالى لم تكن لديه وحدة سياسية تاريخية قبل القرن التاسع عشر ، كما أنه لم تكن له حدود ثابته ومعروفة قبل هذا التاريخ [١] ، أى انه قبل الفتح التركى لم يكن السودان كيانا سياسيا واحدا ، بل كان عبارة عن دويلات أو سلطنات ، وكل سلطنة لها حدودها وأهلها ووضعها السياسى المميز ، فكانت مجرد جزء من السودان الكبير الذى يحد شرقا بساحل المحيط الهندى والبحر الأحمر وغربا بساحل المحيط الأطلسى وجنوبا بخط الاستواء وشمالا بالصحراء الكبرى .

ولكن اذا قبلنا أن تلك السلطنات فى مجموعها تعتبر سودانا فى ذلك الوقت فان حدودها تنتهى شمالا بجزيرة ساى شمالى وادى حلفا [٢] وتنتهى شرقا بجبال فازوغلى [٣] عند الحدود الحبشية الى سواكن،وغربا حتى حدود واداى وتضم حدود السودان منطقة سنار وما حولها .

---

(١) مختار عجوبه ، مشكلة جنوب السودان واثرها على مستقبل العلاقات العربية الافريقيه ـ مقال من مجلة المستقبل العربى ، العدد (٨٨) بتاريخ ٨/٦/١٩٨٦م.

(٢) عبد الله حسين ، السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م المطبعة الرحمانيه بمصر ص٩٢ جـ١ . أيضا أنظر عبد الرحمن الرافعى ـ عصر اسماعيل جـ١ / ط٣ / دار المعارف بمصر ١٤٠٢-١٩٨٢ م ، الجزء الاول .

(٣) ضرار : مرجع سابق ص ١٥.

لقد انتقلت السلطة الشرعية لولاية البلاد السودانية الى الادارة التركية المصرية فى ١٢٣٧هـ اليوم الثالث عشر من شهر يونيو عام ١٨٢١م وذلك بتنازل آخر ملوك سنار " بادى السادس" عن حق السيادة ، وقد شمل امتداد الادارة التركية جميع الأجزاء التى كانت فى حلف مع سنار، عدا المنطقة التى تكون مثلثا قاعدته حوض نهرى الدندر والرهد شرقى سنار، وآخر يمتد ضلعيه على خط يتجه شمالا بشرق ليتصل بالحدود الحبشية جنوبى سواكن ، أما الضلع الآخر فيمثله النيل الأبيض، ويرجع السبب فى ترك هذا المثلث الى الاعتقاد بأنه مرتبط بالحبشة فى نوع من العلاقات وقد بقى هذا الاعتقاد الخاطئ حتى أوائل ولاية خورشيد آغا (١) .

وبوصول اسماعيل(٢) باشا الى سنار والدفتر دار(٣) الى الأبيض

---

(١) الشاطر بصيلى عبد الجليل ، معالم تاريخ سودان وادى النيل ، الطبعة الثالثة، مكتبة العرب/ القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٣٧ .

(٢) اسماعيل باشا : هو أصغر أبناء محمدعلى من زوجته التركية ، ابنة حاكم قوله فى اليونان حاليا ، قدم الى مصر بعد أن استتب الأمر لوالده ، توفى مقتولا بالسودان فى ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م .
انظر الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ١٦ .

(٣) محمد بك الاستانلى المعروف بالدفتر دار ، نشأ فى الاستانة ، كان من الموظفين الذين عينهم سلطان تركيا فى مصر ، عهد اليه محمدعلى بالاشراف على الخزينة وجمع الضرائب ، فلفت أنظار محمد على اليه لهمته ونشاطه وزوجه من ابنته الأميرة نازلى هانم ثم عينه حاكما على السودان بعد مقتل اسماعيل فانتقم من قتلته ، ثم دُعى الى مصر ليستأنف عمله الأول فى المالية ـ توفى فى ظروف غامضة ـ أنظر عبد الرحمن زكى حكمدار وا السودان المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الأول ، ١٣٦٥هـ/١٩٤٨م ، ص ٤٢٨ .

يكون والى مصر قد بسط سلطانه على كل من كردفان وجزء كبير من حوض نهر النيل والنيل الأزرق ، وبعد ذلك بعشرين سنة بدأت محاولات الحكم التركى المصرى فى فتح مناطق جديدة لتضم لخريطة السودان .

وقد أشار البعض الى أن أول اتساع للحكم التركى المصرى فى السودان بعد فتح سنار، كان اقليم التاكا (كسلا) أيام حكمدارية أحمد باشا أبو ودان [(١)] ومنهم من ذكر بأن أول منطقة ضمت لخريطة السودان هى بحر الغزال ودارفور ثم جنوب السودان ثم شرقه المتمثل فى سواحل البحر الأحمر جنوبا الى خليج عدن و منها الى بلاد الصومال [(٢)] .

ولكن مما يبدو أن أول جزء ضم لخرطة السودان بعد فتح سنار هو جنوب السودان جيث أرسلت الحملات الكشفية والعسكرية اليها .

---

(١) زاهر رياض، السودان المعاصر من الفتح المصرى الى الاستقلال القاهرة ، ط(١) ١٣٨٦هـ/١٩٦٦ مكتبة الانجلو، ص ٦١ .

(٢) . جلال يحى ، مصر الافريقية والاطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر، القاهرة : دار المعارف ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، الطبعة الأولى ، ص ٥٥ .

ضـــم جنـــوب الســـودان :

عندما اتجهت مصر الى السودان فى القرن الثالث عشر الهجرى بداية العقد الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، أرسلت الى جنوب السودان حملتها المعروفة سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م لضمه للحكم التركى المصـــرى ، استطاعت أن توفق تدريجيا فى توطيد الأمن وحفظ النظام ووفرت بذلـــك مجالات للدراسة العلمية والجغرافية التى كانت من بين أهداف ذلـــك التقدم وامكاناته ، فقد صحب تلك الحملة علماء متنوعو الخبرة وأدت الحقائق والمعلومات التى نشزوها بعد حين عن البلاد السودانية ومجرى النيـــل الى توجيه العالم الخارجى نحو الكشف عن مجاهله مما شجع الكثيرين مـــن أهل البحث والكشف من مختلف الأجناس على التوجه الى السودان وارتيـاد أنحائه [1] .

ولقد كان لاكتمال الفتح التركى المصرى فى عام ١٢٣٧/١٨٢١م السبق فى ربط الجنوب بالعالم الخارجى وذلك من خلال كشف منطقـــة السدود وكشف حقيقة أمرها اذ أرسلت مصر ثلاث بعثات بقيادة ســـليم قبطان بدأت الأولى سيرها فى ١٢٥٦هـ/١٦نوفمبر ١٨٣٩م وكانـــت مكونة من أربعمائة جندى وثمان " ذهبيات" ** وقياستين وخمسة عشر مركبـا مشحونة بالمؤن ووصلت حتى خط عرض (١٠ - ٦)° شمال خط الاستـــواء ثم تعذر عليها الاستمرار بسبب ضحالة المجارى المائية وانتشـــار السدود النباتية فعادت للخرطوم فى ٣٠ مارس من العام التالى ، أى أن

---

(١) جميل عبيد ، المديرية الاستوائيه ، القاهرة ، مطابع وزارة الثقافـــة الطبعة الأولى ١٣٨٧/١٩٦٧ ، ص ١٠ .

×× ذهبيات :- جمع ذهبية وهى نوع من المراكب المستخدمة فى النيل وقد طورت بحيث تتك تكون وسيلة جيدة ومناسبة للنزهة والترفيه حتى سار استخدامها دلاله على الغنى والرفاهيه انظر الايطالى مجهول الاسـم ص ٣٣

الرحلة استغرقت حوالى مائة وأربعة أيام ذهابا وايابـا [١] .

أن تلك البعثات " بعثات سليم قبطان" عادت أدراجها الى الخرطوم دون الوصول للمنابع الأصلية الا أنها تمكنت لأول مرة فى التاريخ المعروف من اختراق منطقة السدود ، كما وأنها بلا شك تركت أثارها على المنطقة حيث خلفت بعض العادات والكلمات[٢]، ويمكن أيضا أعتبار تلك المجهودات بمثابة توحيد للبلاد السودانية فى ١٨٢٠ م ، وبداية للمعرفة التاريخية بجنوب السودان ذلك لأنه وحد بين شطرى البلاد مما أدى بدوره الى الانفتاح على الجنوب والتعرف عليه وربط الجنوب بالشمال تحت ادارة حكومية واحدة ،وبسط نفوذها على جميع أنحاء القطر فأصبح جزءا من الامبراطورية المصرية التى امتد نفوذها جنوبا الى خط الاستواء [٣] .

بعد تلك البعثات رأت الحكومة المصرية استخدام صمويل بيكر [٤]

---

(١) حسن مكى محمد أحمد ، السياسة التعليمية والثقافيه العربية فى جنوب السودان ، الخرطوم : المركز الاسلامى الافريقى ، شعبة البحوث والنشر ، الطبعة الأولى ١٤٠٣/١٩٨٣ ، ص ٩ .

(٢) حسن مكى ، المرجع نفسه ، ص ١٠ .

(٣) بونا ملوال ، مسألة الجنوب تاريخها ومراحل تطورها ، وزارة الثقافه والاعلام الخرطوم ، ص ١٦

(٤) ولد فى لندن ١٨٢١ من اسرة عريقه ، عمل بالتجارة أولا فى وطنه ثم سافر سنة ١٨٤٠ الى سيلان للصيد والمغامرة ، وفى عام ١٨٥٥ أثناء حرب القرم ترك سيلان الى انجلترا حيث توفيت زوجته، وترك ذلك ألما عميقا فى نفسه ، فرحل متنقلا بين آسيا الصغرى وجنوب شرقى أوروبا حيث أشرف على مد خطوط سكك حديدية بجوار الدانوب ، وحيث اكتسب ثقة فى السيطرة على الجماعات ، ثم تزوج من مرولين فون وهى مجريه شاركته فيما بعد جميع رحلاته الافريقية وقد عينته الحكومة المصرية للعمل بجنوب السودان براتب قدره عشرة آلاف جنيها سنويا . انظر جميل عبيد ، مرجع سابق ص ٤٦ .

ابتداء في ١٢٨٦ / أبريل ١٨٦٩ كقائد لعملية الحاق أعالي النيل الأبيض بممالك الحكومة المصرية.(١)

وبهذا يكون الفتح التركي فاتحة خير لأهل الجنوب خاصة ولأهل السودان بصفة عامة ، فقد كان ذلك سببا في جعل الجنوب جزء عزيزا من السودان ، وعرف السودانيون لأول مرة مابذلك الأقليم من ثروات ظاهرة وباطنة ، كما ألحق أهل الجنوب بالعالم الاسلامي وبدأ استخدام اللغة العربية.

وجاء من بعد بيكر، غردون* والذي عينته الخديوية مديرا لخط الاستواء والذي مد حدود أملاك الدولة الخديوية حتى بحيرة فكتوريا في أوغنده.

وقد أفاد امتداد الحكم المصري الى خط الاستواء تقدم الكشف الجغرافي وعلوم الأجناس والحيوان والنبات ، كما تمكنت الادارة التركية المصرية مع وضع يدها على مصادر تجارة الرقيق ، وشعر الجنوبيون لأول مرة بأن الحكومة ليست تلك العصابات المسلحة من تجار الرقيق ، وانما الحكومة حقيقة ، التي لها دولة وقانون ونظام ، وكما وضعت الحكومة يدها على مصادر

(١) انظر جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ٤٦

* ولد غردون في مدينة ولوتش بانجلترا سنة ١٨٣٣ وانتظم في الجندية سنة ١٨٥٢ وهو من أسرة اشتهرت بالجندية وكان أبوه فريقا في المدفعية الانجليزية ، وقد اشترك مع الجيش الانجليزي في حصار (سيبتسول) سنة ١٨٥٥ ، وفي سنة ١٨٦٠ سافر الى الصين واشترك في الخدمة بالجيش الصيني ، ونال من سلطان الصين لقب صاري عسكري وفي سنة ١٨٦٥ عاد الى الجيش الانجليزي فرقي فيه رتبة كولونيل وبقي هناك حتى عين مديرا لخط الاستواء.
انظر شقير ، مصدر سابق ص ٥٦٢.

تجارة الرقيق ، وسيطرت أيضا على منافذها على البحر الاحمر فقد تنازل الباب العالى عن سواكن ومصوع للحكومة المصرية لتكون المرحلة الثانية من امتداد حدود السودان واتساع حدود السلطة التركية المصرية شرقا ، والتى لم تقف عند سواكن ومصوع فقط بل امتدت الى بربرة وزيلع على خليج عدن واستولت على هرار سنة " ١٢٨٩/١٢٩٢ " هـ = ١٨٧٢/١٨٧٥م .

ضم سواكن :

هى تلك المدينة الواقعة على الساحل الغربى للبحر الأحمر وكان قديما يمثل ميناء السودان الوحيد والمنفذ الثانى للحجاج من السودان ووسط وغرب أفريقيا ، وذلك بعد المنفذ الأول عن طريق مصر .

وكانت سواكن ومصوع ميناءين تابعين للسلطان العثمانى فى الدولة التركية ، وقد استأجرهما محمدعلى باشا مقابل خمسمائة كيس سنة ١٢٨٢/١٨٦٥ [1] .

---

(١) عبد الله حسين ، مرجع سابق ، ص٩٢ ، ج١ ، ٥٠٠ كيس ، هو مبلغ من المال ذكره ضرار ، مرجع سابق ص٨٣ بأنه يقدر ب ٣٧٥٠٠ ، بينما يذكر آخر أن جملة المبلغ الذى تعهد سمو الخديو بدفعه للسلطان العثمانى نظير تنازله عن سواكن ومصوع وزيلع وبربره هو سبعة الاف جنيه اضافة على الجزية التى يدفعها مصر للسلطان العثمانى ، انظر محمد صالح ضرار ، تاريخ سواكن ، دمشق : دار الفكر ، الطبعة الاولي ١٤٠١-١٩٨١ ، ص ٨٣ .
ولكن المهم فى الأمر انه مبلغ من المال اتفق عليه بين السلطان العثمانى والخديوى فى مصر.

ولما تربع اسماعيل باشا على الأريكة الخديوية رأى أن هذين الميناءين جزء متمم لامبراطوريته الأفريقية خاصة وأنه كان ينوى تعقب تجار الرقيق الذين كانوا يرسلون بضاعتهم عن طريق تلك الموانىء ،وفى اعتقادى أن السلطان العثمانى رأى أن تحال ادارة الميناءين لدولةمحمد على فى مصر للاشراف عليهما والدفاع عنهما ضد الانجليز الذين يحاولون السيطرة على سواحل البحر الاحمر وخليج عدن ، وبالفعل فقد تمكن الانجليز من الاستيلاء على عدن عام ١٢٥٦/١٨٣٩ ،لذا فان بقاء الميناءين تحت ادارة دولة محمد على خير من سيطرة الانجليز عليهما وامتلاكهما مما يسبب تهديدا للسيادة التركية بصفة عامة وسيادة دولة محمدعلى بصفة خاصة ، كما يهدد أيضا ـ وهذا هو الأهم ـ سلامة وأمن الحرمين الشريفين .

ولهذا فاوض السلطان العثمانى الخديوية المصرية فى هذا الأمر واتفق معها على ضمها نهائيا الى الأملاك الخديويه ،وتبع ضم سواكن كل من اقليم التاكا والقضارف والقلابات الى حدود السودان التركى المصرى وكان هذا التوسع على حساب الحدود الحبشية سببا فى بدء النزاع التركى المصرى ـ الحبشى ، ومن قبل مجىء الحكما لتركى المصرى الى السودان كانت الحبشة تمثل العدو التقليدى للسلطة السودانية ،وما النزاع الأخير الا تجديد واحياء للعداوة التقليدية السابقة .

حتى هذه النقطة تكون حدود السودان تحت الحكم التركى المصرى قد امتدت جنوبا الى بحيرتى البرت وفكتوريا ، كما امتدت شرقا الى البحر الأحمر وخليج عدن ،وهناك امتداد آخر حدث بصورة تختلف

تماما عن الصورة التى تمت بها الامتدادات السابقة والتى حدثت اما بايفاد بعثات كشفية أعقبتها بعثات أخرى من الحكومة الخديوية قامت خلالها بانشاء محطات ونقاط عسكرية لتثبيت الأمن والنظام ولتأكيد سلطة الدولة على المناطق الجديدة التى أدركتها سلطة الحكومة ، واما بموجب اتفاقيات تنازلية من الباب العالى للخديوية فى مصر.

أما الامتداد الجديد فقد كانت بايد سودانية خالصة أسهمت مساهمة كبيرة فى مساعدة الحكم التركى المصرى على بسط نفوذه غربا حتى حدود سلطنة واداى ، وذلك بفتح اقليم دارفور على يد الزبير باشا .

ضم دارفور :

كان ضم مناطق دارفور من الأحلام التى تمنى محمد على باشا تحقيقها فأرسل الدفتردار لفتح كردفان ثم دارفور ولكنه لم يستطع التقدم نحوها واكتفى بالاستيلاء على كردفان فقط، وبالرغم من مرور أربعين سنة على سقوط الأبيض، الا أن مصر لم تستطع فتح دارفور، ولم يتم لها ذلك الا على يد أحد المغامرين السودانيين الذين كانوا يؤمنون ايمانا قاطعا بوجوب قيام الوحدة فى الأمة الاسلامية ، والذى كان بحكم ثقافته الدينية فى ذلك العصر ينظر الى مصر على أنها مركز للوحدة الاسلامية وللخديوية على أنها ممثلة لسلطان المسلمين فى مصر والسودان ، ذلك المغامر هو الزبير باشا رحمه الله .

أصبح الزبير بعد احتلاله لبحر الغزال مضطرا الى اتخاذ خطوات توسعية أخرى لأن طرق التجارة بين هذه المناطق وبقية أجزاء

السودان تضطره الى عبور أراضى قبائل الزريقات التى لم تكن خاضعة للحكومة وراقب الزريقات نجاح الزبير بعين فيها كثير من عدم الاطمئنان، كما أنهم هاجموا القوافل التى كانت تسير من بحر الغزال الى بلادهم. فرأى الزبير أن تأمين التجارة لا يمكن أن يتم الا بالاستيلاء على أراضى هذه القبائل (١).

أثار الزبير على نفسه عداوة سلطان الفور الذى كانت له السيادة الاسمية على قبائل الزريقات ،وشعر سلطان الفور السلطان ابراهيم بأن الزبير ينوى الاطاحة بحكمه ، لأنه فى خطاباته كان يطالبه باصرار بأن يسلم اليه شيخين من شيوخ الزريقات وصلا لاجئين اليه وأتم الزبير استعداداته الحربيه لمجابهة الفور كما أنه كتب للحكمدار اسماعيل باشا أيوب فى الخرطوم ليرسل له المدد والسلاح اذ أنه على أبواب محاربة سلطان الفور ،ورأى اسماعيل أيوب أن لا يترك الزبير يقوم وحده باحتلال دارفور لذلك نصحة بالتريث ذاكرا له أنه فى الطريق لمساعدته بعد أن ارسل اليه عددا قليلا من البنادق ، وكان الحكمدار يخشى من نفوذ الزبير الذى تطور سريعا.

دارت عدة معارك بين الزبير والفور كان آخرها معركة (منواشى) فى اكتوبر ١٨٧٤ وانتهت بانتصار الزبير انتصارا حاسما حيث سقطت الفاشر عاصمة السلطنة فى يده فى ٢ نوفمبر ١٨٧٤م.

بعد فتح دارفور بدأ اسماعيل باشا أيوب يفتعل النزاعات بينه وبين الزبير وحسما للنزاعات قرر الزبير السير الى القاهرة لعرض شكواه

---

(١) ضرار، مرجع سابق ، ص ٨١.

ضد اسماعيل أيوب على الخديو للفصل فيها ،وفى القاهرة تم ابقاوءه قسرا لتصبح الدولة التى أنشأها الزبير دون قائد يقودها ،وبذا تكون دولته قد آلت تلقائيا للحكم التركى المصرى.

وبذا يكون الحكم التركى المصرى قد ساهم فى رسم معظم حدود السودان السياسية الحالية ، فقد كانت مساحة السودان اكبر مما نراه الآن ولكن لا يخفى أن هذه الحدود قد تراجعت بعد الثورة المهدية والاحتلال الانجليزى ،اذ تواطأت انجلترا والدول الأخرى على انتقاص تلك الحدود، فاحتلت انجلترا أوغندا وأونيورو ومنطقة البحيرات والجزء الجنوبى كله من خط الاستواء وصار الحد الجنوبى للسودان ينتهى الان عند نيمولى (الابراهيميه) بعد أن كان يشمل بحيرة فكتوريا وبحيرة البرت واخذت انجلترا محافظتى زيلع وبربره ،واخذت ايطاليا مصوع وارتريا ورأس جردافوى (جردفون) ،كما أخذت فرنسا تاجوره وجيبوتى ،والحبشة أخذت بلاد هرر وبنى شنقول من أعمال فازوغلى.

وتراجع الحد بين مصر والسودان ،فصار ينتهى عند الخط ٢٢ من خطوط العرض واصبح حد السودان الشمالى يبدأ من (فرص) شمال وادى حلفا بعد ان كان الحد الجنوبى لمصر قبل الفتح الأول للسودان (فى عهد محمد على) يصل الى جزيرة (ساى) جنوبى وادى حلفا ، وكان ينتهى قبل الاحتلال الانجليزى عند (سرس) جنوبى وادى حلفا أيضا وصارت سواكن ، ووادى حلفا وما يليها جنوبا تابعة لادارة السودان المشتركة بمقتضى اتفاق ١٩ يناير سنة ١٨٩٩م.[1]

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ،عصر اسماعيل ،ج ١ ص ١٧٨ ، مرجع سابق.

فى السابق تعددت " حكومات القبائل" القوية فى انحاء السودان الذى خضع للسيطرة السياسية والثقافية العربية ،ومع أن ملوك الفونج استطاعوا تأسيس مملكة فى سنار، وسلاطين الفور فى دار فور، من أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين ، فان سيطرة هؤلاء الملوك والسلاطين على الزعماء والرؤساء المجاورين لهم كانت متغيرة بتغير مقدار القوه التى نالها هؤلاء أو الضعف الذى أصابهم(١) .

ولكن من محاسن ادارة محمدعلى أنه أعطى السودانيين حكومة مركزية موحدة قوية بسطت سلطانها وقانونها على مساحة شاسعة من البلاد وهى وأن لم تكن حكومة مستبدة عادلة الا أنها وضعت الأسس الأولى لتوحيد السودان من الناحية القومية والادارية والمالية والقانونية فقوضت بذلك اركان تلك الممالك الصغيرة التى كانت تقسم البلاد وتضعفها ،ووضعت نظاما أحدث مما كانت عليه السلطنة الزرقاء ،وباخضاع القبائل السودانية الى حكومته استطاع الباشا أن يقضى على الحروب الأهلية التى كانت تقوم بين كل قبيلة وأخرى بل بين البيوت المختلفة فى القبيلة الواحدة(٢) .

---

(١) شكرى ، مصر والسودان ، وحدة وادى النيل السياسية ، مرجع سابق ، ص ٢٤٩

(٢) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٦١ .

الفصل الثاني

النظام السياسي

النظـــام السياســـى

بعد أن تم لاسماعيل كامل بن محمد على فتح سنار أصبح على السودان نوعان من السيادة :

١) سـيادة شمولية :

وذلك بأن للدولة العثمانية سيادة على مصر والسودان فقد وافق السلطان محمود الثانى على ان يفتح محمدعلى مايشاء من اقاليم السودان على أن يحدث هذا باسم السلطان العثمانى ، فظلت السيادة العليا من حق تركيا بوصفها صاحبة السيادة الشرعية على مصر نفسها أولا وصاحبة حقوق فى السيادة على السودان نفسه ثانيا (١) .

٢) سـيادة تبعية :

والسودان بالرغمن أنه تابع لمصر سياسيا الا أنه تابع أيضا للدولة العثمانية ، تبعية مستمدة من واقع تبعية مصر للباب العالى ، وبذا يكون السودان قد وقع تحت الحكم التركى المصرى .

ولكى نقترب اكثر منمعرفة النظام السياسى فى السودان فى عصر الحكم التركى المصرى لابد لنا من التعرض لـ :

١) وضع مصر السياسى بالنسبة للدولة العثمانية .

٢) وضع السودان السياسى بالنسبة للحكم التركى المصرى .

---

(١) محمد فوءاد شكرى ، مصر والسودان ، الوضع التاريخى للمسألة القاهرة : دار الفكر العربى ، الطبعة الأولى ١٩٤٧ ، ص ٨

١) وضع مصر السياسى بالنسبة للدولة العثمانية :

استغل قائد الجنود الأورناؤود محمدعلى باشا ذكاءه وشجاعته ومحنكته السياسية وقدرته على المجازفة والمغامرة فى القضاء على الوالى التركى فى مصر خسرو باشا ،وذلك بتعاونه مع المماليك ، ثم انقلب على المماليك فأضعفهم وشتت شملهم ، ثم التفت الى زعماء الشعب المصرى بقيادة عمر مكرم حيث وعدهم بأن أداته فى الحكم هى الشورى والعدل [١]، فتملك قلوبهم واستمالهم اليه ،و حصل بذلك على سند شعبى أدى الى تعيينه واليا على مصر سنة ١٢٢١ / ١٨٠٥ كما أدى الى اعتراف السلطان العثمانى بولاية محمد على على مصر وأصدر بهذا الشأن فرمان صدر فى ٩ يوليو سنة ١٨٠٥م [٢] ، بهذا تكون مصر متمتعه بالحكم الذاتى بزعامة محمدعلى باشا فى اطار الدولة العثمانية الموحدة ، ويبدو أن هذا الاجراء اتخذه الباب العالى على مضض ، بعد أن وضعته انجازات محمد على السياسية الكبيرة وتأييد الشعب المصرى له بالولاية أمام الأمر الواقع.

فالطريقة التى جاء بها محمد على الى الحكم طريقة غير مألوفة للباب العالى حيث سلبت السلطان العثمانى حقه التقليدى فى تعيين الولاة وعزلهم فى كافة أنحاء الدولة العثمانية [٣] .

ونتيجة لذلك بدأ الباب العالى فى اتخاذ شتى الوسائل لوضع محمد على فى مكانه الصحيح ،وأن تكون مصر مجرد باشوية أو ولاية

---

(١) . حسن احمد ابراهيم ،محمدعلى فى السودان ، مرجع سابق ص ١١ ، ايضا انظر د . شبيكه ،تاريخ شعوب ، مرجع سابق ص٢١٦

(٢) . حسن احمد ، مرجع سابق ص ١١

(٣) نفس المرجع، ص ١٢ .

من ضمن ولايات الدولة العثمانية الأخرى لا ترى الا مايريها السلطان العثماني وانه ما يهديها الاسبيل الرشاد ، خاصة بعد أن ساور السلطان العثماني الشكوك في أن محمد علي ربما يستقل بملك مصر وقد أثبتت الأيام أن تلك لم تكن شكوكا بل أضحت يقينا . فقد دبر الانجليز والسلطان العثماني مؤامرة في سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٦م أي بعد عام واحد من موافقه الباب العالي على ولاية محمدعلي على مصر هدفت الى اقصاء محمد علي عن ولاية مصر وتعيين الزعيم المملوكي محمد بك الألفي ولكنها باءت بالفشل واضطر السلطان العثماني الى اصدار مرسوم جديد يتضمن بقاء واستمرار محمد علي على ولاية مصر[1] .

ثم أعقب ذلك محاولة من الحكومة البريطانية سنة ١٢٢٣/ ١٨٠٧ لاحتلال مصر (حملة فريزر) "Frezer" ولكن اضطرت بريطانيا على سحب قواتها ، وخرج محمدعلي من تلك المؤامرات أقوى من ذي قبل .

ولكن ليس معنى هذا أن مصر قد انفلتت من وضعها السابق وهو بقاؤها مقاطعة كسائر مقاطعات الدولة العثمانية ، ولكن أيضا هذا لم يحد من نزعة محمدعلي باشا الاستقلالية والتي مازالت كامنة يظهرها متى ماوجد الى ذلك سبيلا ، مما أدى الى احتدام الصراع بين السلطان ووالي مصر حسم أخيرا عن طريق حربين عرفتا بالحرب السورية الأولى "١٢٤٦هـ-١٢٤٩هـ/ ١٨٣٠م-١٨٣٣م" ، والحرب السورية الثانية ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م اتفق الطرفان في الاولى على معاهدة كوتاهيه تخلى بمقتضاها السلطان لمحمدعلي عن سوريا واقليم أدرنه مع تثبيته على مصر وجزيرة كريت والحجاز[2] ، أما بعد الحرب السوريه الثانيه ،فقد صدر

---

(١) حسن أحمد أبراهيم ، مرجع سابق ص١٢ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

من الباب العالى فرمانين ، الاول خاص بمصر حددت فيه علاقة الوالى بالسلطان ولم يحدد علاقة مصر بالسلطنة العثمانية لأنها علاقة مفروغ منها ، وهى أن مصر جزء من الدولة العثمانية ، ولكن الفرمان الأخر حدد علاقة والى مصر بالسلطان من حيث مركزه وسلطته وكيفيه تعيينه ، وانتهى الى جعل والى مصر واليا ممتازا ، وان كنا نتجوز ونقول أن هذا الوضع جعل مصر ولاية ممتازه الا أنها على كل حال ولاية تابعة[1] .

والجدير بالذكر أنه عند استئناف الحرب بين السلطان محمود الثانى والوالى محمدعلى (الحرب السورية الثانية) وانهزام الدولة العثمانيه أسفرت هذه الحرب عن اتفاق فى الرأى وابرام معاهدة أو " وفاق" لندن فى ١٢٥٧/١٥ يوليو ١٨٤٠ بين انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا ، وكان هذا الوفاق اول وثائق التسوية التى وضعت للمسألة المصرية ، و أما جوهر الحل الذى تضمنته هذه المعاهدة فكان اعطاء محمد على وأسرته الحكم الوراثى فى مصر ولكنه بشريطة أن تبقى مصر ولاية عثمانية على أن يختار الباب العالى نفسه من يتقلد منصب الولاية من أبناء محمدعلى الذكور[2] .

فكل هذه الحروب والاجراءات والفرمانات ، بمثابة تأكيدات لحق الباب العالى الشرعى فى السيادة على مصر ، وأن محمد على باشا لم يكن يملك سيادة ما بل كانت مصر ـ قانونا محرومة من السيادة .

---

(١) . زاهر رياض ، السودان المعاصر من الفتح المصرى الى الاستقلال ، مرجع سابق ص ٥٩ .

(٢) . شكرى : مصر والسودان ، وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، القاهرة : دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثه ، ١٩٦٣ ، ص ١٤ .

٢) وضع السودان السياسى بالنسبة للحكم التركى :

عين اسماعيل بن محمد على الذى قاد حملة الفتح ،كأول حاكم أو حكمدار للسودان من قبل الباب العالى ،فصدر فى ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م أمر من الباب العالى بهذا الخصوص(١) ، وكما تقدمت بأن صدر بعد الحرب السورية الثانية فرمانات كان الأول يحدد علاقة السلطان بالوالى فى مصر، أما الثانى فقد منح فيه السلطان العثمانى محمدعلى- فضلا عن ولاية مصر - ولاية مقاطعات النوبه ودار فور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجه عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث(٢) .

وهذا الفرمان الأخير الخاص بالسودان يؤكد ضرورة صدور فرمان جديد كلما عين وال جديد على السودان . وهذا فعلا ماجرى عليه العمل حتى سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م فى عهد الخديو اسماعيل ،واذا كان السلطان قد درج على اصدار فرمان واحد بتقليد والى مصر حكم السودان ومصر فان هذا لم يغير من وضع فرمان سنة ١٢٥٨هـ/١٨٤١م ولم يكسبه صفة جديدة لم تكن له(٣) .

فمصر كما تقدمت تدين بالتبعية لتركيا صاحبة السيادة الشرعية عليها ولأن حقوق سيادة مصر على السودان نفسه مبعثها الأول ما انتقل اليها من خصائص السيادة بمقتضى الفرمانات التى نالها الولاة والخديويون من تركيا ، سواء فيما يتعلق بممارسة شئون الحكم فى الولاية أوالخديوية

---

(١) . شكرى : مصر والسودان ، مرجع سابق : ص ٨ .

(٢) . زاهر ،مرجع سابق ص ٥٩ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

وتنظيم علاقاتها مع الدول ، أو فيما يتعلق بممارسة شئون الحكم في السودان [١] .

فالقول بأن مصر قد أصبحت صاحبة السيادة على السودان قول لا يبرره أي سند من القانون ، فمصر المحرومة من السيادة على أراضيها لا تملك سيادة على أرض أخرى . واذا كانت مراسيم تعيين حكام السودان قد صدرت بعد اسماعيل بن محمد على من القاهرة رأسا دون الرجوع الى السلطان فان هذا لا يغير الواقع في شيء مادام محمد على نفسه كان تابعا للسلطان ، وأقصى مايمكننا أن نقول به أن السودان أصبح تابعا للسلطان عن طريق مصر ، ومما يؤيد ذلك صدور فرماني سنة ١٢٥٨هـ/١٨٤١ الذين حددا نهائيا علاقة محمد على بالسلطان ، وكان الفرمان الاول خاصا بمصر و الثاني خاصا بالسودان [٢] .

وقد استند بعض المؤرخين في اثبات حقوق مصر الثابته في السيادة على السودان الى :

(أ) مايعرف باسم نظرية الخلو أو الملك المباح :

بمعنى ان السودان عندما تم ضمه على يد مصر لم يكن أحدا يمتلكه [٣] ، ولكن السودان لم يكن في حالة خلو عندما زحفت عليه جيوش محمد على اذ كان سلطان سنار هو الحاكم الرسمي الذى تمتع بالسيادة

---

(١) . شكري : وحدة وادى النيل ، ص ٩

(٢) . زاهر ، مرجع سابق ، ص ٥٩ .

(٣) . شكري : وحدة وادى النيل ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

القانونية الكاملة هناك[1] ، كما أن فتح السودان تم باسم خليفة المسلمين وان سلطان سنار قد تنازل بعد أن أبلغه اسماعيل أنهم رسل السلطان العثمانى خليفة المسلمين وأمام المؤمنين وطاعة ولى الأمر فى الدولة الاسلامية واجبه ،ومعصيته هى معصية لله ولرسوله ، ومن هنا فان تنازله كأنه كان للسلطان العثمانى فى تركيا ، وبذا يكون انه قد فهم أيضا أن محمد على نفسه مجرد تابع للسلطان العثمانى .

لذا فان نظرية الخلو هذه ،أعتقد أنه تعريف لوضع سياسى غير موفق بالنسبة للوضع السياسى الموجود فى السودان فى ذلك الوقت ثم متى كان الخلو السياسى فى بلد معين يعطى السيادة لآخر ويكون حقا ثابتا ، اللهم الا اذا كان البلد أهله وثنيون ورغب الحاكم الآخر أن يدخلهم فى دين الله وليقام حكم الشرع ، فان لم يرضوا عليهم بدفع الجزية عن يد وهم صاغرون ،فهذا اجراء منطقى وأصح من الصحيح لأن ذلك البلد يكون فى حالة خلو شامل فى كل مناحى الحياه وليس خلوا سياسيا فقط.

كما ان نظرية الخلو قد عُرِّفت أيضا بالملك المباح "Res Nullius" أى أنه مباح لكل ذى قوة فى العالم أيا كان جنسه ،هويته ،جهته ،أو عقيدته وجمله (ملك مباح) تكريس وترسيخ لفكرة ظلت مسيطرة على العقول ردحا من الزمن ، ومؤداها أن المصريين كان رأيهم من بداية الامر استغلال السودان ، فلم يعملوا لما فيه خير السودانيين ورفاهيتهم منذ عهد محمد على الى قيام الثورة المهدية بل ان تلك الثورة لم تكن فى عرف اصحاب هذا

---

(١) . حسن احمد ابراهيم ،مرجع سابق ،ص ١١٣ .

الرأى الا نتيجة لسوء الادارة المصرية وتعسفها (١) ، وهذا طبعا قول غير صحيح ،ونحن دائما ننفى بالأدلة والشواهد هذا الزعم.

(ب) حـــق الفتـــح :

أى ان مصر تستند فى سيادتها على جميع جهات السودان الى مايخوله الفتح من سلطان (٢) ، وهذا يعيدنا الى القول بأن مصر مادامت لم تكن مستقلة عن السيادة التركية ،فليس لها حقوق الا بقدر مايسمح به الباب العالى ،اذ كيف بدولة ممنوعة من المفاوضة مباشرة مع الدول ،ومن عقد المعاهدات مستقلة عن الباب العالى صاحب السيادة الشرعية عليها، ثم مطالبتها بقبول المعاهدات والاتفاقات المبرمة بين تركيا والدول الاخرى (٣) ، وتقوم بفتح أراضى أخرى وتنسب حقوق الفتح لنفسها ، فمن الأولى أن تنسب حقوق الفتح لسلطان وخليفة المسلمين فى تركيا صاحب السيادة الشرعية عليها وعلى كل الأراضى التى فتحت أو ستفتح مستقبلا .

وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نشأ ذلك السباق المحموم من جانب الدول الاوروبية فى احتلال الأقطار الأخرى خاصة فى أفريقيا واستعمارها واستغلالها وكان غالبا ما ينشأ نزاع بين الدول الاستعمارية تلك فى ادعاء كل منها أن دولة من الدول هى ملك لها ، وفى الغالب يصل ذلك النزاع الى درجة المواجهة (٤) .

---

(١) . شكرى ، مصر والسودان ، الوضع التاريخى للمسأله ، مرجع سابق ص ٤ .

(٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) . شكرى ، وحدة وادى النيل ، مرجع سابق ، ص ١٩

(٤) مثالا لتلك الصراعات ، حادث فشوده بين انجلترا وفرنسا فى سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٨م .

وحسما لتلك المنازعات وتفاديا لعدم تكرارها ، فقد نشأ ما يمكن أن يسمى بحق الفتح ، بأنه ان سبقت دوله الى دولة أخرى وأحتلتها فهى لها . وهذا عرف استعمارى بحث ، ونحن لا نوافق أن يوصف الحكم التركى المصرى فى السودان بالاستعمار ، أو أن يوصف تحركاته ومسلكه السياسى بأنه مسلك استعمارى ، لأنه فقط أدخل بلدا آخر وأضافت مساحات جديدة لدولة الخلافة الاسلامية فى تركيا . ومن هذا المنطلق تفهم أن حق الفتح أو الملك المباح عرف سياسى لا يستخدم فى العلاقات بين البلاد الاسلامية وخاصة اذا كانت تستظل جميعها تحت سلطة دولة الخلافة الاسلامية .

(ج) اعترافات الدول :

ايضا من مستندات الحكم التركى المصرى فى حق سيادته على السودان اعترافات الدول ، والمقصود بالدول هى الدول الأوروبية ولا سيما انجلترا وفرنسا وغيرها ، وهى تمثل فى مجموعها المراقب السياسى للعلاقات الدولية فى ذلك العصر وخاصة بالنسبة لدول العالم الاسلامى والتى تحاول دائما كسب ود وثقة الدول الاوروبية والحصول على اعترافاتها وخاصة فى تحركاتها التوسعية وكأنه لابد من أخذ الاذن منها ، الا أن هذا التصرف السياسى ما كان يحدث ممن هم فى كنف الخلافة الاسلامية والتى صارت مرهوبة الجانب ، وقوية كقوة الدول الأوروبية نفسها ولكن يبدو أن نزعة محمد على باشا الاستقلاليه - كما تقدمت - هى التى دفعته للعمل على الحصول على الاعترافات من الدول الأوروبية ، لكى تحمية من عقاب الباب العالى الذى لا ينظر لنوايا وتصرفات محمد على بعين الرضا .

اضافة الى أنه لا يعترف (بحقوق مصر فى الفتح) لأنها مجرد ولاية تابعة له ، وما تحقق من فتح لأراضى جديدة هى تلقائيا تابعة للباب العالى ، ولكن مع هذا كله فاعترافات الدول الأوروبية لا تقف دليلا قانونيا على أحقية مصر على سيادة نفسها ناهيك عن سيادتها على السودان فمفتاح الأمر كله بيد الباب العالى الذى يسمح بسيادة مصر على نفسها أو على غيرها .

رغم كل هذه الشواهد التى توضح عدم قانونية سيادة الحكم التركى المصرى على كل من مصر والسودان الشرقى والأوسط الا أن ولاه الأمور فى مصر ، ظلوا يمارسون سيادة مستقله عن سيادة الباب العالى أى أنهم ضربوا بالأصل القانونى للعلاقة بين الباب العالى والولاية المصرية عرض الحائط ، ولقد شجعهم على ذلك تكامل تأييد الأهالى لهم والانجازات الكبيرة التى حققها محمد على - كما تقدم - فى كافة المجالات تقريبا السياسيه والعسكرية والاقتصادية والثقافيةوالعلمية .

فالمصادقة على تولية الولاة كانت تصدر من الاستانه ، كما ان اسماعيل قد بذل الملايين فى الرشاو والهدايا فى الاستانه ليحصل على لقب (خديو) ، وقد نال الفرمان الذى منه هذا اللقب فى عام ١٢٨٤هـ ٨ يونيو ١٨٦٧م[١] .

كما أن الباب العالى لم يسبق أن عزل واليا من أسرة محمد على والفرمان الذى أصدره سنة ١٢٥٧هـ/ ١٨٤٠م بعزل محمد على قد بقى عديم الأثر ، ولم يحفل به محمد على ، فخلع الخديو اسماعيل هو

---

(١) الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ٢ ، ص ٤١ .

الحادث الوحيد الذى ظهرت فيه سلطة الباب العالى فى عزل الخديويين.(١)

وقد نجم عن استقلال ولاية مصر عن الدولة العثمانية وانعزالها عن دولة الخلافة عدة تأثيرات ايجابيه وسلبية على الصعيد السياسى بالسودان منها :-

ان أصبح السودان يدار من القاهرة ، فيما أن اقاليم السودان من حيث بعدها بصفة عامة عن المركز العام للادارة المصرية فى القاهرة ، وصعوبة المواصلات فى ذلك الوقت الا أن ادارتها من القاهرة كان أسهل من أن يدار من مركز الخلافه فى تركيا ، فأصبح الحاكم العام فى السودان (الحكمدار) يعينه والى مصر وتصدر اليه من الوالى مباشرة الأوامر والتعليمات التى يقوم بتبليغها للمديرين والمأمورين فى أقاليم السودان المختلفة . وأصبح لأهل السودان علاقة مباشرة بالحاكم ، ففى السابق كان النظام القبلى هو السائد وهذا بخلاف ما كان واقعا أو جاريا فى مصر ، حيث لم يكن للنظام القبلى أو العشائرى وجود يذكر أو له أثر على النحو الذى عرفناه فى السودان (٢) .

كما أن علاقة مصر الادارية بالسودان قد خلقت شعورا بامكانية اندماج البلدين فى وحدة سياسية ، والذى ظل حلما تمنت الحكومات المتعاقبة فى البلدين تحقيقها لتأكيد استمرارية العلاقات السياسية ، الثقافيه الاجتماعيه والاقتصادية القديمة والمتجددة دائما وأبدا .

---

(١) الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ٢ ، ص ٢٥١ .

(٢) . نسيم مقار ، الاسس التاريخيه للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان ، القاهرة ، الهيئه المصريه العامه للكتاب ، ١٩٨٥ ، الطبعة الاولى ، ص ٤٢ .

فأغلب عرب السودان قد هاجروا اليه من مصر، والتى كانت أيضا أحد مداخل الدين الاسلامى واللغة العربية اليه أيضا واللذين تمكنا وانتشرا بفضل هجرة العلماء والفقهاء ، وكان طريق القوافل التجارية بين أسيوط فى صعيد مصر والفاشر فى غرب السودان من أعرق سبل العلاقات بين البلدين .

ومن سلبيات استقلال مصر وانعزالها عن دولة الخلافة فى تركيا قد مهد لانفراد الغرب الأوروبى بها وبملحقاتها من الأقطار السودانية ، وصارت رهينة لأوروبا التى تحكمت فى استقلال مصر الاقتصادى والذى له ارتباط وثيق بالاستقلال السياسى .

اذ لم يكن ممكنا أن يبقى استقلال البلاد سليما مع بلوغ قروض الحكومة مستوى لا حد له ، فهذه القروض هى أموال أجنبيه ، دفعلها ماليون ومرابون ينتمون الى دول أوروبية تطمع من قديم الزمان الى التدخل فى شئون مصر[1] ، وبالطبع فان السودان يتأثر بما يتأثر به مصر خاصة فى أوضاعها الاقتصادية والسياسية فى ذلك العصر.

فمطالبة البيوتات الماليه فى أوروبا بمستحقاتها من الديون جعلت مصر وشعب مصر يعيشون فى ضائقة وأزمات ماليه انعكست على السودان و شعب السودان فى شكل زيادات فى الضرائب وما يصاحب ذلك من اجراءات تعسفيه يقوم بها الحكام والموظفون ، كما يصاحب ذلك أيضا ترد فى الأحوال المعيشية والامنية للأهالى فى كل من مصر والسودان .

---

(١) الرافعى ، عصر اسماعيل ج ٢ ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .

كما أن اعجاب ولاة مصر فى ذلك العصر وتأثرهم بأوروبا والأوروبيين قد انعكس على توجه النظام السياسى فى مصر وبالتالى فان السودان تلقائيا تأثر بذلك النمط من النظام السياسى ، فالجانب الدينى فى النظام السياسى فى الممالك السودانية قبل العهد التركى المصرى كانت سمة بارزة فى نظام تلك الممالك ، وغياب هذا الجانب فى الحكم التركى المصرى قد انسحب أيضا على السودان ، وصار ذلك المنهج فى النظام السياسى منذ ذلك الوقت هو الأساس فى حكم السودان وذلك حتى الثمانينات من القرن العشرين الميلادى ، وهذا باستثناء فترة حكم المهدية .

فان محمد أحمد المعروف " بالمهدى" ** ، بعد نجاح ثورته قام باعادة التعامل مع الدين فى الحياة العامة الى حد كبير ، بل كان هذا أحد أسباب ثورته ولكن عندما زحف الجيش الاستعمارى الانجليزى الى السودان واحتلها ، طوى راية الدين ، وعاد المجتمع السودانى الى سابق عهده قبل الثورة .

ايضا من تأثيرات ارتباط السودان بمصر ان عين لحكمه - فى أواخر العهد التركى المصرى بالسودان - حكام أوروبيون ، انتهزوا فيه وضعهم المتميز وصاروا يعملون بجد واجتهاد للتمهيد للاستعمار الأوروبى لكى يتمكن بهدوء من بسط سلطانه على السودان بعد أن تمكنوا من السلطة فى مصر حيث أنهم وضعوها فى مصيدة الديون .

وما كان أن يتم لهم ذلك لولا أنهم بدوءا فى تقويض دعائم الحكم التركى المصرى فى السودان وضرب مصالحه السياسية والاقتصادية ، وأثاروا كراهية الحكم التركى المصرى فى نفوس الأهالى بالسودان ، كما

** ولد محمد احمد بن عبد الله المعروف (بالمهدى) فى بيت ينتسب الى اسرة تعرف بالاشراف حوالى سنة ١٢٥٨ هـ / ١٨٤٤ م

. . . .

وكانت لهذه الاسرة شهرة دينية محلية ولكنهم على أى حال قالوا بأنهم من نسل الرسول ، وهذا القول معروف عنهم قبل أن يظهر محمد احمد ويعلن الثورة . وقد هاجرت أسرته بعد مولده بقليل من موطنها بجزيرة " لبب " بالقرب من دنقلا فى شمال السودان ، الى أواسط السودان بحثا عن الأخشاب فقد كان والده يعمل بصناعة المراكب وقبل أن تحط العائلة رحالها فقد محمد احمد والداه ، فقد توفى والده ثم لحقت به من بعده والدته ، وعندما حطت بقية العائلة رحالها كان محمد أحمد قد بلغ سن التعليم وقد اظهر شغفا شديدا بالعلم وميلا طبيعيا للتدين . وقد تعلم محمد احمد القراءة والكتابة وحفظ شيئا من القرآن فى خلاوى(xx) " كررى" والخرطوم ثم درس العلوم الفقهية على يد "الشيخ الأمين الصويلح"، وأظهر محمد أحمد فى هذه الفترة اخلاصا شديدا للدين واشتهر بين اقرانه بالزهد والتقوى والورع والولاء الخالص للأستاذ كما أظهر تبرما مبكرا من علاقة رجال الدين بالحكومة التركية وقبولهم الهبات والعطايا التى تنفقها عليهم . وتصرفاته هذه قد خلقت له نوعا من التوقير واللمعان . ثم انضم الى طائفة "محمد شريف نور الدايم" بعد ذلك انتقل هو واخوته الى الجزيرة " أبا " فى سنة ١٢٨٦هـ/١٨٧١م وقد كان أولى خطواته أن أنشأ فيها خلوة وقد تخرج على يديه من هذه الخلوة شخصيات كان لها خطرها فيما بعد ، وفى خلوته والمسجد الملحق بها قصده الناس واعطته القبائل الضاربة حول " أبا" ولاءها الخالص ، ومن تلك المنطقة انطلقت شرارة ثورته والتى عرفت فى تاريخ السودان الحديث بالثورة المهدية ، أنظر محمد ابراهيم أبو سليم، الحركة الفكرية فى المهدية ـ بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ١٢.

انظر ايضا مكى شبيكه ، تاريخ شعوب ، مرجع سابق ص ص ٦٤١-٦٤٥

---

xx خلاوى :ـ جمع خلوه وهو المكان الذى يخلو فيه الانسان لقراءة القرآن وللعبادة وسار فيما بعد يطلق على المكان الذى يتلقى فيه الطلاب دراسة وحفظ القرآن الكريم فى السودان

أنهم أذلوا الموظفين المصريين واستصغروهم ليصيروا صغارا في نفوس المحكومين من أهل السودان .

وأخيرا فان كانت لنا كلمة في نهاية هذا الفصل فهي أن النظام السياسي للحكم التركي المصري في السودان كجهد بشري تكتنفه الايجابيات والسلبيات ،ولا بد ان تكون كذلك ما دام هو جهد بشري فكانت له حسناته في الادارة والنظام التربوي والتنمية الاقتصادية [1]، وفي انشاء المراكز الادارية والسياسية المتمثله في دوره في بناء المدن وتعميرها .

---

(١) محمد أحمد محجوب ،مرجع سابق ،ص ٢٤ .

الفصل الثالث

دور الحكم التركي في إنشاء المراكز الإدارية في السودان

بعد أن تم للحكم التركى المصرى ضم السودان ، أصبح من المتعذر بسط السيادة على ذلك البلد الشاسع المترامى الأطراف من الخرطوم العاصمة حيث مقر الحاكم أو الحكمدار ، مما أوجب عمل مراكز مختلفه تمثل الحكومة وتراعى مصالحها وتنفذ سياساتها وتدير العلاقة بينها وبين الأهالى ، فكان تأسيس المدن من أهم الأمور التى عنى بها الحكم التركى المصرى فى السودان [١] ، وقد روعى فى ذلك الحاجة والتدرج . وكانت أولى تلك المراكز هى مدينة الخرطوم ، والذى كان انشاؤها من أعظم انجازات الحكم التركى المصرى الباقية [٢] . الى الآن .

انشاء الخرطوم :

ان وقوع الخرطوم كخيار أخير لأن تكون عاصمة للسودان من قبل ممثلى الحكم التركى المصرى لم يكن أمرا يسيرا وانما جاء بعد عدة خيارات وتجارب لأماكن أخرى قبلها ولكنها لم تصلح لعدة أسباب ، قد تكون جغرافية أو بيئية ، وعندما كان الفونج يحكمون البلاد كانت عاصمتهم سنار لذلك فان اسماعيل بن محمد على جعلها عاصمة أول الأمر ، ولكن مالبث أن وجدها لا تصلح لجنوده أيام الخريف بسبب الأمطار الغزيرة ، وسوء الحالة الصحية فيها ، ولذلك فانه انتقل الى "واد مدنى" لتكون عاصمة بدلا من سنار حيث جعلها مقره الرسمى ، وخلفه عثمان باشا [٣]

---

(١) محمد عبد الغنى سعودى ، التكامل المصرى السودانى ، القاهرة مطابع مصنع القاهرة للظروف والطباعه ، بدون تاريخ ، ص ٧٢ .

(٢) محمد ابراهيم ابو سليم ، تاريخ الخرطوم ، بيروت : دار الجيل الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م ، ص ٥ .

(٣) هو الأميرلاى عثمان باشا جركس (١٥ ديسمبر ١٨٢٤ - ١١ مايو ١٨٢٥) اضطلع فى البداية بقيادة الالاى المصرى الاول الذى =

الذى عين سر عسكر[1] بدلا عن محمد بك الدفتردار وقد اجمعت المصادر والمراجع على أنه صاحب اختيار الخرطوم لتكون عاصمة ، فكانت تلك بداية مدينة الخرطوم ، وتاريخ انشائها هو تاريخ تعيين ذلك الحكمدار الذى أعجب بتلك المنطقة التى يقترن فيها النيل الأبيض بالنيل الأزرق ،فوضع هناك عددا من الجند وبنى قلعة لهم فى ١٢٤٠هـ - ١٨٢٤م ، وبقى فيها متخذا اياها عاصمة له ، حيث توفى فيها بعد ثمانية أشهر من وصوله .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الخرطوم حتى بعد ضم البلاد كانت عبارة عن قرية للصيادين مكونة من الخيام والعشش [2] والتى حلت محلها بعد انشاء المعسكر "الدرادر"[3] ، والمساكن المبنية بالطوب (اللبن) المجفف ، كما أن عثمان باشا هو أول حكمدار نقل الى الخرطوم دواوين الحكومة والمخازن والشُوَن .

أرسل الى السودان بعد تدريبه على النظام الحديث، ثم رحل على رأس خمس كتائب مشاة ، وتسلم أمر السودان بعد الدفتردار وجعل اقامته فى مدينة الخرطوم الجديدة ، ومالبث أن عاجلته المنية فى الخرطوم بداء الجدرى ودفن فيها ، انظر عبد الرحمن زكى ، حكمداروا السودان ، المجلة التاريخية المصرية ،العدد ١-٢، سنة ١٩٤٨ ،ص ٤٢٩ .

(١) سر عسكر : هى رتبه عسكرية ،تعنى القائد العام ، انظر الرافعى عصر اسماعيل ج ١ ،ص ٣٠ مرجع سابق .

(٢) محمود القبانى ،تأسيس الخرطوم ،ص ٢٥ .

(٣) جمع دُردُر : وهو الكوخ الصغير، رفرفه من طين،فان كان من حطب أو قصب فهى "قطية"، أنظر د . عون الشريف قاسم قاموس اللهجة العامية فى السودان ،ص ٣٧ .

جاء بعد عثمان باشا ، محوبك[1] الذى زاد من الوزن السياسى للعاصمة ببناء ديوان أو بناية خاصة للادارة الحكومية ، وشيدت مبان أخرى متينة خصصت للضباط اضافة الى بناء جامع وسوق. واصبح المكان الذى شيدت فيه الأبنية والادارات والشؤون ، نواة لحى الحكمدارية فى ذلك الوقت وهو أهم أحياء الخرطوم فى ذلك الوقت ، بل لعله أهم الأحياء فى جميع أنحاء العاصمة اليوم - رغم أنه الآن لم يعد يحمل نفس الاسم - حيث يوجد بها أعلى مرافق الدولة ، ومقر رئاستها ، والوزارات والجامعات والادارات العليا ، والفنادق ، والمنتزهات ، والمنازل الحكومية.

بلغ الخرطوم بعد محو بك ، خورشيد باشا (٢) رابع حكام السودان وأطولهم مدة اذ دام حكمه نحو ثلاثة عشر عاما ، ويبدو أنه لم يتخذ الخرطوم عاصمه عند أول مجيئة وانما جاء ذلك شيئا فشيئا الى أن تم نقل

---

(١) محو بك ، هو زميل قديم لمحمدعلى باشا ، وكان حاكما لبربر قبل وفاة عثمان باشا ، تسلم ادارة السودان ، بعد وفاة عثمان باشا ، واطلق على وظيفة محو بك ناظر بلاد السودان ، لأن وظيفة حاكم السودان "الحكمدار" قد قسمت بينه وبين سليمان بك قائد الجنود فى السودان ، هذا ولمحو بك شجرة كبيرة فى جنوبى الخرطوم غرسها هو ، وقد عرفت تلك الشجرة باسمه ، ومازال الحى الذى به شجرة محو بك يعرف " بحى الشجرة" ،
أنظر عبد الرحمن زكى ، مرجع سابق ، ص ٤٢٩.

(٢) هو اللواء أغا خورشيد (١٨٢٦/٨/٣١-١٨٣٨/١٢/١٢) : ابن شقيقة محمدعلى باشا نال رتبة البكويه ثم الباشوية ، فى أيامه عم الأمن بقاع السودان ، واحتلت القلابات واتسعت سوقها التجارية وقد أنعم عليه برتبة اللواء فى سنة ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣٤م ، بنى مسجدين فى الخرطوم وسنار ، ثم سافر الى مصر ولما عاد منها كان قد أنعم عليه برتبة الفريق ، نقل الى مصر على اثر احتجاج الدول على غارات الجند فى السودان داخل الحبشه - انظر عبد الرحمن تركى ، مرجع سابق ص ٤٢٩.

الدواوين اليها بصفة نهائية حوالى عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م بعد أن اقتنع بصحة اختيار المكان ، حيث يحتل مركزا وسطا بين الأقاليم السودانية التى تم ضمها للادارة التركية المصرية ،ولسهولة الاتصال بينه وبين مدن السودان الأخرى ، بالاضافة الى صلاحية المكان مستقبلا فى توفير المواد الغذائية والتموينية اللازمة لاستقرار ومعيشة الجماعة الأولى التى نزلت بها من حكمداريين وموظفين وجيش وسكان وطنيين وأجانب .

وغدت الخرطوم بعد ذلك معلما بارزا للوجود السياسى للحكومة التركية المصرية تمثل فروع ومصالح الادارة المختلفة ،ومنها كان يوزع الموظفون على أنحاء البلاد ،ويتلقون الأوامر والتعليمات ويستكملون جميع لوازمهم واحتياجاتهم الخاصة بالعمل ، واليها يقدمون التقارير والحسابات وتقوم هى بدورها بتقديمها للادارة المختصة فى القاهرة . [1] .

والجدير بالذكر أن خورشيد باشا قد نزل أول الأمر بأم درمان وقابله محو بك هناك وبقى فيها مدة من الزمن ،وتكاد تجمع المصادر والمراجع على أن خورشيد هو أول حاكم نظم السودان ، وطور مدينة الخرطوم والتى دخلت فى عهده طورا جديدا وذلك بأن اتجهت فى اتساعها نحو الشمال وقد شمل ذلك الاتساع انشاء حى المسجد والذى اصبح من أهم الاحياء السكانية أيضا وسمى بهذا الأسم لنشأة الحى حول المسجد الذى بناه الحاكم وأصبح من أهم معالم الحى ، وهو نفس المسجد الذى صلى فيه محمد أحمد المعروف

---

(١) نسيم مقار ، مرجع سابق ،ص ٤٣ .

" بالمهدى" فى أول زيارة له للمدينة بعد سقوطها فى يده[١] .

ويبدو أن أهمية الخرطوم كمركز تجارى ، قد ساعد فى ابراز اسم المدينة فى الأوساط الدولية ،أصبح يغشاها كثير من الأوروبيين والشرقيين ولعل أول من دخل الخرطوم من الأوروبيين هما الضابطان كايو،وكادو اللذان كانا فى احدى فرق جيش اسماعيل باشا ،وان أعدادا أخرى دخلت البلاد بعد ذلك لممارسة التجارة فى الرقيق وريش النعام والعاج حتى قناصل الدول الاوروبية كانوا لا يسلمون من ممارسة مثل تلك الأعمال، فقد عينت بريطانيا (جون باتريك) مساعدا للقنصل الا أن القنصلية قد أغلقت فى ١٢٨١هـ - ١٨٦٤م عندما تواترت أنباء عن اشتغال القنصل بتجارة الرقيق ، فعينت بريطانيا بعد ذلك(روست Rosset) قنصلا لها وخلفه فرانك باور "Frank Power" الذى كان مراسلا لصحيفة التايمز فى ذلك الوقت .

وقد توافد أيضا ممثلو كثير من الأقطار الى الخرطوم ،وكان من بينهم ممثلون من ايطاليا وايران وأمريكا ،وكانت لليونان جالية كبيرة تخصص معظمهم فى أعمال البقالة[٢] .

ومن أهم معالم الخرطوم بالاضافة للمسجد الذى بناه خورشيد باشا قصر الحكمدارية الذى بدء تشييده فى عهد الحكمدار احمد ممتاز باشا[٣]

---

(١) ابو سليم ، تاريخ الخرطوم ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

(٢) ميمونه ميرغنى حمزة ، حصار الخرطوم ، الخرطوم : دار جامعة الخرطوم للطباعه والنشر، ط ، اولى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م ، ص ٤١ .

(٣) عين مديرا لعموم قبلى السودان ، أدخل زراعة القطن . . كثرت الشكاوى ضده فأوقف عن الخدمة فى ١٢٩٠/١٨٧٣ وسجن فى الخرطوم ومات عام ١٢٩٢/١٨٧٥ ودفن بها ، انظر عبد الرحمن زكى ص ٤٣٩ .

الذى استجلب لبنائه الحجر الأبيض المنحوت الا أن ممتاز باشا أقصى من منصبه قبل اتمام انشاء القصر، فأكمل بناءه فيما بعد الحكمدار اسماعيل باشا أيوب[١] . ولكن قام الحكمدار عبد اللطيف[٢] باشا "١٢٦٦/١٢٦٩" "١٨٤٩/١٨٥٢م" باضافة منشآت جديدة ، فبنى قصرا جديدا للحكمدارية وهو القصر الذى قتل فيه غردون باشا ،وقد شيد هذا القصر من جديد بعد اجتياح الجيش الانجليزى للسودان عام ١٣١٦هـ/١٨٩٩م وصار فى العهد الوطنى المقر الرسمى لرأس الدولة ،كذلك بنى عبد اللطيف مبنى مديرية الخرطوم القديمة والمطبعة و محكمة العموم والصيدلية وثكنات رجال المدفعية ،وكانت كلها بالطوب الأحمر[٣] .

هذا ويقول أحد السودانيين المعاصرين ،أنه كان يوجد بالخرطوم كثير من الشوارع المنظمة وعلى جانبها قصور مشيدة ومنازل جميلة تسر الناظرين وهذه الشوارع تكنس وترش صباحا وعصرا ، وهى لا تقل فى نظافتها عن شارع محمد على وبها ثلاثة مدارس احداهما للحكومة وهى

---

(١) اسماعيل باشا أيوب : ١٢٩٠-١٢٩٤هـ/١٨٧٣-١٨٧٧م ،تولى رئاسة مجلس الخرطوم ،وكان سكرتيرا للحكمدار ،وفتحت فى عهده اقليم دارفور، كما انشأ محطات فى طريق القوافل بين الخرطوم ودارفور ،وبين بربر وسواكن ،انظر عبد الرحمن زكى ،ص ٤٣٢ .

(٢) عبد اللطيف باشا : هو جركسى الأصل ،ومن أمراء الأسطول المصرى ، حكم عليه بالاعدام بينما كان قبطان لاحدى السفن ثم عفى عنه فى آخر لحظة اثرت دخل بعض الضباط الفرنسيين الذين تدرب على أيديهم // انظر عبد الرحمن زكى ، المرجع نفسه والصفحة

(٣) ابو سليم ،تاريخ الخرطوم ،مرجع سابق ،ص ٣٥ .

كاملة المعدات حسنة الترتيب والأخريان صغيرتان أحداهما للجزويت والأخرى للأقباط أما المكاتب الصغيرة (الكتاتيب) التى يدرس بهاالقرآن الكريم فهى مما لا يدخل تحت الحصر، وبها أيضا كثير من المقاهى ، منها ماهو على شاطىء النيل الأزرق ومنها ما هو داخل المدينة وجميعها منتظمة ومبيضة تبييضا جميلا وأرضيتها مكسوة بألواح الخشب[١]

وكان النقص فى الحرفيين من بنائين ونجارين وغيرهم من أعقد المشاكل ولذلك أحضروهم من مصر وأعدوا فرقا من الجيش لتقوم بهذا العمل وكان بالخرطوم موظف عمله مناظرة مشاكل البناء والاشراف على المبانى ، وهو "ناظر العمارات الميرية"[٢] . أى المبانى الحكومية. ونضيف بأن الخرطوم تطورت الآن وصارت تعرف بالعاصمة المثلثة ، الخرطوم ، الخرطوم بحري ، أم درمان .

ولعلهما من مدينه فى السودان حظيت بأهتمام الحكم التركى المصرى بعد الخرطوم مثلما حظيت بها مدينة سواكن على ساحل البحر الأحمر والميناء القديم للسودان .

سواكن :

لم يقتصر جهود الحكم التركى المصرى على تأسيس المدن والمراكز السياسية فحسب فى السودان بل عمل على تعمير بعض المدن السودانية فى ذلك الوقت مثل بربر ودنقلة والأبيض ومن ضمنها كانت سواكن ، فعند استلام الادارة التركية المصرية لها عام ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م كانت تعانى من سوء الاحوال الامنية والصحية وعدم أهلية المبانى الحكومية للاستغلال فعملت الادارة التركية المصرية على تعمير هذا البلد وترقية الأعمال

---

(١) سليمان كشه ، تأسيس مدينة الخرطوم ، الخرطوم : الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ/١٩٦٦ ، ص ١٠ .

(٢) ابو سليم ، تاريخ الخرطوم ، مرجع سابق ، ص ٣٠ .

الزراعية والتجارية فيها [١] ، فشيدت مباني الادارت الحكومية ومساكن للمواطنين ، ففي ٢٨ صفر سنة ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م أرسلت الادارة في القاهرة الى حكمدار السودان رسالة تبين له أهمية بندر سواكن بطبيعته كميناء صالح للعمران وأن من العساكر الموجودين به من يتقن أشغال الحدادة والنجارة والنحت والبناء ، وأنه من الممكن استخدامهم في بناء أكواخ الأهالي بدلا من العشش المغطاة بالحصير التي يقيمون فيها ، كما أشير في الرسالة الى أن يكون البناء بمواصفات معينة تضمن تماسكها ومتانتها وطول بقائها [٢] .

كما شيدت الحكومة الى جانب ذلك مسجدا صغيرا ، ومدرسة صغيرة ومستشفى مدنيا وطلب اليه أيضا توصيل المياه من مكانها الذي يبعد ساعة عن سواكن اليها ، وقد استجلب لهذا الغرض آله ميكانيكية لصنع المواسير الفخارية والطوب اللازم لهذه الاعمال من أوروبا ، وفي ٢٨ ذي الحجة سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م أرسلت الادارة في القاهرة الى مدير عموم شرقي السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر ، بوجوب ترميم المسجد المتخرب بسواكن وبانشاء مكتب واحد لتربية وتعليم الأطفال .

وقد رؤى أيضا اصلاح مرسى القيف [٣] ومرسى الجمارك وهما تابعان لجمرك سواكن ومرسى آخر مجاور للجمرك ، اذ ظهر أن هذه المراسي

---

(١) محمد عبد الغني سعودي ، التكامل ، مرجع سابق ص٧٣ .

(٢) شوقي عطا الله ، سياسه مصر في البحر الاحمر ، القاهر : الهيئة المصرية العامه للكتاب ، الطبعة الاولى ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ص٠٩٠ .

(٣) القيف : كلمة عامية سودانية بجاوية تعني شاطىء النهر حيث يقف الانسان ، د . عون الشريف ، مرجع سابق ، ص٩٤٨ .

كلها تحتاج الى ترميم كما جيء من مصر بعشر مطاحن للغلال خصصت أربعة منها لسواكن وستة أخرى لكسلا [١] . كما بنيت أفران لخبز العيش .

ولم تقتصر اعمال المباني على بناء مساكن لسكنى الاهالي وتشييد وترميم وتعمير المساجد والكتاتيب وترميم المراسى وبناء الأفران ، بل امتدت أيضا الى الأعمال الحربية ببناء القلاع والاستحكامات فى الثغور[٢]، وثكنات الجيش، كما شملت اعمال البناء سائر المصالح كالجمارك والمحجر الصحى والبريد والبرق ، والضابطية ورئاسة الشرطة .

وتأكيدا لابراز المدينة بمظهر طيب فقد أمر ممتاز باشا المسؤلين والعاملين فى الشركات البحرية ، مثل شركة ابراهيم بك فهمى التى كانت تسير بواخرها فى البحر الأحمر والشركة الخديوية ، وشركة "روبا تينو" الايطالية ، أمرهم بأن يشتروا الأراضى الفضاء من الأهالى العاجزين عن التعمير كى يقيموا عليها منازل لسكناهم ومكاتب لأعمالهم التجارية ، وبدأت هجرة المصريين والحجازيين الى سواكن خصوصا التجار منهم والموظفين[٣] للسكن فيها ، وقد أفاد ميناء سواكن انتعاش التجارة فى الأقاليم السودانية فائدة عظيمة ونتج عن ذلك أن تأسست العديد من البيوتات التجارية ، وبلغ عدد السفن التى دخلت ميناء سواكن فى عام ١٢٨٦ / ١٨٦٩ مائه وست واربعين سفينة وزاد عددها بعد ذلك ففى عام ١٢٩٤ / ١٨٧١ كان عددها مائتين وثلاثين سفينة [٤] . * *

---

(١) شوقى الجمل ، سياسة مصر فى البحر الاحمر ، مرجع سابق ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، نفس الصفحة .

(٣) محمد صالح ضرار ، مرجع سابق ، ص ٨٣ .

(٤) محمد عبد الغنى سعودى ، مرجع سابق ، ص ٧٩ .

×× ومما تجدر الاشارة اليه ان سواكن قد تعرضت لعوامل عدة ادت الى تدهورها من تلك العوامل انشاء ميناء بورتسودان عام ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٦ م

الابيـــــض :

عملت الادارة التركية المصرية على القيام بكشوف علمية دقيقـــة في جميع الاقاليم السودانية ومناطق أعالى النيل واستعانت فى ذلـــك بكثيرمن الاوروبيين منهم الفرنسى (الفريد بينى) "Elfred Biny" والانجليزيان (صمويل بيكر)"Samuel Baker" و(غردون)"Gordon" والضابط الأمريكي (شاييه لونج) ،"Chaillé Long" والبلجيكـــــى (ارنست لينات)[1] "Ernest Linant" والايطالى (جســـى) وقد اشترك هوءلاء وغيرهم فى أعمال الكشف الجغرافيه واعداد الخرائـــط والرسوم الطبوغرافية فى معظم الأقاليم السودانية يعاونهم فى ذلك نخبة من الضباط المصريين الذين امتاز من بينهم كثيرون ، ومنهم (محمد ماهـر) الذى اشترك مع الضابط الأمريكى (براوت) فى كشف كردفان عـــام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م[2] .

وقد طال الاهتمام عاصمتهـا الأبيض ، فقد رسمت خريطة للطريـق بينهـا وبين الخرطوم ، وكانت منازلهـا فيما مضى عبارة عن أكواخ مبنيـــة من القش والطين ولكن اسماعيل باشا أيوب بنى فيها مقرا للحكم ومسجـــدا

---

(١) آرنست لينان) هو ابن ليناد ى بلفون المهندس الفرنسى الـــذى قدم لمصر سنة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٨م وعمل فى خدمة محمدعلى ثـــم اشترك فى رحلات كشفيه بالسودان وتنقل فى عدة مناصب فى مصر ومنح الباشوية ووضع عدة مشروعات للرى ، واشترك فى تصميم مشـروع قناة السويس، تزوج من حبشية ولدت له ولدين أحدهما ارنست الذى قتل فى معركة مع القبائل المجاورة "لموجى" ، وهى منطقـــة بجنوب السودان - انظر جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ١٢١ .

(٢) على ابراهيم عبده ، التكامل ، بحث عن العلاقات التاريخية بين مصروالسودان حتى نهاية القرن التاسع عشر ، فى كتاب التكامـــل المصرى السودانى ، مرجع سابق ، ص ٨٩ .

ومستشفى وثكنات للجند ومنازل حكومية[1] ، وقد أدى انشاء هذه المرافق الحكومية الى زيادة هيبة السلطة في نفوس الأهالى ، مما أدى الى تقاطرهم نحو المدينة ، وزاد عدد السكان بها ، ففى ١٣٠٠هـ/١٨٨٤م احتوت الأبيض وهى أكبر مركز عمرانى فى الغرب على مجموعة من المبانى الحكومية وعلى سوق يتوسط مجموعة قرى تسكنها مجموعات قبلية تضم التكارير والدناقلة .

ومما لا شك فيه فان أهمية الأبيض فى الغرب ومكانتها قد ازدادت بعد اتخاذها مركزا للادارة المصرية فى كردفان[2] .

كسلا :

باستقرار الأحوال فى السودان قسم محمد على البلاد على النظام الادارى التركى المصرى الى مديريات بلغ عددها فيما بعد ست مديريات هى : دنقلا ، وبربر والخرطوم وسنار وفازوغلى و كردفان ، ثم ضمت مديريه التاكا فى شرق السودان بعد عام ١٢٥٧هـ/١٨٤٠م فأصبحت المديرية السابعة .

وقد نشأت كسلا عاصمة اقليم التاكا فى عهد الحكمدار أحمد باشا أبو ودان" ١٢٥٦-١٢٦٠هـ "/" ١٨٣٩-١٨٤٣م" وذلك أثناء فتحه للاقليم ، والذى اتخذ معسكره على نهر القاش بسفح جبل كسلا ، ولم

---

(١) السيد يوسف نصر ، الوجود المصرى فى افريقيا ، القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الاولى ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص ٢٨٤ .

(٢) م . هولت ، دولة المهدية فى السودان ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ترجمة جميل عبيد واحمد عبد الرحيم مصطفى ، بدون تاريخ ص ٢٠ .

يغادرها الا بعد أن ترك بها حامية ثابته وجعل عليها عدد من الجنود ، فأقبل عليها الأهالى المجاورون واتخذوها موطنا لهم [١] .

وتقدمت مدينة كسلا حتى صارت عاصمة لاقليم التاكا ، وأصبحت تعتبر حلقة اتصال بين الخرطوم والمدن الساحلية [٢] ، هذا وقد غشيتها خطوط البرق ، كما زودت بست مطاحن للدقيق بينما زودت سواكن بأربع مطاحن فقط وهذا يدل على ان عدد الأهالى فى كسلا يفوق عددهم فى سواكن ، فكثرة السكان هى التى تطلبت زيادة عدد المطاحن لمواجهة عمل الاستهلاك المتزايد للغلال .

الفاشر :

بعد أن ضم الزبير باشا سلطنة دارفور الى الحكم التركى المصرى عام ١٢٩١هـ/١٨٧٤م ، قام حكمدار السودان آنذاك اسماعيل باشا أيوب بالسير نحو الفاشر عاصمة اقليم دارفور ، ولكى يؤكد بسط سلطة الحكومة قام ببناء حصن منيع هناك كما بنى دارا للحكومة ومنزلا للحاكم وثكنة للجنود ووطد دعائم الامن والطمأنينه ، وأقام فى المدينة سوقا عامرة للتجارة [٣] كما أنشئت بها قلعتان أخريان لجنود الجهادية [٤] وذلك للدفاع عنها [٥]

---

(١) عبد الغنى سعودى : مرجع سابق ، ص٧٢ .

(٢) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ص ١١٥ .

(٣) الرافعى ، عصر اسماعيل ج ١ ، مرجع سابق ص ١٣٦ .

(٤) الجهادية : هم الجنود السودانيون فى الجيش التركى المصرى أنظر محمد سيد محمد ، المديرية الاستوائية ، بحث فى مجلة البحث العلمى جامعة أم القرى - كلية الشريعة العدد السادس ١٤٠٣ / ١٩٨٣ ص ٣١٦ ، انظر ايضا الرافعى ، عصر اسماعيل : جـ١ص١٥٢ انظر ايضا عبد الله حسين ، مرجع سابق ، جـ ١ ، ص١٣٣ .

(٥) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

وعن الوجود السياسى للحكومة .

وبفتح دارفور زاد عدد سكان السودان فى العهد التركى المصرى بنحو ثلاثة ملايين نسمة . (١) .

والجدير بالذكر أن تأسيس المدن والمراكز السياسية مثل الأبيض وسواكن وكسلا لم يكن متزامنا مع تأسيس الخرطوم كعاصمة للسودان .

ولم تقتصر جهود الحكم التركى المصرى فى انشاء المدن والمراكز السياسية على الخرطوم وسواكن وكسلا والأبيض والفاشر فقط بل قد أسست مدنا ومراكز سياسية أخرى فى بقاع أخرى مختلفة فى بلاد السودان الا أنها لم تثبت وتنمو وتكبر مثل المدن السابق ذكرها ، وذلك اما لأنها لم تصمد أمام الظروف السياسية ، أو أنها منذ تأسيسها كانت تحمل بذور عدم القدرة على النمو والتقدم ، فمثلا : مدينة " فامكة " على النيل الأزرق فى اقليم سنار على بعد ٢٥ ميلا جنوب شرق الرصيرص، وتسمى أيضا (مدينة محمدعلى) حيث أمر الباشا بانشائها عند وصوله الى ذلك المكان فى ١٧ ذو القعده ١٢٥٤ / فبراير ١٨٣٩ ، ولكى تكون هذه المدينة جديرة بحمل هذا الاسم ولكى تكون أعظم وأكبر مدن السودان أمر الباشا باحاطتها بسور وأنشاء الحدائق والبساتين فيها واسكان كل من يرغب فى سكناها والاقامة فيها ، وتوجد حتى يومنا هذا بقايا مدينة بناها الاتراك فى الشاطىء الشرقى للنيل الأزرق فى مواجهة قرية " أم درفه " الحالية وتعرف باسم " فامكه " ، وكان عدد من المصريين قد استقروا فى تلك الجهات ، بل ان أحد " الأتراك " ويدعى

---

(١) الرافعى عصر اسماعيل جـ١ ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

يوسف محمد أغا لايزال أحفاده يسكنون حتى يومنا هذا فى قرية "العربيه" التى تقع بالقرب من " أم درفه "(١) .

وقد جعل محمدعلى من فازوغلى مديرية لها عاصمة وحدود ومسوء لين اعتقادا منه بأن هذه المنطقة توجد بها كميات وافرة من الذهب الخام والذى يمكن استخراجه واستغلاله بكميات تجاريه تدر للخزينه العامة فى القاهرة دخلا يساعد الحكومة على الخروج من الأزمات المالية التى تواجهها وما يمكن أن تواجه به المصروفات الضخمة بالنسبة للجيش والتسليح وتساعد على تنفيذ المشروعات الطموحة التى تتطلع الدولة لانجازها مثل مشروع قناة السويس، ومواجهة تكاليف الصراع مع الباب العالى -على سبيل المثال لا الحصر- .

الا أن بعثات التنقيب عن الذهب عندما قدمت للتنقيب وجدت أن مايقال عن كميات الذهب فى تلك المنطقة هو مبالغ فيه ،وان جملة مايمكن استخراجه من الذهب لاتساوى شيئا نظير ماينفق فى سبيل مجهودات تعدينه .

أيضا هنالك مدن كدنقلا وبربر قد غشيتها يد الاهتمام والتعمير غير أنه لميكن بالسودان الجنوبى خلال مرحلة الحكم التركى ما يجدر أن تطلق عليه اسم المدن ، فقد اقتصر الأمر بالنسبة للنيل الأعلى على سلسلة من النقط الادارية أقدمها وأفضلها تشكيلا " فاشوره " الواقعة على الضفة الغربية للنيل شمال منطقة السدود

---

(١) حسن احمد ابراهيم ،رحلة محمدعلى للسودان ،الخرطوم معهد الدراسات الافريقية والاسيوية ،الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص ٢٥.

وفى الاقاليم الواقعة حول بحر الغزال تحول كل ديم(١) خاص بأحد تجار الرقيق مع مرور الزمن الى نقطة عسكرية للمصريين والى مراكز للادارة والحكم ،كما أصبح مقر قيادة الزبير رحمه ،عاصمة اقليمية ،عرف أحيانا باسم ديم الزبير ، واحيانا أخرى باسم ديم سليمان نسبة لابنه(٢) ، وذلك حينما كان الزبير محبوسا فى مصر .

والجدير بالذكر أن انشاء المدارس أيضا يعد من أسباب تعمير المدن ،وفى عهد الحكمدار موسى حمدى باشا(٣) ، أسست خمس مدارس صغيرة فى مديريات الخرطوم وبربر ودنقلا وكردفان والتاكا بدلا من مدرستين عظيمتين ،وتعلم فى كل منهما مائه تلميذ كى تشمل ثمرات التمدن وانتشار العلوم أهالى عموم السودان ومتوطنيها ويمتازوا بتحصيل

---

(١) كلمة سودانية ،تعنى فى الاصل كلمة معسكر، أنظر عون الشريف ، قاموس اللهجة العامية ،مرجع سابق ،ص ٤٢٣ .

(٢) ب . م. هولست ،مرجع سابق ،ص ٢١ .

(٣) موسى حمدى باشا : جركسى الأصل "١٢٧٩-١٢٨٢هـ" / "١٨٦٢ - ١٨٦٥م" ، هو أحد مماليك أحمد باشا ابو ودان ،وقد عينه فى هيئة أركان حربه ،ومن ثم قائدا لحامية الخرطوم ،وبعد موسى حمدى من خيره حكمدارى الخرطوم ،قاد عدة حملات ناجحة فى أقاليم السودان أنعم عليه الخديو اسماعيل برتبة فريق ،وكان اول حكمدار يحضر معه عربة فخمة تجرها الجياد المطهمة ،ويعدو أمامها السعاة ، وقد صارت من ضمن الغنائم بعد فتح انصار المهدى للخرطوم ، وصارت تعرف فيما بعد بعربة الخليفة ، ومازالت محفوظة فى متحف الخليفه بأم درمان ،توفى موسى حمدى بالخرطوم ودفن بها بجانب مقبرة زوجته .
انظر عبد الرحمن زكى ،مرجع سابق ،ص ٤٣٥ .

العلوم والفنون النافعة [1] .

ويرجع الفضل في نمو المدن السودانيه الواقعة فى الشمال دون المناطق الواقعة في الجنوب الى عدة أسباب سياسيه واقتصادية واجتماعية وبيئية :-

١) استقرار الادارة وعاصمتها فى الشمال حيث تركز فيها الحكمدارون والدواوين وموظفوها وكبار رجالات الجيش وثكنات الجند و المدارس وكبار التجار والبيوتات المالية وعلية القوم والمثقفون .

٢) قرب مدن وأهل الشمال من مركز الادارة فى القاهرة بصفة عامة حيث يتركز فيها عناصر وأدوات الوعى الثقافى والاجتماعى، والتى انتقلت الى السودان بفعل قدوم الافراد والاسر للعمل فى سلك الحكومة أو للتجارة ، مما ساعد على نمو وازدهار المدن فى السودان الشمالى .

٣) معطيات التقدم فى الجنوب ضعيفة ، منها صعوبة البيئه فى الجنوب حيث انها منطقة ذات طبيعة مطرية طوال العام اضافة الى وعورة الطرق وكثرة الغابات ، وبالتالى انتشار الأمراض ، أقلها خطرا مرض الملاريا .

٤) الأداة الثقافيه والتى تتمثل فى اللغة ، حيث أن اهل الشمال يستخدمون اللغة العربية كلغة تخاطب سواء كان فى علاقتهم فيما بينهم أم فى مجال تعاملهم مع الحكومة ، فوحدة اللغة هذه أيضا

---

(١) محمد فوزى مصطفى عبد الرحمن ، الثقافة العربية وأثرها فى تماسك الوحدة القومية فى السودان المعاصر، بيروت ، دار الثقافة الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ، ص ٧٣ .

كانت لها دور ، وسبب من أسباب التقدم سهلت للحكومة بلوغ ما تصبو اليه من تقدم مدن السودان وازدهارها .

٥) ان كشف الجنوب وانفتاحه للعالم الخارجي قد جاء متأخرا مما أدى الى تأخير ان لم نقل عدم نمو المدن فيها .

٦) ايثار المسوءلين في الحكومة على تحقيق المصالح السياسية والاقتصادية في أقرب وقت ممكن ادى الى عدم استقرارهم وبالتالى لم تلتفت الحكومة الى تعمير النقاط التى يعملون فيها تعميرا يحقق تقدمها وقد اثر هذا على جنوب السودان على وجه الخصوص.

٧) ثورات الشمال ضد الحكومة ـ منها ما زعزعت الحكومة ـ مثل ثورة الجهادية في كسلا ١٢٨٣هـ/١٨٦٦م، وثورة (**الوشيد**) في عام ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م بدارفور ، تلك الثورات تختلف في مستواها عن مستوى الأحداث في الجنوب مما لفتت انتباه الحكوممة الى بناء القلاع والثكنات والدواوين وارسال جنود وموظفين الى تلك المناطق وهذه كانت من دواعي اهتمام الحكومة بانشاء وتعمير منطقة ما .

٨) تجارة الرقيق التى أقبل عليها التجار اقبالا مخيفا في ذلك الوقت مما زعزع استقرار السكان ، وخلق ارتباكا عظيما في وضع الأهالي الأمنى والاقتصادى ، حتى كادت الحكومة أن تفقد سلطتها تماما في تلك المناطق ، ومن أسباب عدم الاستقرار أيضا صراع القبائل نفسها مع بعضها البعض .

الفصل الرابع

الحكام الأجانب وفسادهم السياسي والأخلاقي ودورهم في تقويض دعائم الحكم التركي المصري في السودان

الحكام الاجانب في السـودان :

هم العناصر الاوروبيةوالامريكية التى عينهم الحكم التركى المصرى كحمداريين و اداريين وموظفين بالسودان .

الأصل التاريخى لتعيين الحكام الأجانب :

ان مسألة اعطاء الأوروبيين حقوقا وامتيازات فى مصر والسودان قد بدأت مع الأسف فى تركيا أولا ، وكانت فى بدايتها مجرد منحة ، أعطتها تركيا لبعض الدول ورعاياها ولقد ظلت ردحا من الزمن مصطبغة بهذه الصبغة ، حتى سرى الضعف الى السلطنة العثمانية فاستحالت تلك المنحة حقا مكتسبا (١) .

ثم انتقلت عدوى الامتيازات الى مصر، فقد كانت الدولة العثمانية تلزم مصر عبر الفرمانات بأن تتكفل بحقوق الأوروبيين فيها ، فمثلا فى الفرمان الصادر بتولى الخديو اسماعيل فى العشرة الاولى من شهر شعبان ١٢٧٩هـ ١٨٦٣م، صدر قرار باعتبار السودان من ملحقات باشوية مصر واشتراط شئون الحكم فى مصر وملحقاتها بالشروط نفسها الواردة فى فرمان ١٢٥٨هـ/٢٣ مايو ١٨٤١م ، أى يطبق فى مصر وملحقاتها ، ماهو صادر فى ١٢٥٦هـ/ نوفمبر ١٨٣٩م، وأن تسرى بها وبملحقاتها المعاهدات المبرمه أو التى تبرم بين الباب العالى والدول الأجنبية ومن أهمها معاهدات الامتيازات الأجنبية (٢) .

---

(١) الرافعى ، عصراسماعيل ، ج ٢ ، مرجع سابق ، ص ٢٦٢ .

(٢) محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، وحدة وادى النيل ، مرجع سابق ، ص ٩٢ .

كان النفوذ الاجنبي في عهد محمد على أخف حده مما كان في عهد اسماعيل الـــذى أشرأبت نفسه لأن يكون ملكا غير تابع للسلطان العثمانى ،قد جعل مـــن العدة لذلك ان يستعين بالأجانب من الأوروبيين ، فأوسع لهم فى المجاملة وزاد لهم فى الامتياز خارجا عن حدود المعاهدات حتى صار كل مـــن لا يملك قوت يومه ملكا من الملوك وصغرت نفوس الأهالى بين الأجانب بقوة الحاكم وانقلب الوطنى غريبا فى داره ،غير مطمئن فى قراره ، فاجتمع على سكان البلاد ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية وذل سامهـــم الأجنبى اياه ليصل الى مايريده منهم ،غير واقف الى حد ،أو مردود الى شريعة ، وكان رجال الحكومة اما من الأرناؤود أو الشراكسة ،أو الأرمـــن أو ما شابههم وكانوا يحكمون كما يهوون ولا يرجعون الى شريعةأو قانون [1] فى كثير من أمورهـــم .

وقد زاد انبهار محمدعلى بالأوروبيين والدول الأوروبية بعـــد معاهدة لندن حيث رأى مدى تأثير هذه الدول فى سير الأحداث بينه وبين السلطان العثمانى ، ورأى أنهمن الأفضل كسب صداقة هذه الدول بحيث تكون معه لا عليه ضد الدولة العثمانية فربما كان يقصد من وراء ذلك عدم تحرش هذه الدول به نتيجة لدخوله الى شرق ووسط أفريقيا ،مثلمـــا فعلت معه من قبل فى آسيا [2] ، لذا نراه يسمح للتجار الانجليز بالاتجـــار فى الصمغ والسنامكى على شرط أن يقوموا بتسديد الرسوم الجمركية المقررة والبالغ قدرها ١٢٫٥٪ ، وفيما سمح لجميع الأوروبيين بالاتجار فـــى

---

(١) عبدالودود شلبى ،الاصول الفكريه لحركة المهدى ،القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م ،ص ١٠٣ .

(٢) السيد يوسف نصر، مرجع سابق ،ص ١٢٣

المنتجات السودانية الى جانب التجار المصريين[١] ، وربما أراد بهـــذا العمل أيضا ، أن يترك علاقات طيبهبين هذهالدول الأوروبيه وبين خلفائـه من بعده ، الذين لم يتمكنوا من الخلاص، من رغبات الهيمنة الأوروبية علـى العالم الاسلامي ، والتي هي رغبة عامة ومزاج منتشر بين الحكومات والشعوب الأوروبية ، والتي تأصلت في نفوسهم وتصرفاتهم منذ الحروب الصليبية ، ومـا الذي يحدث الا صورة من صور الصراع بين الشرق الاسلامي والغربـي المسيحي وأصبحوا يتبعون شتى الطرق والأساليب والوسائل لبلوغ ذلـك الهدف المنشود ، فنجدهم ينتهزون الفرص للتدخل في الشئون الداخليـة للبلاد الاسلامية ، فمثلا في عهد الوالي عباس[٢] والذي حاول عن طريـق حكمداره المقتدر في السودان عبد اللطيف باشا منع استغلال الأجانـب لجامعي الصمغ بأن حدد سعرا خاصا يعاقب من يشتري ويبيع بأقل منـه وبالفعل نفذ مدير كردفان حسب تعليمات وتوجيهات عبد اللطيف باشـا عقوبة الجلد في تاجر انجليزي خالف هذه التعليمات ، غير أن الـدول الأوروبيه احتجت ورأت في ذلك مخالفة لحرية التجارة في الدولـة العثمانية[٣] ، واستغلوا هذه الفرصه السانحة ليمارسوا من خلالهـا أساليب السيطرة والوصاية ، وتحت ضغطهم اضطر عباس لسحب حكمداره من السودان ، ولم لا وقد كان جده محمدعلي خير نموذج في السير وراء

---

(١) السيد يوسف ، مرجع سابق ، ص١٢٣ .

(٢) هو : عباس حلمي بن طوسون بن محمدعلي ، تولى الحكـم (١٢٦٥هـ/١٨٤٨م - ١٢٧١هـ/١٨٥٤م) بعد وفاة ابراهيم بن محمدعلي ، وفي حياة محمدعلي ، وفي عهده وقفت حركة التقـدم والنهضة التي ظهرت في عهد محمدعلي ، انظر الرافعي ، عصـر اسماعيل ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٣) د . مكي شبيكه ، تاريخ شعوب وادي النيل ، بيروت : دار الثقافـة الطبعة الاولى ، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م ص ٥٠٤ .

كسب ود أوروبا والأوربيين ، وكان يحاول قدر المستطاع أن لا يظهر أمامهم بمظهر يتنافى مع توجهاتهم وآرائهم ومبادئهم التي لا يتعاملون معها الا بقدر مايحقق مصالحهم في الدول الأخرى ، وبالطبع فقد تأثر السودان بما اصيبت به مصر، فقد رضخ عباس لتعليمات الاوروبيين الذين أفلحوا في معرفة نقطة ضعف الولاة في مصر ومنها بدأت التدخلات تترى ، حتى انه في عام ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م قام الوالي سعيد[1] (١٢٧١هـ - ١٨٥٤م / ١٢٨٠هـ - ١٨٦٣م) بزيارة للسودان للوقوف بنفسه على مشاكله ، ومن أهم المشاكل التي كانت تشغل باله وقتها ، مشكلة تجارة الرقيق ، ومشكلة حرية التجارة ، ونفوذ التجار الأجانب في البلاد عموما وفي مناطق الغرب والجنوب خاصة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فلقد تمكن التجار الأجانب من تثبيت انفسهم في البلاد ، حيث أقاموا دويلات داخل الدولة لها جيشها وحدودها الجغرافيه وسلطتها الادارية ، وهو أمر يعكس لنا في حد ذاته التطور الملحوظ في أشكال التدخل والتغلغل الأجنبي والأستعماري في البلاد ابان تلك الفترة ، سواء أكان ذلك في شكل نفوذ التجار الأجانب او في شكل تدخل الدول الاستعماريه في شئون البلاد تحت ستار محاربة تجار الرقيق (٢) .

---

(١) هو سعيد بن محمد على ، ولد سنة (١٢٣٨هـ/١٨٢٢م) ونشأ في حجر أبيه ، اختار له السلك البحري ، فدربه على فنون البحرية وجعل شأنه شأن تلاميذها ، انتظم في خدمة الاسطول قمندانا في احد البوارج ، وتدرج حتى وصل في أواخر عهد أبيه الى منصب (سرعسكر) - انظر الرافعي ، عصر اسماعيل جـ١ مرجع سابق ص ٣٠ .

(٢) عبد العزيز حسين الصاوى ، الثورة المهدية ، مشروع روءية جديدة ، القاهرة : الدار القومية للثقافة والنشر ، بدون تاريخ ، ص ٨٩ .

وأدرك سعيد أن هذا هو نتيجة مباشرة لثقته المطلقة في الأجانب بحيث لم يكن يقوى على أن يخالف لهم رأيا ، أو يرد لهم طلبا وقد اتخذ منهم بطانته وموضع سره ، فانفتحت في كيان مصر أولا ثغرات التدخل الأجنبي ، ثم سرى ذلك في كيان ملحقاتها التابعة لها ثانيا ، خاصة وان الأجانب قد قطعوا في هذا المجال شوطا بعيدا بحيث أصبح من المتعذر الرجوع الى عهود استقلال سلطة القرار ، وكان أهم ثغرات التدخل الأجنبي امتياز قناة السويس[1] ، والاستدانه من البيوت المالية الأجنبية[2] .

ولكن رغم هذا فان التدخل الأوروبي في الشئون الداخلية للحكم

---

(١) قناة السويس: هي مجرى مائي يربط بين البحر الأحمر والأبيض المتوسط ، وفكرة القناة هذه ظلت تراوح مكانها منذ عهد الفراعنة الى عهد محمد على باشا وأسرته من بعده ، بدأ تنفيذ حفر قناة السويس في عام ١٢٧٦هـ/١٨٥٩م ، وذلك في عهد الوالي سعيد بن محمد على ، وانتهى العمل من حفرها في عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ، وافتتحت في نفس العام في عهد الخديو اسماعيل ، الذي أقام لمناسبة افتتاحها الحفلات الضخمة التي لم يعرف التاريخ - حتى ذلك الوقت - احتفالا يدانيها في الاسراف والتبذير ، وقد بلغ طول القناة أربعة وستون ومائة كيلو مترا .

هذا ومما يجدر الاشارة اليه أن مسألة قناة السويس قد صارت من أوسع الأبواب التي دخل بها الاستعمار الأوروبي الى مصر أنظر ، مكي شبيكة ، تاريخ شعوب ، مرجع سابق ص ٥٠٢ الى ص ٥١٨ .

وانظر أيضا الرافعي ، ج ١ ، مرجع سابق ص ٩٣ الى ص ٩٩ .

(٢) الرافعي ، عصر اسماعيل ج١ مرجع سابق ، ص ٥٣ .

التركى المصرى فى عهد سعيد وماقبله كان تدخلا بقدر معين ، أما فى عهد الخديو اسماعيل [١] فان النفوذ الأوروبى قد طغى طغيانا كبيرا ، وخاصة النفوذ الفرنسى ومرد ذلك يرجع الى تربية الخديوى اسماعيل الفرنسية والى السنوات التى قضاها فى باريس ، ومعاشرته الطويلة للفرنسيين وصداقته الخاصة للامبراطور نابليون الثالث ، ويظهر ذلك فى استخدام اسماعيل لطائفة كبيرة من الفرنسيين فى كثير من معاملاته المقبله وقروضه ومشروعاته العمرانية ، وفى احتفائه البالغ بالأمبراطورة (أوجينى) امبراطورة فرنسا فى حفلات افتتاح قناة السويس التى قال البعض أنها لقيت من الحفاوة أكثر مما كانت تلقاه كيلوباترة فى أوج مجدها [٢] .

وكان من الممكن لاسماعيل ان يثق فى الأجانب وأن يتعامل معهم مع الحفاظ على استقلال البلاد ، ولكن كان لا يفطن لمطامع الأجانب الاستعمارية ففتح أبواب البلاد على مصراعيها للتدخل الاجنبى ، وسمح للاوروبيين أن يتغلغلوا فى مرافقها ويتقلدوا المناصب والمراكز الرفيعة فى حكومتها ، وبلغت به الثقة فى سلامة نيتهم حدا جعله يقترض القروض الجسيمة بلا حساب من المرابين والبيوت المالية الأجنبية [٣] ، ومضى

---

(١) هو ثانى أنجال ابراهيم بن محمد على ، ولد فى ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م فى قصر المسافر خانة بالقاهرة (الجمالية) ، عنى أبوه بتربيته ، فتعلم مبادىء العلوم ، واللغات العربية والتركية والفارسية وقليل من الرياضيات ، وتعلم أيضا اللغة الفرنسية كتابة وقراءة ، وبهرته باريس وما فيها من روعة وجمال وغواية وفتنة ، والتى جعلته بعد ان تولى أن يجعل القاهرة باريسا ثانية ، ولو كلفه ذلك أن يمد يده الى القروض التى ناءت بها البلاد .
انظر المرجع السابق ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٢) شوقى الجمل ، مرجع سابق ، ص ٢٣٦ .

(٣) الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ص ٧٧ ، مرجع سابق .

اسماعيل الى أكثرمن ذلك بأن حول ديونه الخاصة على الدولة[1] ، وزاد الضرائب ، ومضى ينفق المال بتبذير يتضاءل بجانبه تصرف أصحاب الملايين في القرن العشرين .

فكلما طلب اسماعيل دينا يطرب الأوروبيون غبطة وسرورا لأن هذا هو أقرب السبل لبسط نفوذهم على مصر وملحقاتها والتي من مظاهره انشاء صندوق الدين ، وفرض الرقابة الثنائية على مالية البلاد وتعيين وزيرين أجنبيين في الوزارة المصرية ، وكل هذه صور تحكي مأساة التدخل السافر وهي صور تحكي ايضا مدى اذلال الاستعمار الأوروبي للشعوب الاسلامية وحكوماتها .

وكما أشرت فان ماتعانى منه مصر ينعكس على السودان بصورة أكثر سلبية ، لأن ضعف الولاة في مصر يتبعه بالضرورة ضعف الرقابة في السودان ويجد فيه الأجانب فرصة لممارسة نفوذهم وتنفيذ مخططاتهم التنصيرية والاستعمارية ، متى شاؤا ، وكيفما شاءوا وأينما شاءوا فبالاضافة الى التجار الأجانب في بلاد السودان عموما ، رأى الخديو اسماعيل أن يختار ـ لمهمة الكشف عن المناطق الجنوبية جغرافيا وعلميا وللقضاء على تجارة الرقيق ـ رجلا غير مصرى هو صمويل بيكر (البريطانى) ولم يكن من المفروض أن تخضع عملية هامة كهذه لرجل غير مصرى ، ناهيك عن أنه غير مسلم . وخاصة ان المطامع البريطانية في أفريقيا لم تكن خافية عن الأنظار بعد محاولاتها المتعددة للتدخل في شئون مصر في عهد ولاية محمدعلى

---

(١) الان مور هيد ، النيل الأبيض ، ترجمة محمد بدر الدين خليل ، القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الاولى ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م ، ص ١٤٢ .

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، ثم بعد تدخلها فى أوائل النصف الثانى منه فى شئون زنجبار وشئون الحبشة، ولكن سياسة اسماعيل كانت متأثرة بعقدة التقرب من أوربا، وبالأخص بريطانيا التى تزعمت آنذاك النداء بالغاء تجارة الرقيق، وحصلت من معظم الدول حق تفتيش البحار، وداومت الضغط على باقى الدول الغربية ثم الشرقية ـ الضغط الودى السياسى، والضغط الحربى اذا لزم الأمر، كما أن سياسته كانت متأثرة أيضا بعلمه بمدى تشكك الأوروبيين، فى اخلاص مصر لمقاومة تجارة الرقيق باعتبارها دولة شرقية اسلامية (١).

وبالتالى فان الوسائل التى يستخدمها الأوروبيون فى التغلغل الى مراكز النفوذ فى مصر كثيرة، منها :

(أ) انهم يجعلون من أنفسهم حماة الانسانية من الاسترقاق والاستعباد، لذى رأينا كيف أن الخديوى اسماعيل يسارع لارضاء بريطانيا ويزيل شكوك الأوروبيين من أنهم ليسوا تجارا وجباة للرقيق، وذلك باختيار رجل بريطانى كصمويل بيكر .

(ب) تدخل أوروبا لفض النزاعات بين الخديو والباب العالى وتقديم انفسهم بأنهم فقط واسطة خير، ومايريدون الا احسانا وتوفيقا ولكن فى الحقيقة ماهى الا وسيلة للتسلل الى قلوب ولاة الأمور فى كل من

---

(١) جميل عبيد، المديرية الاستوائية، القاهرة : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م، ص ٣١ .

ـ هذا يعنى أن الغرب المسيحى يحمل الاسلام مسئولية الرق والاسترقاق وترويج تجارة الرقيق، وهى شبهة مغرضة أثاروها حول الاسلام لمجرد التشويه .

الدولة العثمانية والولايات التابعة لها ، ومن أمثلة ذلك ماحدث ابان الحرب السورية الأولى والثانية (١٢٤٦هـ/١٨٣٠م) ، (١٢٥٤هـ/١٨٣٨) في عهد محمدعلي باشا وأيضا معاونتهم للخديوى اسماعيل لدى الباب العالي في الحصول على فرمان عام ١٢٨٣هـ-١٨٦٦م والخاص بانتقال العرش الى أكبر أبنائه ، وفرمان عام ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م والخاص بمنحه لقب خديو .

(ج) عرض أنفسهم ، للولاة في كل من الدولة التركية و حكام الولايات التابعة لها بأنهم شخصيات أصحاب خبرات صقلتهم التجارب والأحداث أمثال هكس باشا [1] والذى أرسل للسودان مع حملة لقتال المهدية وعند بدء عمله اصطدم بالقيادة المصرية وهدد بالاستقالة مالم يستأثر بجميع السلطات والامكانات ، ومافعل ذلك الا لادعائه بأنه صاحب خبرة وتجارب وأنه أحق بالقيادة من الأتراك المصريين أصحاب السلطة الحقيقية وعندها خضعت الحكومة التركية المصرية لطلبة .

وايضا امثال غردون والذى عُرِّف للخديو بأنه من أسرة اشتهرت بالجندية ، وأن غردون قد اشترك مع الجيش الانجليزى (العريق) في حصار

---

(١) هكس "Hiks, William" : (١٢٤٦هـ-١٨٣٠م ، ١٣٠٠هـ ١٨٨٣م) بريطاني عمل في بومبي بالهند (١٢٦٦هـ/١٨٤٩م) واشترك في الحرب البريطانية الحبشية (١٢٨٤هـ/١٨٦٧م) ترك العمل في الجيش الهندى (١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م) برتبة كولونيل ثم عين في ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م) كفريق بالجيش المصرى وكلف بقيادة حملة لقتال المهدية في كردفان وقتل في تلك الحملة . أنظر . . جميل عبيد ، مرجع سابق ص ٢٠٩ .

" سيباستبول" [١] ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م كما اشترك فى الخدمة بالجيش الصينى ،ونال من سلطان الصين لقب صارى عسكر [٢] وفى١٢٨٢هـ/١٨٦٥م عاد الى الجيش الانجليزى فرقى فيه الى رتبة كولونيل ،هذه الخلفية لغردون قادت الخديو الى الثقة فيه وفى تصرفاته ،بل عينه حاكما مستقلا عن حكمدارية الخرطوم التى تقوم له بالتسهيلات اللازمة فقط.

(د) من بين وسائل أوروبا فى دفع رعاياها المكلفين بتنفيذ عمليات التدخل والتغلغل ، دسهم بين البعثات والوفود الرسمية من أوروبا ، ومن خلال مقابلات تلك الوفود أو البعثات يمكن خلق علاقة بين الشخصيات المراد لها أن تعمل مع الحكومة التركية المصرية وبين الخديو.

فان وجود صمويل بيكر مرافقا للبعثة التى يرأسها ولى عهد انجلترا ـ أمير ويلز ـ ابان حضوره الى مصر لحضور افتتاح قناة السويس،لم يكن من قبيل الصدف الهوجاء ،بل كان يقصد تقديمه واظهاره أمام أصحاب الشأن بمصر ،تمكينا له من تحقيق الاتجاه العام البريطانى [٣] نحو التمهيد لاستعمار هذه البلاد.

ومثال آخر ،وهو عندما كان نوبار باشا فى الاستانة وأثناء زيارته لدار السفارة البريطانية فيها التقى بضابط بريطانى كان عضوا فى لجنة

---

(١) هى مدينة فى شبة جزيرة القرم بالبحر الأسود ،وقد حوصرت ابان حرب القرم التى كانت عام (١٢٧١-١٢٧٣هـ)=(١٨٥٤-١٨٥٦م) حيث تحالفت فيها انجلترا وفرنسا والدولة العثمانية ومملكة سردينيا ضد روسيا.

(٢) لقب صارى عسكر مثل سارى وسرعسكر: كلها القاب لقائد الجيش، أحيانا تكتب بالصاد وأخرى بالسين لانها كلمة تركيه الاصل.

(٣) جميل عبيد ،مرجع سابق ،ص ٣٢.

دولية لبحث مشكلة نهر الدانوب تحدث اليه فى أمرمن يخلف بيكر، وما كان لهذا الضابط الا أن قدم نفسه لهذه الخدمة ، وظهر أنه شارل غردون[1] .

ومن هنا ندرك تمام الادراك أن تعيين الأجانب للعمل فى الدولة العثمانية وولاياتها لم يكن أمرا عفويا كما يخيل لبعض المؤرخين ، خاصة وأن الدولة العثمانية تمثل مقر الخلافة الاسلامية ، ولذا فان ضربها وتكسيرها ، انما هو ضرب وتكسير للعالم الاسلامى ، اذن فان المسألة ليست مجرد تعيين أجانب تظاهروا بمظاهر الصداقة والوفاء والخبرة ، بل هى مؤامرة دولية كبرى هدفها الاسلام والمسلمين والمتمثل فى الدولة العثمانية وولاياتها ، وخاصة مصر وملحقاتها ، واتبعت لتحقيق ذلك عدة وسائل - تقدم ذكر بعض منها - وخطط قصد منها الحصول على نتيجة مفادها انهاء الحكم التركى المصرى للسودان ، مع الاستمرار فى اصرار وجدية وتأن فى اضعاف السلطة فى مصر سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، وبذلك تكون أوروبا قد آلت اليها تلقائيا سيادتها على مصر ومن ثم ايالة سيادتها على السودان ويكون الأمر جد يسير وفى غاية السهولة طالما تم الاجهاز على العقبة الكأداء " مصر " ، وما كان فى امكانهم تحقيق تلك المؤامرة الكبرى الا لأنهم دخلوا على ولاة الأمور من أبواب شتى ، وساعدهم فى ذلك كما تقدمت انبهار الولاة بأوروبا والأوروبيين ، الذين استغلوا هذا الميل وهذا الانبهار أسوء استغلال ، وخاصة تجاه الخديو اسماعيل حيث استطاعوا ادخاله فى (غيبوبة الديون) ، حتى يتمكنوا من تقويض دعائم الحكم التركى المصرى فى السودان ، ويتمثل أغلب مظاهر انهاء ذلك الحكم فى :

---

(١) مكى شبيكه ، مرجع سابق ، ص ٥٣٦ .

اولا : تآمرهم على سلطة الحكم التركى المصرى فى السودان :

وذلك بـ : اضعاف سلطتها :

قبل ان تبلغ مسألة التدخل الأجنبى الى قمتها فى عهد الخديو اسماعيل كان الحكم التركى المصرى (كما تقدمت) يعانى من نفوذ التجار الأجانب والأوربيين فى السودان عامة وفى الجنوب خاصة ، حيث كونوا لأنفسهم دويلات داخل الدولة وذلك باتخاذ حراس من الجنوبيين والشماليين مدججين بالبنادق ، وجعلوا لأنفسهم مناطق نفوذ تجارية يحكمون فيها كما شاءوا دون استطاعة الحكمدارية فى الخرطوم أن تفعل شيئا ، فهم قد انتهزوا فرصة سماح الحكومة بحرية التجارة فى السودان وتحسين المواصلات وذلك للنهوض بالبلاد[١] . ولكن حينما عين الأجانب حكاما فى السودان كان عملية اضعاف سلطة الحكومة أمام اعينها ، فقد ارسل غردون فى ١٢٩٥هـ - ١٨٧٨م الى مصر يطلب اطلاق يده فى تعيين وفصل مديرى دارفور وخط الاستواء وبحر الغزال وشكا[٢] والرول دون الرجوع اليها[٣] .

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ص ٦٨ .

(٢) (شكا) : اقليم واقع فى المنطقة التى بين بحر الغزال ودارفور ، وسكانه أعراب وجل ماشيتهم البقر ويطلق على جميعهم اسم (البقارة) ومنهم قبائل الزريقات والهبانية والبنى هلبه وغيرهم من قبائل البقارة ، ولما أستولت الحكومة على دارفور ، فتح غردون (شكا) وجعلها مديرية وكانت مملوءة بالنخاسين ، انظر : ابراهيم فوزى السودان بين غردون وكتشنر ، القاهرة : مطابع جريدة المؤيد ، الطبعة الاولى ، ١٣١٩هـ/١٩٠٢م ، الجزء الاول ص ٢٥٤ .
- والرول : هى منطقة تقع بين جنوب كردفان وبحر الغزال .

(٣) جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

وهذا يبدو لى هو عين اضعاف الحكومة لأن السودانيين في الغالب يدينون بالولاء للحكام المسلمين بغض النظر عن أنهم أتراك او مصريين ، وقد وافقت مصر فى ١٢ يوليو سنة ١٨٧٨م على ذلك بشرط ألا يكون المعين اذا كان أوروبيا ممن سبقت له الاقامة بتلك الجهات - ويبدو لى أن ذلك الشرط تفاديا لتعيين من كان له سابق تعامل فى تجارة الرقيق - وفى حالة عدم توفر ذلك النوع تخطر مصر لارسال من يصلح من طرفها ،ولكن غردون رد على ذلك فى اليوم التالى برغبته فى تغيير جميع المديرين العرب " فى المناطق التى يوجد بها (دناقله) بمديرين أوروبيين على أساس أن :

(أ) الدناقله حرامية ،وهم الجارين (حريصين) نزول الرقيق من هناك وغيرجارين دفع طلبات الميرى وأغلبهم غير ممتثلين للحكومة .

(ب) الأوربايون (الأوربيون) أقدر على ازالتهم عن تلك الجهات لأنهم (أى الدناقلة) لا يجروءن على حربهم .

(ج) ولأن حضور مديرين من مصر قد يستغرق اكثر من ستة أشهر قد تحدث خلالها مشكلات كثيرة خاصة فى شكا وكردفان ،ولأن من سيحضر لن يكون بكفاءة الموجودين بسبب قلة خبرته بأحوال تلك

المناطق " ، واقترح غردون فى نهاية ذلك الطلب تعيين الدكتور شنتزر - والذى عرف فيما بعد (بأمين باشا) - بمديرية خط الاستواء والسنيور جسى بمديرية بحر الغزال ومسيو فردريك روسيت (الذى عمل قنصلا لألمانيا بالخرطوم) بدافور[1] .

وما المبررات التى ساقها غردون الا كذب وتضليل فهو يريد أن

---

(١) جميل عبيد ، مرجع سابق ،ص ١٣٧ .

يعين الأوروبيين ،من أى جنس، ومن أى نوع يريد ـ سواء كان يهوديا أو نصرانيا ـ وبقرار رسمى من الحكومة ، فليس هنالك مايمنع غير الأوروبيين من ازالة الدناقلة عن تلك الجهات، فان جنود الحكم التركى المصرى استطاعوا فتح السودان من جنوب حلفا حتى سنار واستسلم لهم، الدنقلاوي والشايقى والسنارى وغيرهم ،فما الذى يمنعهم من القدرة على ازالة الدناقله و حربهم ، ولماذا يتخذ الحرب والعنف وسيلة لازالة أهل البلاد ، ويرر بأن تعيين مديرين من مصر يستغرق اكثر من ستة أشهر ، بينما غردون نفسه منذ تاريخ اصدار تعيينه ١٢٨٦هـ - ١٨٦٩م) وحتى وصوله الى المديرية الاستوائية فى أبريل من نفس السنة لم يستغرق أكثرمن شهرين بل أقل من ذلك أما عن عدم كفاءة المديرين من مصر وخبرتهم ،فان غردون دأب على التقليل من شأنهم بل التقليل من شأن أى عنصر مسلم فى الحكومة وابداء الثقة كل الثقة فى العنصر الأوروبى ،وفى سبيل جعلهم كمساعدين له فى ادارة السودان يمكن وبكل بساطة استخدام التلفيق سبيلا لذلك، لأن الأوروبيين اكثر ضمانا لغردون فى جهوده لتنفيذ خطته فى اضعاف سلطةالحكومة فى السودان .

وفى سبيل اضعاف السلطة ايضا كان تبديد أموال الحكومة وضياع كثير من الوقت على أيدى العناصر الاوروبية فى أعمال قد تكون مهمة ولكن لاتستغرق زمنا طويلا ولا يجد هذا التسيب أو الاسراف تحقيقا أو استجوابا من جانب المدير سواء كان بيكر أم غردون أم الحكمدار فى الخرطوم أو حتى الخديو فى القاهرة ،فمثلا عند تخطيط بعثة بيكر تقرر انشاء عشرة مراكب حربية وتجارية فى أعالى النيل الأبيض على أن يترك فى كل منها جانب مناسب من الجند بقيادة أحد الضباط،أما عن قوتها فرىء أن تشمل

ألف وخمسمائه جندى منهم ثمانمائةمن الجنود النظاميين المصريين ، وستمائة من السودانيين منهم مائة من الشايقية ، وهذا غير بعض البحارةوالميكانيكيين والأدلاء من العرب كما رىء أن تعاون هذه الحملة قوة بحرية قوامها مركب بخارى مفكك وثلاثة قوارب " طول كل منها عشرة أمتار" تنقل أجزاؤها عبر صحراء العتمور ، وتخصص لكشف بحيرة " البرت" ست مراكب بخارية وخمسة عشر مركبا شراعيا كبيرا ، وخمس ذهبيات، وهذا غير خمس مراكب بخارية و عشر شراعية أخرى تضم للبعثة فى الخرطوم (١)

واذا قارنا هذهالقوة بالحملة التى أرسلها محمدعلى فى يونيو ١٨٢٠ لضم اللسودان الشمالى باكمله، والتى لميكن بها أكثرمن أربعمائة وثلاثة آلاف من المشاة ، وخمسمائة وألف من الفرسان ، وغيرمدفعية مكونة من اثنا عشر مدفعا ، بدا لنا أن هذه القوة لم تكن بالشىء القليل ، وخاصة أنها تعمل فى مناطق بدائية لا تعرف القتال بالنار ولا تملك وسائلهبعكس مناطق السودان الشمالى حيث كانت توجد قوة منظمة من القبائل ومن المماليك حيث توفرت وسائل القتال النارية (٢)

كما أن معظم الأوروبيين الذين عملوا مع الحكومة فى السودان انشغلوا بأعمال محدودة تكاد تنعدم صلتها بالشئون الادارية ، فمثلا " براوت بك " انصرف الى عملية نقل اجزاء المركب البخارى (الخديوى) من الرجاف الى ما وراء شلالات قولا جنوب دوفيلى والى تركيب تلك الأجزاء ، ثم تسيير هذا المركب، وبرغم أهمية هذا العمل بالنسبة لمستقبل المديرية الا أنه استغرق الجانب الأكبر من الجهد والوقت

---

(١) جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ٣٣ .

(٢) المرجع السابق نفسه

وكذلك الحال بالنسبة لماسون [1] بك الذى انشغل بكشف ومسح المنطقة من " ودلاى" الى بحيرة البرت ثم الكشف عن نهر سمليكى وأطوال بحيرة البرت [2].

وكان غردون يعين الأوروبيين فى السودان دون الرجوع أوالتماس موافقة الحكومة ،وأصبحت هذه ظاهرة بارزة غلبت على الوضع الخاص بكل من تولى الاشراف على شئون المديرية الاستوائية فى تلك الفترة فبروات بك قام بعمله فيها نيابة عن غردون شخصيا ،وقبل أن يصدر بتعيينه قرار من الجهات الرسمية بمصر وبرغم من أن الحكومة طلبت من غردون تحديد الشخص الذى يصبح مسوءلا أمامها عن تلك المديرية حتى يصدر قرار بتعيينه الا أنه ماطل فى تحديده الى أن تركها براوت بك مريضا الى مصر وعندئذ فقط طلب اعتماد تعيينه ،وماسون أيضا عمل بتكليف شخصى من غردون نيابة عن براوت بك عقب رحيله ،ولم تكن مصر راضية عنه ،ولم تصدر بالتالى قرارات بتعيينه . [3]

وكان غردون فى كل تصرفاته منذ وطأت اقدامه السودان يعمل على تصفية الممتلكات التركية المصرية هناك ،والحوادث التالية تدل على

---

(١) ماسون بك(؟ - ١٣١٤هـ/ ١٨٩٧م) أمريكى الأصل- عمل كضابط بحرى فى الأسطول أثناء الحرب الاهلية الامريكية ،ثم التحق بخدمة مصرابتداءمن (١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م) كضابط فى المراكب البخارية الخديويه بين الاسكندريه والقسطنطينية ،منح لقب قائمقام وعمل بكردفان فى عام ١٨٧٤ فى عمليات المسح ، ثم عمل بالاستوائية خلال عام(١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م) وبعد عودة منها استقال من العمل العسكرى وعمل بمصلحة المساحة ،زار بربر، والحبشة ،ومصوع التى عين لها حاكما فى (١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م) وفى عام ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م اعتزل العمل وعاد الى امريكا حيث توفى بواشنجتون ،انظرجميل عبيد ،مرجع سابق ،ص ١٥٣ .

(٢) جميل عبيد ،المرجع نفسه ،ص ١٣٨ .

(٣) المرجع السابق نفسه والصفحة .

ذلك :

تصريحاته الخاصة بتجارة الرقيق بالخرطوم وحتى تصرفاته الخاصة بالضرائب أو فى الطريقة التى اتبعها أثناء الحركة المهدية كل هذه لا تتلاءم مع المهمة التى وكلت اليه بل تدل على سوء قصده [1]، أو حتى فى مسألة رفضه وكراهيته للموظفين المصريين ، فمثلا لماذا لجأ غردون الى التخلص من شخص نافع كروءف بك [2] فما ذلك الا رغبة منه فى ابعاد شخصية لها شىء من القوة والمكانة والشعبية بين الأهالى والجند ، مما يوءدى الى حجب شخصيته هو . ولعل هناك سبب آخر أكثر قوة من السبب الأول ، ألا وهو رغبته فى التخلص من ممثل قوى ناجح للعنصر العربى المسلم كجزء من سياسته التى بدأها فعلا اذ ذاك والتى قامت على ابعاد العناصر العربية المسلمة واحلال عناصر أوروبية محلها [3] .

وقد وقع محمد روءف باشا من قبل أيضا فى غضبة بيكر والذى أمر

---

(١) شوقى الجمل تاريخ سودان وادى النيل ج ٢ ، ص ٢٦٥ فى
Chaillé-Long: op. cit., p. 6.

(٢) هو محمد روءف باشا ، لواء الجيش المصرى ، قيل أن أباه نوبى وأن أمه حبشية ، ولد فى سنة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م و خدم فى المديرية الاستوائية وأوغندا واوينورو ، صار مديرا بالانابة للاستوائية ثم مديرا لهرر ١٢٩٢ هـ / ١٢٩٥ ، ١٨٧٥ / ١٨٧٨ ، خلف غردون فى سنة ١٢٩٧ / ١٨٨٠ حكمدار على السودان ، بدأت ثورة المهدى فى عهده ، ولم يكن تقديره لها صائبا وقد انتصر المهدى على قواته فى أبا ، رفع عن منصبه عام ١٢٩٩ / ١٨٨٢ لفشله فى قمع الثورة وخلفه عبد القادر حلمى وفى مصر اشترك فى محاكمة عرابى باشا .
توفى فى المنيا سنة ١٣٠٥ / ١٨٨٨ - انظر ابو سليم / الحركة الفكرية مرجع سابق ص ٢٠ .

(٣) جميل عبيد ، مرجع سابق ص ٦٠ .

روءوف بك بترحيل الجنود والمرضى أو العاجزين عن العمل الى الخرطوم لعلاجهم ولتخفيف اعباء التموين عن الحملة ، وعندما نفذ روءوف بك مفهوم هذه التعليمات بترحيل نحو من ١١٠٠ فرد من المرضى والنسوة بينهم ستهوخمسون وأربعمائه جندى فى ١٢٨٨هـ/٣ نوفمبر ١٨٧١م الأمر الذى خفض القوة الحربية الى اثنين وخمسمائة بين ضابط وجندى ، ثار سخط بيكر عليه ، واعتبر هذا نوعا من التآمر على اضعاف البعثة وأرسل للخديو شاكيا تصرفات روءوف والضباط وما حيك ضده من موءامرات فضلا عن الأخطار التى تعرض وسيتعرض لها .

ويبدو أنه من أثر هذه الشكوى ذلك الأمر الذى أصدره الخديو فى ١٢٨٩هـ/١٢/٢/١٨٧٢م باعادة روءوف بك وتعيين عثمان رفقى بدلا عنه فى قيادة الفرقة الحربية بالاستوائية (١) .

وأيا كانت المبررات التى ساقها كل من بيكر وغردون فى رفضهم لروءوف بك الا أنها تكشف مدى رفض الأوروبيين للمصريين وبالتالى للسودانيين أيضا وحقدهم عليهم وكراهيتهم لهم ، واسقاطهم لهيبتهم والتى قصد منها اسقاط هيبة الحكومة فى أعين الأهالى ، فلم يتورع مسيداليا الايطالى مدير عموم دارفور مثلا عن عزل وكيله محمد بك عزمى وارساله الى القاهرة مكبلا بالأغلال ، وهى صورة تعبر عن مدى الاهانة والاستفزاز ليس لمحمد بك عزمى فحسب بل لسلطة الحكم التركى المصرى على البلاد .

ولم يقف الحكام الأوروبيون عند هذا الحد ، بل كانوا يحرضون

---

(١) جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .

(٢) مطبوعه مأخوذه من محمد سيد محمد .

الأهالى ضد الحكومة الشرعيةالتى عينتهم ويحقرون من شأنها ويشوهون سمعتها . فحينما زادت الضرائب، لم يكلفو أنفسهم جهدا كبير فى توضيح أسباب زيادة تلك الضرائب أو الظروف والملابسات التى آدت الى زيادتها وهل هذه الزيادات ستكون مستمرة أم موقوته بفترة زمنيه معينه ،ولكن غردون وأعوانه الأوروبيين كانوا بكل بساطة يتأسفون للاهالى بأنهم انما يسيرون وفق تعليمات الخديوى وبمقتضى أوامره ،وكأن لسان حالهم يقول لو حكمناكم نحن الأوروبيون النصارى سوف لن نعاملكم بهذه الطريقه ونكلفكم فوق طاقتكم .

ولما وصل غردون الى الخرطوم فى ١٢٩١هـ/١٣مارس ١٨٧٤وقبل أن يغادرها الى الجنوب أصدر قرارا مشهورا فى ١٧ مارس،كان بمثابة اول ضربة اصابت صرح ذلك الملك الأفريقى الواسع الذى شيدته الحكومةفى قلب أفريقيا ،اذ نص القرار على احتكار تجارة العاج لحساب الحكومة ،وعدم السماح لأى فرد بدخول المديريات الاستوائية ، دون تذكرة من حكمدارية عموم السودان فى الخرطوم ،وهى لا تعتمد الا اذا كانت تحمل تأشيرة بالتصديق عليها من قبل سلطات غندكرو ، ونص القرار أيضا على تحريم تجنيد أو تنظيم أى جماعات مسلحة أو دخول الاسلحة النارية أو البارود ، وهدد بمعاقبة كل من يخالف ذلك بأقسى ماتجيزه القواعد والأحكام العسكرية .(١)

(١) محمد سيد: المديرية الاستوائية ، مجلة البحث العلمى والتراث الاسلامى مكة المكرمة ، جامعة أم القرى ، العدد السادس ١٤٠٣هـ/١٤٠٤هـ ١٩٨٣/١٩٨٤م ص ٣١٠.

ولكن هذه الأوامر لم تكن صادرة بأمر من الخديو أو حكمدارية عموم السودان بالخرطوم ولكن غردون فى كثيرمن الأحيان كان يصدر قرارات بمعزل عن أوامر ومعرفة الحكومة ، وما ذلك الا لاثارة الاهالى ضدها ، فقد ترتب على قرار ١٧ مارس تعطيل التجارة فى النيل الأبيض وخراب تجارة العاج ،كما أثار عداوة تجار الخرطوم وهم بمثابة سلاطين السودان الحقيقيين الذين كانوا يستغلون رؤوس أموالهم فى تجارة العاج ،وقد سبب هذا القرار زيادة سخط الأهالى على سياسة الخديو بعد أن اضطر عدد كبير من التجار الى اعتزال أعمالهم (١)

ثانيا : التآمر و الحيلولة دون ضم أوغنده للحكم التركى المصرى :

وصل السير صمويل بيكر الى الخرطوم فى عهد حكمدارية جعفر مظهر باشا ، لانجاز المهام الموكلة اليه وهى ،بسط نفوذ الحكم التركى المصرى فى تلك الأصقاع الكائنه جنوبى غندكرو ،وتنظيمها ونشر التجارة بها ،ومطاردة تجار الرقيق وانشاء محطات حربية فيها ثم قام من الخرطوم فى ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م ، حيث وصل الى ملتقى نهر السوباط بالنيل (جنوبى فاشوده) وبنى بها محطة (التوفيقية)(٢) ، ثم بلغ بعدها غندكرو حيث اطلق عليها بيكر اسم (الاسماعيلية) تيمنا باسم الخديو اسماعيل ثم تقدم وضم مملكة أوينورو واحتل عاصمتها ماسندى فى ١٢٨٩ / ١٨٧٢م .

---

(١) انظرمحمد سيد محمد ،المرجع نفسه ،ص ٣١١ ،وانظر ايضا ب. م. هولت، مرجع سابق ص ٢٨ .

(٢) تسبة الى الاميرمحمد توفيق ولى عهد الأريكةالخديوية فى ذلك العصر، انظر الرافعى عصر اسماعيل ج١ ، ص ١١٦

والى الجنوب من مملكة أونيورو كانت تقوم مملكة أوغنده والتى أوفدت رسلها الى صمويل بيكر، لاعلان ولاء ملكها (امتيسه)[1] للحكم التركى المصرى فأكرم بيكر وفادتهم وبادل مليكهم الرسائل والهدايا ، و بقى امتيسه مواليا للحكومة ، وبفضل ولاء امتيسه لها فقد انفتحت الطريق بين أعالى النيل وزنجبار على شاطىء المحيط الهندى .

الا أن البعض يقول ان الملك امتيسه قد حاول مجرد محاولة الاتصال بالبعثة المصرية خلال شهر يناير وفبراير ١٨٧٣ . وعلى الرغم من أهمية هذا الاتصال بالنسبة للأهداف التى تسعى اليها مصر الا أنه لم يجد الاستجابة اللازمة من قائد البعثة الذى تعلل بقرب انتهاء عقده فى (١٢٩٠هـ/١/٤/١٨٧٣م) فتغاضى حتى عن ارسال أحد رجال البعثة الى امتيسه كما طلب .

وهناك تبدو محاولة أخرى غامضة من بيكر لعلها هدفت لتعطيل الاشعاع المصرى عن النفاذ الى أهم بقاع المناطق الاستوائيه وأغناها[3].

---

(١) هناك بعض المراجع تطلق عليه اسم (امتيسى) أو (أمتيسا) أو (موتيسا) ولكن الغالب يستخدم اسم (أمتيسه) .

(٢) الرافعى ، جـ١ ، مرجع سابق ص ١١٩ .
- كان الملك أمتيسه أقوى حكام مجاهل أفريقيا وكان أهله على دراية من التقدم نوعا ما اكثر من أهالى الجهات الاخرى ، وقد أحسنوا زراعة الكروم ، خلاف مايجرى عندهم من أشجار الفواكة اللذيذة العديدة فى غابات شاسعة يمشى المسافر فى ظلها أياما طويلة لاينتهى لاخرها .
أنظر ، ابراهيم فوزى ، مصدر سابق ، ج ١ ص ٢٥

(٣) جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

ويبدو لى أن القول الأخير هو الأرجح وذلك لعدة أسباب أهمها:

١) هنالك نية مبيته عند بيكر بعدم التضحية فى سبيل خدمة مصر وأن يكون العمل حسب الأجر، بدليل أنه ضم مملكة الأنيورو فى أبريل ١٨٧٢ بانتهاء عقد عمله مع الحكومة أبريل ١٨٧٣، أى أن ضم هذه المملكة تم قبل عام من انتهاء العقد وهذه مدة كافية يمكن من خلالها أن يتم ضم مملكة أوغنده خاصة وأن الامكانات التى منحت لبيكر ـ سبق ذكرها ـ فى سبيل بسط نفوذ الحكومة جنوب غندكرو، لم تكن قليلة بحيث لا تمكنه من أداء المهام التى أوكلت اليه، بل كانت كبيرة واذا استغلت استغلالا جيدا يمكن ضم جهات أخرى أبعد من مملكة أوغنده.

٢) اذا قام بيكر بقبول ولاء ملك أوغنده وبسط نفوذ الخديو هناك قد يجد مساءلة من حكومة بلاده نتيجة لا خلاصه فى هذا العمل.

٣) أراد بيكر أداء عمل ضئيل اذا قيس بما صرفت تجاهه من مبالغ والتى قدرت بثمانمائة ألف جنيه، وهذا النوع من الكيد يتماشى تماما مع رغبة الحكام الأوروبيين فى انهاك الدولة المصرية فى قوتها المادية والعسكرية، كما أنه اذا قدر لغيره من الأوروبيين الذين قد يأتون بعده، أن يقوموا فقط بضم مملكة أوغندا مع استمرار انفاق نفس القدر من المبالغ التى انفقها بيكر أو يزيد.

ان ملك أوغنده (امتيسه) عندما تولى السلطة فى (١٢٧٩هـ ١٢٩٢هـ) / (١٨٦٢- ١٨٧٥م) بهره الدين الجديد خصوصا فيما يقدم من تفسير للحياة بعد الموت، فعمل على نشره، وقد حرر الأوامر الملكية التى تأمر أتباعه باعتناقه وقد كان ضمن المناشير ذلك الذى أرسله لأخيه

" كابريقا " ملك أونيورو مع هدية عبارة عن ابريق وسجادة للصلاة ومستلزمات المسجد الأخرى ، ومعلمين يحملون له الرسالة التى جاء فيها " مرسول لك معلمين يعلمونك كلام الله الأعظم من كل الآلهة ، مالك السموات والارض وان هنالك يوما يبعث فيه الناس بعد الموت للعقاب والجزاء ولا أحب أن تكون مع الظالمين المعاقبين" (١) ، الجدير بالذكر أن الاسلام قد دخل الى أوغنده بواسطة التجار المسلمين القادمين من الساحل الشرقى لأفريقيا عبر زنجبار وتنجانيقا (٢) .

وقد بسطت مصر حمايتها على مملكة أوغنده سنة (١٢٩١ / ١٨٧٤) على يد أحد أعوان غردون هو "شاييه لونج" (٣) "Chaillé-Long" الذى أدى مهمته ووصل الى عاصمة أوغنده ، وعقد مع ملكها معاهدة بمقتضاها قبل وضع مملكته تحت حماية مصر ، وأبلغ " لونج " الدول أن مصر ضمت اليها جميع البلاد الواقعة حول بحيرة فكتوريا وبحيرة ألبرت (٤)

---

(١) عبده كاسوزى ، انتشار الاسلام فى أوغنده ، مقال فى مجلة الدراسات الأفريقية ، الخرطوم : ترجمة عبد الرحمن أحمد عثمان دار الأصالة للصحافة والنشر ، العدد الثالث ، رجب ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ، ص ١١٥ :

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١١٤ .

(٣) الكولونيل شاييه لونج هو ضابط امريكى دخل فى خدمة الجيش المصرى فى ١٢٨٧ / ١٨٧٠ وعين سنة ١٢٩١ / ١٨٧٤ رئيسا لأركان حرب غردون حين ولايته على الاستوائية ، وقد أخلص النية لمصر وخدمها بنزاهة وأمانة أثناء مقامه فى السودان ودافع عن ذلك بقلمه ولسانه ـ أنظر الرافعى ، حـ١ ، ص ١٢٤ مرجع سابق .

(٤) شاييه لونج ، مصر ومديرياتها المفقودة ص١٢ فى الرافعى ج ١ ، ص ١٢٦ ، أيضا انظر مكى شبيكه تاريخ شعوب وادى النيل ص٥٣٩ مرجع سابق .

بعد ذلك تمكن غردون من استمالة الأهالى وجعلهم يتعاملون معه بالنقود ، وزادت المحطات العسكرية حتى بلغت عشرا على ضفاف النيل ،ووطد سلطة الحكومة فى منطقة البحيرات ، وهذه من أبرز المهام التى أوكلت اليه ، خاصة وان التحركات الاستعمارية بدأت تقترب من هذه المنطقة ، ففى الشرق نشط رجال الاستعمار الألمان والانكليز فيما بين زنجبار وبحيرة فكتوريا ،وفى الغرب نشط ليبولد الثانى ملكالبلجيك فى حوض نهر الكنغو ولكن قد وضح للخديو فيما بعد أن غردون لم ينفذ باخلاص الجزء الخاص بتوطيد أركان الحكومة ،بل وثبت أن بعض رجاله وخاصة آرنست لينان دى بلفون أوهم امتيسه ملك أوغنده حينما اعتنق الاسلام بأن هناك ديانات وممالك أوروبية قوية ، فسبب ذلك بلبلة واضطرابا لدى الملك الطيب وانسحب غردون من أوغنده ، واحتج الخديو على ذلك فانتحل لنفسه مختلف المعاذير[1] .

وظاهر من لهجة غردون فى رسائله الى أخته** أنه لم يكن مرتاحا الى احكام مصر سلطتها على أوغنده ،وملكها ، فقد ذكر أن الملكامتيسه أقسم يمين الولاء لمصر، وأنه كان يبغى بقاء ملكأوغنده مستقلا ،ولكنه هو الذى دعا الحاميةالمصرية التى كان غردون معتزما جعلها فى (أورند جانى) [2] الى الاستقرار فى عاصمة أوغنده وقد استقرت بها فعلا فى اغسطس سنة ١٢٩٣/١٨٧٦. كما ان غردون اوضح فى رسالة هذه مدى كراهيته للمصريين ، وكراهيته خدمتهم فى السودان .

وغنى عن البيان ان غردون لميكن يبغى من استقلال أوغنده

---

(١) محمد سيد محمد ،المديريةالاستوائيه ،مرجع سابق ،ص ٣١٠ .

(٢) احدى المحطات العسكرية التى أنشأها غردون فى مملكة أوغنده

** أخت غردون تدعى أوجستا .

دفاعا عن مصلحتها ، بل كان مايبغيه أن تكون بعيدة عن التبعية المصرية حتى تصير فيما بعد لقمة سائغة لانجلترا وقد بسطت حمايتها عليها فعلا بعد فصل السودان وهذا يبين أن غردون لم يكن خالص النية مثل شاييه لونج ، بل كان يخدم السياسة الانجليزية أثناء تقلده منصب الحكم في مديرية خط الاستواء ، وكذلك عند ولايته حاكما عاما للسودان سنة ١٢٩٤هـ ١٨٧٧م (١)

وفي سبيل وقف تغلغل الخديو في داخل أفريقيا أقدم غردون على خطوة هو يعلم عدم جدواها ان لم نقل فشلها ، فقد رأى ان الطريق الى الأماكن الاستوائيه وخاصة لمنطقة البحيرات التي هي مطمع الخديو اسماعيل ، يجب أن يكون من الساحل الشرقي لا عن طريق النيل واقترح غردون لتنفيذ هذا الهدف أن يدبر الخديوى حملة بحرية الى الساحل الشرقي المطل على المحيط الهندى ويقوم هو بحملة برية من البحيرات تتجه شرقا وتلتقى الحملتان في منتصف الطريق ، ووجد هذا الاقتراح ترحيبا حارا من اسماعيل وفي الحال بعث بحملة على رأسها ماكيلوب باشا القت مراسيها في ميناء قسمايو ، ولكن المهمة لم تتم لأن السياسة الانجليزية تنبهت لهذه النيات التوسعية من جانب اسماعيل - وغردون يعلم تماما أن هذا سيحدث - فأوعزت الى سلطان زنجبار أن يحتج على هذا الاعتداء على املاكه وهي من جانبها ضغطت على اسماعيل حتى اصدر أمره برجوع الحملة. (٢) .

وبالرغم من ادراك غردون بعدم نجاح التحركات السابقة الا أنه فتح نفس الموضوع مرة أخرى مع شركة انجليزية عندما رجع نهائيا من مأموريته

---

(١) الرافعي ، مرجع سابق ، ج ١ ص ١٢٧ .
(٢) شبيكه ، تاريخ شعوب وادى النيل ، مرجع سابق ، ص ٥٤٠ .

فى الاستوائيه ، وكاد أن يعمل مع الشركة فى تنفيذه الا أن الظروف قادته مرة أخرى للسودان حكمدارا على الأقاليم السودانية ، وبدأت الشركة الانجليزية عملها تدريجيا من الساحل حتى وصلت الى مملكة يوغنده ومهدت للحماية الانجليزية عليها ، فهل كان يكتب لاسماعيل التوسع فى تلك الأقاليم وانتشار الدين الاسلامى فيها وكل قواده وسفرائه من الأجانب المسيحيين ؟ أمثال غردون ، وشاييه لونج وآرنست لينان وماكيلوب باشا [١] .

وكان غردون يعمل بجد واجتهاد وبشتى الوسائل ليس فى سبيل ايقاف مجهودات الخديوى فى مد نفوذه فى داخل أفريقيا فحسب بل لاقتطاع ماتمكن من توطيده من سلطة ، فى جنوب السودان حيث أن غردون فى سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م أوعز للخديو بتنظيم الحاميات بأنحاء السودان بحيث يكون ثلثها فقط من أبناء العرب والثلثان من الجنوبيين على أساس ، أن العساكر أولاد العرب ، وجودهم بالسودان غير مفيد مثل العساكر الجنوبيين ، ولعل مصر لم تلحظ اذ ذاك وجود علاقة بين هذين الامرين ، ولم تنكشف العلاقة بينهما وبين أهداف غردون البعيدة المدى الا فيما بعد ، وكان من دلائل تلك الأهداف ذلك الخطاب الذى أرسله الى ملك البلجيك فى ١٣٠١هـ/ أول فبراير ١٨٨٤ من " كرسكو" عارضا عليه الاستيلاء على الاستوائية وبحر الغزال مع تعيينه حاكما عليها من قبله . وذكر فى ذلك الخطاب أن المديرية الاستوائية يحكمها ألمانى هو أمين [٢] بك ، فى حين أن مديرية بحر الغزال تحت ادارة

---

(١) شبيكة ، المرجع السابق ، ص ٥٤١ .

(٢) أمين باشا : من أصل ألمانى ، واسمه الأصلى ادوارد شنتزر ، ولد فى ١٢٥٧هـ/ ١٨٤٠م فى مدينة "أوبلن" من أعمال سيليزيا ببروسيا وتلقى علومه فى فيينا وباريس ، ونال شهادة دكتور فى الطب ثم دخل =

انجليزى هو لبتون بك [١] وأن جميع فرقهما من الجنوبيين وان معرفته بهما من العوامل التى تجعل انتقال تلك المناطق فى نظره من تبعية مصر الى تبعية البلجيك أمراميسورا [٢] .

لذا نرى أن هنالك مناطق كثيرة فى المديرية الاستوائية قد اخليت بأوامر من غردون ،كما أنه لا خير فى المديرية دون الاحتفاظ ببعض الأجزاء الغنية والملائمة للصحة سواء فى شرق النيل وغربه وجنوبه وخاصة بعد أن تحملت مصر كثيرا الى أن استجابت تلك المناطق لعوامل التقدم وبدأت تؤتى ثمارها ، ثم أنه لم يكن هنالك مبرر لاخلاء المناطق المحيطة أو المؤدية ببحيرة البرت. بعد أن كسبت مصر مكانة خاصة فيها بفضل رحلات مركبها البخارى (الخديو) وبفضل مايقوم به من تسهيل للاتصال أوالنقل فى منطقة معظم سكانها موالين للحكومة وحلفاء لها .

= فى خدمة الدولة العثمانيةفى مدينه" اسكودار" ،وبقى الى أن سمى غردون حاكما على خط الاستواء ،وكان أمين يعرفه فذهب الى الخرطوم واستأذنه فى السفر اليه فأذن له ،وحال وصوله أعطاه لقب بك وسماه حاكما على" اللادو" ، وهى احدى المحطات العسكرية للحكومة فى جنوب السودان ،والجدير بالذكر أن أمين باشا قد ادعى بأنه اعتنق الاسلام وغير اسمه من شنتزر الى أمين ،انظر شقير، مرجع سابق ،ص ٥٦٦ .
ومما تجدر الاشارة اليه أيضا أن امين قد ارتد بعد ذلك عن الاسلام بعد انتزاعه عن المديرية الاستوائيه على يد استانلى .

(١) فرانك لبتون "Frank Lupton" هو انجليزى كان يعمل ضابط أول على سفينه لنقل البضائع فى البحر الاحمر ورشحه المبشرون للعمل مع غردون لرصانته وعدم تعاطيه الخمر، انظر الان موورهيد / النيل الابيض ص ١٩٤ ، مرجع سابق .

(٢) جميل عبيد ،مرجع سابق ،ص ١٥٧ .

لذا فان أمين باشا قام فى ١٢٩٦/ ١٨٧٩ برحلة الى بحيرة البرت حيث أقام محطات جدّيدة أهمها ودلاى وماهاجى المعروفة بغناها بحقول القمح وهنا قرر غردون على وجوب معاقبة أمين باشا نتيجة لتفانية واخلاصه ولوفائه لمصر، بل لأنه تمرد على أمانى واحلام الاوروبيين الاستعمارية فقرر نقله الى سواكن ولم ينقذه الا استقاله غردون وتعيين رؤف باشا خلفا له كحاكم عام للسودان ،فأبقى أمين فى منصبه السابق كماأطلق يد المديرية الاستوائيه فى التوسع كيفما شاءت تحقيقا لسياسة مصر[1] .

ولكن أمين باشا رغم اخلاصه الا أنه يوصف بالضعف فى كثير من الأحيان وأنه كان يستطيع تعويض مابيعض رجاله من نقص أو ضعف لو كان متصفا بالحماس والصلاحية لقيادة العمليات العسكرية ، كما كان الحال بالنسبة لبيكر وغردون أو جسى الا أنه كان طبيبا وعالما أكثر منه قائدا ومديرا لذا فانه بقى بعاصمة المديرية حيث كان يجب أن يكون على رأس الرجال فى الميدان. واكتفى باصدار التعليمات ويعتاب الموظفين أو توبيخهم اذا لم ينفذوها حيث كان عليه أن يتشدد عليهم أو يعاقبهم بحزم ،الأمر الذى أدى تدريجيا الى افلات الزمام من يده[2] . كما نشير الى ان امين باشا يكره العرب ولا يحب لهم الخير فى السودان

بل هناك من اتهم أمين باشا بنفس التهم التى لحقت بغيره من اخوانه الأوروبيين ،اذ يقال أنه ،بينما كان يمثل حكومة الخديوى ،كان يتمنى لو أمكنه فصل المديرية الاستوائية عن الحكم التركى المصرى ليسلمها للاوروبيين أى أنه كان يرى ابعاد العناصر الاسلامية عن المديرية ،ويفسح المجال أمام

---

(١) جميل عبيد ،المرجع السابق ، ص ١٣٩ .

(٢) جميل عبيد ،المرجع نفسه ،ص ١٩٢ .

الأوروبيين للاستقرار فيها . بل أنه لما أحس بعزلته ابان الثورة المهدية اتصل بأحد روءساءالبعثات التبشيرية البريطانية ويدعى الكسندر ماكاى "Makay" وأبلغه عن عزمه على وضع المديرية تحت الحماية البريطانية فى ١٣٠٣هـ/١٨٨٦م (١) .

ثالثا : اتباع سياسة العنف :

ان الهدف من وجود الحكام الأوروبيين فى السودان هو - كما تقدم - انهاء سلطة الحكم التركى المصرى فى السودان، وتهيئته للاستعمار الاوروبى وذلك باتخاذ العنف كساسية متبعة لـ :-

اثارة حقد وكراهية من يتاجرون ويتعاملون مع الرقيق ضد الحكومة واستخدامهم للعنف ايضا فى تعاملهم مع الاهالى سعيا لاثارتهم ضد الحكم التركى فى السودان .

أما بالنسبة للمسألة الاولى لقد تهيب الأهالى تقدم حكومة الخديوى الى السودان وخاصة نحو الجنوب على يد الحكام الأوروبيين فمثلا لم تكن خدمة السير صمويل بيكر فى السودان خالصة أو مخلصة ،اذ أنه قد فسر مهمته فى منطقة هضبة البحيرات على أنها تهدف الى القضاء على تجارة الرقيق قبل أى شىء آخر،وعلاوة على ذلك فان هذا العميل المخاطر كان يوءمن بأن أحسن وسيلة تتبع فى ذلك هى استخدام العنف (٢) .

(١) محمد سيد محمد ، مرجع سابق ،ص ٣١٤ .
(٢) جلال يحيى ، مرجع سابق ،ص ٦٩ .

وجاء من بعد بيكر غردون والذى أصبح حكمدارا للسودان ١٢٩٦ هـ/ ١٨٧٧م ولم يتخل عن الحكمدارية الا بعد أن عطل فيها التجارة والزراعة وشاع الفساد الذى امتد الى القيم الأخلاقية ، وانحط بها ، مما يتنافى مع عادات البلاد وتقاليدها وسلم اداة الحكم الى مساعدية من الأوروبيين والمتخلفين الذين أسرف فى تعينهم ، وكثر عدد المتعطلين من الأيادى العاملة على الأرضى والرعى ، بدعوى المدنية والانسانية لتحرير الرقيق ، وقد هيأ ارساء الحكم على هذه الصورة ، التربة الصالحة للتذمر والفتنة ، ودفعها دفعا قويا الى الاستجابة الى الدعوة التى نادى بها محمد احمد المعروف بـ (المهدى) للخروج بالبلاد من سلطة الحكم التركى المصرى (١) .

فالحكام الاوروبيون انتهزوا اوامر الحكومه بمنع تجارة الرقيق ، فحاربوا هذه التجارة بكل عنف وقسوه مع علمهم بأن هذه الحرب تثير كراهية فريق كبير من الاهلين وتدفعهم الى مقاومة الحكومة (٢) .

(ب) اثارة شعور الاهالى :

لم ينجح السير صمويل بيكر فى مهمته التى من أجلها صرفت الحكومة الأموال الطائلة لأنه لم يلبث أن دخل فى " معارك" مع الأهالى فى الجنوب من قبائل "الشير والألورون والبلينيات والبارى" (٣) وغيرها مما أثار عداء

---

(١) الشاطر بصيلى ، معالم تاريخ سودان وادى النيل ، مرجع سابق ص٥ ١٦

(٢) الرافعى ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٩ .

(٣) من القبائل النيلية فى جنوب السودان ، وقد تحالف البلينيان مع الألورون وهاجما معسكر " بيكر" الذى رد عليهما بهجوم خاطف ، انتهى بالاستيلاء على زريبة بقربداخلها قطيع تعداده ستمائة بقرة انظر جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

هذه القبائل للحكومة الخديوية ، فقد صرف بيكر النظر نهائيا عن المثل العليا التى جاء ليحققها باسم الحكومة واتخذ لنفسه خطة انتقامية شنيعة وقاسية قامت على سلب جماعى لمحاصيل القبائل وماشيتهم ،لكى يحصل على غذائه وغذاء جنوده ،وكانت ادارته خالية من التروى والحكمة وكثيرا ما كان يستخدم يديه وعضلاته فى اقناع زعماء القبائل، الأمر الذى لا يوءدى الا الى افساد العلاقات نهائيا مع الأهالى ،والى ماهو أخطر من ذلك وهو افساد وضع الحكم التركى المصرى وسمعته فى تلك المناطق(١).

وهناك سوءال يطرح نفسه ،وهو هل الحكومة ليس لها علم أواحاطة بهذه الأعمال السيئة ان لم نقل الاجرامية التى تحدث على يد الحكام الأوروبيين مع سبق الاصرار؟؟ فقد عزا البعض على أنها لم تكن قادرة على التدخل السريع لتعديل سلوك صمويل بيكر مثلا ،وذلك بسبب صعوبة نقل المراسلات وعدم علمها بمجريات الأمور بالاستوائية فى حينها (٢)

ولكن الاجابة واضحة وبديهية فان الحكومة كانت تعلم تمام العلم بما يحدث ولكنها لا تستطيع ان ترفع عقيرتها فى وجه بيكر معربة عن استنكارها لفساده ونواياه الاستعمارية والتنصيرية ،رغم ان مايحدث لم يكن ضد الانسان السودانى فحسب ولكنه ضد سلطة الحكومة وامكاناتها المادية وقوتها العسكرية وطاقاتها البشرية ،حتى ان بعض المسئولين المصريين أمثال روءوف بك قائد القوة العسكرية بالمديرية الاستوائية ،واحمد أفندى حلمى

---

(١) شكرى ،وحده وادى النيل ،مرجع سابق ،ص ١٢٧ .
وانظر ايضا ضرار، مرجع سابق ،ص ٧٧ .
وأيضا جميل عبيد ، مرجع سابق ص ٤٢ .

(٢) جميل عبيد ،مرجع سابق ،ص ٤٢ .

البكباشي بالفرقة استنكروا هذا التغاضي والتغافل الذى يحدث من جانب حكومتهم وأرسلا رسائل الى القاهرة يعربان فيها عن عدم رضائهما عن سياسة بيكر ، وترتب على هذا وعلى غيره ، رد فعل ضعيف من قبل الحكومة ، بأن أرسلت رسالة خاصة لبيكر فى ١٢٨٩ هـ/فبراير ١٨٧٢ يطلبون منه بل يرجونه رجاء خاصا العدول عن سلوكه والكف عن ارهاب الأهالى ونهب مؤنهم واظهار العدل للجميع مع حسن معاملة جنود البعثة وعدم ارهاقهم[١] .

وقد أتبعت الحكومة بيكر بغردون والذى قام خلال ادارته للاستوائية أو خلال حكمداريته بارتكاب أقسى أنواع التنكيل والتعذيب بالأهالى ـ قتل وتشريد ومصادره الممتلكات ـ بدعوى اقتلاع جذور النخاسة وذلك لتبرير مسلكه التعسفى ، واذا كان ذلك حدث نتيجة لمكافحة النخاسة فما بال الأهالى وماذنبهم ، ففى محاولة من غردون لانشاء محطة[٢] من المحطات فى الاستوائية ، والتى تصور أهلها ان انشاء المحطة ماهى الا مقدمة للاستيلاء على الأبقار والأغنام ، وكان من العبث توطيد الأمن وازالة شك الأهالى المتأثرين بما سمعوه عن أفاعيل تجار الرقيق الا بكسب ثقتهم وتطمينهم الى حسن نوايا القادمين ومابينهم وبين تجار الرقيق من فرق شاسع ، الا أن غردون تعجل بارسال آرنست لينان دى بلفون ـ العائد لتوه من بعثة فى أوغنده ـ لتأديب الأهالى الذين يقطنون المكان المراد انشاء المحطة فيه ، وذلك على رأس قوة من أربعين جنديا ولكن نفاذ مامعهم من ذخيرة أدى الى غلبة الأهالى عليهم ، وقضائهم على جميع رجال القوة تقريبا بما فيهم قائدها آرنست لينان دى بلفون[٣] .

---

(١) جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .

(٢) محطة موجى (١٠٠ ك ، تقريبا جنوب لادو) انظر جميل عبيد ص ٩٣ .

(٣) جميل عبيد ، المرجع نفسه والصفحة نفسها .

أخطأ غردون ايضا حين اشتط فى العقوبات التى وقعها

على نساء والاطفال من اهل الزبير بدون جريرة وقد

أتى بحاكم بربرى -فى الوقت الذى جاء فيه لانهاء تلك الاثار السيئة

التى خلفها سلفه بيكر- فبسبب ما نسب الى الزبير وابنه من اتهامات

قام غردون بمعاقبة اهلها كما ان اتهاماته للزبير واهله لم تكن عن

بينة وأدلة قاطعة بل كانت صدى لاقوال الواشين ولم

يتحقق من صدق ما قيل (١)

إن السلوك الارهابى وسياسة العنف غير المبررة وعن قصد وتفوتيب

ذلك ليكون له اثر عميق فى المجتمع المحلى وليدفع به الى الثورة فى

وجه إدارة البلاد اضافة الى ذلك فقد افرزت نتائج اخرى

منها :-

(ا) معاناة جنود الحكومة من نقص الاغذية بسبب امتناع

الأهالى عن مدهم بالحبوب فقد قام المسئولون بالمدرية

الإستوائية بأرسال معونة غذائية للمسئولين بمدرية بحر الغزال-

منهم الطاهر اغا محمد - وهى عبارة عن عدد ٥٠٠ بقرة و وذلك بالتنبيه

على إدارة (رول) بأقتسام كل ما تتحصل علية من الماشية بين المدريتين

وذلك عقب وصول افادة من مدرية بحر الغزال فى ١٣٠٠هـ /١٨٨٤م بنقص

ما لديها من حب ذرة وابقار بسبب عصيان اغلب اهالى المديرية

وتمردهم على سلطان الحكومة (٢) فقد اخذ الاهالى املاكهم من

---

(١) ضرار مرجع سابق ص ٧٨

(٢) جميل عبيد ، مرجع سابق ص ٢١١

بهائم وحبوب وهجروا قراهم بسبب اضطهادهم من جانب الحكـــام الأوروبيين .

(٢) لجوء اغلب الأهالى الى تجار الرقيق طالبيين الاحتماء بهـــم ، وكان هؤلاء قد أنشأوا محطات - كما تقدم - بعيدة عن سلطـان الحكومة ، وهذا واضح أن السلوك الذى اتبعه الحكام الأجانب فى مكافحة تجارة الرقيق قد نتجت عنها ، أن ابتكر التجار طـــرق واساليب جديدة يُسيِّرون بها تجارتهم .

(٣) ان تلك السياسة التى انتهجها الحكام الأجانب قد أثرت حتى فى الجانب الثقافى لسكان الجنوب حيث أن العنف والارهاب الـــذى مارسه صمويل بيكر ، مازال أدب قبيلة الزاندى [1] يحكى عنها .

(٤) كما أثرت تلك السياسه الارهابية فى سلوك القبائل الجنوبية ، فقـد ساد الخراب والدمار ، اذ صارت قبائل الزاندى وغيرها تغزو القبائل الصغيرة وتعمل على استرقاقها حتى تمحو قرى كاملة من الوجـود ببحر الغزال ، عبر عن ذلك ضابط بريطانى قائلا " ان أعضاء قبيلة الفايروغ [2]

---

(١) قبيلة من قبائل مديرية بحر الغزال وهى أيضا قبيلة حدودية بين السود ان وزائير

(٢) الفايروغ أو الفروقى ، اشتقاق محرف لمصدر الفعل فارق ، اذ يروى ان الجد الاكبر للأسرة المالكة فى هذه القبيلة - وهو رجل من "برنو" يدعـــى حمد عباس - كان فى طريق عودته من مكة الى بلاده ، فلما مر بجنـــوب دار فور فارق صحبه وضرب فى الأرض قاصدا بحر الغزال ، فاستقر به المقام بين قبيلة الكالجى "Kaligi" التى كانت منتشرة بين نهر البورو "Boro" جنوبا وبحر العرب شمالا ، وكان عباس فقيها تقرب بحســـن سيرته الى زعيم الكالجى فزوجه بنتا له وتوطدت لذلك أقدام حمد بين القوم ورسخت ، ثم مات زعيم الكالجى فاختارت عشيرته حمد عباس لقيادتهم فصار الملك فى بيته ، انظر موسى المبارك ، تاريخ دارفور السياســـى ، الخرطوم ، مطابع جامعة الخرطوم ، ط ، الاولى ، بدون تاريخ ص٢٠٦ .

والدينكا ، فزعت خوفا من النوير[1] الى الغابة وأصبحت مختبئة باستمرار كالصمغ وسط الأشجار " [2] .

(٥) ان سياسة الضغط والارهاب التى توخاها غردون وأعوانه من الاوربين المسحيين فى قمع تجارة الرقيق قد أثارت ناحية حساسة فى نفوس الأهلين ألا وهى العاطفه الدينية ، فذاك العسف من جانبهم اعتبره كثير من السودانيين حربا مسيحية ضدهم بحسبانهم مسلمين ، واذا كانت حكومة الخديو قد كسبت الاداريين الأوروبيين فانها خسرت الأهلين بتعيين المسيحيين حكاما عليهم [3] .

(د) استفزاز مشاعر السودانيين الدينية واعتداءهم على تقاليدهم الاسلامية

قبل أن نشير الى أبرز مظاهر استهتار الحكام الأوروبيين بعقيدة وعادات وتقاليد السودانيين الاسلامية ، فان تعيينهم من قبل حكومة الخديو يعد من الاخطاء الجسيمة التى ارتكبت فى حق أهالى البلاد السودانية ، ذلك لأنهم كانوا ومازالوا يعتزون باسلامهم ، شأنهم فى ذلك شأن جميع مسلمى العالم ، ولا يعترفون لغير المسلم بتولى ادارة شئونهم كما أن الأوروبيين لا يتحدثون بلغة البلاد ، ولا يحسون بمشاعر الأهالى ، ولا يعرفون حياتهم ومتاعبهم ، وفوق ذلك كله فان كثيرا من الآيات القرآنية تشير الى تحريم اتخاذ

(١) الدنيكا ، النوير من القبائل النيلية بجنوب السودان .

(٢) حسن مكى ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

(٣) بشير كوكو حميده ، ملامح من تاريخ السودان فى عهد الخديو اسماعيل الخرطوم : مطبوعات كلية الدراسات العليا / جامعة الخرطوم / بدون تاريخ ، الطبعة الاولى ص ١٦٩ .

الكافرين كولاة لأمور المسلمين كقوله تعالى : " يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدى القوم الظالمين " (١) .

فقد عين غردون مديرا للاستوائية مستقلا عن الحكمدارية فى الخرطوم وسافر بالبحر من السويس الى سواكن ثم بالابل - ولأول مرة فى حياته - عبر الصحراء النوبية ، فوصل الى الخرطوم فى فترة قياسية ، وقد استقبله الحاكم العام للسودان ، استقبالا رسميا ، انتهى بمأدبة كبيرة اعقبها حفل راقص اشترك فيه شابات قد تجردن من ملابسهن ، وكن يرقصن فى شكل حلقه ويحفظن الايقاع بأقدامهن ، مما أعجب القنصل النمساوى ، والذى عبر عن اعجابه بأن ألقى بنفسه بين الراقصات(٢) .

فهذا المشهد يصور لنا مدى الاستفزاز المقصود بالأخلاقيات الاسلامية من جانب الأوروبيين ، وبالطبع ان الخديو لم يأذن لهم بالقيام بمثل هذه الأعمال ، ولكن طباع الاوروبيين معروفه وأنهم لا يقيمون وزنا للأخلاق ولا للمبادئ . فالسودانيون من المؤكد أنهم قد دهشوا لما يحدث من ولاة يمثلون دولة الخلافة ، رمز الأمة الاسلامية ، ولم يستطع أحد من الأهالى ان يرفع صوته ويقول لا لمثل هذا الحدث أو أن يعبر عن شجبه واستهجانه لمثل هذا المشهد لأنهم يخافون من الحكام الأوروبيين الذين تبدو فى عيونهم الأحقاد والكراهية لدولة الخلافة الاسلامية وملحقاتهم ورعاياها المسلمين وأيضا يخافون من عقاب الخديو والذى قد يفهم أن ذلك نوعا من التمرد على سلطته ونفوذه فى السودان .

---

(١) سورة المائده الاية (٥١)

(٢) الان مورهيد ، النيل الابيض، مرجع سابق ، ص ١٧٣ .

فعندما عين أراكيل بك[١] مديرا على الخرطوم فى ١٢٧٤هـ/١٨٥٧ اعترض السودانيون على تعيينه لأنه غير مسلم ، وطلبوا أن يولوا عليهم مديرا مسلما وتقدم الزعيمان السودانيان "أحمد أبو سن زعيم الشكرية ، والفقيه ابراهيم عبد الدافع" بالاعتراض، وأنكروا تولى نصرانى هذا المنصب ، وكتب أراكيل بك خبر الرفض الى سعيد باشا فى مصر فبعث فى طلب زعماء الثورة اذ ارسلا اليه حيث وضعهما الخديو فى سجون الاسكندرية حيث مكثا فيها مدة من الزمن ثم أفرج عنهما وأرجعا الى السودان بعد أن حلفا على يمين الطاعة .

وكان بامكان سعيد باشا أن يراجع موقفه طمعا فى كسب الأهالى ويأخذ اعتراض السودانيين بعين الاعتبار ، وأن لا يتجاهل استنكارهم ولكن لم يفعل بل عاقبهم على فعلتهم تلك ، فخاب نتيجة لذلك أملهم فى الوالى سعيد باشا ، حيث أنهم ماكانوا ينتظرون منه هذا الخذلان أبدا[٢] خاصة وان السودانيين قد تعودوا مراعاة هذا الجانب من قبل والده محمد على باشا الذى كان يدرك أنهم ينفعلون باسلامهم أيما انفعال وكان يعلم أنهم يجلون علماء الدين اجلالا عظيما ، حيث أنه أوفد مع الجيش الذى قاده

---

(١) أراكيل بك ، هو أرمنى الأصل ، نصرانى الديانة ، يلقب بالفرنساوى ، عين مديرا على الخرطوم فى عام ١٢٧٤ / ١٨٥٧ وقد امتاز بحسن السياسة ولين العريكة ، بقى أراكيل مديرا على الخرطوم حتى عام ١٢٧٦ / ١٨٥٩ حيث خلفه فى ادارة الخرطوم بعد ذلك حسن بك سلامة الشركسى ، الذى لم تطل مدته فيها ، وقد وصف بأنه كان فظ الأخلاق ، سىء الادارة ، قليل الخبرة فى سياسة البلاد ، الا أنه كان متدينا كثير الصلوات ، حسن الاعتقاد ، عفيف النفس ، أما تاريخ وفاة أراكيل فكان عام ١٢٩٢ / ١٨٧٥ ، انظر شقير ، مرجع سابق ، ص ٢٢٩ ، والجدير بالملاحظة تلك التناقضات التى اجتمعت فى شخص حسن بك سلامة الشركسى مما يدعو للعجب .

(٢) انظر ، ضرار مرجع سابق ، ص ٧٠ ، انظر ايضا شقير مرجع سابق ص ٥٣٤

اسماعيل باشا لضم السودان ثلاثة من العلماء هم القاضى محمد الاسيوطى الحنفى والسيد أحمد البقلى الشافعى والشيخ السلاوى الشافعى ، وكان على هؤلاء العلماء أن يحثوا الناس على وجوب طاعة الوالى المسلم مادام يسير على قواعد الشرع وأن يتجنبوا سفك دماء المسلمين وأن يطيعوا خليفتهم العثمانى وواليه . (١)

(هـ) التمهيد للاستعمار :

أثار تعيين الاجانب كحكام و اداريين فى السودان نقاشا من جانب بعض المؤرخين المحدثين ،فقالوا ان الخديو اسماعيل كان يسعى من وراء ذلك لكسب ود بريطانيا لكيلا تقف عقبة فى طريق توسعاته فى أفريقيا ، ولكى تقدم له قروضا مالية ،وذكر البعض أنه كان مولعا بميله لأوروبا وحياة الأوروبيين ـ كما تقدم آنفا ـ بينما أشار البعض الى أن الاوروبيين هم الذين فرضوا أنفسهم ولأن الخديو اسماعيل مدين لهم لأن لهم يد سلفت ودين مستحق نتيجة تلقى علومه وثقافته عندهم ،ومن الصعب اخراجهم واستفزازهم ،أو أن يتصرف معهم ويعاملهم بمثل معاملتهم للمصريين فى السودان ومنهم من قال أيضا ان اسماعيل أدرك أطماع الأوروبيين فى مصر وأملاكها بسبب موقع مصر الاستراتيجى فى خريطة العالم ، لذا فانه حاول تفادى شرورهم ودفع مكرهم بارضائهم وبجعلهم حكاما واداريين فى سلك حكومته .

إن كل ماذكر آنفا صحيح ،ويبدو من خلال تلك الأقوال أن أغلب ولاة مصر مشتركون فى أمر تمكين الأجانب ،ولكن الخديو اسماعيل هو الذى ركزهم وأضفى عليهم هيبة لا يستحقونها ،وكان بسببهم أن أثمرت تلك النتائج التى

---

(١) ضرار ـ مرجع سابق ص ٢٥ .

ما كان الخديوى يدرك عمق خطرها على العالم الاسلامى بصفة عامة وعلى مصر وأملاكها فى البلاد السودانية بصفة خاصة. ففى السودان كادت السلطة الواسعة للحكام الأجانب أن تكون بمثابة الوجه الآخر للحكم الانجليزى.

ولقد بذل الأوروبيون جهودهم السياسية فى ايجاد نوافذ ينفذون منها الى استعمار مصر وأملاكها وقد اتبعوا فى سبيل تحقيق ذلك عدة وسائل وطرق يمكن اجمالها فيما يلى :-

- الأهتمام بأبناء وأحفاد الولاة فى مصر لصياغتهم وتعبأتهم بطريقة تجعل الفرد منهم خادما امينا - من حيث يدرى أو لا يدرى - لأهدافهم وأغراضهم الاستعمارية الظاهرة منها والمستترة ، وخير دليل على ذلك الخديو اسماعيل ، فالأوروبيون يخدمون سيادتهم المستقبلية على العالم بتأن وصبر ودراسه [1]، ويكون ذلك مقرونا بمفاهيم عقيدتهم النصرانية .

- رفعهم لشعارات المبادىء الانسانية السامية كمحاربة تجارة الرقيق مثلا واستخدامها للتدخل فى الشئون الداخليه للبلاد الاخرى وللتأثير عليها واحتلالها واستغلالها ، فقد دخلت بريطانيا شيئا فشيئا الى البحر الأحمر يجوس خلاله بسفنها الحربية وتقيم لنفسها القواعد على شواطئه ،وهى توهم العالم فى ذلك بأنها انماتضحى من أجل مكافحة الرق بمضايقة التجار الذين يستخدمون موانىء البحر الأحمر فى تصدير حمولتهم من الرقيق ، كما أنها أيضا كفلت بقاء أثيوبيا على علاقة ودية بها ، وهكذا أصبحت

---

(١) هناك مثل انجليزى يعمل به الأوربيون فى حياتهم العامة ،وفى واقعهم السياسى بالذات وهو ،يعنى" بطىء ولكنه فعال" ،وقد طبق هذا المثل "Slow but sure" بدقة فى تنفيذ أطماعهم الاستعمارية.

الأقطار الثلاثة التى يرويها نهر النيل فى رحلته الطويلة ، من بحيرة تانا حتى البحر الأبيض المتوسط ـ وهى القطر المصرى والقطر السودانى ، واثيوبيا ـ داخلة فى نطاق مشروع جديد للعلاقات السياسية الدولية ، وعندما تبين لانجلترا ـ فى نهايه الأمر ـ أنها عاجزة عن ضمان حياد هذه الأقطار عن طريق ، حماية الانسان من الرق ، أو الوسائل الدبلوماسية الاخرى لم يعد ثمة مناص لها من دخول الحرب فى تلك الأصقاع ، **كوسيلة أخرى من ضمن الوسائل التى استخدمتها** بريطانيا فى سبيل تحقيق أهدافها الاستغلالية وهكذا تدرجت الى احتلال مصر أولا ، ثم احتلال السودان ـ والذى أرسل اليه الحكام الأجانب من قبل للتسهيل والتمهيد لاستعماره ـ وغزو اثيوبيا ومن قبل فقد استخدمت فرنسا الحرب أيضا كوسيلة لغزو مصر على يد بونابرت وما احتلال انجلترا لمصر والسودان وغزوها لاثيوبيا الا نتائج غير مباشرة لغزو بونابرت لمصر[1] .

فاحتلال مصر والسودان كان أمنية أفلح البريطانيون فى تحقيقها ، بدليل أن السير صمويل بيكر بعد عودته الى انجلترا فى عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م كتب له أحد الوزراء الانجليز قائلا بأنه مهما كانت النتائج التى توصل اليها فى سبيل القضاء على تجارة الرقيق فان حملته قد عملت على زيادة النفوذ البريطانى فى مصر، وتساءل عن الزمن الذى سيرى فيه البواخر التى تحمل العلم البريطانى فوق مياه البحيرات ، ويرى خط مواصلات منتظمه بينها وبين القاهرة ولقد كان معجبا بالتقدم السريع والمؤكد الذى يقوم به الانجليز فى قلب القارة الأفريقية عابرين الأراضى المصرية للوصول الى أهدافهم[2] .

---

(١) الان مورهيد ، النيل الازرق ، القاهرة : دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ص ١٨٤

(٢) على ابراهيم عبده ، مرجع سابق ، ص ١١٣ .

- ومن بين النشاطات الاستعمارية الانجليزية أيضا الاستعانة بالشركات التجارية ، كنوع آخر من الأساليب التى استخدمتها انجلترا فى تحقيق الهيمنة على أملاك مصر فى افريقيا ، فبعد فشل الخطة التى اقترحها غردون على الخديو اسماعيل باستخدام طريق الساحل فى سبيل الوصول الى منطقة البحيرات وهى الخطة التى أفسدتها الحكومة الانجليزية بتحريضها السلطان زنجبار والذى احتج بدوره على الخديوى اسماعيل - كما تقدم - ، ونتيجة لذلك اضطر الخديوى الى سحب الحملة التى أرسلت لتنفيذ تلك المهمة ، بعد ذلك قام غردون باسناد تنفيذها لشركة انجليزية عندما رجع نهائيا من مأموريته فى الاستوائيه ، وكاد غردون أن يعمل مع تلك الشركة ، الا أن الظروف قادته مرة أخرى للسودان حكمدارا على كل الاقاليم السودانية وبدأت الشركة عملها تدريجيا من الساحل حتى وصلت الى مملكة أوغنده ومهدت للحماية الانجليزية عليها [1] - كما سبق الاشارة اليه - فهى فى الحقيقة شركات استعمارية ولكنها مغلفة بأغلفة الأعمال التجارية بدليل أنها تملك جيشا مدربا ، وسلاحا وعتادا يدعون أنها أعدت لحماية وحراسة تلك الشركات ، ولاعمالها وللافراد العاملين فيها الا أنها كانت تمارس الكثيرمن اعمال السيادة تكون حصيلتها فى النهاية الاستعمار والاحتلال ، ويبدو أن الاوروبيين الذين يعملون فى السودان ، ما كانت تنقطع صلتهم بحكومات بلادهم ، بل ان غردون باشا هو آخر ولاة السودان فى عهد اسماعيل ، قد استقال من منصبه فى أوائل عهد توفيق ، على اثر اخفاقه فى تحديد التخوم بين السودان والحبشة [2] ، ثم غادر بعد ذلك الى بلاده ، ولا أظن ان مجرد الفشل فى تحديد التخوم يعد دافعا قويا

---

(١) شبيكه ، تاريخ شعوب وادى النيل ، مرجع سابق ، ص ٥٤١ .

(٢) شكرى ، وحدة وادى النيل السياسيه ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

للاستقاله ،كما أن استقالتهمن منصبه لم تكن وفاء لصديقه الخديو اسماعيل الذى أجبر على التخلى عن العرش، وقد يكون الجو السياسى فى القاهرة أصبح مناوئا له وأنه غير قادر أن يتنفس فيه لذا آثر مغادرة مصر الى بريطانيا ولكن يبدو أن الأرجح أنه باستقالته يريد الذهاب الى بلاده لتلقى المزيد من التعليمات التى يهتدى بها فى عمليات التمهيد للهيمنة الانجليزيه على مصر والبلاد السودانية ، فالأوروبيون أصحاب مصالح ،ولا يمضى الواحد منهم لأداء أى عمل ليس له أو لبلاده أو لنصرانيته فيها مصلحة ، فحتى ترحيب غردون بالمجىء للعمل مع حكومة الخديو فى السودان ،فيما يبدو جاء نتيجة لحالة الهوس الدينى التى اعترته ابان عمله فى الجيش وفى خدمته العسكرية فى حروب أوروبا والصين ، فأصبح زاهدا ،واعتبر مجيئه وعملهفى السودان بمثابة التقرب للرب فى سبيل انقاذ البشرية من الجهل والتخلف والحاقها بركب الحضارة على هدى النصرانية ، فاستغلت بريطانيا فيه هذه النزعة واستفادت منه باقصى مايمكن .

(و) استسلام الحكام الأجانب للمهديين :

لم تنته مؤامرات الحكام الأجانب ضد الحكم التركى المصرى فى السودان عند الأمور التى سبق ان تكلمت عنها والتى ادت فى النهاية الى قيام الثورة المهدية ،التى استسلموا لها طوعا ودون مقاومة أو تضحية تذكر من أجل سيادة وسلطة الحكومة التى عينتهم وأصبحوا حكاما يأمرون وينهون باسمها .

وتعتبر معركة شيكان [1] ـ التى خاضها جيش حكومة الخديوى بقيادة

---

(١) هى منطقة وسط اقليم كردفان ،وتقع جنوب الأبيض عاصمة اقليم كردفان .

الضابط الانجليزى هكس باشا ضد جيش محمد أحمد الملقب بالمهدى - هى المعركة التى قصمت ظهر الحكم التركى المصرى فى السودان عام ١٣٠٠/١٨٨٣ حيث هزم جيش الحكومة هزيمة منكرة ، وانتهز الحكام الأجانب فرصة هذه الانتكاسة لنفض أيديهم عن الحكومة وهذا مبلغ مقصدهم بأن تصل الأمور الى هذا المستوى لأن الجولة القادمة هى جولة التحرك الانجليزى الاستعمارى المباشر. خاصة وقد تكامل الاحتلال الانجليزى لمصر ، وهو تنفيذ لأحد بنود الخطة المذكورة آنفا ، وهى اثارة الوضع السياسى والاقتصادى فى مصر وتطويره حتى لايرى أى حل آخر الا التدخل العسكرى واحتلال البلاد المصرية فى ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م ويستمر تهيئة السودان وتطوير المواقف السياسية فيه حتى تصل الى مرحلة الثورة ، فتضطر مصر الى رفع يدها عنها ، ومن ثم يصبح أمر قدوم الجيش الانجليزى الغازى الى السودان أمرا حتميا ، طال الأجل أم قصر. ففى تلك الآوانة ، كان المدير العام لاقليم دارفور، سلاتين باشا [1] الذى واجه ثورة قادها زعيم قبائل الرزيقات " مَادِبُّو على" [2] بعد أن بايع المهدى

---

(١) البارون ، السير، اللواء ، رودلف فون سلاتين باشا ، كان ضابطا نمساويا ، عينه غردون مفتشا للمالية بالسودان ثم رقى مديرا لدارفور وعند امتداد لهيب الثورة المهدية الى دارفور، تظاهر سلاتين بدخوله الاسلام وانخراطه فى سلك المهدية ، وسمى نفسه عبد القادر، ثم هرب من الأسر ، وبعد الغزو الانجليزى للسودان عاد سلاتين وأصبح مفتشا عاما حتى عام ١٣٣١/١٩١٤ ، توفى عام ١٣٤٩/١٩٣٢.
انظر عبد الله حسين ، مرجع سابق ، الجزء الاول ، ص ٢١١.

(٢) مادبو على : ولد حوالى عام ١٢٦١/١٨٤٤ : اذ قدر جسى عمره حين التقيا عام ١٢٩٦/١٨٧٩ بخمس وثلاثين سنة ، وكان مادبو شيخا على أهله أولاد محمد وهم فرع من الماهرية - يقول محمد عوض محمد فى ص ٢٣٨ ان الرزيقات ينقسمون الى ثلاثة أقسام هم الماهرية ، والمحاميد والنوايبة ولما ثار هارون على الحكومة فى دارفور، ساعد مادبو =

فى قدير ثم رجع الى دار فور لاخضاع حامياتها بعد انتصار المهدى على الشلالى[1] ، ودارت بينه وبين سلاتين معارك متعددة لم تكن فاصلة[2] واستمر الوضع مضطربا وسلاتين يأمل أن يقضى هكس على المهدى ، ولكن ما ان وصلت أنباء قضاء المهدى على هكس الى سلاتين قرب نهاية شهر نوفمبر حتى أعلن جنوده وضباطه رفضهم مواصلة الحرب ضد المهديين ، ففى ١٣٠٠ / ١٨٨٣ استسلم أمام "زقل" [3] وهو الامير السودانى الذى عينه المهدى ، حاكما على دارفور ،

= المسوءلين فى قتاله فكافأه غردون بتسميته شيخا على الزريقات كلهم ، وهى الوظيفة التى كان يشغلها عند قدوم جسى الى دارفور انظر موسى المبارك مرجع سابق ص ٣٧ . فى : Romolo Gessi: seven years in the sudan, London. pp. 297.

(١) يوسف حسن الشلالى ، أصله كنزى ، ولد بالقرب من الخرطوم ، برز عندما كان يعمل فى جيش الحكومة فى بحر الغزال ، عند قتاله سليمان الزبير ، ورقى الى رتبه اللواء فى عام ١٢٩٦ / ١٨٧٩ ، تقديرا لخدماته ، قاد الحملة الثانية على المهدى ، وصحب معه جيشا كثيفا وعددا من أعيان السودان قتل ومن معه فى واقعة قدير ١٢٩٩ / ١٨٨٢ ، انظر ، محمد ابراهيم ابو سليم ، الحركة الفكرية فى المهدية ، بيروت : دار الجيل الطبعة الثانية ، ١٤٠١ / ١٩٨١ ، ص ٢٢ .

(٢) انظر ، ضرار ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ .

(٣) هو محمد خالد زقل : ابن عم محمد أحمد المعروف بالمهدى ، ومن كبار قادة عهده ، بدأ حياته تاجرا ثم صار موظفا فى دار فور ، عين مديرا " لشكا" فى ١٢٩٦-١٨٧٩ ، وعند قيام الثورة مال اليهم ثم وفد الى المهدى ، واستقر الى جانبه وعينه مديرا على عموم دار فور. استدعاه الخليفة التعايشى اثر فتنة الأشراف ، وصفّى قوته فى " بارا" ثم سجنه مدة فى أم درمان ثم نفى الى "الرجاف " ، حيث ظل مسجونا حتى اطلق سراحه البلجيكيون فى ١٣١٤ / ١٨٩٧ ، ثم ذهب الى دارفور وأقام بها الى أن قتله على دينار سلطان دار فور فى ١٣٢٠ / ١٩٠٣ بسبب تآمره ضده ، أنظر أبو سليم ، الحركة الفكرية مرجع سابق ، ص ٢٥ .

وانتقلت المديرية بأكملها الى أيدى الثوار دون أى مقاومة تذكر وزادت المهمات والأسلحة والذخائر الموجودة فيها من قوة الثورة السودانية [١] .

أما فى بحر الغزال فان انتصارات المهدى المتوالية فى كردفان شجعت قبائل جنوب السودان وخاصة الدينكا والنوير والجور على الانضمام الى المهدى فذهب زعيم الدينكا وآخرون الى المهدى فى الأبيض وبايعوه ثم عادوا لطرد لبتون بك ـ Lupton ـ حاكم بحر الغزال ـ انذاك ـ والحاميات المنتشرة فى أنحاء الاقليم [٢] ، وهذه دلالة واضحة على أن هنالك أنصار من أصل جنوبى ويمكن أن أعرفهم " بأنصار الجنوب" ويبدو لى أن العصيان والخذلان الذى لقية ليتون بك من جنوده ابان قدوم الأنصار نابع من تأثير وفد أنصار الجنوب الذين بايعوا المهدى فلما استولى كركساوى [٣] على "شَكّا" تقدم نحو بحر الغزال بخمسة آلاف مقاتل أو يزيدون وأرسل الى لبتون بك انذارا دعاه فيه

---

(١) جلال يحيى ، مرجع سابق ، ص ٣٦٢ .

( ) انظر محمد سيد محمد ، المديرية الاستوائية ، مرجع سابق ص ٣١ .
وانظر ايضا جريدة السودان الحديث العدد ٣٨ ، ١٠/١٤١/١٩٨٩ .
وانظر أيضا ضرار ، مرجع سابق ، ص ٢٣٢ .

(٣) كرم الله محمد كركساوى ، أصله دنقلاوى ذهب الى بحر الغزال للتجارة ثم انضم الى المهدى ثم عاد الى بحر الغزال أميرا عاما عليها من قبل المهدى ، وكانت المديرية تعانى من الثورات التى قام بها الأنصار وحلفاؤهم وهى تشبه حرب العصابات فسهل ذلك مهمة كرم الله الذى دخل المدينة فى ١٣٠١/١٨٨٤ دون قتال ، أعد كرم الله العدة لاحتلال الاستوائية الا أن وفاة المهدى وثورة "الزريقات" اضطرته الى اخلاء بحر الغزال وقمع ثورة "الزريقات" ثم دخل فى صراع مع الامير يوسف ابراهيم الذى كان عاملا على دارفور منذ غادرها زقل ، ثم أفل نجمه بعد ذلك اثر سياسة التخلص من الدناقلة ـ انظر ابو سليم ، الحركة الفكرية ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .

الى التسليم ،وكان مع لبتون بك نحو ألف وخمسمائة جندى جلهم من"الخطرية"(١) فخذلوه ولحقوا بكركساوى ولم يبق معه غير عدد قليل من المصريين من الضباط والموظفين ،وهب الأهالى والرقيق وأعلنوا دخولهم فى طاعة كركساوى ومنعوا وصول الأقوات الى لبتون ،فاضطر هو ومن معه من المصريين الى التسليم بعد أن أستأمنوا كركساوى فأمنهم ثم بعث بهم جميعا اسرى للمهدى (٢) .

أما بالنسبه للمديرية الاستوائية ،فقد سار فيها أمين بك سيرة عدل واصلاح وحبب اليه الأهالى بحسن سيرته ،ورفع شأن حكومة الخديو ،بما أبداه من ضروب الاصلاح ،فقد وطد الأمن ، وطارد تجار الرقيق ،ونظم الجند من الأهلين ونهض بالزراعة ،وعلم الأهالى طريقة زراعة الأرز والبن والنيلة ،وعلمهم بعض الصنائع ، وخاصة صناعة النسيج والاحذية والصابون والشمع ،وطعم الأهالى ضد مرض الجدرى (٣) .

ولما نشبت ثورة محمد أحمد المعروف بالمهدى ، لم يكن أمين بك على استعداد لمواجتها ،فضلا عن أن الأحداث دفعته الى ارتكاب سلسلة من الأخطاء ، وكانت المديرية الاستوائية هى المديرية الوحيدة التى لم تستسلم لمحمد أحمد وأنصاره كما فعلت بقية المديريات السودانية ،ولا شك أن ذلك يرجع الى مقدرته على تنمية موارد الاقليم البشرية والاقتصادية والدراسة التى كرس لها ماله وحياته (٤) .

---

(١) الخطرية : هم العساكر غير المؤهلين عسكريا .

(٢) ابراهيم فوزى ، مصدر سابق ، الجزء الأول ، ص ٢٥٦ .

(٣) عبد الرحمن الرافعى ، مصر والسودان فى اوئل عهد الاحتلال ، القاهرة ، دار المعارف الطبعة الرابعة ١٤٠٤ ، ١٩٨٤ ، ص ١٥٣ .

(٤) محمد سيد محمد ، المديرية الاستوائيه ، مرجع سابق ص ٣١٢ .

وكان امين بك قد تلقى ثلاث رسائل من الكركساوى ، كانت الاولى يبلغه فيها باستسلام فرانك لبتون مدير مديرية بحر الغزال ويطلب من أمين وضباطه تسليم المديرية والقدوم الى بحر الغزال ، والرسالة الثانية فى ١٣٠١هـ/ ١٠ أكتوبر ١٨٨٤م يحذره فيها الكركساوى بأن قدوم الأنصار باتموءكدا ، أما الرسالة الثالثة فقد كانت ١٣٠٢هـ/ أبريل ١٨٨٥م يبلغه فيها بسقوط الخرطوم فى ايدى الأنصار ومصرع الجنرال غردون حاكم عام السودان ، وقد أدت هذه مفعولها فى تهديد أمين بك ، الذى خشى أن يتعرض للهجوم من جانب الأنصار ، لذلك غادر "لادو" وانتقل جنوبا الى "وادلاى" التى تبعد عنها بحوالى مائتين وخمسين كيلو مترا والتى أصبحت عاصمة للمديرية وقد تم ذلك الانتقال بعد أيام فقط من وصول الرسالة الأخيرة من كرم الله [١]، وفى ٢٧/١٣٠٣ فبراير ١٨٨٦ تلقى أمين رسالة من نوبار باشا رئيس الحكومة المصرية بتاريخ ١٣٠٢/ ٢ نوفمبر ١٨٨٥ يطالبه باخلاء المديرية والانسحاب الى مصر بطريق زنجبار على أساس أن الحكومة المصرية كانت قد قررت اخلاء البلاد فى مايو ١٨٨٥ ، وما كان باستطاعته تنفيذ أمر الحكومه المصرية بسبب نشوب حرب بين مملكتى أوغنده وأونيورو فى الجنوب ، وبذلك سد الطريق الذى سيسلكه أمين فى حالة اذعانه لأوامر الحكومة باخلاء المديرية الاستوائية [٢] .

بعد ذلك توالت صيحات الرحاله الأوروبيين [٣] فى أفريقيا وبعض الصحف التى تصدر باللغة الانجليزية [٤] ـ فى القاهرة ـ والألمانية [٥] ، وأيضا

---

(١) انظر محمد سيد محمد ، مرجع سابق ، ص٣١٤ ، ص٣١٦ ، ص٣١٧ .

(٢) محمد سيد محمد ، المديرية الاستوائيه ، مرجع سابق ، ص٣١٧ .

(٣) مثل الرحالة الألمانى د . يونكر.

(٤) مثال جريدة اجبشسيان جازيت التى تصدر فى القاهرة باللغة الانجليزية .

(٥) مثل جريدة "kölnische zeitung" التى تصدر فى كولونيا بألمانيا .

بعض الجمعيات الجغرافية [1]، منادين (بانقاذ) أمين ،ولكنها خطة فى محصلتها انتزاع المديرية الاستوائية من السلطة المصرية.

وعندها رسمت الخطط لانقاذ (أمين) ،والذين أخذوا على عاتقهم تحقيق ذلك وابعاد أمين عن المديرية الاستوائية رجال ثلاثة هم : ليوبولد الثانى ملك بلجيكا وعاهل دولة الكنغو الحرة ،ووليم ماكينون رئيس جمعية شرق أفريقيا البريطانية [2] ، والمغامر هنرى مورتن استانلى [3] ، وهذا الأخير هو الذى تولى انتزاع أمين بالقوة ،وتم على يديه اخلاء المديرية الاستوائية.

---

(١) مثل الجمعية الجغرافية بالاسكتلندية.
انظر محمد سيد محمد ، المديرية الاستوائية ، مرجع سابق ص ٣١٩ ، ٣٢٠ .

(٢) تأسست هذه الجمعية فى سنة ١٣٠٢-١٨٨٥ وكانت تستهدف استثمار المنطقة الواقعة مابين ساحل المحيط الهندى والبحيرات الاستوائية والنيل ومد خط حديدى من منبسا الى البحيرات وذلك فى سبيل انشاء سيطرة تجارية انجليزية فى بادىء الامر ثم تتبعها السيطره السياسية فى النهاية على المناطق الواقعة بين الساحل والنيل ثم توحيد الممتلكات الانجليزية فى جنوب افريقيا مع السودان ،
انظر ، محمد سيد محمد ، المديرية الاستوائيه ، مرجع سابق ، ص ٣٢١ ،١٠

(٣) اسمه الحقيقى (رولاندز) من اصل ايرلندى وجنسية امريكية / نشأ فى مصنع فى (ويلز) نشأة شبيهة بما وصفه ديكينز فى قصصه / عمل كخادم فى سفينة مسافرة الى نيو أورليانز حيث اتخذ اسم وجنسية أمريكى كريم تبناه / خاض الحرب الأهلية الأمريكية / وعمل فى الأسطول الامريكى ، ثم أخيرا عمل كصحفى فى الحملة البريطانية ضد امبراطورية الحبشة .
انظر ، الان مورهيد ، النيل الابيض ، ص ١١٨ .

(ز) دورهم في القضاء على دولة الزبير باشا رحمة [1] :

خرج الزبير باشا من قرية الجيلي ، مسقط رأسه طالبا ابن عمه الذى خرج في طريقه الى جنوب السودان لممارسة التجارة ، والتقى به في مكان على النيل الابيض حيث اقسم عليه الزبير بالطلاق على أن يرجع معه الى الجيلي ، الا ان ابن عمه رفض ذلك ، وتورط الزبير في ذلك القسم ، واهتدى أخيرا الى السير مع ابن عمه مرغما الى جنوب السودان ، ودخل في الأعمال التجارية هناك ووجد نفسه يسير من نجاح الى آخر ، ثم توسعت تجارته بفضل ذكائه وشخصيته وحبه للمغامره . وطرق أراضي جديدة في جنوب السودان لم يطرقها غيره وصاهر قبائل الجنوب ، وخاصة ملوكها [2] ، وبذلك مكن لنفسه بأن كوّن له جيشا مدربا ومنظما ومجهزا بالأسلحة والعتاد ، وكان جيشة يعرف "بالباز نقر" [3] والذى اصبح الزبير بفضلهم سيدا مهابا ، وقد اعتنق أفراد" الباز نقر" - ومعظمهم من

---

(١) حدث الزبير باشا عن نفسه فقال : انا الزبير بن رحمة بن منصور بن على ابن محمد بن سليمان بن ناعم بن سليمان ابن بكر بن شاهين بن جميع بن جموع بن غانم العباسى ، هاجر أجدادى العباسيون من بغداد عقب هجوم التتار عليها فاتوا مصر فوجدوا فيها الفاطميين حكاما فلم يطيقوا الاقامة معهم فنزحوا الى السودان فسكن بعضهم شمال السودان وبعضهم بلاد دارفور وودای ، ولد الزبير بقرية الجيلي (شمال الخرطوم) هاجرالى جنوب السودان ومارس التجارة وتمكن من تكوين دولة هناك عاصمتها (ديم زبير) في بحر الغزال ، وفتح دار فور وانعم عليه الخديو بلقب باشا ، توفى سنة ١٣٣٠ / ١٩١٣ ،
انظر شقير ، مرجع سابق ص ٥٦٨ ، وانظر ضرار ، مرجع سابق ص ٨٠ .

(٢) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

(٣) كما درب الزبير آخرين من ابناء المديريات الشماليه وسماهم (بالبحارة) انظر شبيكه ، تاريخ شعوب ، ص ٥٣٢ .

أبناء جنوب السودان - الاسلام على يد الزبير.

دخل الزبير بحر الغزال ودارت بينه وبين ملوك قبائلها عدة مناوشات انتهت بانتصاره عليهم ، وأسس حكومة ، ترأسها الزبير على هدى الاسلام [1] فقد صحب معه فى سنة ١٢٩٠ / ١٨٧٣ اثنى عشر عالما من علماء الشرع فى حملاته على القبائل المعادية ، وكان قد حلّفهم على القرآن الكريم ، على أنهم لو رأوا فى أحكامه اعوجاجا عن الشرع أن ينبهوه اليه ، فلما وقع عبد الله التعايشى [2] أسيرا فى يده أمر الزبير بقتله ، فاعترضه العلماء وقالوا "ان الشرع لا يسمح لك بقتل أسير الحرب فضلا عن أن السياسة تنكر عليك قتل رجل يعتقد الناس صلاحه" لأنه ان قتل نفرت القبائل منه وعدوه رجلا ظالما مخيفا [3] .

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

(٢) هو عبد الله بن السيد محمد بن آدم تورشين ، من قبيلة التعايشه ، احدى القبائل العربية المستقره فى جنوب غرب دار فور ، حيث ولد هناك فى دار التعايشة ، اهتم به والده وجعل له معلما يعلمه القرآن والفقه وعندما ظهر محمد احمد المعروف بالمهدى يبشر بدعوته الاصلاحية ، سمع به عبد الله التعايشي الذى استقل دابته لكي يلحق بمحمد أحمد الذى عرف بزهده وتقشفه وعده كعبه فى العلم والدين ، والتقى بمحمد أحمد المعروف بالمهدى فى الحلاوين بمنطقة الجزيرة ، وظل من يومه مصاحبا له وعندما قاد محمد أحمد ثورته ضد الحكم التركى المصرى ، وقسم جيشه الى رايات اربع أعطى الراية الأولى لعبد الله حيث يدل ذلك على علو مكانته عند محمد أحمد ، وقد اصبح خليفة له بعد وفاته ، وحكم السودان مدة ثلاث عشرة سنة ، وقتل على يد المستعمرين الانجليز فى أم دبيكرات انظر شبيكه ، تاريخ شعوب وادى النيل ، مرجع سابق ، ص ٦٩٠ .

(٣) عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافه العربيه فى السودان ، بيروت : دار الثقافه للطباعه والنشر ، الطبعة الاولى بدون تاريخ ، ص ١١٦ .

واتباعا لسياسة التوسع فى حوض النيل الاعلى بعث مدير فشوده "بمحمد البلالى " لفتح اقليم بحر الغزال وضمه لمديرية فشوده . الا أن الزبير قاد حملة قاوم بها البلالى وقتله[1] ، ويبدو أن الزبير أدرك أنه تورط فى قتل أحد رجال الحكومة وخشى أن تحدث أزمة بينه وبين الحكومة نتيجة لعمليته تلك ، لذا نراه يسارع بالاعتذار للحكومة عما حدث والندم على ما فات ، وذكر بأن ماحصل ، ما كان له أن يحصل لولا أن البلالى بادأه بالعدوان ، وبعدها تم التفاهم على تعيين الزبير مديرا لبحر الغزال بعد أن يأتى الى الخرطوم ويتفق مع الحكمدار ، ولكن ارسال البلالى الى الزبير يعد أول بادرة من الخديو يعبر فيها عن استيائه وعدم رضائه عن النجاح الذى حققه الزبير ومقدرته على تكوين دولة فى جنوب السودان .

ولم يكتف الزبير ببحر الغزال فقط بل زادت طموحاته نحو توسيع مملكته باتجاه غرب السودان ، وكانت قبيلة الرزيقات قد سمحت بمرور السلع التجارية للزبير عن طريق أراضيهم نظير مبلغ من المال يدفعه لهم ولكن الرزّيقات خرقوا الاتفاقية المبرمة بينهم وبين الزبير ، الذى اعتبر أن هذه فرصة يحاول عن طريقها تحقيق رغبته فى توسيع مملكته ، فزحف بقواته نحو الرزيقات وتمكن من هزيمتهم وفر اثنان من شيوخهم هما "منزل" و"عليان"[2] واحتميا بسلطان الفور فى الفاشر الذى رفض تسليم شيوخ الرزّيقات فما كان من الزبير الا أن سير جيشا نحو سلطان دارفور ودارت بينهما موقعة منواشى[3] ، والتى

---

(١) شبيكه ، تاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص ٥٣٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٥٣٣ .

(٣) هى قرية غالب سكانها ـ من قبيلة البرنو ، وتقع على الطريق مابين مدينتى نيالا والفاشر .

حسمت لصالح الزبير ، وقتل سلطان دارفور ابراهيم بن السلطان حسين ، ودخل الزبير عاصمة السلطنة الفاشر. منهيا بذلك سلطنة دارفور الاسلامية والتى ظلت تحكم تلك المنطقة مدة تزيد على ثلاثمائة سنة ،بعد ذلك أعلن الزبير ولاءه للخديو على أن يظل حاكما على بحر الغزال ودارفور، وأنعم عليه الخديو برتبة الباشوية مكافأة له على ذلك الجهد المخلص.

الا أن الأجانب فى مصر أشاروا على الخديوى بألا ينخدع بمظاهر الولاء والخضوع ، وتلك المبادرة الطيبة التى أبداها الزبير، ويبدو أنهم صوروا له ذلك الولاء والخضوع بأنه ماهو الا مجرد لعبة من جانب الزبير لكسب الوقت حتى يتمكن ويستقل بتلك المناطق ويعلن نفسه ملكا عليها ،فان لم يكن هذا الكلام حقيقة فما الذى حمل الخديو على احتجاز الزبير عندما وصله هناك فى القاهرة عارضا شكواه ضد حكمدار السودان آنذاك اسماعيل باشا أيوب؟ باعتبار أن الحكمدار هو سبب العراقيل (١) التى تمنعه من أن يصير حاكما على بحر الغزال ودارفور فى اطار حكومة الخديو ، خاصة وأن الزبير قد وضع كل امكاناته ،من جيش مدرب ، واسلحة وعتاد وأموال وخبرات عسكرية فى سبيل ضم كل من بحر الغزال ودارفور ، وتقديمها كهدية للحكومة الخديوية التى لم تبذل تجاه تلك التوسعات اى جهد سوى عدد قليل من

---

(١) رأى اسماعيل باشا أيوب الا يترك الزبير يقوم وحده باحتلال دارفور لذلك نصحه بالتريث ذاكرا له أنه فى طريقه لمساعدته ، وكان الحكمدار يخشى أن ينتصر الزبيرعلى الفور، ويطالب بعد ذلك بأن يكون حاكما على بحر الغزال ودارفور معا ،وهذا ما حدث فعلا بل كانت الحكومة الخديوية تريد أن يكون الزبير مجرد مشارك فى ضم دارفور حتى لا يطالب بحقوق فى السيادة على دارفور .

البنادق (١) اضافة الى منح الزبير رتبة الباشوية، وتجدر الاشارة الى ان اقصاء الزبير قد أدى الى دعم الحركة المهدية دعما عسكريا بصورة غير مباشرة حيث أن الزبير قد ترك وراءه ١٥٠٠٠ مقاتل مدرب ، كان من ضمنهم الزاكي طمل (٢) ، وحمدان أبو عنجه (٣) والنور عنقره ، ومحمد عثمان

---

(١) ضرار ، ص ٨٢ ، مرجع سابق .

(٢) الزاكي طمل ، من مواليد التعايشه ، قاد الانصار في دار فور ، ثم اشترك في وقائع الحبشة تحت قيادة حمدان ابو عنجه ، وبعد وفاة حمدان عين اميرا على امراء القلابات ، قاد قواته بعد ذلك بقليل في معركة القلابات ، وانتصر على الاحباش وقتل الملك يوحنا امبراطور الحبشة رغم تفوقهم في القوات والسلاح ، وانشغل بعد ذلك في محاربة الشلك ، ثم وشى به الوشاه فقبض عليه وسجن ومات جوعا وعطشا في ١٣٠٩/١٨٩٢ .
انظر ابو سليم الحركة الفكرية ص ٣٣ .

(٣) حمدان ابو عنجه : ولد في ١٢٥١/١٨٣٥ واشترك في حروبات الزبير والرزيقات ، انضم الى حركة المهدى في وقت مبكر وخدم تحت الرايه الزرقاء ، صار قائدا للجهاديه بعد سقوط الابيض ولعب دورا خطيرا في القضاء على هكس وقواته ، تولى القياده المباشرة في معركة أم درمان ارسل بعد فتح الخرطوم عاملا على جبال النوبا حيث قضى على الخارجين ، قابل محمد خالد زقل في بارا بناء على امر الخليفه وصفى قيادته وارسله مسجونا الى الخليفه . تولى قيادة الجبهة الشرقيه في القلابات وغزا الحبشة في سنة ١٨٨٧ ودخل مدينة غندار وغنمها ، توفى في ١٣٠٥/١٨٨٨ وخلفه في القياده الزاكي طمل .
انظر ابو سليم الحركه الفكريه ، ص ٢٩ .

ابو قرجه [١] وهؤلاء التحقوا بجيش المهدى ، وصاروا من أكبر قوات الثورة المهدية [٢] .

ان انهاء دولة الزبير تعنى بالنسبة للحكومة فى مصر شيئا ، بينما تعنى بالنسبة للأجانب الأوروبيين شيئا آخرا ، فبالنسبة للحكومة تعنى : أن الخديو اسماعيل يريد أن يكون نفوذه وسلطته - ليس على تلك المناطق فى دار فور وبحر الغزال فحسب وانما على كل البلاد السودانية حتى ساحل شرق أفريقيا وجنوب البحيرات (ممالك أوغنده و أونيور) - سلطه مطلقه مثل سلطته على مصر تماما لا ينازعه فيها أحد مثل الزبير الذى لا يتعدى فى نظره أكثر من مجرد تاجر خدمته الظروف وطورته ليصبح سيدا وملكا .

والجدير بالذكر انه يبدو أن الخديو سر بدخول الزبير فى حرب مع سلطان مملكة الفور ، تلك السلطنة التى سادت قرونا ، ومن المفترض أن تكون

---

(١) محمد عثمان أبو قرجه : اصله من "دناقله القطينه" بدأ حياته تاجرا وعمل فى شركة العقاد ، ومع الزبير باشا وادريس ابتر ، انخرط فى سلك المهديه منذ أوائل شبوبها ، اشترك فى واقعة شيكان ، لقب بأمير البحرين ، ارسل لمحاصره الخرطوم ، كلف بجمع زكوات الشكريه ، ثم ارسل الى شرق السودان ، وهناك حدثت منازعات بينه وبين عثمان دقنه فصار هو مسؤلا عن الاداره ، بينما صار عثمان مسؤلا عن الجيش ثم ارسل الخليفه وفدا ليكون حكما بينهما ، استدعى بعد ذلك الى ام درمان لاتهامه بالاتصال مع الايطاليين ، ثم ارسل مسجونا الى الرجاف حيث بقى حتى فك اساره البلجيكيون ومن ثم ذهب الى دار فور واقام بها عده ثم عاد الى ام غينم واصبح عمده ، توفى بام درمان فى سنة ١٣٣٣ / ١٩١٦ .
انظر ابو سليم الحركة الفكرية ص ٢٧ .

(٢) عصمت حسن زلفو ، كررى ، الخرطوم : مطبعة التمدن ، الطبعة الثانية ١٣٩٨ / ١٩٧٨ ، ص ٣٧ .

قوية بالدرجة التى تستطيع هزيمة الزبير والقضاء عليه ، ثم تقوم الحكومة بتسيير حملة ضد سلطنة الفور قبل أن تستعيد انفاسها بعد حربها مع الزبير فاذا حصل ذلك فبها ونعمة، أما اذا حصل العكس أى ان الزبير تمكن من هزيمة سلطان الفور، فان الخديو عند ذلك يستطيع ان يقضى على الزبير بالصورة التى تمت فى القاهرة أو بأى صورة أخرى ،واذا لم يتمكن أحدهما من الانتصار على الاخر ، على الأقل تكون قوتهما قد انهكت وعزيمتهما القتالية قد فترت، وعندها يكون القضاء على الجانبين أمرا أسهل بكثير خاصة وان قوة الحكومة التركية المصرية ليست بالهينه فقد استطاعت من قبل ضم السودان واشتركت فى حربى الشام الأولى والثانية ، وخاضت حربا فى المكسيك وحرب القرم، كما اشتركت فى حروب البلقان دعما للدولة العثمانية ،وعلى العموم فانه فى كل الأحوال تكون الأمور فى صالح الحكومة .

أما أهمية انهاء دولة الزبير فهى تعنى عند الأجانب :

ان جنوب السودان يعتبر أرضا بكرا ولا أعنى بالأرض التربة بقدر ما أعنى انسان الجنوب نفسه بل أهل الجنوب، فهم قوم حتى ذلك العصر بدائيون ، وتشمل البدائية تقريبا كافة نشاطات حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ،فهم يعيشون فى جماعات ويتحدثون لغات ولهجات متعددة غير مكتوبه ولا يكتسون فى معظم المناطق ويعبدون الأوثان .

وبهذا الوضع فان أى ذى سلطة بامكانه ، وبأقل جهد أن يسيرهم الى أى اتجاه يريد ،ومن هنا فان الأوروبيين يدركون تمام الادراك أن الزبير مسلم وعربى ،ومن المعروف أنه كون دولة عربية أساس حكمها الاسلام ،واذا ترك الزبير ودولته فان ذلك وبدون شك سوف لن يكون الا امتدادا للوجود الاسلامى العربى فى السودان الشمالى ، والذى سوف لن يقف عند حد جنوب

السودان فحسب وانما سوف يمتد حتما الى جميع أرجاء أفريقيا ، وفى هذا تهديد لمصالحهم السياسية فى أفريقيا التى يرون أنها من الواجب أن تخضع لهم ،ولكى يكون جنوب السودان حاجزا للمد الاسلامى العربى الى داخل افريقيا ، كان لابد من ايقاف الزبير عند حده ،مهما كلف الأمر ، بل يجب قتله ،حتى يكون عظة وعبرة لكل من تسول له نفسه اقامة دولة اسلامية عربية أو يدعوا بدعوة الاسلام فى تلك المناطق ،وقد حاولوا قتل الزبير فيما بعد ،فقد أقام غردون محكمة ،لمحاكمة الزبير وابنه غيابيا كما ألقى القبض على أقاربه وصدر حكم المحكمة بالاعدام لكل من الزبير وابنه ومصادرة اموالهما من نقود ومراكب وعقارات ،وحبس كل افراد العائلة من رجال ونساء وأطفال ثم أرسل نسخة من هذا الحكم الى الخديو حتى يقوم باعدام الزبير هناك فى القاهرة بعد أن قام هو بتنفيذ الحكم فى أقارب الزبير وممتلكاته (١)

ان طى راية دولة الزبير هى مؤامرة دولية كبرى نفذها الحكام الأجانب فى السودان ،وليس من الضرورى أن تظهر نتائجها فى السبيعينات من القرن التاسع عشر ، بل ليس المقصود هو انهاء دولة الزبير فحسب ،وانما المقصود من ذلك أن تتولد مجموعة من النتائج الخطيرة ذات العواقب الوخيمة فى المستقبل ، ولتخلف جراحات غائرة تنزف باستمرار، ويسمى ذلك فى مجموعها فى الوقت الحاضر بمشكلة جنوب السودان .

(ح) دور الحكام الأجانب فى مشكلة جنوب السودان :

ان من أعظم انجازات الحكم التركى المصرى الباقية والتى لا يستطيع

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ،ص٨٩ .

أحد انكارها ،ليس ضم جنوب السودان ذلك الاقليم الواسع الغنى بثرواته الظاهرة والباطنة قديما وحديثا فحسب بل ان المد الاسلامى العربى استطاع أن يتغلغل فى الجنوب، وذلك بفضل وصول الحكم الى أماكن جديدة، ما كان من السهل الوصول اليها ، وبفضل الطرق التى فتحتها تلك الحكومة والمؤدية الى تلك الأماكن الجديدة ،وانشاء الوسائل التى تساعد للوصول الى الجنوب مثل ترسانة السفن التى أقيمت بالخرطوم ،والتى لم تكن ناقله للبشر فقط وانما كانت وسيلة نقل للغة العربية ، والدين والعادات والتقاليد الاسلامية ثم سمحوا بحرية التجاره ،وتدفق التجار من شتى الجنسيات نحو الجنوب يمارسون البيع والشراء ،وانشاء البيوتات التجارية ،ومن ضمن أولئك التجار الزبير باشا رحمة ،والذى بالرغم من أنه استطاع أن يشق طرقا جديدة ووصل الى أماكن لم تصل اليها يد الحكومة الا أنه استفاد أيضا من انجازات الحكم التركى المصرى فى جنوب السودان ،وبذلك أصبح الزبير خير مثال على مجهودات أولئك التجار فى بث المؤثرات الثقافية العربية الاسلامية (١) فكانت تلك بدايه انصهار شخصية انسان جنوب السودان فى بوتقة واحدة مع انسان الشمال ،بل كانت نواة الوحدة الوطنية الشاملة بالدولة الجامعة الموحدة، نسبة لأن عناصر الاتحاد ستتوفر فى وحدة الأرض واللغة والدين الا أن الحكام الاجانب، رسل التمهيد للاستعمار أبوا الا أن يظل الجنوب السودانى مختلفا اختلافا تاما عن الشمال واتبعوا لذلك عدة وسائل أهمها :

١) انهاء دولة الزبير باشا العربية الاسلامية - كما سبق وان تقدم - وهى محاولة للتمهيد للسياسات الاستعمارية المستقبلية مثل

---

(١) محمد فوزى مصطفى ،مرجع سابق ،ص ٨٤ .

" قانون المناطق المقفولة " (١) حتى لا تخضع للتأثير الثقافى العربى الاسلامى الزاحف من الشمال من جهة ، ولكى تبنى ثقافة محلية فى جنوب السودان تكون خاضعة للمؤثرات المسيحية من جهة أخرى، ولفتح الباب واسعا أمام تنصير الجنوب ، وجعل الكنيسة المؤسسة الفاعلة فى التكوين النفسى والدينى للمواطن الجنوبى ،وكانت سياسة المناطق المقفولة ترمى أيضا الى الاحتفاظ بتلك المناطق منعزلة عن تيارات الثقافة العربية الوافدة فى ركاب التجار العرب ، وليس الهدف من القانون هو ماقيل أنه لحماية تلك المناطق من الاستغلال والاحتكار الذى قد تتعرض له من قبل جماعات التجار النشطة (٢) .

٢) ان سياسة العزلة لأقاليم الجنوب التى مورست من قبل الحكام الأجانب قد أعطت الانجليز بعد احتلالهم للسودان ١٣١٦ / ١٨٩٩ انطباعا بأنه يمكن اتخاذ أى اجراء يساعد على انهاء الوجود العربى الاسلامى فى الجنوب لذا فان الادارة الانجليزية بدأت بمحو ماوجدت من عادات وتقاليد تسربت نحو جنوب السودان على أثر دخول العرب هناك ،فقد أصدروا أمرا عاما الى جميع التجار بايقاف بيع الملابس العربية ، كما صدرت الأوامر من المسئولين الى

---

(١) هذا القانون عنى بوضع السدود الفاصلة بين شقى الوطن بالمنشور الادارى الصادر " ١٣٣٩ / ١٩٢٢ وتبعه منشور " ١٣٤٧ / ١٩٣٠ ، والذى حظر انتقال أبناء الشمال لجنوب الوطن .
انظر صحيفة القوات المسلحه ،الخرطوم الخميس صفر ١٤١٠-٢١ / ٩ / ١٩٨٩ العدد ١١١٦ تحت عنوان الاسباب الجذرية والخلفيه التاريخية لمشكلة الجنوب ،ص ٤ .

(٢) محمد فوزى ، مرجع سابق ،ص ٨٦ .

جميع رؤساء القبائل وكثير من أتباعهم الذين اتخذوا الأسماء العربية بأن يتركوها ويتخذوا أسماء محلية (١) وفى سبيل ذلك اتخذت كل الوسائل العملية ، ففرضت العقوبات على كل من يتخلف عن تسجيل اسمه القبلى فى ميعاد محدود ، وفى كثير من هذه الظروف كان الوطنى يعطى رقما الى ان يتمكن من أن يختار له اسما قبليا أو أن تجد له الكنيسة اسما مسيحيا مناسبا مثل فيليب أو جون أو جوزيف كبديل لاسمه (٢) .

٣) بعد أن ادرك سليمان بن الزبير باشا أن والده قد أحتجز فى مصر بايعاز من الأوروبيين الأجانب الذين نصبوا أنفسهم أوصياء على الحكومة الخديوية ، كان رد الفعل الطبيعى لتلك الحادثة أن يقوم بالثورة .

وهذا ما أراده الحكام الأجانب ، تمشيا مع أهدافهم الرامية - كما سبق وأن تقدم - باشعال نيران الثورات التى تلتهم الحكم التركى المصرى فى البلاد السودانية .

وقد اتجه الحكم التركى نحو اخضاع ماعرف بثورة سليمان الزبير ببحر الغزال ، ولكنه ترك قيادتها العملية لايطالى مهووس اسمه جسى (٣)

---

(١) كانت تغير الأسماء الاسلامية مثلا جمعة يحول الى جاما مثلا أو الى جيمس

(٢) محمد فوزى ، مرجع سابق ، ص ٨٨ .

(٣) روملو جسى : ولد فى القسطنطينية سنة ١٢٤٩ / ١٨٣٢ من اب ايطالى وام ارمنيه ، التحق بقيادة المدفعية الملكية البريطانية ، كما عمل مترجما للقوات الانجليزيه فى القرم ، استدعاه غردون للعمل فى السودان وعينه مديرا لبحر الغزال ، ثم عين مديرا لدارفور ، ومن اعمال جسى الكبيرة الابحار حول بحيرة البرت ومسحها جغرافيا وقد توفى عام ١٢٩٨ / ١٨٨١ ، انظر الان مورهيد ، النيل الابيض ، مرجع سابق ، ص ١٧٥ ، وانظر ايضا موسى المبارك ، مرجع سابق ، ص ٣٦ ، الهامش.

وتحت ستار أنه لميجد من القوة مايكفية أو ما يمكنه من تحقيق الهدف سريعا استعان بالقبائل المحلية كالدينكا والنوير، واستثار فيها روح القتال الى جانب الحكومة بحماس وشجاعة واضحة محتى تم النصر على حركة الزبير وكان لهم جانب كبير من فضل ذلك النصر الأمر الذى لفت نظرهم الى مايمكن أن يكون لهم من فاعليه اذا تكتلوا أو اتحدوا [١] فان تدريب القبائل الجنوبيه وتنظيمهم عسكريا أمر ليس فى صالح الحكم التركى بأى حال من الاحوال، وهو خطأ كبير وقع فيه " جسى" ،ويبدو أنه يعلم مايترتب على ذلك الخطأ تمام العلم ، بل زاد على ذلك بأنه عند انتهاء القتال قام جسى واستنادا الى ما شاهده من اخلاص من الوطنيين للحكومة وحاجة مديريات السودان الجنوبى الى ضغط نفقاتها ـ وتحت هذا الستار ـ قام بتسريح جميع الجنود من القبائل المحلية دون ان يكلف نفسه مشقة جمع سلاحهم ،وهكذا توفرت لدى القبائل المحلية ـ فضلا عن الوحدة والثقة بالنفس ـ الرجال المدربون على القتال ممن سمح " جسى " بتسريحهم [٢] .

وهنا سوءال يطرح نفسه وهو لماذا ركز " جسى" على قبائل الدينكا والنوير فى التدريب والتسليح و التنظيم ؟ والجواب هو لأن قبائل الدينكا والنوير هى اكثر القبائل الجنوبية عددا وأعزها نفرا ، ويبدو أن النتائج الخطيرة التى أرادها " جسى" أن تحدث من خلال تلك الخطوة ،أراد لها أيضا أن تقوم بقيادتها أكبر القبائل الجنوبية وأكثرها عددا ،وبذا فان هذا الايطالى قد نجح نجاحا باهرا فى وضع بذرة التمرد فى جنوب السودان والتى نمت

---

(١) جميل عبيد ،مرجع سابق ،ص ١٨٦

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٨٧

وترعرعت ثم انفجرت فى سنة ١٣٧٢/١٩٥٥ ، ومنذ تلك اللحظة اصبح التمرد الجنوبى على الحكومة فى الشمال ظاهرة سياسية عسكرية خطيرة تهلك الحرث والنسل وجرح دائم يستنزف موارد وطاقات البلاد البشرية والمادية ، والجدير بالذكر أنه حتى هذه اللحظة فان التمرد فى جنوب السودان تقودة قبيلة الدينكا .

هذا ومما تجدر الاشارة اليه أيضا أن الاحتلال الانجليزى للسودان بعد انهاء دولة المهدية قد وجد الطريق ممهدا للاستمرار فيما بدأه اخوانهم من قبل ابان الحكم التركى المصرى وخاصة فى جنوب السودان ، حيث كرست اللغة الانجليزية كلغة رسمية لمحاولة وضع حد لكل أثر اسلامى سلوكا أو عبادة واسما ، وتكريس الحكم القبلى والتفرقه فى صدور ابناء الجنوب تجاه أبناء الشمال بكل الطرق والسبل ، حتى اصبح عدم الثقة هو الخيط الذى يشد كل واقعة فى الحياة بين الشماليين والجنوبيين (١) .

(ط) امبراطورية رابح الزبير :

أحدث احتجاز الخديوى للزبير باشا فى مصر رغم ولائه التام له ، احدث ذلك ردود فعل كبيرة وخطيرة من جانب السودانيين وخاصة من الموالين للزبير ، حيث ثار ابنه سليمان ـ كما تقدم ذكره ـ فى ١٢٩٤/١٨٧٧م انتقاما لابيه وطمعا فى الاستقلال ببحر الغزال ، فأنفذ اليه غردون باشا حملة طاردته واوقعت به ، ثم عاد يقاوم الحكومة ، فأنفذ اليه غردون حملة اخرى بقيادة جسى ، انتهت بخدعه جسى لسليمان ومقتله فى ١٢٩٦/١٨٧٩م وقد حزن عليه أبوه حزنا شديدا ، ولكنه بقى مواليا للحكومة .

---

(١) صحيفة القوات المسلحة ، مرجع سابق ، ص ٤ .

وأحدث مقتل سليمان بن الزبير رد فعل آخر ، وذلك بثورة قائد آخر من قواد الزبير و هو يدعى (الصباحى) فطاردته جنود الحكومة حتى ادركته وحوكم أمام مجلس عسكرى ، وحكم عليه بالاعدام فى نفس العام الذى أعدم فيه سليمان الزبير .

لم تنته مسلسل الثورات عند ثورة الصباحى ، فقد قام أمير من أمراء الفور يدعى هارون والذى لقب نفسه بالرشيد ، وبايعه الأهالى فى دار فور سلطانا عليهم ، قام بثورة أيضا قاومت الحكومة مقاومة شديدة ، وخاض معها حربا طويلة وانتهت تلك الثورة بقتل (الرشيد) فى ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م[1] .

ان ثورة سليمان الزبير ومن بعده الصباحى ، لها مايبررها فهم يعتبرون أنهم يقاتلون لأنهم ظلموا ، وسلبت حقوقهم المتمثلة فى دولة الزبير باشا ، ولكن لماذا يثور هارون الرشيد أمير الفور ضد الحكومة التى قضت على الزبير الذى أنهى سلطان أسرته على دار فور التى استمرت لعدة قرون ؟ ، يبدو فى الغالب أن الحكام الأجانب أرادوا فى سبيل تحقيق هدفهم المذكور آنفا وهو تقويض دعائم الحكم التركى المصرى فى السودان ، لتحقيق ذلك لابد من سفك الدماء لبلوغ المواطنين أقصى درجة من الكراهية للحكم التركى المصرى حتى اذا اشتعلت ثورة مثل الثورة المهدية ـ التى ظهرت بوادرها آنذاك ـ لاتستطيع الحكومة احتواءها ، ومن هنا يغلب الظن بأن أولئك الاوروبيين مهدوا للرشيد للقيام بثورته ، فتقضى الحكومة عليها ، ثم يقوم انصاره بمواصلة الثورة انتقاما لمقتل زعيمهم ، وذلك للابقاء على كراهية الأهالى للحكومة فى أعلى مستوياتها بعد القضاء على سليمان الزبير ، والسلطان هرون ، هدأت

---

(١) الرافعى ، عصر اسماعيل ج ١ ص ١٥٨ ، مرجع سابق .

الأحوال في كل من بحر الغزال ودار فور ، ولكن النتائج التي ترتبت على القضاء على تلك الثورات ، كانت متعددة فقد اصبحت قبيلة الجعليين وحلفاؤها من أبناء النيل معادية للحكومة مرة ثانية كما كانت في سنة ١٢٣٧ / ١٨٢٢ وفقد الاهالي الثقة في الحكومة التي عطلت القوانين والمحاكم وبدأت سياسة البطش والخيانة باشراف غردون واعوانه الاوروبيين ، وعرف كل ثائر أن استسلامه بعد الان معناه الغدر به ، وذلك ماكان يتوقعه رابح فضل الله المشهور برابح الزبير[١] .

كان رابح فضل الله[٢] أحد أعوان الزبير باشا في بحر الغزال ، ومن الرجال المخلصين له ، وقد اشترك في استيلاء الزبير باشا على دار فور وعندما اعتقل الزبير باشا في مصر و منع من العودة للسودان وقام ابنه سليمان بالثورة ـ كما تقدم ـ عرض " جسي" العفو عن سليمان ابن الزبير ومن معه اذا سلموا

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ، ص. ٩٠

(٢) رابح فضل الله :" ١٢٦٢-١٣١٧هـ" /" ١٨٤٥-١٩٠٠م" :
هو أحد كبار قواد جيش الزبير باشا ، ولد في الخرطوم ، وعمل في الاقاليم الجنوبية في تجارة الرقيق قبل التحاقة بالعمل في جيش الزبير ، بعد استسلام سليمان الزبير قاد تجريدة تحتوى على ألف مقاتل واتجه بها الى بلاد وادای وبرنو ، وكون له مملكة ، حكمت تلك المناطق مايقارب العشرين عاما ، دخل بعد ذلك في سلسلة معارك مع الفرنسيين الذين ارادوا انهاء دولته ، حتى تمكنوا منه وقتلوه عند بحيرة تشاد في ١٣١٧/ ١٩٠٠، انظر :
John obert Voll. Historical Dictionary of the sudan, Metuche-N.J. and London. The scarecrow press/INC. 1398/1978. P. 81.

أنفسهم له ، فعقد سليمان اجتماعا لقادة جيشه للتشاور فى الأمر فقررت الأغلبية ومنهم سليمان نفسه الاستجابة لنداء " جسى" غير أن رابح اعترض على ذلك وأشار الى أن " جسى" لا يؤتمن ،لذلك فعليهم التوجه الى بلاد افريقيا الغربية ليفتحوا لانفسهم بلدا جديدة ويتركوا السودان التركى المصرى ، أما سليمان ورفاقه سلموا أنفسهم لجسى باشا الذى أمر بقتلهم جميعا ولهذا فان لرابح الحق فى أن يتوجس خيفة من غدر الحاكم الايطالى الحاقد جسى ، ولذلك لم يسلم نفسه ، بل عبر الحدود الغربية لدار فور وانضم اليه نحو الف مقاتل ،وصار يدوخ البلدان فى تلك المنطقة (١) بقوة الأسلحة النارية التى لم تكن مستعملة فى تلك البلاد وهكذا زحف رابح من مكان الى آخر الى أن وصل الى مملكة برنو واستولى عليها وأسس فيها ملكا عظيما (٢)

وقبل وصوله الى برنو بذل محمد أحمد المعروف بالمهدى وخليفته جهدهما فى استمالته وارجاعه بجيشه فلم يجب دعوتهما ، ولكنه اختار راية المهدية راية لجيشه.

وقد بلغ من نفوذه ان انضم اليه الشيخ حياتو بن سعيد(٣) الذى اعتقد

---

(١) محمد سيد محمد ، امبراطورية رابح الزبير ، بحث بمجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، مكة المكرمة ، جامعة ام القرى ، العدد الثانى ١٣٩٦/١٩٧٦ ، ص ٤٦٠ ، انظر أيضا د . محمد احمد الحاج المهدية وأفريقيا الغربية ، فصل فى كتاب دراسات فى تاريخ المهدية الخرطوم : مطبوعات قسم التاريخ بجامعة الخرطوم ، اعده للنشر د . عمر عبد الرازق النقر ١٤٠١/١٩٨١ ، ص ١٢٥.

(٢) انظر محمد سيد محمد ، امبراطورية رابح ، مرجع سابق ص٤٦٣ ، وأنظر ايضا محمد أحمد الحاج ، مرجع سابق ، ص ١٢٨.

(٣) هو حياتو بن سعيد بن محمد بيلو بن عثمان دان فوديو ، من كبار علماء نيجيريا والمتحمسين للحركات الاسلامية ، وكان قد ترك عاصمة الخلافة " صكت " لخلاف بينه وبين السلطان الحاكم آنذاك وهاجر

بأنه قد يجد فى رابح الحليف العسكرى الذى سيساعده على ترويج الخلافة " الصكتية " (١) ، وقد تزوج الشيخ حياتو من بنت رابح وتدعى " حواء" غير ان رابح لم يوافق على غزو الخلافة الصكتية واكتفى باقامة مملكة فى برنو فقط، هذا وقد عين حياتو قاضيا فى بلاط رابح .

وعندما شعرت انجلترا بقوة رابح الزبير ودولته ، بدأت فى الاتصال به للمساعدة فى مقاومة أى توغل فرنسى فى اتجاه وادى النيل بطريق كردفان ودارفور، ويبدو أنه لما أحست انجلترا بعدم تعاون رابح فضل الله معها فى هذا الخصوص، قامت بالاستعانه بالزبير باشا رحمة المحتجز فى القاهرة ليكون واسطة بينهما وبين رابح باعتبار ولائه السابق للزبير باشا (٢) .

= الى أطراف الخلافة من الناحية الشرقية وأقام بقرية تسمى " بلدة" ومن ثم أعلن عن عزمه على الهجرة الى السودان ،ولكن بعض أصحابه اثنوه عن ذلك فلم تتم الهجرة ،ولما علم حياتو بقدوم رابح فضل الله الى مملكة برنو انضم اليه ،انضوى تحت لوائه ،وعند انشغال رابح بحرب الفرنسيين كان حياتو قد انضم الى جبريل الفلاتى المدعى المهدية ثم لم يلبث ان عقد حلفا معه للقضاء على رابح ولكن رابح عجل بهما وتمكن من قتل حياتو بينما فر جبريل هاربا وكان ذلك فى ١٣١٦هـ/ ١٨٩٩م، انظر ابو سليم ، الحركة الفكرية ،مرجع سابق ،ص ٤ ،وايضا محمد احمد الحاج، المرجع نفسه ،ص ١٢٧ .

(١) فى القرن الثالث عشر الهجرى ،وبداية القرن التاسع عشر الميلادى اعلن الشيخ عثمان بن فودى ثورة اسلامية باسم الجهاد ضد ممالك بلاد الهوسا وقد انتهى الجهاد باستيلاء الثوار على كل بلاد الهوسا واسست دولة اسلامية عرفت بالخلافة " الصكتية" على نمط خلافة صدر الاسلام ، واستمرت هذه الخلافة فى الازدهار الى أن سقطت تحت الغزو الانجلزى للمنطقة عام ١٣٢٠/ ١٩٠٣- انظر محمد احمد الحاج- مرجع سابق ،ص ١٢٥ .

(٢) انظر محمد سيد محمد، امبراطورية رابح الزبير، مرجع سابق ص ٤٦٨ .

الفصل الخامس

انهيار الحكم التركي في السودان

مظاهـــــر الانهيـــار :

ذكر أحمد حمدى [١] فى تقريره الأول أن أهم أسباب الثورة المهدية هو سوء ادارة البلاد وتعيين غير الاكفاء فى مراكز لا يستطيعون معرفة معـــنى الاضطلاع بأعبائها ، ولكن يبدو أن هذه لم تكن من أولويات أسباب قيـــام الثورة ، فان تعيين الحكام الأجانب الذين قاموا بتسديد الضربات المتواليـــة للحكم التركى المصرى على كافة الأصعدة السياسية والاجتماعية والاقتصاديـــة والتى أجملناها فى الفصل الرابع من هذا الباب هو السبب المباشر فـــى قيام الثورة المهدية ، بل ان أولئك الحكام يعدون أكبر عامل أدى الى انهيـار الحكومة فى السودان ، بدليل أنها - أى الثورة - لم تقم الا بعد ستين سنة من قيام الحكم التركى المصرى فى السودان ، وان سوء الادارة وعمل غـــير الأكفاء فى السودان هو أمر مستمر طيلة ذلك العهد ، ولم يثر السودانيـــون لذلك السبب ولكن فى سنوات ماقبل الثورة ، شهد الأهالى فى السودان - كما سبق وان تقدمت - استفزازا لمشاعرهم الدينية والاجتماعية ، وهذا هو الـــذى حرك الكوامن الايمانية للمجتمع السودانى .

ففى الجانب الاجتماعى مثلا لم يكن السلوك الخاص للحكام يرضـــى العامه حيث انهم كانوا لا يتقيدون بالتعاليم الاسلامية ، يشربون الخمر جهـــارا ويرتادون الأماكن المشبوهة [٢] ، والسودانيون حتى قيام الثورة يعتبرون أولئـك

---

(١) أحمد حمدى ، هو ضابط مصرى كان يعمل "ياوران" للخديو توفيق ، وقـــد بعثه الخديو الى السودان سنة ١٢٩٩ هـ/ ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢ وذلـــك لكتابة تقارير عن الثورة المهدية وعن الموظفين المصريين ، وعن نشـــاط الانجليز ، وكانت مهمته سرية ، انظر : جلال يحيى - مرجع سابق ص ٣٣٧ .

(٢) محمد محجوب مالك ، المقاومه الداخليه للثورة المهدية ، بيروت : دار الجيل الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م ، ص ٣٥ .

الحكام ممثلين لدولة الخلافه ،ولم يدركوا انهم ممثلون لحكومة الخديو في مصر رغم ان الخديو لم يقصد ارسال حكام الى السودان ليشوهوا سمعة حكومته وينتهكوا معتقدات الأهالي وعاداتهم ، لذا كان الأهالي يفترضون فيهم القدوة الحسنة ومع الأسف فقد أصبح الحكام الأجانب أيضا في السودان يعرفون (بالترك) وصاروا في نظر الأهالي في عداد الكفار ، واصبحت كلمتا الترك والكفر مترادفتين [1] في المعنى ، وهذا هو سر اندفاع الآلاف المؤلفه من أنصار المهدية يواجهون الحكومه بسلاحها المتقدم بينما كانوا يستعملون السلاح التقليدى مما يدل على أن الثورة ، ثورة دينية في المقام الأول، سياسية في المقام الثاني .

فبالاضافة الى استفزاز الشعور الديني والاجتماعي للأهالي الذي قام به الحكام الأجانب واستخدام العناصر التي تعوزها الكفاءة فضلا عن سوء الادارة ،كان هناك عدم مراعاة العدل ،وفي الحقيقة ان هذا الحكم لا يسرى على جميع حكام السودان ،فان منهم من كان يرعى العدل وينصف المظلومين ولكن من الحق أيضا أن نعترف بأن هؤلاء العادلين من الحكام كانوا قلة وان غالبيتهم كانت تتخذ الوظائف وسيلة للرشوة والاثراء عن طريق غير مشروع ولقد زادت في ارتكاب المظالم أن السودان كان يعتبر منفى للحكام ،ولم تكن الحكومة ترسل اليه في الغالب الا الموظفين المغضوب عليهم ، فالموظف

---

(١) لما بلغ مشايخ الدينكا والجور خبر المهدى وانتصاراته في أبا وقدير هاجروا اليه وبايعوه فأمرهم بالعودة الى ديارهم وقال لهم اذهبوا وأخرجوا الترك الكفار من بلادكم ،انظر جريدة السودان الحديث ، مرجع سابق ، في مقال بعنوان البعد التاريخي لوحدة السودان الوطنية ص ٣ والمعروف أن الحكم الثنائي الذى سيطر عليه الموظفون البريطانيون قد عرف في السودان باسم التركية الثانية .

الذى يذهب الى السودان وفى نفسه احساس بأنه منفى أو مبعد لاينتظر منه العدل والاستقامة فى عمله ،أضف الى ذلك أن حكام مصر فى ذلك العصر لم يكونوا فى الغالب مثال العدل والاصلاح ورعاية مصالح المحكومين ، بل ان مظالمهم كانت كذلك من أسباب الثورة العرابية ، فكيف بهم اذا كانوا فى أقاصى السودان حيث لارقيب عليهم ولا حسيب فالأهلون كانوا اذاً هدفا للظلم وسوء المعامله ، يبتز منهم الحكام مايقدرون عليه من مال ،ويرهقونهم بمختلف أنواع الضرائب والمغارم (١) .

حتى ان الخديو توفيق اقر بأن القسط لميكن معيارا للعدل فى السودان ،فقد شرح فى أمر تعيين علاء الدين باشا (٢) أن تقدم السودان ورفاهية أهله وازدهار التجارة والزراعة فيه يتوقف على الطريقة التى تعامل بها الحكومة الأهالى ، وعلى محاولة كسب ودهم اليها ،ومحاولة ارشادهم لتحسين حالهم وطريقة معيشتهم ،فيجب على الحكومة أن لا تعامل الأهالى بطريقة قد تدفعهم الى معارضتها او الى هجر عملهم والاخلاد الى الكسل لقد تسبب بعض الحكام بمعاملتهم الاهالى معاملة سيئة ، فى دفعهم الى تغيير موقفهم تجاه الحكومة ،ولذلك فان الخديو قد وجه علاء الدين باشا الى أن ينبه على أعوانه من المديرين والحكام بعدم تكرار هذه الأخطاء والى أن يذكرهم بأن القواعد الأساسية لرفاهية السودان وثروته وتقدمه وعمرانه تقوم على اقامة العداله وبذل الجهد المستمر لكسب صداقة الأهالى

---

(١) الرافعى ،عصر اسماعيل مرجع سابق جـ١ ص ٩٨ .

(٢) علاء الدين باشا ..١٣٠ هـ/١٨٨٣م عين حكمدارا للسودان خلفا لعبد القادر حلمى وقد تقاسم العمل مع هكس باشا فتسلم الاول الاعمال الاداريه والثانى الاعمال العسكرية وقد سقط الاثنان صريعين فى ميدان القتال فى موقعة شيكان فى يوم ٥ نوفمبر ١٨٨٣ .
انظر عبد الرحمن زكى ص ٤٤٣ .

والتشجيع المتواصل للتجارة والزراعة"[١] .

ولكن مع الأسف فان هذه اللفته الذكية من الخديو قد جاءت متأخرة ومتأخرة جدا ،فقد جاءت فى وقت تمكن فيه الحكام الأجانب من تهيئة الوضع السياسى فى السودان للانهيار التام ،وقد جاءت أيضا فى وقت أصبحت فيه السلطة الانجليزية هى المقرر الفعلى لسياسة مصر فى ذلك الحين ، وكانت تملك صورة واضحة عن اثر العلاقة المتبادلة بين الاوضاع فى مصر والسودان ويبدو ذلك جليا فيما قاله اللورد كرومر[٢] معتمد بريطانيا فى مصر ، فى تقرير لوزير خارجيته جرانفيل :" فان وجود جماعات بشرية على الحدود المصرية يملؤها الحماس الدينى والنجاح العسكرى من شأنه تعريض مصر للخطر، وقد يشعل فى ولاياتها الجنوبيه شرارة ثورة مهدية" [٣] .

وجاءت كذلك فى وقت أخذت اليقظة الاسلامية تنمو حتى تبلورت فى

---

(١) جلال يحى ، مرجع سابق ص ٣٣٨ .

(٢) هو السير افلن بيرنج "Evelyn Baring" الذى عرف فيما بعد باللورد كرومر، أعلن وكيل الخارجية البريطانية فى مجلس العموم تعيينه فى ١٣٠٠ هـ/ ٣٠ مايو ١٨٨٣م قنصلا عاما لانجلترا فى مصر، وله من السيطرة والنفوذ مايجعله فى مقام نائب الملك ،أو الحاكم العام فى المستعمرات،وقد عين خلفا لادوارد مالت Idward Maliat وقد بقى كرومر يسيطر على احوال البلاد ثلاثا وعشرين سنة ،كان فى خلالها الحاكم المطلق لمصر وتضاءلت بجانبه كل سلطة وطنية وصار له من النفوذ والسلطان اكثر مما لحكام المستعمرات البريطانية ، انظر الرافعى ، مصر والسودان فى اوائل عهد الاحتلال ، مرجع سابق ص ٥٠٣ .

(٣) عبد العزيز الصاوى ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .

شكل حركات اسلامية جهادية تطالب بعودة المسلمين الى نقاء الاسلام الاول وترى أن سبب تخلف المسلمين هو بعدهم عن الدين ،وقد عاصرت حركة محمد أحمد المعروف بالمهدى حركات اسلامية أخرى مثل الحركة السنوسية فى ليبيا وحركة الملا فى الصومال وعلى هذا فالثورة المهدية فى السودان تعد جزءا من حركة اسلامية واسعة ،ساعدت على ظهورها ظروف العالم بوجه عام وظهرت كأبرز أثر لانهيار الحكم التركى المصرى فى السودان بوجه خاص (١) .

---

(١) خضر عبد الرحيم ،النشاط الكنسى فى السودان ،رسالة دكتوراة لم تنشر ، جامعة ام القرى ، كلية الدعوة ، قسم العقيدة ،١٤٠٩هـ، ص٧١ .

الثـــورة المهديـــة :

أتعرض في هذا البحث للثورة المهدية بصورة لا أتناول فيها سـير المعارك الحربية بين قوات الحكومة وجيش الأنصار بقدر ما أتناول الربط بين أسباب قيامها وكيف أنها أصبحت ابرز ظاهرة من ظواهر انهيار الحكم التركي المصرى في السودان ذلك أن محمد على باشا حينما اراد ضم السودان قد أهتم بالجانب الروحي لأهالي البلاد السودانية ، ولكن كان ذلك في نطاق محدود ، فان العلماء الثلاثة الذين أرسلوا مع الحملة كانت مهمتهم فقط ان يحثوا الناس على وجوب طاعة الوالي المسلم محمد على وان يتجنبوا سفك دماء المسلمين وأن يطيعوا خليفتهم العثماني وواليه في مصر بالاضافة الى أنه قد حدث قدر من الاهتمام ببعض الفقهاء بأن وصلتهم بعض الهبات والعطايا وعند رجوع محمدعلى من زيارته للسودان اصطحب معه عددا من أبناء الأعيان السودانيين للدراسة في الأزهر ، ولكن رغم ذلك كله فان تلك المجهودات لم تؤد الى ترقية الحياة الاجتماعية والثقافية في البلاد ولذلك ظل الفراغ الورحي والجهل والتخلف الفكري منتشرا ، ولذا فان محمدأحمد المعروف بالمهدى قد استفاد من هذا الجانب أيما استفادة فقد وجدت فكرة المهدية تربة خصبة في السودان وأصبحت معتقدا عاما وصبغ محمدأحمد تلك الفكرة بصبغة الجهاد .الا ان كاتب الشونة يذكران من مهام العلماء الثلاثة ايضا ترتيب مشايخ الاخطاط مساعدة للقائمقامات . هذا اضافة الى عمل القضاء وتسجيل ممتلكات الاهالى

ويروى أحد المعاصرين (١) للحكم التركي ثم المهدية ـ رغم أن روايته

---

(١) هو يوسف ميخائيل ،سوداني من أصل قبطي ،قدم والده مع حملة الدفتر دار واستقر في مدينة الابيض ،ولد يوسف ميخائيل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادى ونشأ وترعرع تحت سماء مدينة الأبيض وقد امتد به العمر لأن يشهد ارهاصات ظهور محمد أحمد ═

كتبها بالعامية السودانية الا أنها تصور لنا كيف كان الناس ينتظرون قدوم المهدى المنتظر كما يدعون فقد ذكر لنا بأن صبيان البلدة التى كان فيها صاحب الرواية كانوا يجعلون فى ألعابهم صفا لأنصار المهدى ، وصفا آخر لأعدائه ويقول أيضا " وبعد منتصف الليل سمعنا صوت ذكر جديد فى حوالى (أنحاء) البلد من الخارج ، وعند الصباح نسمعوا (نسمع) الأولاد كل واحد يكلم الثانى يقول له ياخى (هل) أنت سمعت الذكر حوالى (فى انحاء) البندر ؟ فى من يقول" أيوه أنا صاحى" (أى نعم انا كنت مستيقظا) ولما بلغنا الخبر من الناس الكبار ـ أنه حضر درويش من البحر[1] اسمه محمد أحمد ومعه الجيران[2] التلامذه بكثرة ونازل (نزل ضيفا) عند السيد المكى ،

المعروف بالمهدى ، وقيام الدولة المهدية وزوالها ، وأن يعيش تحت ظل الحكم الثنائى فترة تجاوز الأربعين عاما ، ليكون بذلك من القلة التى عاصرت ثلاثة عهود التركى المصرى ، والمهدى ، والبريطانى ، ومذكراته محفوظه بمكتبة مدرسة الدراسات الشرقية و الأفريقية بجامعة لندن ، School of Orintal and African studies. Unversity of London.

أنظر أحمد سليمان ، مذكرات يوسف ميخائيل صحيفة الراية السودانية العدد ٦/٤٧٥ محرم ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٧/٨/٣٠م يقول الاستاذ احمد سليمان ان احد أقربائه قد بعث اليه من لندن بكراسة تحوى هذه المذكرات التى تخص يوسف ميخائيل ، وقام هو بدوره بنشرها فى الصحيفة اليومية المذكورة ، والجدير بالذكر أن كاتب المذكرات يستعمل صيغة الجمع ، وهو مايستعمله اهل كردفان فى لهجتهم العامية ، فيقولوا مثلا ناكلوا أو نشربوا أو نلعبوا . . و هكذا . .

(١) المقصود به نهر النيل فى العامية السودانية (فهم يطلقون على النيل الابيض ، بحر أبيض وعلى النيل الازرق ، بحر أزرق" .

(٢) كلمة حوار : مدلولها فى الفصحى "ولد الناقة" ويجمع على أحورة وحيران ولكنها اصبحت تدل فى اللهجة السودانية على "التلميذ" يقال حيران الشيخ اى تلاميذه ـ أنظر عبد المجيد عابدين ، تاريخ الثقافه ، مرجع سابق ص ١٩ .

ومن يقول " أنا شفته (رأيته) عند ولد سوار الذهب " ويقولوا عليه (أنـــه) رجل صالح من صُلَّاح*[1] البحر (من سكان النيل الصالحين) ويزور كافـــة المنازل الكبيرة من أهل الدين ، وفى نصف الليل يقوم مع جماعتوا الحـــيران ويطوف بالبلد مره واحدة حتى يطلع (مطلع) الفجر ، وأوان الصلاة يبطـل الذكر . وعنـد طوافه بالليل يَذْكُر ويقول " الدايم هوالدايم " ، " اللهالدايـم " ، ذكره بخلاف الاذكار الثانية " .

ومن يقول " أيوه (أى) والله رجل صالح من أهل البحر ، وصـارت أهل كردفان تزوره فى محل اقامته لأجل أخذ البركة من هذا الدرويـــش الصالح و يتبركوا فيه " .

ففى مواجهة ماقام به محمد أحمد يمكن أن يقوم علماء من مصر ، بـأن يتنازلوا الى مستوى الأهالى ويتداخلوا معهم وينشروا بينهم الوعى الاسلامـى الصحيح ، فيقول كاتب المذكرات : " ان أى انسان يحضر من البحر كافة كأنـه حضر من بيتالمقدس الشريف أو مكة المشرفة " فما بالك لو أرسلت الحكومة نفـرا من علماء الأزهر الاجلاء يعلمون الناس ويملوءا الفراغ الذى وجده محمد أحمد لقد وجد قلوب الأهالى فى حاله (خلو ") واستغل فيهم هذهالناحيـــة الاستغلال الأمثل ، ورغم أن محمد أحمد كان يلتقى بالأهالى لغرس القـــيم الايمانية فى قلوبهم ويذكرهم بخالقهم الا أن نشاطه السياسى كان متضمنـــا مع العمل فى الاطار الدينى ، فكان يقدم نفسه لكبار وأعيان ووجهاء البلـــد لتعريف نفسه لهم حتى اذا جاء وقت الحاجة الى نصرتهم ، يجدهم رهـــن

---

(١) صُلَّاح : جمع صالح فى اللهجة السودانية ، وصلاح البحر ، أى مـــن الصالحين الذين يسكنون على ضفاف النيل اما كلمة درويش فهى كلمة فارسية الاصل ، بمعنى الفقير ، الراهب ، الزاهد ، أنظر عون الشريـف قاسم ، القاموس ، مرجع سابق ، ص ٣٧٧ .

* فى المجتمعات العربية وخاصة فى الجزيرة هناك تعريف آخر لكلمة صلاح بأنها " فرقة من الجن "

اشارته . ويقول كاتب المذكرات فى هذا الصدد « كان الشيخ محمد أحمد لما وجد القبول من أهالى كردفان وتراكم الناس عليه لأخذ البركة منه صار اسمه كبير ومشهور فرح وزاد فرحه خصوصا عند أهل الدين واكابر أهل المدينة بالمناشدة عليهم في المذاكرة بالدين ، وبالتنفر (النفور) من الدنيا الخسيسة والاقبال على الآخرة للقاء رب العالمين ، والرجل عالم ، وصاحب علم ، زادت محبته في قلوبهم وجذبهم بمذاكرته وسحرهم بحسن مقاله ، كأنه يسقى فى أرض عطشانه (كأنه يروى أرضا جدباء) حتى غرس محبته فى قلوبهم . . . وماترك بيت أى بيت كبير أو صغير ومن له اسم مشهور الا زاره كمثل الياس باشا أم برير[1]، وحاج خالد العمرابى وأولاده . . . وعربى والفكى مكاوى ، وأهل ولد أبو صفيه وأولاد ولد العريق وبان النقا الرازقى ولم يترك (أى) انسان مسمى الا زاره فى منزله ويلقى عليهم المذاكرة بالدين ورغب فيه الرفيع والوضيع وحفر الأساس فى كردفان وتوجه لمحل اقامته ، وعندما يعود يرمى البناء على الأساس[2] ولم يرحل المهدى عن كردفان الا بعد أن خلف صدى طيبا فى نفوس الاهلين

---

(١) الياس باشا أم برير : هو تاجر ثرى من تجار الابيض وكانت علاقاته وطيده بدارفور أيضا ، عين مديرا على شكا اعترافا بخدماته عند فتح دارفور ثم عين مديرا على كردفان ، وفى المنصب الاخير وجد معارضة شديدة من منافسة أحمد دفع الله وبعض أنصاره وعلى الأثر فصل وعين محمد سعيد باشا بدلا عنه ، حمل الياس ضغينة هذا الحادث ومال الى جانب المهدى وقدم له خدمات كبيرة وقد انضم اليه ثانى يوم وصوله الى جهة الابيض ، سجن فى عهد الخليفة عبد الله بتهمة الاتصال بالحكومة المصرية ومات فى سجنه فى ١٣١٥هـ/١٨٩٨م .
انظر أبو سليم الحركة الفكرية ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

(٢) مذكرات يوسف ميخائيل ، ، صحيفة الرايه السودانية . مرجع سابق .

وأصبحوا ينتظرون الفرج القريب ،ثم عرج بعد ذلك الى جبال النوبا وهناك التقى بالملك آدم أم دبالو(١) ملك جبال تقلى الذى وعد المهدى بالمساعدة فى وقوفه فى وجه الحكومة(٢) .

ثم بدأ المهدى جهاده بعد ذلك يشن حملات اعلامية ضد الحكومة وبدأ يكتب الى كل من عرف من الفقهاء والقضاه والأعيان ومشايخ الطرق وزعماء القبائل طالبا منهم الانضواء تحت رايته ، ومبايعته بالمهدية والهجرة اليه فى جزيرة أبا ، ثم كتب المهدى للحكمدار فى الخرطوم وكان آنذاك محمد روءوف باشا وعندها رأى الحكمدار أن يعير الحدث الجديد بعض الاهتمام فأرسل اليه أحد رجاله ومستشاريه وهو محمد ابو السعود (٣) ،ليبدأ حوارا

---

(١) هو الملك آدم عمر ملك جبال تقلى ،كان ابوه عمر ملكا لتقلى وخلفه عند وفاته أخوه ناصر الذى كان رهيبا ،وقد أخذ الملك عنه عنوه بتأييد الناس، وكانت علاقته بالادارة المصرية علاقة جافة اذ لم يدفع لها الجزية ، دخل المهدى دياره أثناء هجرته الى قدير، وحماه من هجوم محمد سعيد ولكنه اعترض على التبعية له ثم اذعن له وعين ابنه أميرا ، هاجر الى المهدى فى سنة ١٨٨٤ بعد واقعة هكس بناء على طلبه وصحب جيش المهدى فى طريقه الى الخرطوم وهو مرغم وقد توفى فى "شبشه" فى النيل الأبيض فى أواخر عام ١٣٠١ / ١٨٨٤ وقد اخلص ابنه عمر للمهدية واحتل مكانا مرموقا فى عهد الخليفة عبد الله ـ انظر ابوسليم ، الحركة الفكرية ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

(٢) ضرار، مرجع سابق ص ١٠٨

(٣) هو محمد أبو السعود بله العقاد : مصرى الأصل ،وقد جاء الى السودان تاجرا مع قريبه محمد أحمد العقاد صاحب شركة العقاد التى كانت لها أعمال واسعة بالاستوائية ، وقد خلفه فى ادارة الشركة بعد موته فى عام ١٢٨٧ / ١٨٧٠ ، اصطدم بغردون وبيكر لسياستهما الرامية الى محاربة تجارة الرقيق ، ثم صار معاونا للحكمدار ، وتولى حسابات الحكومة فى

مع محمد أحمد ، ليقنعه وينذره بسوء العاقبة نتيجة وقوفه في وجه الحكومة ، الا أنه فشل في مسعاه ،ولجأ أخيرا الى تذكير محمد أحمد بمدى قوة الحكومة ، ولكن تهديده لم يحرك شيئا من ثبات محمد أحمد وعاد أبو السعود الى الخرطوم حيث أبلغ الحكمدار بتعنت محمد أحمد ، وكان رد فعل محمد رؤوف أن أرسل مائتي جندى فقط وبعض الضباط[1] لردع محمد أحمد والقبض عليه وارساله الى الخرطوم ،ولم يتهاون محمد أحمد فى الاستعداد لمواجهة الحكومة ، حيث استعان بما يملكه من امكانات متاحه ، بأن جمع تلاميذه ومريديه فبايعوه على الوقوف معه مهما كانت النتائج ،وتسلح رجاله بالعصى والرماح والسيوف والحجارة ،وتوكلوا على الحى الذى لا يموت ،ووقفوا فى وجه أبى السعود الذى ما ان نزلت قواته من الباخرة الى بر جزيرة " أبا " حتى باغتتهم قوات محمد أحمد المعروف بالمهدى ، حيث قتل منهم كثير وفر الباقون نحو الباخرة التى أقلتهم الى الخرطوم ومعهم نبأ انتصار المهدى على حملة الحكومة الأولى .

ان تحركات محمد أحمد وسط الأهالى ـ قبل معركة " أبا " ـ قد ساعد على تكوين جيش من المؤيدين لأن دعوته سرت الى القلوب بسرعة فائقة وتمكنت ، وكان ذلك يجرى أمام مرأى ومسمع الحكومة التى لم تحرك ساكنا وحتى عندما أحست بأن نشاط محمد احمد قد يسبب بعض الخطر على الحكومة قامت بارسال أبو السعود مرة للاقناع ومرة أخرى للردع ويصحبه فقط فئة قليلة

= ١٢٩٥/١٨٧٨ وقد أوكلت اليه مهمه مقابله المهدى وهو فى هذا المنصب ،عاد من هذه المهمة ثم قاد القوة التى أرسلت للقبض على المهدى فأخفق فى ذلك وهزم هزيمة نكراء ، مات مسموما فى ١٢٩٨/ ١٨٨١ انظر ابو سليم ، الحركة الفكرية ، مرجع سابق ،ص ٢٠ .

(١) ضرار ، مرجع سابق ،ص ١١٠ .

من الجنود مالبثت أن ولت الأدبار أمام قوات محمد أحمد الضعيفه هـــــذا التهاون ناتج عن أن :

أولا : أن محمد روءوف قد تسلم أمر الحكمدارية من الحكام الأجانب الذين عبثوا بمقدرات سلطة الحكومة فى السودان ، فكأنه اعتبر أنه قد جيىء به لاصلاح ما أفسده أولئك الأجانب ، وقد وجد أن فسادهم كان كبيرا ، خاصة وأنه يعرفهم وقد عمل معهم فى الاستوائيه وأوغنده وأونيورو ، وخاصة قد عمل مع بيكر اكثر الأجانب كيدا وحقدا على الحكم التركى المصرى ، وقبل أن يحدد من أين يبدأ ، بدأت تحركات محمد أحمد المسمى بالمهدى .

ثانيا : خلال الفترة الممتدة بين عزل اسماعيل عام ١٨٧٩ ونهاية ١٨٨٢ م انغمس جميع المسوءلون فى حكومة مصر فى مشاكل الدبلوماسية الدولية والادارة الداخلية ، ولم يكن لديهم من الرغبة أو الوقت ما يسمح لهم بالالتفات للاحداث الجارية فى الممتلكات السودانية ، وعندما تنبهت حكومة مصر فى النهاية الى خطورة أحداث السودان كان المهدى قد كسب فعلا الجولة الاولى ووصل الى مركز قوى يجعل من الصعب على أية دوله مستقلة تماما ولديها الموارد الكافية أن تهاجمه (١) .

ثالثا : عجز قيادة الجيش التركى المصرى فى السودان حين قيام الثورة ، فعلى الرغم من أن عدد الجيش كان يبلغ اثنين وثلاثين ألف مقاتل موزعين بين مختلف المدن فانه كانت تعوزه القيادة والنظام ، كما أن ادارة السودان كان يتولاها وقت ظهور المهدى حاكم من أضعف الحكام وأقلهم كفاية

---

(١) ب . م هولت ، مرجع سابق ، ص ٤٥ .

وشجاعة وهو محمد روءوف ، فكان وجوده من اكبر العوامل فى ظهور الثورة وانتصارها بل هو السبب المباشر لنجاحها الأول [(١)]

رابعا : ولكن يبدو أن أكبر دافع فى تهاون محمد روءوف هو نظرته لمحمد احمد على أنه مجرد مهووس دينى ، وغالب ظنه أن شرارة معارضة رجال الدين لا يتطاير فيحدث حريقا هائلا يصعب احتواوه ،أو أنه نظر الى نار ثورة محمد احمد وكأنها نار عود الثقاب لا يحتاج لأكثر من نفخة واحدة ،حتى ان تلك القلة القليلة من الجنود والضباط الذين حاولوا القضاء على محمد أحمد فى جزيرة أبا كانوا يتوهمون أنه بمجرد ظهورهم فى الجزيرة سيثير الرعب فى محمد أحمد وأصحابه [(٢)] وقد فوتت عليهم هذه النظرات القاصرة فرصة الانتصار والقضاء على هذه الثورة فى مهدها .

ورغم الهزيمة النكراء التى تعرضت لها قوات الحكومة فى" أبا " ، فان سمة التهاون فى مواجة الحكومة لمحمد أحمد ظلت قائمة ،فقد أرسلت حملة أخرى [(٣)] بقيادة راشد بك أيمن والذى تحرك من فاشوده التى كان راشد مديرا عليها وكان قلة عدد قوات راشد هو أبلغ برهان على تهاون الحكومة فى السودان بالثورة ، فقط أضاف قائد الحملة الجديدة عنصر المباغته [(٤)] على

---

(١) الرافعى ، مصر والسودان ، مرجع سابق ، ص. ١٠٠ .

(٢) ضرار ، مرجع سابق، ص ١١٠ .

(٣) يقول ضرار ان راشد بك تحرك ومعه ٤٢٠ من الجنود يعاونه ألف من رجال القبائل ، بينما ذكر الرافعى فى كتابه مصر والسودان ص ١٠٦ أن قوات راشد موءلفة من اربعة الاف مقاتل واعتقد أن هذا هو الأصح لأن الحكمدار بالانابة (جقلر) غالبا مايكون قد أدرك الخطأ الذى وقع فيه محمد روءوف بارسال قوات ذات عددية قليلة ،لكن أيضا قوات راشد الأربعة آلاف لا تبرئ الحكمدارية آنذاك من تهمة التهاون .

(٤) ضرار ، مرجع سابق ، ص ١١٦ .

تحركه تجاه قوات الثورة الا أن محمد أحمد علم بذلك التحرك[١] ، وفاجأ قوات راشد بهجوم مباغت وانتصر عليها وقتل راشد فى ١٢٩٨ / ١٨٨١ وتسمى هذه الواقعة ، بواقعة قدير الأولى .

بعد هذه الواقعة تزامنت أحداث الثورة فى السودان مع ثورة عرابى[٢] فى مصر مما زاد من انشغال الحكومة عن محمد أحمد وثورته فقد أصاب الشلل العمل السياسى فى مصر نتيجة للحركة العرابية والتى انتهت باحتلال انجلترا لمصر فى ١٢٩٩ / ١٨٨٢ ، فى تلك الاثناء كان رد فعل الحكومة فى مصر تجاه سير الأحداث فى السودان فقط استدعاء محمد رؤوف وتولى جقلر باشا زمام الامور فى السودان ريثما يعين خلفا لرؤوف وهو الحكمدار عبد القادر باشا[٣] ، وقد أعد جقلر جيشا تعداده

---

(١) عند ما اقترب راشد بك من قدير رأته امرأه سودانيه تدعى رابحة الكنانية فولت مسرعة طيلة الليل والنهار حتى بلغت معسكر المهدى وأبلغته بقدوم راشد بك وحملته ، انظر ضرار ، مرجع سابق ، ص ١١٦ .

(٢) أحمد عرابى : من مواليد قرية "هريه زرنه" فى مديرية الشرقية قرب الزقازيق فى ١٢٥٨ / ١٨٤١ وكان أبوه شيخ البلد وألحقه فى ١٢٦٥ / ١٨٤٩ م بالجامع الازهر ولكنه لم يكمل تعليمه ، ثم التحق بالجنديه ١٢٧٠ / ١٨٥٤ عين كاتبا بدرجة "بلوك أمين" لاجادته القراءة والكتابة ، وسعى الى الالتحاق بالسلم العسكرى تطلعا الى الترقى الى المناصب الكبرى ، وارتقى من رتبة جاويش ووصل الى مرتبة الضباط بتعيينه ملازما سنة ١٢٧٣ / ١٨٥٧ وأكثر من ذلك فقد حظى برضا سعيد باشا ورافقه فى زيارته للمدينة المنورة ١٢٧٦ / ١٨٦٠ ، انظر ابراهيم شحاته حسن ، مصر والسودان دراسة وثائقيه مقارنه فى الاصول التاريخية والفكريه للثورتين العرابية والمهديه الاسكندريه : منشأة المعارف ، الطبعة الثانية ١٤٠٢ / ١٩٨٢ ص ٨٠ .

(٣) عبد القادر حلمى باشا : (١٢٥٣ / ١٨٣٧ - ١٣٢٥ / ١٩٠٨) :-
ولد بمدينه حمص وتلقى تعليمه بالقاهره ودرس الطب فى فيينا الا انه لم يعمل بمهنة الطب ، التحق بسلاح المهندسين بالجيش فى الشام ═══

ستة الاف جندى (١) بقيادة يوسف باشا الشلالى في ١٢٩٩/مارس ١٨٨٢ ، والتحم الفريقان في قدير مرة أخرى ، وعمل أنصارمحمدأحمد في جيش الحكومة بالسيوف والرماح والعصى ،ولكنهم هذهالمرة وجدوا صعوبة بالغة في مقاومة قوة الشلالى لكثرة عددها ، اضافةالى استخدامهم للاسلحةالفتاكة ،ولكن رغمذلك فقدكان النصرحليف محمداحمدوأنصاره وتعرف هذه الواقعة بواقعة قديرالثانية .

وتجدر الاشارةالى انه بعد واقعة أبا - أول هزيمة يوقعهاالسودانيون بالحكمالتركى المصرى - تيقن كثير من أهل الجزيرة بأن ولاءهم لابد أن يكون لمحمدأحمد ،اما بعدواقعة قدير الأولى حيث ذاع صيت محمدأحمدوأصبح الناس يتقاطرون عليه للمشاركة والمباركة والتأييد الذى زاد بعد معركة قدير الثانية ،وصار محمد أحمد بطلا وأملا وطريق خلاص حيث اجتمع ولأول مرة في تاريخ السودان أهل دارفور وكردفان وجنوب السودان وكسلا والمديرية

وتدرج في الرتب العسكرية الى انوصل الى رتبه فريق عام ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م عين حكمدارا عاما للسودان فيعام ١٢٩٩/١٨٨٢ ،اثر فشل روءوف باشا في اخماد حركة المهدية ،بذل جهدا في بناء استحكامات الخرطوم ومطارده جيوش انصار المهدية في الجزيرة ،استدعى الى مصر في ظروف غامضة وعين بدلا عنه علاءالدين باشا ،تقاعدعن خدمةالحكومه المصرية فيعام ١٣٠٤/١٨٨٧ ، انظرمحمد محجوب مالك ،المقاومه الداخليه ،مرجع سابق ص ٣٩ .

(١) ضرار،فرجع سابق ،ص ١١٨ .

الشمالية بأهل الخرطوم والجزيرة اجتمعوا جميعا لتحقيق هدف واحد هو وضع حد للحكم التركى المصرى فى السودان ، وأهم مافى الأمر ربط ذلك كله بالجهاد فى سبيل الله ،وتحت قيادة موحدة .

ولعل أهم مارسمه محمد احمد المعروف بالمهدى لهذا المجتمع الدينى الكبير أن خلق فى نفوس أبنائه التشبث بالوطنية ،وأن يشعر كل سودانى بأن له كيانا مستقلا لا يمكن أن يتحقق الا اذا بالغ فى الاعتزاز بدينه وتراثه الوطنى ، فالحضارة التى جاء بها الحكام الأجانب ـ وأوهموا الناس بأنها حضارة الحكم التركى المصرى ـ هى حضارة دخيلة فى نظره ، والغريب عنده دخيل حتى ينخرط فى سلك الوطنية السودانية ،فيعتنق الاسلام ان كان غير مسلم ،أو يدخل فى صفوف الأنصار ان كان مسلما ،وسرعان ما سرت الروح الوطنية فى نفوس الناس،فوجدوا ان حركة محمد أحمد فيها رفعة لشأنهم وكانوا يفخرون بأنه واحد منهم ،فترقبوا الوقت الذى يطرد فيه الحكم التركى المصرى بحكامه الأوروبيين من البلاد وينفرد محمد أحمد بالحكم (١) لأنه هو الذى أعطى البلاد وحدة دينية ووطنية وأزال الفوارق الطائفية والنعرة القبلية وتعتبر ثورته الحد الفاصل بين عهد القبلية وبزوغ عهد الوطنية السودانيه (٢)، وقد ساعد على ذلك الاتجاه الدينى للمهدية والذى صادف هوى فى نفوس الناس، اتجاه استمد عناصره من صميم المجتمع السودانى والمزاج السودانى ، لهذا أحس السودانيون عندما دعاهم محمد أحمد الى مبادئه أنه يخاطبهم بما يحسبون ، ويلمس الرغبات الكامنه فى نفوسهم (٣) .

---

(١) عبد المجيد عابدين ، مرجع سابق ص ١٢٨ .

(٢) صحيفة السودان الحديث، مرجع سابق .

(٣) عبد المجيد عابدين ، المرجع السابق نفسه ،ص ١٢٣ .

ولذلك نجد أن من لم يستطع اللحاق بمحمد أحمد يعبر فى منطقته عن ولائه له ، وهذا سر قيام الثورات فى الجزيرة ، عندما قام عربان رفاعه بقيادة عامر المكاشفى شقيق أحمد المكاشفى الذى لحق بالمهدى ، وخرج آخر من الفقهاء هو الشريف احمد طه وأنصاره شرقى النيل الازرق ، كما قامت الثورات فى كردفان على يد قبائل الحُمر والبديرية والحوازمة والجوامعة[1] وفى الشرق قام السودانيون بثورة ضد الحكومة قادها عثمان دقنه[2] ، الذى قام

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ، صفحات ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) فى رأوبى جبال البحر الأحمر باقليم البجه ولد عثمان أبو بكر دقته فى حوالى ١٢٥٧ / ١٨٤٠ وهو ينتمى الى قبيلة الدقناب احدى بطون قبيلة الهدندوة ، التحق فى صباه بالكُتّاب حيث تلقى علومه الدينية فحفظ القرآن الكريم وتفقه فى الدين ، ونشأ فى سواكن حيث أصبح ملمبا باللغة العربية مخاطبة وكتابة بجانب لغته البجاوية ، ولما شب اشترك مع اخوانه فى التجارة أحس عثمان بالظلم الذى لحق بالأهالى وخاصة ابان عهد الحكام الاجانب فى الحكم التركى المصرى ، وأخذ يترقب متحيينا فرصة للتعبير فيها عن احساسه بذلك الظلم وما ان سمع بثورة عرابى حتى حسب أن وقت ذلك التعبير قد حان وبدأ يؤلب الاهالى ضد الحكومة ، ولكن الناس لم يلتفوا حوله ، وانتهى نشاطه بالفشل ، حيث القى القبض عليه وسجن .

وأثناء سجنه قام محمد أحمد المعروف بالمهدى بحركته التى استشرت وانتشرت حتى اذا دخل محمد أحمد مدينة الأبيض منتصرا على الحكومة قام عثمان دقنه بعد اطلاق سراحه باللحاق به هناك حيث قدم بيعته على الاتباع والجهاد فى سبيل الله ، وسر المهدى لذلك سرورا عظيما وقلده الامارة على شرق السودان ، وبتحالفه مع المجاذيب استنفر البجة وهاجم النقط العسكرية عدا سواكن وفى سنة ١٣٠٨ / ١٨٩١ خسر عثمان طوكر التى استولى عليها "قولد سميث" ، وعند تقدم الجيش المصرى أضيف عثمان الى قيادة محمود أحمد واشترك فى واقعة "عطبره" ثم اشترك

هو وقواته بمهاجمة حاميات الحكومة فى سواكن وكسلا وسنكات .

ونتيجة لهذه المساندة الكبيرة لمحمد أحمد فى كافة أرجاء السودان تقريبا تشجع ليتقدم بجيشه الذى بلغ تعداده مايقرب المائة ألف[١] واتجه نحو الأبيض التى سقطت فى يده فى ١٨/١٣٠٠ فبراير ١٨٨٣ ، ولكن رغم الانتصارات التى حققها عبد القادر حلمى الواحدة تلو الأخرى فى الجزيرة ضد الثوار، الا أننا نرى أنه استدعى الى القاهرة ومما زادت المسألة غموضا طريقة السرية التى اتبعت فى استدعائه[٢] ، ويبدو أن انتصارات عبد القادر قد أربك المستعمرين فأوحوا للخديو باقالته على أن يعين علاء الدين باشا مكانه وفى عهد علاء الدين حدثت أكبر انتكاسة للحكم التركى فى السودان وهى معركة شيكان ٥/١٣٠٠ نوفمبر ١٨٨٣ ، والتى أفرزت نتائج خطيرة وكانت بمثابة أول مسمار يدق فى نعش سلطة الحكومة ،بعد هزيمتها فى تلك المعركة

من أبرز تلك النتائج ، تفكير الحكومة جديا وطوعا ، أو كرها بضغط من الانجليز فى اخلاء السودان نهائيا وسحب قواتها وموظفيها وكل مظاهر سلطتها الفعليه على البلاد .

= فى واقعة " كررى" وواقعة " أم دبيكرات" وقد فرّ بعد الاخيرة قاصدا الحجاز الا أنه وقع فى الاسر عام ١٣١٧/١٩٠٠ ونفى الى حلفا . أدى فريضة الحج وتوفى فى ١٣٤٤/١٩٢٦ ،انظر ابو سليم الحركة الفكرية ، مرجع سابق ص ٢٧ ،وانظر ايضا ضرار مرجع سابق ص ١٣٧ .

(١) ضرار، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

(٢) شبيكه : السودان عبر القرون ، مرجع سابق ص ٢٨٧ .

×× الا ان من ابرز سلبيات المهدى (محمد

×× الا ان من ابرز سلبيات محمد احمد (المهدى) ادعاءه للمهديه والسفاهد للعمل بالمذاهب الاربعه ،وادخاله للكثير من البدع والخرافات ،والخزعبلات العقدية فى عقول اصحابه وانصاره

سياسة اخلاء السودان :

اخلاء السودان يعنى سحب حاميات الحكم التركى في كافة نواحى السودان وكان عدد أفراد هذه الحاميات يقدر بخمسة وعشرين ألف مقاتل ، ثم ترحيل الموظفين والجاليات الأوروبية والمسيحية من الخرطوم[1] ، وهو يمثل آخر مراحل انهيار ذلك الحكم فى السودان والذى بدأ فى ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م.

وقد خطرت فكرة الاخلاء ببال سعيد باشا من قبل حينما زار الخرطوم فى ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م وذلك لمتاعب السودان الادارية ونفقاته المالية[2]، اذن الاخلاء فكره قديمة ولكنها كانت وقتذاك نابعة عن ارادة حرة ، أما الفكرة الجديدة فهى فكرة مقيدة ،فقد قال البعض ،ان اخلاء السودان كان أمرا منكرا وعملا خطيرا فى ذاته وعواقبه ،فهو أشد ضربة أصيبت بها مصر بعد الاحتلال الانجليزى بل يكاد يعدل الاحتلال فى خطورته ومضاره لأن الانسحاب من السودان معناه ضياع السلطنة العظيمة التى ضحت فى سبيل تأسيسها بعشرات الألوف من قواتها ،وملايين الجنيهات، وجهود عشرات السنين من تاريخها ،وبهذا تخلت الحكومة عن دولة مترامية الأطراف، وتركتها لقمة سائغة للفوضى ثم للاستعمار الانجليزى[3] .

هذا القول صحيح ،ولكن لا يقال والدولة فى ذلك الوضع، يقال لدولة وهى فى حالة تملك فيها استقلالا فى القرار السياسى ،ويقال كذلك عندما

(١) الرافعى ، مصر والسودان ، مرجع سابق ص ١٢٢ .

(٢) عبد الله حسين ،مرجع سابق ، جـ١ ص١٠٧ .

(٣) الرافعى ، مصر والسودان ، مرجع سابق ص ١٢٢ .

×× هنالك عوامل ساعدت على نجاح الثورة المهدية منها :-

(أ) خوف اهل السودان من النفوذ الاجنبى النصرانى .

(ب) اعتبر اهل السودان ان الصراع بينهم وبين السلطة هو صراع بين الاسلام والكفر .

تملك الدولة ارادتها الحرة ، فليس اخلاء السودان في ظل الاحتلال الانجليزي لمصر أمرا منكرا فحسب بل قد انفتح الباب واسعا لكثيرمن الأمور السياسية المنكرة ،وليس ضياع السلطان وضياع صروح الأمجاد التي بنيت فحسب ، بل اكبرمن ذلك ضياع المبادئ والقيم الاسلامية والعربية ،لأن الاحتلال الانجليزي هو الغاء لكل ذلك أو على الأقل عدم الاعتراف بها ،مادامت المملكة التي شيدها محمد على وأسرته قد صارت في اطار امبراطورية التاج البريطاني .

تقرير ستيوارت (١) :

ان سياسة انجلترا عقب الاحتلال كانت ترمى الى بث الفوضى واثارة الفتنة في السودان كي تتخذ من الثورة ذريعة لتسويغ بقائها في مصر، ولكي تضعف من شوكة مصر من ناحية أخرى ،فلا تقوى على استرداد استقلالها ، فقد سعت انجلترا في اضعاف مصر بحيث تكون غير قادرة على انهاء الثورة

---

(١) هو جون دونالد ستيوارت ،ولد في ١٢٦٥/١٨٤٥ وعين ضابطا في الجيش البريطاني ١٢٨٢/١٨٦٥ وقدم الى مصر ،وفي ١٢٩٩/١٨٨٢ أرسل الى السودان اثر ثورة المهدي ليضع تقريرا عن الحالة في السودان ومن ثم وضع تقريره Report on the Sudan 1883 ثم عاد مرة أخرى مع غردون في أوائل ١٣٠١/١٨٨٤ م وظل ساعده الايمن حتى غادر الخرطوم في الباخرة عباس مع آخرين ولكن السفينه تحطمت في بلاد المناصير وقتل استيوارت ومن معه وأستولى الأنصار على الاوراق التي كانت معهم وهي التي أشار اليها المهدي في خطابه الى غردون ، كان مقتله في أواخر ١٣٠١/١٨٤٤ . انظر ابو سليم الحركة الفكرية ،مرجع سابق ص ٢٥ .

المهدية ،من أجل ذلك كانت انجلترا تنظر بعين الغبطة الى امتداد تيار الثورة المهدية ،ومن أجل ذلك أيضا عارضت رغبة الحكومة فى وقف تيار هذه الثورة ،ولما رأت عبد القادر باشا حكمدار السودان فى أوائل عهد الاحتلال قد نجح فى التنكيل بالثائرين ، واعادة سطوة الحكومة المصرية ، عملت على اقصائه من منصبه لتعود الثورة سيرتها الأولى ، لذا فان السياسة الانجليزية هى أيضا من أهم العوامل التى ساعدت على استفحال ثورة المهدى تحقيقا لمطامعها (١) ، وكان ايفاد ستيوارت الى السودان لأداء مهمة تهدف فى النهاية الى خدمة السياسة الانجليزية الاستعمارية،وتتلخص مهمة ستيوارت فى اعطاء المعلومات اللازمة عن حالة البلاد العامة وعن مدى خطورة الثورة المهدية وعن الوسائل التى يمكن استخدامها فى اخماد تلك الثورة(٢) ، ويعتبر تقرير ستيوارت من أهم التقارير التى كتبت عن السودان نسبة لشمول معلوماته عن النواحى السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتكمن أهمية التقرير بالنسبة للسودان فى أن يساعد فى وضع خطط وبرامج التحديث،ويخدم قضية التنمية المستقبلية ،أما بالنسبة لانجلترا فيكون تقدمها نحو السودان ـ حسب النية الاستعمارية المبيته ـ عن وعى عميق ودراية رغم أن الحكام الأجانب الذين عملوا فى السابق بالسودان ما حرصت انجلترا على تعيينهم وتحكمهم فى مصائر البلاد الا ليصيغوا لها مثل هذه المعلومات والتى غالبا ماتأتى دقيقة لأنها تجىء عن تفاعل وممارسة وتطبيق معايش .

الا أن أهمية تقرير ستيوارت أيضا تكمن فى أنه أحدث التقارير عن السودان فى ذلك الوقت ،ولأنه يحتوى على اقتراحات للاصلاح فى الجوانب

---

(١) الرافعى ، مصر والسودان ،مرجع سابق ،ص ١٠١

(٢) جلال يحى ،مرجع سابق ص ٣٣١ .

السياسية والاقتصادية على ضوء تلك المعلومات الحديثه وهذا هو الجزء الأهم في التقرير.

وصل ستيوارت الى الخرطوم في منتصف ١٢٩٩/ديسمبر ١٨٨٢ وبدأ يرسل تقارير عن الحالة في السودان بين ١٢٩٩/١٨٨٢ و١٣٠٠/١٨٨٣، ولقد أرسل تقاريره في ٩/١٣٠٠ فبراير ١٨٨٣ الى اللورد جرانفيل[1] عن طريق السير ادوارد ماليت في القاهرة مصحوبا بطريقة مفصلة دقيقة تظهر عليها البلاد والقرى والطرق والقبائل في السودان، ويلخص هذا التقرير تاريخ السودان وكل منطقة من مناطقه ويختبر دقائق الحدود وجزيئياتها، ويتحدث عن القبائل والأجناس والديانات في السودان ويرسم الطرق والخطوط التلغرافية، ويشرح نظام القضاء والضرائب والسكك الحديدية وحالة الصناعة والتجارة، وخصوصا تجارة الرقيق، وقد تضمن تقرير ستيوارت ملاحظات عامة واقتراحات عن الاصلاح وخصوصا الجيش وفيما يخص التنظيمات

---

(١) جرانفيل جورج، ليفسن - جاور "١٢٣١/١٣٠٨هـ = ١٨١٥/١٨٩١م" من زعماء احزب الاحرار، شارك هارتنفتون في قيادته عند تقاعد جلادستون وانسحابه من الحياة العامة في "١٢٩١/١٨٧٤" ولكن عند انهزام حكومة المحافظين في ١٢٩٧/١٨٨٠ نودي بجلادستون ليشكل حكومة من الاحرار فشغل جرانفيل فيها وزارة الخارجية، حمل جرانفيل مع زملائه مسؤلية مقتل غردون في الخرطوم وضياع الحاميات ورغم ان الحكومة استقالت في ١٣٠٢/١٨٨٥ لفشلها في كسب التأييد اللازم لأمر يتعلق بالميزانيه، الا أن السبب الحقيقي كان في سياستهم نحو السودان، وفي وزارة جلادستون الثالثة عين جرانفيل وزيرا للمستعمرات، وبعد خروج تلك الوزارة من السلطة بقي زعيما لحزبه في مجلس اللوردات حتى وفاته.

انظر: D.N.B. P.3326. في ميمونه ميرغني حمزة مرجع سابق، ص ٤٨.

والاصلاحات العسكرية فى السودان ، هذا والحق ستيوارت تقريرة بملاحق خاصة عن القبائل وحركة الصادرات والواردت فى الموانئ السودانية وتقديرات عن ايرادات المديريات السودانية [١] .

ولقد حاول ستيوارت أن يحلل فى هذا التقرير اسباب " حركة العصيان المهدية " فذهب الى أن تعصب القبائل الدينى كان أحد أسبابها المتعددة ، وهذه فى ظنى وجه نظر غير عادلة فبلاد ستيوارت التى بعثت بالحكام المسيحيين لعمل دعاية للمسيحية والمسيحيين ، بل قسموا بلاد السودان الى اقاليم على الكرادلة والقساوسة لنشر النصرانية فيها ... ، يعد بمثابة تسامح دينى ، بينما يصور ستيوارت ان قيام أهل البلاد بالتعبير عن رفضهم للنصارى ونشاطاتهم وأفكارهم بأنه تعصب دينى ، ومتى كان التسامح الدينى يأمر النصارى بتقسيم بلاد الامم الأخرى على البابوات للتأثير عليهم ليدخلوا فى النصرانية ؟ ؟

كما ذكر ستيوارت أن من ضمن أسباب قيام الثورة فى السودان يعود الى الموظفين المصريين ، وقسوتهم فى جمع الضرائب ، الا أن البعض يخالفه فى الرأى وينفى عن العنصر المصرى تهمة سوء الحكم فى القطر السودانى واقتراف المظالم التى دفعت السودانيين الى الثورة على ذلك الحكم ، ذاكرا فى صراحة أن الحكام من العنصر التركى وأتباعهم من الباشبوزوق هم الذين أمضوا فى الظلم والجور وهم الذين سلبوا الأموال ونهبوا الزروع والضروع حتى أقفرت البلاد ونزح أهلها عنها [٢] ، ولكن هذا لا يعنى تبرئة الحكم التركى

---

(١) جلال يحى ، مرجع سابق ، ص ٣٣٢ .

(٢) اللورد كرومر ، بريطانيا فى السودان ، القاهرة : ترجمة عبد العزيز عرابى ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ١٩٦٠ ، ص ز .

المصرى عموما من صلته بالتسيب فى قيام الثورة ، مادام القائمون بأمر الحكم عناصر مصرية كانت أم تركية أم غير ذلك ، فأى دور سلبى او أيجابى يقوم به اى عنصر فى الحكومة ينسحب على الحكم التركى المصرى .

ونلاحظ أن ستيوارت فى تناوله لأسباب قيام الثورة لم يذكر من قريب أو بعيد السبب الرئيسى لقيام الثورة وهو تعين الحكام الأجانب وسياستهم التى اتبعوها فى الحكم وادت فى النهاية الى اثارة كراهية الاهالى وحقدهم على الحكومة .

وفى ظنى أن ستيوارت لم يتطرق لهذا الموضوع لأن الحكام الأجانب هم من أبناء عمومته والامر الثانى لانهم يمثلون الذراع الخفية للاستعمار الانجليزى ، كما أن نوايا بسط انجلترا لنفوذها فى السودان كان مازال فى ذلك الوقت طى الكتمان ، لأن ستيوارت كان يعتقد حتى تلك الفترة ان الاحتلال الانجليزى لمصر لم يتضح بعد لأن :

(أ) مازال جيش عرابى المسرح من المحتمل تجمعهم تحت قيادة جديدة وهذا الاحتمال يؤكده ، اعادة الخديو لعشرة الاف من جيش عرابى وتقييدهم بالسلاسل وارسالهم لمحاربة محمد أحمد المعروف بالمهدى تحت قيادة الانجليزى الجنرال هكس .

(ب) احساس ستيورات بأن الخديو غير واثق من الانجليز أصدقائه وحماته فى السودان ، ومما يؤكد عدم ثقة الخديوى فى الانجليز بعثه لأحمد حمدى[1] الى السودان فى بعثة شبيهة ببعثة ستيورات ، ومهمة

---

(١) احمد حمدى ، هو ضابط مصرى ، ويعمل" ياوران" للخديوى توفيق انظر جلال يحيى ص ٣٣٧ ، وقد سبق تعريفه .

أحمد حمدى ، هى الوقوف على الحالة هناك ،وذلك بكتابة تقارير عن الثورة المهدية وعن الموظفين المصريين ونشاط الانجليز. (١)

والذى جعلنا نهتم بتقرير ستيوارت أيضا هو توصياته باخلاء الحكومة للسودان ولأن الحكومة الانجليزية اعتبرت توصيته عن الاخلاء جاءت نتيجة بحث وتقصى ، وباختصار فان ستيوارت اقترح ان تتخلى مصر عن مديريات كردفان ودارفور وفاشوده كخطوة اولى فى مراحل الاخلاء ، وذكر بأن كردفان هى المديرية الوحيدة التى يزيد ايرادها على مصروفاتها ، ثم اعترف بأنها خضعت للحكم المصرى لفترة سنوات طويلة وأن المصريين سيعارضون فى اخلائها أشد المعارضة ،ولكنه ذكر أن دارفور وفاشوده لم يدخلا تحت الحكم المصرى الا فى عهد اسماعيل "الذى كان يأمل أن يجد فيها مايدفعه لدائنيه " (٢)

وأشار ستيوارت بضرورة تكليف (سلاتين) بك بالانسحاب من دارفور الى بحر الغزال واتلاف كل مخازنه ،وكان مما أزعجه أنه لايثق فى ولاء الجنود المصريين فى الخرطوم وهم الذين جمعوا من جيش عرابى الذى ألغى ،والذين قال عنهم انهم ماكانوا يشعرون بأن هناك واجبا مقدسا يقتضيهم الدفاع عن سلطان الحكومة الشرعى ،فى الوقت الذى يحتل فيه العسكر الأجنبى "الانجليز" بلادهم ،ويسود بينهم الاعتقاد بأن الخديو انما أرسلهم ليلقوا فيه حتفهم ، بينما هم يعرفون أن المهدى سوف يعفو عنهم ولايكون نصيبهم القتل ،اذا هم فروا من الجيش وانضموا تحت لوائه (٣) .

ومن ناحية أخرى فقد درست وزارة الخارجية الانجليزية تقرير

---

(١) انظر جلال يحى ، المرجع السابق ، ص ٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣٣ .

(٣) شكرى ، مصر والسودان وحدة وادى النيل ، مرجع سابق ، ص ٢٨٣ .

ستيوارت ثم كلف قنصلها العام في القاهرة بابلاغه الى الحكومة المصرية ، والاصرار على ضرورة تنفيذ التوصيات المقترحة ، ولقد قرأ شريف باشا التقرير وشكر الحكومة الانجليزية عليه ، الا أنه لم يعتبر نفسه ملزما بتنفيذ توصيات مندوب الحكومة الانجليزية في السودان ، ولكن الخديو كان يعرف أن بقاءه على العرش متوقف قبل كل شيء على تأييد انجلترا له ، وهي التي تستطيع أن تحميه من ثورة جديدة قد يقوم بها المصريون ، أو من توغل المهديين في صعيد مصر ، ولذلك فانه اضطر الى مسايرة السياسة الانجليزية ، ونفذ معظم اقتراحات لورد دفرين قبل سفره من مصر وسلم معظم الادارة الهامة في البلاد الى موظفين من الانجليز ولكنه لم يكن يستطيع ان يتصرف في مسألة السودان ، اذ أن ذلك كان يخرج عن الاختصاصات التي خولتها له الفرمانات السلطانية وكان من ناحية أخرى مازال يأمل ان تنجح القوات التي أرسلها هناك في القضاء على الثورة المهدية ، أو أن تقبل انجلترا او تركيا مساعدته في القضاء عليها ، ولذلك فانه أصم اذنيه عن تنفيذ نصائح ستيوارت المتعلقه بالسودان [١] ، ولكن شريف باشا تقدم في ١٣٠٠/٨٨٣ بمذكرة الى "افلن بارنج " [٢] يعاض فيها اخلاء السودان بحجة أن الخديو لا يملك بمقتضى فرمان ١٢٩٦/١٨٧٩ حق التنازل عن أى جزء من أراضيه ، وذكر أنه حتى ولو أن مصر كانت مطلقة اليد في التصرف في أمر السودان ، فان ذلك سوف تكون له أسوأ العواقب ، وأوضح أن مصر في ذلك الوقت كانت مسيطرة على الموقف في جميع انحاء السودان عدا كردفان ولم يكن خبر استسلام سلاطين قد وصل بعد ، وقال انه مازال أمام مصر من الواجبات نحو السودان وتعميره وفتحه للتجارة والكشف العلمي [٣] .

---

(١) جلال يحى ، مرجع سابق ، ص ٣٣٦ .

(٢) افلن بارنج هو معتمد انجلترا في مصر.

(٣) الشاطر بصيلي ، معالم تاريخ سودان ، مرجع سابق ، ص ١٧٤ . +

ولكن شريف باشا تراجع فيما بعد عن موقفه السابق والذى يعارض فيه الاخلاء الكلى للسودان ، وقرر الاحتفاظ بوادى النيل حتى الخرطوم والتخلى عن الموانئ الواقعة على البحر الأحمر باعتبار أن هذه انما يهم أمرها انجلترا اكثر مما يهم مصر[1] ، ولكن يبدو أن هذا ليس صوابا لأن شريف باشا كان يمثل الروح الوطنية المصرية بعد عرابى فى عهد توفيق ولا أظنه يملك انجلترا جزءا لا تستحقه من الاملاك المصرية .

وقد ربط البعض بين موقف شريف باشا من الاخلاء وبقاء الانجليز فى مصر وذلك بقولهم : ان شريف باشا اعتقد بأن سياسة الاخلاء انما تنطوى على أخطار كثيرة على استقلال بلاده ، لأن التخلى عن السودان يعرض الحدود المصرية لهجوم الأنصار عليها ، وسوف يتطلب الدفاع عن هذه الحدود أن يزيد الانجليز من عدد جنود الاحتلال فى مصر ، وطالما بقيت حدود مصر معرضه لهذا الهجوم - ولا أمل بعد التخلى عن السودان فى القضاء على قوة المهدية - فان الاحتلال البريطانى سوف يبقى ، ويتأجل حينئذ جلاء البريطانيين عن مصر الى وقت لا سبيل الى تحديده[2] ، ولكن الظاهر أن شريف باشا كان يعارض اخلاء السودان وسلخه عن مصر من حيث المبدأ ، ولم تكن معارضته تلك نابعه من خشيته من جعل بريطانيا لعملية الاخلاء ذريعة للبقاء فى مصر أولا ، ذلك لأن السودان عنده هو البعد السياسى والحضارى لمصر ولابد أن تبقى كذلك ، ولهذا السبب أبى شريف باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت أن يذعن لأمر الانجليز بالاخلاء ووقف موقفه المشرف المشهور مفضلا ترك الحكم على ترك السودان ، وقد كانت المحاورة بينه وبين الخديو شديدة ، فقد رجح فكرة الجلاء بناء على رغبة الانجليز ، فلما رأى شريف

---

(١) شكرى ، مصر والسودان وحدة وادى النيل ، مرجع سابق ، ص٣٠٣ .

(٢) المرجع السابق نفسه ونفس الصفحة .

تصميم الخديو على اخلاء السودان ،وان انجلترا عرقلت كل فكرة تتعارض مع سياستها الخاصة بالاخلاء ، اجتمع هو والوزراء وقرر عدم الموافقة على ماعرضه " بارنج " معتمد انجلترا فى مصر ، من اخلاء السودان طبقا لأوامر انجلترا وفى الوقت نفسه وقعوا عريضه الاستقالة التى قدمت للخديو فى ١٣٠١هـ/٧ يناير ١٨٨٤م(١) .

و من ناحية أخرى فقد علق اللورد دفرين على تقرير ستيوارت وأشاد بالاقتراح الذى يقضى باخلاء السودان ،وذكر بأن الحكومة المصرية تستطيع أن تبرهن على حكمتها ،اذا هى عملت على قصر مجهوداتها على اعادة توطيد سلطتها فى سنار دون أن تحاول مد ممتلكاتها الى ماوراء هذه المديرية والشواطىء المجاورة للنيل ،فيمكنها بهذه السياسة المتواضعه تقليل الأعباء الملقاة على كاهل الخزانة ، كما أن اقامة ادارة عادلة وانسانية ومفيدة فى دنقلا والخرطوم وسنار ستكون ضمانا مؤكدا لاعادة سلطة الحكومة فيما بعد على الاراضى التى ستجلو عنها ، ولكن الحكومة المصرية لم تكن مستعدة الى الاستماع الى هذه النصائح التى تدعوها الى اهدار مسؤليتها وتضييع مجهوداتها والتخلى عن وحدة وادى النيل (٢) .

ويبدو واضحا من حديث اللورد دفرين أنه متحسر على نجاح مصر فى ضمها لجنوب السودان الذى أصبح جزء عزيزا منه الآن .

ومن اقتراحات ستيوارت ايضا اعادة الحكم فى الاجزاء التى ستجلو عنها مصر الى السلاطين المحليين ،ولكن هناك صعوبات فى تحقيق هذا الاقتراح وهى ،عدم وجود اسر قديمه فى بعض المناطق الهامة فى السودان

---

(١) على ابراهيم عبده ،مرجع سابق ، ص ٩٨

(٢) جلال يحى مرجع سابق ،ص ٣٣٥ .

ولكن هذه الصعوبات لا وجود لها بالنسبة لدارفور، فهى قريبة عهد بخضوعها لمصر التى ضمتها اليها قبل عشرة أعوام فقط وكانت تخضع قبل ذلك لسلسلة من السلاطين الذين حكموها لمدة تقرب من أربعمائه عام، فلما ضمت مصر دارفور لادارتها قامت بترحيل العائلة الحاكمة الى القاهرة، وجعلت لهم مرتبات تصرف لهم، اذاً كان هناك بالنسبة لدارفور بعض الأمل فى تنفيذ السياسة التى أعدها ذلك الاقتراح [1] ويبدو أن تنصيب السلطان على دينار [2] سلطانا على دارفور ١٨٩٨/١٩١٦ هو جزء من تنفيذ ذلك الاقتراح.

---

(١) كرومر، مرجع سابق، ص ٨٣

(٢) على دينار بن زكريا بن السلطان محمد الفضل، ولد بقرية الشوية على بعد ثمانين ميلا شمال غربى مدينة نيالا بجنوب دارفور.
فى عهد الخليفة عبد الله التعايشى كان على دينار مسؤلا عن ادارة شئون دارفور باسم الخليفة، ثم صار الخليفة يشك فى ولائه للمهدية ويخشى أن يستقل بالبلاد خاصة وهو الوريث الشرعى لسلاطين دارفور وطلب الخليفه من على دينار ان يمثل الى أم درمان ففعل وهناك ابقاه ملازما له حتى يقصيه من دارفور فلا يشكل خطرا على وحدة الدولة وقد صاحب على دينار الخليفة حتى خرج المقاتلون السودانيون الى" كررى" لوقف الزحف الانجليزى المصرى، وانتهز تلك الفرصة وخرج بعدد قليل من رجاله قاصدا دارفور، ومالبث أن لحق به آخرون من الفور حتى بلغ عددهم الفين حين دخل" الفاشر" واستولى على السلطة ولكن مالبث أن قدم الى" الفاشر" ابراهيم على وهو من العائلة المالكة فى دارفور، وكان ابراهيم قد وقع أسيرا فى يد كتشنر بعد واقعة " أتبرة " وسار بموافقة السردار الى دارفور على أمل أن يحكمها وهناك وجد أن موقف على دينار أقوى من موقفه، واتصل على دينار بكتشنر مبديا رغبته فى أن يدفع للحكومة الجزية السنوية ويرفع العلمين المصرى والانجليزى وقبلت الحكومة بهذا الاجراء.

ولكن على دينار أخيرا اتفق مع الأتراك على مساعدته فى أن يثور ═══

نوبار باشا واخلاء السودان :

بعد استقالة شريف باشا عرضت الوزارة على رياض باشا ، الذى أقر شريف على موقفه المشرف ، ثم عرضت على نوبار باشا الذى قبلها على أساس اخلاء السودان والاذعان للنصائح الانجليزية .

أصدر نوبار تعليماته باخلاء السودان فورا وترحيل الموظفين والجاليات الأوروبية والمسيحية من الخرطوم ، وكان عددهم لا يقل عن أحد عشر ألفا وسحب الحاميات المصرية من نواحى السودان كافة [1] .

ويمكن تعليل سحب الحاميات المصرية من السودان وقبولها للضغوط الانجليزية الى عدة عوامل منها ، ضعف القوات المصرية ، وأيضا سوء الاحوال المالية فى مصر ، بالاضافة الى الاحتلال الانجليزى لمصر الذى تركزت سياسته على عاملين :

أولهما : اجبار مصر على تخليها عن أملاكها فى أفريقيا .

ثانيهما : اضعاف قوتها العسكرية حتى لا تقوى على مقاومة أطماع انجلترا الاستعمارية [2] .

أما الذى عهد اليه بمهمة اخلاء السودان فكان الجنرال غردون باشا .

= ضد الانجليز ، وعلم الانجليز بهذا الاتفاق فسيروا عليه جيشا بقيادة " هدلستن" الذى هزم على دينار وقتله فى جبال مره ١٩١٦
انظر ضرار مرجع سابق ، ص ٢٣٦ .
انظر ايضا موسى المبارك ، مرجع سابق ، ص ١٨٣ .

(١) الرافعى ، مرجع سابق ، ص ١٢٢ .

(٢) السيد نصر ، مرجع سابق ، ص ٣٨٤ .

غردون باشا منفذا لسياسة الاخلاء :

عندما قامت الثورةالمهدية وتلاحقت انتصاراتها على قوات الحكومة في عهد محمد رؤوف كان رد فعل الحكومة في القاهرة استدعاء محمد رؤوف وتعيين عبدالقادر باشا حلمي مكانه - كما تقدم - وهذا الأخير كان جادا في القضاء على الثورة وقد نكل بقواتها في مواقع كثيرة في النيل الأبيض والجزيرة وكانت انتصارات المهدى في السابق على قوات الحكومة قد قوبلت بسرور عظيم من جانب الحكومة الانجليزية ، لذا فان اى حاكم في السودان يستطيع الحاق هزائم بالثورة المهدية يكون بالطبع عنصرا غيرمحبوب اليها ، فقد خشيت الحكومة الانجليزية اذا ترك عبدالقادر باشا وشأنه في السودان أن يتغلب على الثورة المهدية ويخمدها ويثبت سلطة مصر في الأقطار السودانية [1] ، وهذا يخالف أطماعها لأنها انما تريد اكراه الحكومة المصرية على اخلاء السودان بحجة عجزها عن الاحتفاظ به ، ثم غزوه من جديد لحسابها ، والاستئثار بحكمه وقد وجدت السياسة الانجليزية في همة عبدالقادر حلمي وكفايته ما يحبط خطتها فأوعزت الى الخديو توفيق باشا بأن يأمر باستدعائه ، ولم يكن توفيق باشا يرد للانجليز طلبا [2] وعين علاء الدين باشا ليكون آخر حكمدار للسودان

---

(١) كانت خطة عبدالقادر باشا حلمي في القضاء على الثورة المهدية تتمثل في :

اولا : بذل اقصى جهد للحكومة في القضاءعلى الثوار فى منطقةالجزيرة هذا اضافةالى تحصين الخرطوم.

ثانيا : ترك المهدى وشأنهفىغرب السودان "اقليمىكردفان ودار فور" دون ملاحقة الحكومة له في تلكالمناطق ، ويراهن عبد القادرحلمي بذلك في أن تأكل الثورة نفسها بنفسها هناك ، نتيجةللخلافات التيمن المحتمل جدا ان تنشب بينافرادها ./ من محمد سيد محمد

(٢) الرافعي ، مصر والسودان ، مرجع سابق ، ص ١١١ .

تعينه الحكومة فى مصر وذلك خلفا لعبد القادر باشا ،كما عين هكس رئيسا لأركان حرب الجيش فى السودان ، والذى قتل بعد هزيمته فى معركة شيكان .

وعندما تأكد ابادة حملة هكس ظهر اسم غردون للمرة الثانية ، وبدأ يتردد اسم ضابط انجليزى يقال ان مجرد ذكر اسمه سيقوم بالمعجزات، وبعد التشاور مع رئيس الوزارة الانجليزية جلادستون [١] أبرق جرانفيل وزير الخارجية الانجليزية الى بارنج فى القاهرة فيما اذا كانت هناك حاجة لاستخدام غردون فى السودان وكان رد الأخير الاعتراض لأن الثورة دينية فى جذورها وستكون النتيجة انصراف القبائل التى لاتزال على ولائها للحكومة [٢] ، ولكن جرانفيل رغم ذلك وبعد التشاور مع جلاد ستون ،استدعى غردون وسلمه تعليمات الحكومة الانجليزية والتى تقضى بالتصميم على اخلاء السودان وذلك فى ١٣٠١/١٨/١/١٨٨٤ ووصل غردون الى القاهرة وقابل بارنج ثم الخديو توفيق وتسلم منهم تعليمات أيضا تتعلق بعملية الاخلاء ،وبعد تلقيه لهذه التعليمات سافر من القاهرة الى السودان بطريق النيل مصطحبا معه

---

(١) جلادستون ،وليم أورات،"١٢٢٥/١٣١٥" = "١٨٠٩/١٨٩٨م" زعيم حزب الاحرار ، جاء للحكم عام ١٢٩٧م/١٨٨٠م بعد هزيمة المحافظين بقيادة ذرائيلى ، وفىفترة حكمه تم التصدى العسكرى لثورة عرابى فى مصر فى ١٢٩٩/١٨٨٢ ،كرس جهد وزارته للاصلاح البرلمانى الذى كان على حساب الاهتمام بمشكلة السودان ففشلوا فى اتخاذ الخطوات المطلوبة فى الوقت المناسب لانقاذ غردون انهزمت حكومته بعد عدة أشهر من فتح الخرطوم ولكنه عاد مرة أخرى فى ١٣٠٦/١٨٨٦ ليبقى لفترة قصيرةأنظر D. N. K., P. 1001. فى ميمونه ميرغنى حمزه ،مرجع سابق ،ص ٤٨.

(٢) شبيكه ،تاريخ شعوب ، مرجع سابق ،ص ٦٦٦.

الكولونيل ستيوارت وابراهيم بك فوزى(١)، (٢) فاختيار غردون بالذات هو امتداد لحكم الأجانب فى السودان ومكمل له ،لأن حكومة انجلترا كان غرضها من مأمورية غردون حقيقة أن يمهد السبيل لوقوع تلك البلاد فى مخالب الفوضى وبعبارة أخرى أن يقضى على نفوذ مصر فى تلك الأرجاء هذه كانت مقاصد انجلترا أما الخديو توفيق باشا فان مقاصده الحقيقية كانت اعادة الأمن والسلام الى تلك الأقطار ثم أجبر على تحوير مقاصده بجعلها قاصرة على انقاذ المخلصين من رعاياه من الخطر المحدق بهم واخلاء السودان اخلاءاً تاما عن المصريين وعن الذين استوطنوه من الأجناس الأخرى (٣)

---

(١) ابراهيمبك فوزى : كان ضابطا بالجيش المصرى بالسودان ١٢٩١/١٨٧٤م، وعمل بالمديريةالاستوائية ،تولى ادارة المديرية الاستوائية بعد ترك غردون لها وتعذرعلى براوت بك الاستمرار فى البقاء فيها لمرضه ، اتهم عام١٢٩٥ / ١٨٧٨ باستغلال نفوذوظيفته فى الاتجار أوالتستر على تجارة الرقيق ،فعزل عن منصبه وتقرر محاكمته وخلفه فى ادارة المديرية اداوردشنتزر " أمين باشا" ، وحوكم وثبتت براءته ،فأعاده رؤوف باشا عقب توليه كحاكم عام للسودان الى رتبته السابقة ،ثم عاد الى مصر وشايع فى الحركة العرابية ، كما عمل كحكمدار بشرطة القاهرة حيث اثبت نجاحا كبيرا فى حفظ الأمن ،وعندما عهد لغردون مهمة اخلاء السودان عرض عليه مصاحبته بعد ثبوت براءته ، واشترك فى قيادة القوات المصرية المدافعة عن الخرطوم ضد حصار المهدية ، نجا من الموت على يد أنصار المهدى بفضل تحايله ، كسب عيشة خلال فترة سيادة المهدية بتقديم الطلبات لزبائن محل صغير افتتحه بأم درمان وبعد الغزو الانجليزى للسودان عام ١٣١٥ / ١٨٩٨م عاد الى مصر حيث كتب مذكرته . انظرجميل عبيد ،مرجع سابق ص٣٠١.

(٢) انظرالرافعى ، مصروالسودان ص١٢ ، انظرايضاكرومر،مرجع سابق ص٥٦ .

(٣) ابراهيم فوزى ،ج ١ ، مرجع سابق ،ص ٢٩٥ .

ويبدو أن غردون قبل وصوله الى السودان قد وضع لنفسه خطة عمل من خمس نقاط :

١) استماله الأهالى للوضع الجديد الذى يتزعمه .

٢) مواصله جهوده السابقه فى اثارة كراهية وحقد الأهالى ضد الحكم التركى المصرى .

٣) نهج سبيل الود والمسالمه مع محمد احمد المعروف بالمهدى .

٤) اذا لم ينجح فى مسعاة السابق يقوم بطلب الزبير ليقود المواجهة ضد الثورة .

٥) ثم يفكر أخير فى اخلاء السودان اذا لم تحقق أى من النقاط السابقة النتائج المرجوة

الا أن ذلك كله يبدو أنه مجرد كسب للوقت لأن آراء غردون كانت متعارضة تماما مع سياسة حكومة لندن ، اذ كان غردون معاديا لسياسة اخلاء السودان ، وكان يطالب باستخدام الوسائل الحربية الأبعد مدى ، ولكن كان لا يمانع فى اخلاء المديريات السودانية المتطرفه مثل دارفور وخط الاستواء وكان يصر على المحافظة على الخرطوم بأى ثمن ، وكان يرى ان السماح للمهدى بدخول الخرطوم لا يعنى مجرد عودة السودان الى الهمجية ولكن يعنى تهديدا مباشرا لمصر نفسها ، وكان يعتقد أن الدفاع عن مصر عن طريق تحصين الحدود الجنوبية سيكون عديم الجدوى ، لأن بلاد العرب والشام وكل أقطار العالم الاسلامى ستهتز نتيجة لزحف المهدية وانتصاراتها . ولذلك فان غردون قد نصح بارسال رجل قوى مثل السير صمويل بيكر الى الخرطوم مع قوات هندية وتركية كافية ، وأن يزود بمليونين من الجنيهات الاسترلينية ، كان يعتقد فى سهولة القضاء على قوات المهدى اذا ماواجهتها قوات أحد الجنرالات الانجليزية ـ وفى هذا يبدو أن غردون قد نسى أن المهدى قد واجه من قبل

الجنرال هكس وقتله ـ بعد ذلك يمكن اعادة احتلال المناطق المتطرفة مثل دار فور وخط الاستواء واعادتهما تحت حكم السلاطين القدماء ، ووضع مجموعة الأقاليم السودانية تحت حكومة متمدنة تستطيع القضاء على تجارة الرقيق نهائيا [١] .

أما بالنسبة لنقاط العمل التي وضعها غردون لتنفيذها في السودان :

١) استمالة الأهالي للوضع الجديد الذي يتزعمه :

فقد كانت "أبو حمد" هي أول محطه لغردون ـ بعد خروجه من صحراء العتمور [٢] حيث استقبله الأهالي استقبالا حارا والتفوا حوله ، وأنصتوا لما يقول فأخبرهم بأنه سوف لن يحارب المهدى وأنه ألغى كل متأخرات الضرائب القديمه وخفض الضرائب الحالية الى النصف ، وسوف يحكم السودان بأهله في المستقبل وطلب منهم ارسال مندوبين الى الخرطوم لهذا الغرض [٣] ، كما أمر غردون بحرق السجلات الحكومية ، وأيضا جاء غردون وهو يحمل معه مبالغ مالية بلغت قيمتها المائتى ألف جنيه ، وقد ضربت هذه الريالات خصيصا في تريستا (ايطاليا) وهي تحمل صورة (ماريا تريزا) ـ وهي من العملات المتداوله في السودان وأثيوبيا منذ زمن بعيد [٤] ـ وذلك لتوزيعها على الأعيان والزعماء

٢) مواصلة جهوده السابقة في اثارة كراهية وحقد الأهالي ضد الحكم التركي المصري : -

فقد امر غردون بعد وصوله بهدم الحصون التي عززها عبد القادر باشا

---

(١) جلال يحي ، مرجع سابق ، ص ٣٨٢ .

(٢) اسم لاقليم صحراوى يقع في شمال السودان ويحد شرقا بالبحر الاحمر وغربا بالنيل ، وشمالا بحدود السودان مع مصر .

(٣) شبيكه ، تاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص ١٦٧ .

(٤) الشاطر بصيلي ، معالم تاريخ سودان وادى النيل ، ص ١٨٠ .

حلمى حول الخرطوم ـ وهذا اضافة لما فيه من دعاية ضد الحكم التركى المصرى فى السودان واعلاء لشأن الحكومة الانجليزية التى يمثلها غردون ، فانه أيضا يمثل تهاونا من جانبه بقوة الثورة المهدية ،وصرح أيضا أن اسم المهدى هو لقب أطلقه على محمد أحمد ، رؤوف باشا الذى روج لهذا اللقب حتى صار حقا مكتسبا من حقوق محمد أحمد (١) ، كما عنى غردون كثيرا بموضوع ترتيب نوع من الحكم فى السودان يصاحب التخلى عنه ، أى أنه لا يكتفى بالانسحاب ، وانما يقوم فى الوقت نفسه بنوع من التنظيم للمستقبل ،وكانت فكرته ابعاد المصريين عن السودان نهائيا وأيده فى ذلك " بارنج " المعتمد الانجليزى فى مصر (٢)، ولم يكن يهدف من هذا الا توكيد فصل السودان عن مصر ، وتوكيد سيطرة انجلترا على شئون السودان وقد غطى غردون هذا القصد بتبريره القاضى بأن الاخلاء دون تنظيم سلطة مركزية تخلفه سيكون بداية للفوضى العامة فى كل أنحاء السودان (٣) والسلطة المركزية المزعومة هذه لو كونت فسوف تكون هذه المرة منقادة وتابعة تمام الاتباع للحكومة الانجليزية .

٣) نهج سبيل الود والمسالمة مع محمد أحمد المعروف بالمهدى :-

قبل وصول غردون الى الخرطوم بعث الى المهدى يدعوه الى الكف عن القتال وعينه ملكا على كردفان ،كما بعث اليه مع الرسالة هدية (٤) ، وطلب منه اطلاق سراح الأسرى الأوروبيين ،وطلب منه أيضا اصلاح الخط التلغرافى بين الخرطوم والأبيض لفائدة الفريقين ، وقد كتب ستيوارت فى يومياته موضحا

---

(١) شبيكه ،تاريخ شعوب مرجع سابق ،ص ٦٧٠ .

(٢) على ابراهيم عبده ، مرجع سابق ،ص ٩٩ .

(٣) جلال يحى ، مرجع سابق ،ص ٣٩٧ .

(٤) ابراهيم فوزى ،جـ ١ مصدر سابق ص ٢٦٧ .

الغرض من هذا الخطاب وهو اشاعة الفرقة والفوضى بين أتباع المهدى ولتهدئه الفقراء والمغالين فى الدين والمستضعفين فى كل أنحاء القطر، ويعتقد ستيوارت نفسه ان الخطاب ربما يجعل على الاقل أبناء قبيلة الكبابيش يتركون جانب المهدى وينضمون لجانب الحكومة .[١]

ولكن من ناحية أخرى نرى مدى مفهوم غردون الخاطئ لبواعث الثورة فهو يرى المهدى أنه رجل ذا طموح محدود يكتفى بالملك على كردفان فقط وأن لا دافع دينى حقيقى لثورته بل ثار بايعاز ودافع من كبار تجار الرقيق أمثال الياس باشا أم برير[٢] .

فان محمد أحمد صاحب رسالة دينية تعدت حدود السودان الى بقية أنحاء العالم الاسلامى اضافة الى أنه سوف لن يقبل ملكا على اقليم تمت سيطرته عليه فعلا ، كما أن منع تجارةالرقيق لم يكن بأى حال من الأحوال سببا رئيسيا فى قيام الثورة لأن أغلبية تجار الرقيق هم أوروبيون ، وعرب ـ ليسوا من عرب السودان ـ ولبنانيون .

وأخيرا فان السودانيين كانوا يعرفون غردون جيدا ،ويعرفون حكومته وأخلاقه وأساليبه ،فضلا عن أن المهدى لن يقبل ولاية الحكم من يد مسيحى[٣] .

٤) طلب الزبير :

طلب غردون تعيين الزبير حاكما للسودان ،لما كان له من النفوذ

---

(١) شبيكه تاريخ شعوب ،مرجع سابق ،ص ٦٧١ .

(٢) المرجع السابق نفسه ،ص ٦٧٢ .

(٣) جلال يحى ،مرجع سابق ص ٣٩٠

والعصبية ولأنه الرجل الذى يستطيع مقاومة المهدى[١] ، ولكن ليس الأمر كذلك ففى الحقيقة ان جنود غردون كانوا من المصريين والسودانيين ،ولكنه كان أجنبيا قبل كل شىء ،كما أن اتجاه الثورةالدينى أخذ يزداد وضوحا بعد وصول غردون المسيحى وشعر غردون اذاً بنوع من العزلة ، وشعر أنه لن يقدر على عمل أى شىء بمفرده ، فأخذ يطلب من الحكومة الانجليزية كل يوم طلباً جديداً ويقترح عليها اقتراحاً خاصاً ، وكان اقتراح غردون الخاص بارسال الزبير هو أكثر الاقتراحات الحاحاً وقد استطاع غردون استقطاب تأييد كل من السير" افلن بارنج " وستيوارت ونوبار باشا فى هذا الخصوص [٢] ولكن هؤلاء ليسوا بأصحاب الكلمة النهائية ، فالزبير يستدعى تعيينه موافقةالحكومة الانجليزية ،والتى رفضت استخدام الزبير لأسباب سياسية وأخرى متعلقة بتجارة الرقيق [٣] .

ولكن اذا افترضنا أن بريطانيا وافقت على تعيين الزبير ، فان الزبير لن يوافق وذلك لأسباب لم يدركها غردون أو بارنج أو ستيوارت أو نوبار وهى :

أولا : قد يفهم الزبير أن تعيينه حاكما يقصد به ضرب رؤوس أبناء الوطن الواحد بعضها ببعض لصالح الأطماع الاستعمارية .

ثانيا : لقد كان من أهداف الزبير فى اقامة دولته فى جنوب السودان ، هو تكوين دولة عربية اسلامية ليغير به وجه تلك المنطقة ذات الطابع الوثنى المتخلف الى طابع عربى مسلم متحضر ، كما أن المهدى كان هدفه بعد طرد الحكام الأجانب الذين حكموا السودان باسم الحكم

---

(١) الرافعى ، مصر والسودان ، مرجع سابق ص ١٢٧ .

(٢) جلال يحيى ، مرجع سابق ص ٣٩٨ .

(٣) انظر شبيكه ، تاريخ شعوب ص ٦٧٤ ، وشكرى : مصر والسودان ص ٣٠١ مراجع سابقه .

التركى المصرى ، انشاء دولة وطنية سودانية على هدى الدين وبمعنى آخر فان كلا من الزبير ومحمد أحمد المعروف بالمهدى متفقان فى الهدف ونتيجة لهذا التوافق ، فان الزبير اذا أتى الى السودان لا يستبعد أن ينضم الى المهدى .

ثالثا : وقد يظن الزبير أنه لو صار حاكما سوف لن يكون قادرا عن صد تقدم المهدى وهزيمته ، لأنه " اى المهدى" كسب حتى ذلك الحين معظم جولات المعارك مع الحكومة واشتهر نتيجة لذلك اسمه بين السودانيين وذاع صيته وكثر عدد جيشه الذى زاد على المائة ألف مقاتل .

رابعا : انضم الى المهدى كبار قواد جيش الزبير، اضافة الى العديد من أفراد قواته المدربه ، فلو قدر للزبير أن يكون حاكما عاما فسوف يقود جيش الحكومة الذى ليس له به اى خلفية أو صله الا مجرد تعيين الحكومة المصرية قائدا عليه كما أنه سوف يواجه قوات سودانية بها قادة دربهم على يديه ، وسوف يقاتلونه بشراسة باعتبار أن الزبير خائن لهم وللمهدى .

خامسا : ان الزبير لم يكن من المتوقع أن يوافق على اقتراح غردون ، لادراكه أن حبسه كان موءامرة كبرى ، دبرها الأجانب ونفذها لهم الخديو كما أنه حاقد على الحكام الأجانب الذين قتلوا ابنه وسجنوا أفراد أسرته واذاقوهم صنوف التعذيب ، ثم صادروا أمواله ، وفرقوا جمع قواته ، وقضوا على أحلامه وآماله فى اقامة دولته الافريقية العربية الاسلامية .

وبينما كان غردون يقترح استخدام الزبير اقترحت الحكومة المصرية استخدام جنود أتراك عثمانيين مادام متعذر استخدام جنود انجليز أو هنود لا تريد هى استخدامهم حتى لا يزيد استخدام " الجنود المسيحيين" أوتد خلهم فى السودان من حدة الثورة المشتعلة هناك (١) .

وبينما كان غردون يحاول اقناع حكومته بمشروعه الذى يتضمن تعيين الزبير، كان قد بدأ فى نقل جنوده الى البر الغربى للنيل الأبيض ريثما يتم ترحيلهم الى الشمال فالمهدى قد عينه حاكما على كردفان ، وهو واثق من أنه سيقبل الوضع الجديد وأن أتباعه لا يعبرون النيل الأبيض ولو أمرهم بالتوجه الى الخرطوم ، ولكن كل هذه مؤشرات تدل على تهاون غردون بقوة الثورة المهدية وقائدها (٢) .

ومن جهة اخرى فقد وصل أنصار المهدى معاركهم مع قوات الحكومة فى الشرق والتى هزمت فى معركة التيب الثانية (٣) ، كما أسقط أنصار المهدى مدينة " سنكات " وقتل فيها قائد جيش الحكومة هناك محمد توفيق بك ، وكان ذلك خلال عام ١٣٠١ / ١٨٨٤ ، هذا وبعد سلسلة من المعارك الدامية آمنت الحكومة باستحالة فتح الطريق بين سواكن وبربر واستحالة السيطرة عليه بسبب قوة شكيمة قبائل البجة الذين يسكنون فى تلك المنطقة بقيادة الأمير عثمان

---

(١) شكرى ، مصر والسودان ، مرجع سابق ، ص ٣٠١ .

(٢) شبيكة ، تاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص ٦٧٤ .

(٣) أطلق عليها واقعة التيب الثانية تميزا عن واقعة التيب الأولى والتى حدثت عندما حاصر رجال" عثمان دقنه " مدينة " طوكر " ثم اقتحموها وهزموا قوات الحكومة وفر اكثرهم الى" سواكن" كما قتل فى المعركة القنصل الانجليزى" مونكريف" سنة ١٨٨٣ ، أنظر الرافعى ، مصر والسودان مرجع سابق ص ١٢٨ .

أبو بكر دقنة ، وتتيجة لتلك الانتصارات وغيرها أصبحت الثورة المهدية تسير بخطى حثيثه نحو تسلم زمام الامور فى البلاد ، فلما شعر غردون بأن الارض تموج من تحته عدل عن سياسة المسالمة واستعد للدفاع والمقاومة ،كما استصدر فتاوى ورسائل من بعض شيوخ وعلماء السودان أمثال تلاميذ الشيخ اسماعيل الولى (١)، كدعاية ضد محمد أحمد ولاعلام الناس بأن محمد أحمد كاذب وليس هو بمهدى ، وما هو الا ضال مضل غير أن رسائل العلماء والمشايخ لم تكن ذات جدوى فى فض الناس عن حركة المهدية ، لأن العلماء كانوا جزءا من جهاز الحكومة ، وكانت رسائلهم عبارة عن دفاع عن الادارة التركية المصرية ،ومحاولات لاثبات شرعية الحكومة عن طريق النصوص الدينية ، فضلا عن أن الخديوية كانت فى نظر المدافعين عن صحة المهدية متعاونه مع القوى الأوروبية المعادية للاسلام والمسلمين ،أما بعض مشايخ الطرق الصوفية فلم يعتقدوا بأن المهدى وصل الى مرتبة المهدية ولكن بعضا منهم انقادوا له عندما بدر لهم عجز الحكومة عن مقاومته فهرعوا اليه ،وبعد وفاته استمر بعضهم فى مشايعة الحركة تقية (٢) .

وبينما كان المهدى يستكمل استعداداته جاءت أنباء سقوط بربر حيث قتل فيها من جنود الحكومة خمسمائة وألف جندى ،وبهذا يكون قد

---

(١) هو اسماعيل عبدالله المشهور بالولى ، موءسس الطريقة الاسماعيلية المنتشرة فى كردفان ، ولد بالأبيض فى ١٢١٠ / ١٧٩٣ و تتلمذ على يد محمدعثمان الميرغنى الكبير ثم استقل بطريقته ، اهتم بالاسلام فى جبال النوبا وتوفى فى ١٢٨٠ / ١٨٦٧ بعد أن خلف نفوذا لنفسه وسمعة عالية وخلفه ابنه السيد المكى ، صنف عددا من الكتب فى الدين ومازال - معظمها غير مطبوع ،انظر ابو سليم الحركة الفكرية ، مرجع سابق ص٧ .

(٢) محمد محجوب مالك ،مرجع سابق ،ص ٢٦٨ .

انقطع حبل الأمل في انقاذ غردون ، وخاصة بعد تحرك المهدى نحو الخرطوم وفي أثناء ذلك أوفد غردون وكيله ستيوارت الى مصر لابلاغ الحكومة عن حالة الخرطوم واستعجال المدد [1] ، ولكن باخرته تحطمت في شلال (ودقمر) وهناك أدركه أنصار المهدى فقتلوه ومن معه ، ثم أرسلت الحكومة الانجليزية نجدة من الجيش الانجليزى لانقاذ غردون وعهدت بقيادتها الى الجنرال اللورد ولسلى " Wolsley "[2] وذلك ابان حصار أنصار المهدى لمدينة الخرطوم .

أما ما كان من أمر غردون في الخرطوم ، فقد حاول فك حصار أتباع المهدى لمدينة الخرطوم بايفاد حملة من أربعة آلاف مقاتل الى منطقة الحلفاية ولكن الأنصار قضوا على تلك الحملة في معركة عرفت " بواقعة الشرق" ومن ثم تحركت جموعهم من الشمال والجنوب والشرق ومن جة الغرب حيث تحرك المهدى وجميع قواته ليتكامل الاطباق على المدينة ، ثم أمر المهدى[3] - بعد شهر كامل من الحصار - رجاله بضرب الخرطوم من جميع الجهات ، وكانت قوات غردون المدربة تدريبا جيدا قد دافعت عن المدينة بشراسة ، الا أن قدرة المهدى على الحشد ، اضافة الى أن رجال غردون بدأوا في التمرد والاتفاق مع الثوار - مما أدى الى قتل بعضهم وسجن البعض الاخر[4] - كل هذه أدى الى انهيار قوات غردون ، حيث هزمت بواسطة قوات المهدى وقتل غردون وقطع أتباع المهدى رأسه وارسلوه الى المهدى .

---

(١) الرافعي ، مصر والسودان ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٣٢ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ١٣٧ .

(٤) ضرار ، مرجع سابق ، ص ١٥٠ .

أن سقوط الخرطوم ومقتل غردون هو أخر سهم أطلقته الثورة المهدية على روح الحكم التركي المصرى فى السودان ، ذلك أن غردون بتهاونه واستهتاره بقوة محمد احمد وجيشه كان أحد أسباب تلك النهاية (١) ، ولكن مما يتضح من مذكرات غردون ،أنه كان ضحية تضليل فى تقديره لموقف المهدى ، فالجواسيس ومن هربوا من معسكرات أنصار المهدى أعطوه فى أغلب الأحيان صورا تقلل من أهمية قوة المهدى ،واقتنع هو بأن ظهور خمسة وعشرين جندى انجليزى بملابسهم الحمراء الزاهية يستعرضهم فى شوارع الخرطوم تكفى لارهاب المهدى ولأن يقلع خيامه ويرجع بجموعه الى كردفان . ولم يلتفت الى الناحية الاخرى ،فالمهدى حين ظل يكاتب وينذر ويصبر كان يرمى الى تجنب اراقة الدماء (٢) ، ولكن غردون كان عنيدا ولم يكن واقعيا متفاعلا مع الأحداث وكانت تنبوءات كرومر بعدم صلاحية غردون للعمل فى السودان صحيحة فهو يقول : " لقد تبينت وجه الخطر أكثر من وزرائنا ، فآثرت ارسال مصرى لا انجليزى الى الخرطوم ،ومع هذا اذا كان ارسال انجليزى عملا خاطئا ، فأكثر خطأ منه وقوع الاختيار على غردون " ، ولعل الأسباب التى تبرر عدم ارسال انجليزى الى الخرطوم باتت واضحة وضوحا كافيا ، فلو حوصر فى الخرطوم ـ وهو أمر ممكن ومحتمل أيضا ـ فان الحكومة الانجليزية تضطر الى ارسال تجريدة لانقاذه ، فى حين تهدف السياسة الانجليزية اصلا الى تحاشى التورط فى عمليات حربية بالسودان (٣) .

اضافة الى ذلك فان تسرع غردون الشديد كان العيب الرئيسى فى أخلاقه ، وكان على العموم شخصا غير صالح للقيام بعمل يتطلب قبل كل شىء

---

(١) الشاطر بصيلى ،معالم تاريخ وادى النيل ،مرجع سابق ،ص ١٧٧ .

(٢) شبيكه تاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص ٦٨٥ .

(٣) كرومر ، مرجع سابق ،ص ٦٥ ، ٦٦ .

رأسا هادئا ، ثابتا [1] .

فالحكومة الانجليزية اذاً لم تقدر ارسال رجل مثل غردون الى السودان حق قدره ، ذلك ان أعمال هذا الجنرال السابقة وأخلاقة لم تكن مما تؤهله للقيام بهذه المهمة ،فقد كان غردون يضيق بالاشراف الرسمى عليه ، وكان طموحا الى أقصى درجات الطموح ،ولقد اختارته الحكومة بسبب خدماته السابقةفى الصين وفى السودان ، دون أن يعرفوا تفاصيل تجربته الأخيرة كقائد لقوات مستعمرة رأس الرجاء الصالح فى باسوتو لاندالتى ظهر فيها عدم احترامه للسياسه التى رسمها الحاكم العام ،ودخل فى مفاوضات مع روءساء محليين بطريقه تتنافى مع السياسه العامه للحكومة ، وتتعارض تعارضا تاما مع الخطط الموضوعه [2] .

فميزات غردون الشخصية وغير الحميدة كانت أحد العوامل التى ساعدت على أخفاقه وانجرافه مع تيار الفشل والذى أدى أخيرا الى فقد الحكم التركى المصرى أملاكه فى بحر الغزال ،وسنار ، ودارفور ،وخط الاستواء وفى الساحل الشرقى وفى ساحل البحر الأحمر والصومال وهرر .

وهناك سوءال : ما الدافع الذى جعل غردون يبقى ولا يسلم نفسه حتى بعد فشل حمله الانقاذ واحكام الحصار عليه ، ثم يلقى حتفه كالجرذ المحبوس ؟، يبدو أنه كان على أمل كبير فى أن تتحرك بلاده بقوة تعادل القوة التى سحقت بها الثورة العرابية أو اكثر ، فتأتى لتنقذه وتقضى على الثورة والثوار ، ثم تستولى على السودان لتكتمل الحلقة الأخيرة من الخطة التى رسمها الحكام الأجانب خلال حكمهم للسودان من قبل .

---

(١) كرومر ، مرجع سابق ،ص ٦٨ .
(٢) جلال يحى ،مرجع سابق ،ص ٣٨٤ .

الأطماع الأجنبية في السودان :

ان من بين الاثار البارزة لانهيار الحكم التركي المصرى في السودان هي تكالب الدول الاوروبية وتنافسها على السودان ، وفي مقدمتها انجلترا،ففي عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م كانت الرغبه قوية في أن تعيد الحكومة الانجليزية في سياستها نحو السودان ،ليس فقط فيما يتعلق ببحث احتمال احتلال دنقله والسودان الأوسط ،بل والقيام بعمليات عسكرية على نطاق واسع في جهة سواكن للقضاء على قوات عثمان دقنه في السودان الشرقي (١) .

كما أنه لاتخلو قصة استعاده السودان من دوافع ثأريه في بداية الأمر ،فبعد مقتل هكس وستيوارت ،وانسحاب حملة الانقاذ متقهقرة ،وبعد صدمة نبأ مقتل غردون ، خيم شعور من الوجوم على الشعب الانجليزي(٢) ،بل لقد أحدث مقتله هزة عنيفة حتى أن ملكة انجلترا لبست عليه ملابس الحداد ،وان مركز حكومة جلادستون قد ضعف بسبب ترددها الذى انتهى الى تلك الحادثه ويبدو أن فكرة الانتقام لدى الانجليز قد حملتهم على نبش عظام المهدى وهدم قبته عندما استولى "كتشنر" على أم درمان فيما بعد (٣) .

---

(١) شكرى ، مصر والسودان ، مرجع سابق ،ص ٤٣٤ .

(٢) عصمت زلفو ، مرجع سابق ،ص ١٨١ .

(٣) اللورد كتشنر : تخرج كتشنر في "ساند هرست" بأقدمية متوسطة وانضم لسلاح المهندسين الملكي وأصبح قائدا ذو كفاءة ميكانيكية يسندها عقل حسابى دقيق وضابط محترف، متفرغ لحرفته بدون هوايات أو حياة خاصة تقريبا عندما أمضى احدى اجازاته في فرنسا ،وكان طالبا حربيا أصر على الاشتراك في أحدى المعارك وأبدى رباطة جأش منقطعة النظير، وعلى الرغم من التقريع المؤلم الذى وجهه اليه القائد العام لاشتراكه بدون اذن في تلك الموقعة . فانه لم يستطع اخفاء سروره =

ولكن كانت أولى تلك الأطماع قد ظهرت من فرنسا فى ١٣٠١ / ١٨٨٤ عندما جاء " أوليفيه بان " المراسل الصحفى الفرنسى الذى حاول أن يؤثر على المهدى لقبول المساعدات الفرنسية (١) فى سبيل مناهضة التدخل الانجليزى ولكن المهدى أبدى رفضه لأى مساعدات أجنبية فى صراعه مع غردون .

وهذه المحاولات الفرنسية ناتجة من الصراع التقليدى والتنافس بين انجلترا وفرنسا على هذه المنطقة منذ غزو نابليون لمصر عام ١٢١٤ / ١٧٩٨ .

هذا ورغم وفاة " أولفية بان " عند مصاحبته لحملة محمد أحمد المعروف بالمهدى ، والمتجهه الى الخرطوم لحصارها ، وبالتالى وقوف مساعى فرنسا عند موت " أوليفيه " الا أن تلك المساعى تتابعت بعد فتح أنصار المهدى لمدينة الخرطوم ، وظهر ذلك جليا فى محاولات فرنسا فى تحقيق أطماعها فى السودان وبالذات فى أعالى النيل .

= لاغتنامه تلك الفرصة الذهبية للمفاخرة وسط اقرانه كمقاتل محترف وعند انضمامه للجيش المصرى ، كان ضابطا مغمورا وليس هناك مايميزه عن زملائه غير اتقانه للغة العربية .

انظر عصمت زلفو ، مرجع سابق ، ص ٢٧٥ .

انظر ايضا : على ابراهيم عبده ، مرجع سابق ، ص ١٠١ .

(١) سلاطين باشا ، السيف والنار فى السودان ، بيروت : دار الجيل الطبعة الثالثة ١٣٩٨ / ١٩٧٨ ، ص ١٦٦ .

الأطماع الفرنسية فى الدولةالسودانية :

لم يكن فى وسع الفرنسيين السكوت على مركز الانجليز فى مصر فاتخذوا من الحركة الاستعمارية فى أعالى النيل قواعد للضغط على الانجليز فى مصر، واذا كان لابد من تحقيق النجاح للسياسه الفرنسية فذلك يتطلب الاهتمام بعدد من الخطوات ، أهمها كسب ود المانيا والتقرب اليها حتى نالت موافقتها على أن تحصل فرنسا على منفذ تخرج منه الى النيل والسودان ، كما استخدمت فرنسا نفوذها فى أثيوبيا ،واستغلت أراضى هذه الدولة فى جعلها نقطة انطلاق الى الضفة اليمنى لأعالى النيل .

وقد اتجهت فرنسا الى اثيوبيا بالذات دون غيرها من الدول المجاورة للسودان وذلك نتيجة للانتصار الكبير الذى أحرزته أثيوبيا على الايطاليين فى معركة عدوه فى ١٣١٣/١٨٩٦ ، تلك المعركة التى جعلت أثيوبيا تحتل مركز الصدارة فى السياسة الأفريقية ، كما جعلت الدول الأوروبية تتسابق لانشاء علاقات دبلوماسية معها ، وكانت أولى تلك الدول فرنسا (١) .

ولما شعرت فرنسا بأنها قد لاتستطيع بسط نفوذها على أعالى النيل من جهة الشرق فقط ، فقد سعت الى التحرك من جهة الغرب أيضا وذلك للاطباق على أعالى النيل من الجهتين معا . فمن الشرق صارت فرنسا تحاول قدر الامكان تسخير أثيوبيا ملكا وشعبا وأرضا لتحقيق ذلك الأمر وتحاول أيضا كسب صداقة "منليك" واقناعه بأن يستمسك بادعاءاته فى ملكية الضفة اليمنى لأعالى النيل وبعدالة مطالبته بها بحكم أنها توءول تاريخيا

---

(١) محمد سيد محمد ، المشروعات الفرنسية الاثيوبية فى أعالى النيل ، مجلة كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، العدد السادس سنة ١٤٠٢/١٤٠٣هـ ص ٩٦ .

الى بلاده (١) ، ولا أعتقد أن فرنسا معترفة بأحقية أثيوبيا فى أعالى النيل ولكنها تحاول تأليبها ضد السودان ومساعدتها فيأن تحصل فى النهاية على أعالى النيل وليست أثيوبيا .

وقد عينت فرنسا الحاكم الفرنسى على ساحل الصومال ويدعى "لاجارد" "Lagarde" ليكون مهندسا للعلاقات الدبلوماسية مع أثيوبيا ، وقد تسلم لاجارد تعليمات من " هانوتو " وزير الخارجية الفرنسية ، مفادها ، أن يعمل على تأييد التوسع السلمى للنفوذ الفرنسى فى أثيوبيا ولو أدى الأمر الى استخدام الأموال ، وكشف مناطق السوباط والضفة اليمنى لأعالى النيل ، واقامة علاقات ودية مع القبائل هناك لكسبها وضمان عدم وقوفها ضد ذلك المشروع المزمع القيام به وكل هذه مشروعات سياسية على درجة كبيرة من الأهمية ، لان نجاحها أمر تحتمه المصلحة السياسية العليا للبلاد فضلا عما يمكن أن تؤديه من خدمات الى الحملة الفرنسية القادمة من غرب القارة (٢) .

ولتنفيذ الحملة الفرنسية لأعالى النيل أسند لاجارد تلك المهمة الى كل من قائدين فرنسيين هما " كلوشيت " و "بونقالو" ، وقد تم تكوين الحملة التى يقودها كلوشيت من اثنين من ضباط الصف الفرنسيين ومائتى جندى أثيوبى أما الحملة التى يقودها بونقالو قد فشل قائدها فى الحصول على القوارب

---

(١) محمد سيد ، المشروعات ، مرجع سابق ، ص ٩٧ .
- كان منليك مصمما على تنفيذ ادعاءاته فى ملكية الضفة اليمنى للنيل فيما بين خطى عرض ٥°، ١٤° شمالا ، اى من بلدة "لادو" على بحر الجبل حتى نقطة تبعد مائة وخمسين ميلا الى الجنوب من الخرطوم - انظر محمد سيد ، المشروعات ، مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

(٢) محمد سيد محمد ، المرجع السابق ، ص ٩٨ .

اللازمة لعبور الأنهار المؤدية الى النيل ، ولذلك السبب تخلى عن قيادته للحملة وأسندها الى الماركيز " دى بونشان " وعاد هو الى فرنسا (١) .

وقد أمر لاجارد القائد الجديد بونشان ، أن يقوم - بعد وصوله الى أعالى النيل - بانشاء قلعتين احداهما اثيوبية وتكون على الضفة اليمنى للنيل، وان يترك عليها جماعة من قوة كلو شيت لحمايتها ، والأخرى فرنسية وتكون على الضفة اليسرى للنيل وان تكون وسيلة الاتصال بين القلعتين بواسطة سفن كبيرة أو صغيرة .

ثم تحركت الحملتان من العاصمة الأثيوبية باتجاه أعالى النيل ، الا أن أحد قواد الحملة و هو كلو شيت قد بلغه أجله ، مما حدا ببونشان أن يكون قائدا للحملتين ، ولكن القائد لم يتمكن من الوصول الى النيل ويقوم ببناء القلعتين حسب ماهو متفق عليه ، ذلك لأن ظروف المناخ القاسى والأمراض التى فتكت بأفراد القوة الأثيوبية ، وعدم قدرة دوابهم على العمل فى ذلك المناخ الاستوائى ، اضافة الى افتقار الحملة الى زوارق تمكنهم من عبور المستنقعات والنزول فى نهر السوباط حتى فاشوده على النيل الأبيض ، ولهذه الاسباب توقفت الحملة رغما عنها ، وأمر قائدها بالعودة ، وذلك رغم أنهم باتوا على بعد مائة وخمسين كلم فقط من فاشوده (٢) .

---

(١) محمد سيد محمد ، المشروعات ، مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

(٢) محمد سيد محمد ، المشروعات ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
- ان لفاشوده أهمية كبرى نالتها من موقعها الجغرافي والحربى ، فانها تعد مفتاح أعالى النيل ، لوقوعها على ملتقى الطرق الواصلة من الخرطوم والحبشة الى جنوب السودان وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل كنهر السوباط وبحر الغزال وجهات خط الاستواء ، ومن يملكها يضمن النفوذ فى شمال السودان ، وفى الجهات الجنوبية منه الى =

وفي طريق العودة وعند حدود اثيوبيا التقى بونشان بقوة اثيوبية كبيرة يقودها " دجاج تساما " ، وكان الهدف من هذه الحملة انقاذ بونشان ورفاقه اثناء مسيرتهم لاعالي النيل ، وقوة تساما ،كانت تضم عشرة الآف مقاتل وبصحبتها مغامر روسي يدعى" أرتامانوف " وقد تخلى بونشان عن قيادة الحملة وأسند قيادتها الى اثنين من مساعديه نتيجة لاصابته بالحمى ،وقد ترك القادة الجدد فكرة العودة وقررا مواصلة السير نحو أعالي النيل وبصحبتهما قوة تساما ،وقد تمكن الضابطان من شق طريقهما الى النيل حتى بلغا نقطة التقاء نهر السوباط بالنيل وذلك قبل وصول مارشان ،الذى لم يتمكن الضابطان من العثور على بعثته ، ولما كانوا لا يستطيعون البقاء وسط المستنقعات عادوا أدراجهم ولكن بعد أن رفعوا العلم الأثيوبي على الضفة اليمنى و العلم الفرنسي على الضفةاليسرى وعلى بعض الجزر وسط النيل، لا تبعد كثيرعن فاشوده وذلك عام ١٣١٥ / ١٨٩٨ .(١)

البحيرات الاستوائيه فلا غرو أن يكون لها مكانة كبيرة من الوجهتين السياسية والاقتصادية ،وقد غير الانجليز اسمها وسموها" كودوك" ، وغيروا اسممديرية فاشوده وسموها مديرية أعالي النيل ،وذلك لكي يمحو من الأذهان اسم فاشوده وما يثيره من ذكرى ذلك الخلاف السياسي .

ومما يجدر ذكره أن فاشوده قد أسستها الحكومة التركيةالمصرية عام ١٢٨٤ / ١٨٦٧ ، وجعلت منها عاصمة لمديرية النيل الأبيض وكانت في الاصل مقرا لسلطنة قبائل الشلك ، انظرمحمدسيد محمد ، أزمة فاشوده ، مجله البحث العلمي والتراث الاسلامي ،جامعةأم القرى العدد الخامس ١٤٠٢ / ١٨٨٢ ، ص ٥٠٠ ، وانظر أيضا الرافعي عصر اسماعيل ،ج ١ ، مرجع سابق ، ص ١١٠ .

(١) محمد سيد محمد ، المشروعات مرجع سابق ،ص ١٠٥ ، أنظر أيضا ضرار، مرجع سابق ، ص ١٩٢ .

وقد أتبعت الحملات السابقة بثلاث حملات أخرى صحبها فرنسيون وروس وسنغاليون ، والحملة الأولى كانت بقيادة " أبتى جيورجس" وتتألف من خمسة عشر جندى وكان يصحبه المستكشف الفرنسى" ليون داراجون" (١) وقد هدفت هذه الحملة الى قطع الطريق أمام حملة انجليزية قادمة من الجنوب نحو النيل تحت قيادة ضابط يدعى " كافنديش" ، وقد عاد هذا الضابط أدراجه الى لندن بحجة أن حملته كانت مجهزة تجهيزا سيئا .

أما الحملة الثانية فكانت بقيادة " رأس ولد جرجس" بلغ تعداد أفرادها حوالى ثلاثين ألف مقاتل ، وكان يصحبها بعض الفرنسيين مع قوة من السنغاليين ، اضافة الى قوة أخرى يقودها ضابط روسى هو الملازم الكسندر " بولاتو فيتش" ، وقد علمت هذه الحملة بوجود قوة من الأفارقة يتراوح تعدادهم مابين أربعمائه ، وخمسمائه جندى ، يقودهم أربعة من الضباط الانجليز كانوا يبغون الوصول الى الضفة اليمنى للنيل الأبيض ولكن ما أن اقتربت منهم قوات ولد جرجس حتى فروا تاركين مؤنهم وذخائرهم غنيمة فى أيدى الأثيوبين ، وبعد ذلك استطاعت الحملة تحقيق الأهداف الموكلة اليها وهى احتلال الاراضى الواسعة الممتدة (٢) حول بحيرة رودلف من الشمال والشرق احتلالا عسكريا .

أما الحملة الأخيرة فكانت بقيادة " ماكونن" ، وقد نزلت فى النيل الازرق واستولت على تلال " بنى شنقول" الواقعة على الحدود بين السودان وأثيوبيا وعادت أدراجها فى ربيع عام ١٣٠٥ / ١٨٩٨م (٣) ، ورغم أن الحملات العسكرية الأخيرة يقوم بقيادتها أثيوبيون الا أن لفرنسا أصابع واضحة تحرك هذه الحملات الأثيوبية وتدربها ، ولكى تؤدى فى النهاية الى تحقيق أطماعها فى أعالى النيل .

---

(١) اهم عمل قام به (ليون دراجون) هو عمل خريطه لمناطق لم تكن معروفة سابقا وقدمها للامبراطور منليك
(٢) تلك الاراضى الواسعه قدرت مساحتها بحوالى ٤٠ الف كم .
(٣) محمد سيد محمد المشروعات مرجع سابق ص ١٠٧

ومن الوسائل التى لجأ اليها الفرنسيون لتحقيق هدفهم هواستمالة السودانيين الى جانبهم وذلك باستخدامهم أحد المغامرين النمساويين ويدعى "كارل انجر" (١) ليكون كحلقة اتصال بينه وبين السلطات السودانية فى أم درمان ، ولكن القى القبض عليه فى عام ١٣١٣هـ/١٨٩٦م من قبل الانجليز فى ميناء سواكن ، ووصف حينذاك بأنه جاسوس أوربى فى زى الدراويش، وقد قررت السلطات الانجليزية تسليمه لقنصلية النمسا فى القاهرة وحجزت له بدورها مكانا على احدى السفن النمساويه المسافرة الى تريستا (٢) .

ومما يجدر ذكره ان الامير الفرنسى (هنرى دورليان) قد انشأ شركة راسمالها مليون وثمانمائة ألف جنيه وكان القائمون عليها من العنصر البلجيكى ولكن مدو نفوذهم نحو السودان .

حادث فاشودة :

ان حادث فاشوده هى أحد نتائج الصراع التقليدى بين فرنسا وانجلترا ، فقد تقدمت فرنسا من جهة الشرق - سبق الاشارة اليه - ومن جهة الغرب ، على أن تلتقى هذه الحملات الفرنسية فى فاشوده لاحتلالها ووضع حد للنهم الاستعمارى الانجليزى فى افريقيا بصفة عامة وفى أعال النيل بصفة خاصة (٣).

---

(١) كارل انجر : هو نمساوى التحق بخدمة الجيش العثمانى ثم أرسل الى مصر، اعتنق الاسلام، واعتقد بصحة دعوى محمد احمد المعروف بالمهدى فى السودان، وقدعاش انجر فى أم درمان فى ظل الحكومة المهدية حيث بلغ أرفع المناصب وبات يعرف باسم الأمير سليمان انجر، عاد الى السودان ابان الحكم الثنائى، انظر محمد سيد، المشروعات، ص. ١١ .

(٢) محمد سيد محمد ، المرجع السابق ص، ص. ١١ .

(٣) عبر جلادستون وزير خارجية بريطانيا عن اطماع بلاده فى افريقيا بقوله : " ان مركزنا الاول فى مصر سيكون نواة للامبراطورية فى شمال افريقيا التى سوف تتسع حتى ترتبط عبر خط الاستواء بناتال وكيب تاون ، وهذا غير ترانسفال ونهر الأورنج فى الجنوب والحبشة وزنجبار مما سنبتلعه فى طريقنا " ، انظر جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ٢٤٩ .

وكانت فرنسا لسنين عدة تتمنى جلاء انجلترا عن مصر وعندما فشلت في هذا الأمر قررت الاندفاع الى أعالى النيل لترغم الحكومة الانجليزيه على الاتفاق بخصوص المسألةالمصرية ، حتى ولو كانت حصيلة ذلك الوصول الى حل وسط يمكن به ارضاء الرأى العام الفرنسى وتعزيته فى ضياع مصر من يد فرنسا (١) ، الا أنه حتى عام ١٣١٢/١٨٩٥ لم يلح فى الأفق أى بوادر اتفاق بين فرنسا وانجلترا ، بل ان فرص الاتفاق بين الجانبين باتت واهية للغاية.

لذا قررت الحكومة الفرنسية فى ١٣١٣/١٨٩٦ ارسال حملة الى أعالى النيل بقيادة أحد الضباط الفرنسيين يدعى مارشان ، الذى أصدر اليه وزير المستعمرات التعليمات المتعلقة بهذا الشأن ، وهو الوصول الى بحر الغزال ثم النيل الأبيض وفاشوده ، كما نصحه كسب المهديين والقبائل التى تقطن تلك المناطق المعنيه ، وعليه تجنب أى صدام مع قوات الخليفة أو مع الأهالى اذ أن الغرض هو رفع الراية الفرنسية على النيل ليتسنى استخدامها كورقة رابحة فى أى مفاوضات مقبلة مع الانجليز لاعادة النظر فى المسألة

= وفعلا قد تحقق لانجلترا ماتريد ، فبعد أزمة فاشودة أبرمت انجلترا مع فرنسا فى ١٣١٦/١٨٩٩ اتفاقا سويت بمقتضاه الحدود بين السودان وأفريقيا الاستوائية الفرنسية بحيث استبعدت فرنسا من حوض النيل كله ، ولكن ترك لها اقليم " ودّاى " والمنطقة من حدود دارفور شرقا الى بحيرة شاد فى الغرب ، وهكذا فقدت فرنسا أملها فى الوصول الى شاطىء النيل ، وامتداد ممتلكاتها من الصومال فى الشرق الى الكنغو فى الغرب ، بينما تحقق حلم انجلترا بتوصيل ممتلكاتها من جنوب أفريقيا الى شمالها - أنظر : على ابراهيم عبده مرجع سابق ، ص ١١٣ .

(١) انظر محمد سيد محمد ، ازمة فاشوده مرجع سابق ، ص ٥٠٢
وانظر ايضا على ابراهيم عبده ، مرجع سابق ، ص ١١٠ .

المصــــرية [١] .

وكانت حملة مارشان تضم ثمانية ضباط ومترجما وطبيبا واثنى عشر مـــن ضباط الصف ومائتى جندى سنغالى وسفينتين صغيرتين [٢]

وصل مارشان الى فاشوده عام ١٣١٥ / ١٨٩٨ ورفع العلم الفرنســـى على أنقاض القلعة المصرية هناك ،وهذا هو الأمر الذى كان يخشاه كرومـــر المعتمد الانجليزى فى مصر حقيقة ، لأنه موقف يرغمه على مغامرة عسكرية فـــى السودان ،وكان كرومر يراقب التحركات الفرنسية منذ زمن بعيد بعين الحذر وذلك منذ أن بدأت الأنباء تتواتر عن نجاح البعثات الفرنسية فى تقدمهـــا من جهة الغرب الأفريقى ، وأخبارها تنشر فى الصحف الفرنسية بلا مواراة ،وكلما سئل السفير الفرنسى فى لندن ،تارة ينكر ،ويتهرب من الاجابة تارة أخـــرى، حتى بدأت الأنباء تتأكد تدريجيا عن أطماع فرنسا البعيدة فى حوض النيـــل الى أن وصلت القوات الموالية لفرنسا الى فاشوده ،بعد أن أخضعت كل مديرية بحر الغزال للمحطات الفرنسية المسلحة ،وقسمت المنطقة الى ثلاث دوائـــر يديرها ضباط فرنسيون ، بل ان مارشان كتب يقول :" ان بحر الغزال بأكملـــه لم يعد يخص انجلترا الا بموافقة فرنسا أو بقرار من مؤتمر دولى" ، وبدأ كرومـــر ينظر للتهديد الفرنسى نظرة جدية ويؤكد أن حل الموضوع لن يتم فى القاهرة بل حله حقيقة يكمن فى مواجهة شاملة مع فرنسـا [٣] .

---

(١) انظر محمد سيد محمد ،ازمة فاشوده ، مرجع سابق ،ص ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

(٢) انظر محمد سيد محمد ،المرجع السابق ،ص ٥٠٥ .
وانظر ايضا على ابراهيم عبده ،مرجع سابق ،ص ١١٠ .

(٣) عصمت حسن زلفو، مرجع سابق ،ص ١٨٦ ، وانظر ايضا محمد سيد محمد ازمة فاشودة ،المرجع السابق ص ٥٠٦ .

وبعد أربعة أيام من انتصار الجنرال كتشنر على أنصار المهدى فى معركة أم درمان علم بوجود مارشان فى فاشوده ، وبذلك دخل النزاع الانجليزى الفرنسى مرحلة حاسمة ، هذا مايظهر لأى مراقب ومحلل لتحرك كل من الجانبين خاصة عندما تحرك كتشنر من أم درمان متجها الى الجنوب نحو فاشوده ، ولكن بعد ذلك أظهر مارشان نوعا من التراخى فى موقفه حيث أرسل رسالة الى كتشنر يهنأه فيه بانتصاره على أنصار المهدى ، وأوضح فى رسالته أيضا أنه مجرد منفذ لأوامر صادره من حكومته [1] ، ويبدو أنه يقصد بهذه العبارة أنه يستحسن أن يعطى فرصة للتشاور مع حكومته قبل الدخول فى مواجهة مع كتشنر ، الذى يبدو انه تفهم موقف مارشان ، وبأنه مجرد جندى لا يملك سوى اطاعة الأوامر.

المهم فى الأمر أن كتشنر ذكر لمارشان أن لديه أوامر من الحكومة "باعادة السلطة المصرية" [2] الى مديرية فاشوده ، وسأل مارشان عن مدى امكانية المساعدة فى تحقيق تنفيذ تلك الأوامر ، ونصحه كتشنر على أن يتريث قبل اتخاذ القرار فى هذا الشأن ، ولكن مارشان رد بما يفيد باعترافه بالتفوق العسكرى لكتشنر ، وهذا يعنى بجلاء أنه ليس من المعقول الدخول فى معركة مؤشرات عواقبها الوخيمة باتت ظاهرة ، وانتهى الاتفاق أخيرا على رفع الراية " الانجلو مصرية" على مسافة خمسمائة ياردة من الطرف الجنوبى للقلعة المصرية القديمة ، حيث يعد ذلك اختيارا ماكرا من كتشنر ، لأن ذلك يعد اعترافا ضمنيا من جانب مارشان بأحقية الحكم الثنائى فى أعالى النيل وبهذا فان الحل الدبلوماسى كان هو المنتصر أخيرا بعد أن بات من الواضح

---

(١) محمد سيد محمد ، ازمة فاشوده ، مرجع سابق ص٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ايضا انظر ضرار ، مرجع سابق ص ٢١٥ .

---

(٢) استخدم كتشنر عبارة " اعادة السلطة المصرية " فقط لذر الرماد فى العيون .

أن الحل العسكرى لم يكن ذا جدوى أو فائدة[١] .

بقى أن نقول أن لموضوع فاشوده أهمية كبيرة من الناحية الاستعمارية العامة ، ومن ناحية ارتباطه الوثيق بالمسألة المصرية ، ومسألة وادى النيل وأصبح اسم فاشوده ، هذه القرية الصغيرة على النيل الأبيض علما بين وقائع التاريخ العالمى المعاصر ، ورمزا لمنتهى ماوصلت اليه المنافسة الاستعمارية بين انجلترا وفرنسا ، ونهاية عملية حقيقية لموقف المعارضة القوية الذى وقفته فرنسا بازاء الاحتلال الانجليزى لمصر ، ولذا فموضوع فاشوده مهم من حيث التاريخ الدولى بصفة عامة ولكنه يهم أبناء وادى النيل بصفة خاصة ، لما كان له من أثر فى تقوية دعائم النفوذ الانجليزى فى هذا الوادى[٢] .

×× مما تجدر الاشارة اليه ان حياد المانيا ادى الى تقوية النفوذ البريطانى على الفرنسى

ولكن من ناحية أخرى تعد أزمة فاشوده بمثابة صورة ومثالا يبين مدى استخفاف الدول الاستعمارية بالشعوب الأخرى ، الأمر الذى جعلهم يستهونون الصراع فى أرض الاخرين من اجل امتلاكه ، وكأن لهم حقوقا مشروعة فيها تستدعى الصراع والنضال فى سبيل كسبها واستعادتها .

---

(١) محمد سيد محمد ، ازمة فاشوده ، ص ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ .

(٢) على ابراهيم عبده ، مرجع سابق ، ص ١١٢ . وانظر ايضا محمد فؤاد شكرى ، مصر والسودان ، مرجع سابق ، ص ٤٦٨

الاطمـاع الأثيوبيـة والايطاليـة :

اعتبرت الحبشه انهيار الحكم التركى المصرى فى السودان فرصـة ذهبية لتحقيق أطماعها التوسعيه على حساب السودان ، خاصة وان الاحباش منذ زمن بعيد يعتقدون أن كل أراضى النيل الازرق من حقهم لأنه ينبع من بلادهم (١)

وعلى هذا الاساس قامت الحبشة بشن هجمات على منطقة القلابـات حيث هزمت القوات السودانية وأحرقت المدينة واستولى الأحباش على مافيها وقتل قائد الحامية السودانية هناك ويدعى " محمد أرباب " ،وكانت تلـك الهجمات الاثيوبية بقيادة "راس عدأر" فى ١٣٠٤ / ١٨٨٧ ، ولكن الخليفة رد على هذا بأن طلب من ملك الحبشة " يوحنا " عدم الاعتداء على الحدود مرة أخرى كما طلب منه اعادة الغنائم والأسرى والدخول فى الاسلام والانخراط فـى سلك المهدية ، الا أن الملك يوحنا لم يعر لخطاب الخليفة اهتماما ،فما كان من الاخير الا أن سير جيشا بقيادة " حمدان أبو عنجه " والذى خلف "يونس الدكيم" الذى عين خلفا لمحمد أرباب الذى قتل فى معركة القلابات ولقـد بادر عبدالله التعاشى بارسال التعزيزات الى أبى عنجه الذى خرج من ثغـر القلابات فى ١٣٠٥ / ١٨٨٨ على رأس جيش كبير مقسم الى اربع فرق ، وبعـد مسيرة تسعة ايام اشتبك السودانيون مع "الرأس عدار" وفتحوا نيران بنادقهـم وبعد ساعة ارتد الأحباش بعد أن لحقت بهم خسائر فادحه وغنم أبو عنجـه

---

(١) محمد سيد محمد ، العلاقات السودانية الحبشية ، مجلة جامعة الملك عبدالعزيز، العدد الاول ١٣٩٥ / ١٩٧٥ ، ص ٢٠٩

وجيشه غنائم كثيرة (١) ، ثم استأنفوا الزحف بعد ذلك نحو عاصمة الحبشة القديمة "غندار" والتى سقطت أيضا فى يد أبى عنجه ، وقد أمّن أبو عنجه الأحباش المسلمين ويسمون " الجبرته " وكان من نتائج حملة ابى عنجه أن قبائل "الماكاد" التى تنتشر على الحدود الشمالية الغربية للحبشة اعتنقت الاسلام ، كما ان " تارس كاسا " ابن الامبراطور السابق ثيودور قد دخل الاسلام أيضا وعرض خدماته على السودانيين ليقاتل معهم ضد الاحباش والنجاشى التى انتزع عرش أبيه.

ورأى الملك يوحنا أن لا يسكت على تلك الهزيمة النكراء التى منى بها جيشه وقرر تسيير جيش جرار للرد على السودانيين وبدأ حمدان أبو عنجه فى عمليات الاستعداد لمواجهة الزحف الحبشى القادم الا أنه توفى قبل أن يكمل استعداداته ، وخلفه فى قيادة القوات السودانية فى تلك المنطقة "الزاكى طمل" الذى قاد الجيش نحو القلابات ، حيث التقى بالقوات الحبشية فى معركة يقودها الملك يوحنا نفسه ، ودارت معارك حامية بين الجانبين وكان النصر فى بداية المعركة حليف الأحباش لولا انشغالهم بجمع الغنائم والاسرى ، مما أتاح للزاكى طمل أن يعيد تنظيم صفوفه ، وشن عدة غارات بعد ذلك على الاحباش ، حقق فيها القوات السودانية انتصارا باهرا رغم قلة عددهم بالنسبة الى القوات الحبشية ، وقتل فى هذه المعركة الملك يوحنا نفسه واستولت القوات السودانية على جثته ، وانسحب السودانيون بعد ذلك دون ان يعززوا المناطق التى دخلوها داخل الحبشة (٢).

---

(١) انظر شبيكه ، تاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص٧١٨ ، ص٧١٩ ، وايضا : محمد سيد محمد ، العلاقات ، مرجع سابق ، ص٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ وايضا انظر : ضرار ، مرجع سابق ، ص ١٧٩ .

(٢) انظر محمد سيد محمد ، العلاقات ، مرجع سابق ص٢١٦ ، وانظر ايضا ضرار ، مرجع سابق ، ص ١٧٩ .

ويبدو أنهم لم يقدموا على تلك الخطوة لاعتبارهم أن الاحباش قد يرعووا نتيجة لتلك الهزيمة الساحقة ، وأنها كفيلة بجعلهم لا يفكرون في المبادأة بالعدوان مرة أخرى .

أما القوة الثانية التي واجهتها الدولة المهدية من ناحية الشرق فهي قوة الايطاليين ، فبعد اخلاء الادارة التركية المصرية لأملاكها في السودان وتبع ذلك سواحل البحر الاحمر ومصوع وزيلع وهرر ، وتمكن الايطاليون من الاستيلاء على مصوع بموافقة صديقتهم بريطانيا ، والتي صارت موطىء قدم لهم استطاعوا من بعدها التقدم الى داخل ارتريا وذلك منذ ١٣٠١ / ١٨٨٥م[1] .

لذا فان الخليفة عبد الله عندما شعر بخطورة الايطاليين ، قام بارسال قوة كبيرة تبلغ حوالي عشرة الاف مقاتل تحت قيادة" احمد على التعايشي" لبلوغ مقاطعة كرن وميناء مصوع في ارتريا ، فتصدت له قوة ايطالية بقيادة " أريموندي" عند " أجوردات " وانزلت بالسودانيين هزيمة كبرى وقتلت " احمد على التعايشي" وذلك في ١٣١٠ / ١٨٩٣ ، ثم صدرت الأوامر لجنرال ايطالي آخر يدعى" براتييرى" بالاستيلاء على كسلا ، حيث دخلها الايطاليون في ١٣١١ / ١٨٩٤ ، وهنا أدركت بريطانيا سوء تخطيطها السابق وهو اجبار الحكومة في مصر على تنفيذ خطة اخلاء السودان ، ذلك لأن قوات الحكومة المصرية اقدر على صد التقدم الايطالي في السودان من جيش الخليفة عبد الله وكانت تلك القوات بامكانها أن تسد تلك الثغور لانجلترا ريثما تتمكن من تثبيت اركانها الاستعمارية في مصر ، خاصة وأن التقدم الايطالي نحو السودان

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ، ص ١٩١

يهدد المصالح الانجليزية ايما تهديد ، ولكى توقف انجلترا اطماع ايطاليا عند حدها ، زحفت بقواتها نحو طوكر بعد أن تغلبت على قوات عثمان دقنه ، التي اصابها الانهاك نتيجة المجاعة وقد تم لانجلترا ذلك فى ١٣٠٨/ ١٨٩١ ولكن انجلترا عادت وسمحت لايطاليا باحتلال كسلا لحماية نفسها من الخليفه ، وذلك شريطة ان تكون لفترة موءقته [1] .

أطماع ليوبولد الثاني :

لما كان ليوبولد الثاني يعد ملكا لبلجيكا ،فكان من الصحيح أن تنسب أطماعه وأملاكه الى دولته بلجيكا وليس الى شخصه ، ولكن لان ليوبولد الثاني ممن غشيتهم حمى التوسع الاستعمارى الذى انتظم دول أوروبا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، فأسس فى ١٢٩٦/ ١٨٧٩ هيئة دولية لاستغلال موارد حوض الكنغو ، وليته وقف عند ذلك فحسب بل بذل جهدا كبير للحصول فى موءتمر برلين الذى انعقد فى ١٣٠٢/ ١٨٨٥ على الاعتراف بملكيته على تلك البلاد فصارت بذلك " ضيعة " تابعة له شخصيا [2] .

لذا فان اطماعه فى السودان تنسب اليه شخصيا أيضا وذلك عندما أراد توسيع رقعة ضيعته على حساب السودان ، وقد بدأت اطماع ليوبولد فى السودان منذ أن كان غردون مديرا للمديرية الاستوائية ١٢٩١/ ١٨٧٤ ولكنه لم يوفق فى ذلك الوقت لان الحكم التركى المصرى فى السودان كان يتمتع بنفوذ قوى فى تلك المناطق ،وما أن اجبرت انجلترا مصر على اخلاء السودان حتى أسفر

---

(١) شبيكه ،تتاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص٢٣٢ .
وانظر ايضا محمد سيد محمد ،العلاقات ، مرجع سابق ،ص ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) مصطلحه مأخوزه من محمد سيد محمد ،

ليوبولد عن أطماعه الاستعمارية فى تلك الارجاء ، وكان غردون هو الذى أشار على ليوبولد عام ١٢٩٦/١٨٧٩ ومهد له لادراك غاياته باتفاق وقعه فى ١٣٠٧/ مايو ١٨٩٠ مع الشركة الانجليزية لشرق أفريقيا [١] ، رضيت بمقتضاها الشركة ان تبسط نفوذ ليوبولد الثانى فى الضفه الغربية لبحر الجبل على امتداد الرقعة الواقعة بين بحيرة البرت ونيانزا جنوبا وفاشوده فى الشمال ، ثم انفذ ليوبولد حملات منظمة الى اعالى النيل ولكن جهوده للتوسع فى هذه الجهات لم تثمر فتراجع جنوده الى قواعدهم فى الكنغو فى أخريات عام ١٣١٠/١٨٩٣ [٢].

كما انتهز اعوان ليوبولد فى الكنغو فرصة نشوب خلافات بين بعض القبائل فى جنوب السودان مع انصار المهدى وبدأوا يستثمرونها فى تحقيق اطماعهم الاستعمارية ، ففى بحر الغزال عام ١٣١١/١٨٩٤ أرسل بعض أعوان ليوبولد الى منطقة " حفرة النحاس" بقيادة نلس "Niles" وقام نلس هذا بمكاتبة سلطان حفرة النحاس الذى كان على خلاف مع المهديين فقبل حماية ليوبولد ووعد بمساعدتهم فى استخراج النحاس وتعدينه واصابت حملة أخرى تابعة لليوبولد قصدت دار "الفيروغ" و"النجا نقلقول" نجاحا مماثلا حيث سمحوا للاهالى باللجوء الى أراضى الكنغو عندما سمعوا بخبر حملة يعدها أنصار المهدى للاغارة على بلادهم [٣] ، وذلك فقط لكسب ودهم ولاعلان حماية ليوبولد عليهم مستقبلا . وقد علم الخليفة عبد الله النقاشى بمطامع ليوبولد فى جنوب السودان فأرسل حملة يقودها " عربى دفع الله"

---

(١) سبق الاشارة اليها فى الفصل الرابع.

(٢) موسى المبارك ، مرجع سابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) موسى المبارك ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٩ .

اصطدمت بثمانى حاميات أنشأها اتباع ليوبولد وأجبرتها على الانسحاب الى الكنغو فى ١٢٧٠/١٨٩٣ ثم صد السودانيون تدخلا آخر لجيوش ليوبولد فى دار فور عن طريق عامل الحكومة هناك ويدعى محمود أحمد والذى أجبرهم على الانسحاب دون الدخول معهم فى معارك(١) .

هذا ومن الآثار السلبية لاخلاء السودان أن قادة الدولة المهدية لم يكونوا قادرين على بسط نفوذهم على الميراث الذى تركه لهم الحكم التركى المصرى من بلاد ومناطق كان الحكم السابق يحميها ويوليها اهتمامه ، فمثلا لقد اضطرب المسوءولون فى الدولة المهدية فى غرب السودان عند تلقيهم أنباء مفادها تدخل من أسماهم أنصار المهدى" بالنصارى" فى بحر الغزال اضطرابا شديدا ،وظل عامل الخليفة فى غرب السودان محمود أحمد لعامين كاملين فى حيرة من أمره وما ذاك الا برهان صادق على ضعف صلة أنصار المهدى ببحر الغزال ،وقصور جهاز مخابراتهم عن كشف مايجرى على حدودهم واجلاء حقائق تمس كيان دولتهم مسا مباشرا(٢) .

وكان من ميزات الحكم التركى المصرى فى السودان ،أن بذل جهدا فى تخفيف حدة التعصب القبلى الذى كان سائدا قبل عام ١٢٣٦/١٨٢٠م ، ولكن الشعور بالعزة والتمسك بكل مظاهر التعصب القبلى قد تضاعف عقب اخلاء السودان وانهيار الادارة التركية المصرية ، فخلا الجو لقبائلها جميعا وخاصة فى غرب وجنوب السودان كى تدعى كل منها استقلالها ،وللقوى منها كى يبنى مجدا على حساب ضعيفها فعادت الحياة فى تلك المناطق سيرتها

---

(١) ضرار مرجع سابق ،ص ١٩٠

(٢) موسى المبارك ، مرجع سابق ،ص ٢١٠

الأولى ، حروب قبلية وصراع دائم (١) .

ومن ميزات ذلك الحكم أيضا أن اعطى السودانيين مفهوما بأنهم والاهالي في مصر كلهم أمة واحدة وبامكانهم بل من الواجب أن يعيشوا تحت ظل نظام سياسي موحد ، الا أنه بعد الاخلاء بثلاثة عشر عاما تمكن الانجليز من اجتياح السودان وبدوءا في محاولات لقطع كل صلة للسودان بمصر ، بل حاولوا القضاء على كل دعائم الوحدة والاخاء بين مصر والسودان التي أرسيت من قبل .

لقد استمر نجاح الاستعمار الانجليزى بعد ذلك في تركيز ايقاف الانصهار بين البلدين وجعلت السودانيين يلتفون حول طوائف دينية ، ليعودا بذلك الى حالة الحوصلة والمحدودية من جديد ،كما شجعهم على رفع شعار " السودان للسودانيين " الذى كان محتواه الفعلي تجسيدا قويا لسياسة الحكم الانجليزى في الانفراد بحكم السودان و قطع الصلة بينه وبين مصر سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي .

---

(١) انظر بونا ملوال ، مرجع سابق ، ص ٢١ وايضا موسى المبارك المرجع نفسه ص ٢٠٧

الباب الثاني

الآثار الاجتماعية

الفصل الأول

الأوضاع القبلية

الوضع القبلي في السودان قبل الحكم التركي المصري

ان المجتمع السوداني مجتمع قبلي بطبعه ،فكانت كل منطقة أومشيخه تضم مجموعة أو اكثر من القبائل لكل قبيلة شيخ أو زغيم يدين له أفرادها بالولاء والطاعة ويجمع في يده كافة السلطات الدينية والزمنية التي يقوم بتنفيذها طبقا للتقاليد الموروثة للقبيلة ،والزعيم القبلي قد يدين بدوره بالولاء لزعيما لدار أو المشيخة ،وكانت لكل قبيلة حدودها ، ولكنها في الغالب تتفق في عاداتها وتقاليدها ،ونشاطهاتها الاقتصادية (١)

فعلى سبيل المثال نجد على جانبي النيل في الشمال مجموعة من القبائل المستقرة ، كمجموعة القبائل النوبية ، وهي الكنوز والسكوت والمحس والدناقله ،والشلاليون ، وهؤلاء يتحدثون اللغة النوبية القديمة احدى اللغات الحامية في السودان (٢) ، ثم يليهم جنوبا الشايقية (٣) والجعليون (٤).

---

(١) انظر ، محمد احمد الجابري ، في شأن الله ، القاهرة ، دار الفكر العربي بدون تاريخ ،ص٢٢ ،انظر ايضا نسيم مقار ، مرجع سابق ص ٢٨ .

(٢) عبد المجيد عابدين ، مرجع سابق ،ص ١٤ .

(٣) ينتسبون الى شايق ،وهو أخو غانم جد الجعليين ،وهم ينحدرون من أصول عربية ،وتمتد أوطانهم على ضفتي النيل من نهاية الشلال الرابع الى مصب وادى الملك ،في مسافة تزيد على مائتي من الكليو مترات ،وفي نهاية اوطانهم في الجنوب يلتوى النهر مرة أخرى ،لكي يستأنف اتجاهه نحو الشمال ،انظر ، محمد عوض محمد ، مرجع سابق ،ص ١٨١ .

(٤) ينتمي الجعليون الى "ابراهيم " جدهم الأكبر الذى ينتمي الى العباس ، وهم أيضا لهم أصول عربية ويعيشون على جانبي النيل شمال الخرطوم كما يعيشون أيضا في المنطقة بين نهر العطبره وخانق السبلوقة ومركزهم بلدة شندى ، أنظر محمد عوض محمد ، مرجع سابق ،ص١٤

أما المنطقة المحصورة بين نهر العطبرة والنيل الأزرق والتى تعرف باسم "البطانة" فتنزل فيها الشكريه أهم القبائل التى تقطن هذه المنطقة ، وفى شرق السودان تقطن قبائل البجه[١] وينقسم البجه الى أربعة أقسام رئيسية : البشاريون فى الشمال والأمرأر فى الجنوب وبينهم الهدندوه ، وهم أكثر عددا ، وجماعة بنى عامر فى الجنوب الشرقى والأخيرون بصفة استثنائية يتكلمون لغة سامية تختلف عن لغة باقى جماعات البجه.[٢]

وفى غرب السودان " كردفان ودارفور" تقطنها قبائل عربيةوغير عربية ، فالقبائل العربية اندمجت فى هذا الاقليم بعناصره غير العربية وكيفت نفسها فى الجانب المعيشى حيث اضطرت الى اقتناء الماشيه عندما عجزت الأبل عن التأقلم مع طبيعة الاقليم[٣] وصارت تلك القبائل تعرف بالبقارة وأهمها الرزيقات والهبانية والتعايشه والكبابيش والبنى هلبه [٤] .

أما فى جنوب السودان فأهم القبائل فيها هم الشلك والدينكا ، يسكنون على جانبى النيل الأبيض جنوب مدينة الدويم الا أنهم تراجعوا جنوبا بفعل ضغط العرب عليهم وأصبحوا محصوريين فى الأراضى الواقعة بين الطرف الشرقى لجبال النوبا وبين النيل الأبيض ، أما قبيلة الدينكا فأفرادها متناثرون فى مجموعات قبلية كثيره على الشاطىء الشرقى للنيل الأبيض شمال نهر السوباط وبين المجارى المتعددة التى تتحد معا مكونة بحرالغزال الفرع الغربى الرئيسى للنيل [٥] .

---

(١) هولت ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

(٢) عبد المجيد عابدين ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٣) هولت ، مرجع سابق ، ص ١٣ .

(٤) القبائل غير العربية فى جنوب دار فور سبق الاشارة اليهافى التمهيد ، عند الحديث عن سلطنة دار فور.

(٥) هولت ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

ونعتبر هذا العرض نموذجا للأساس القبلي ووضعه السائد في السودان ولكن للحكم التركي المصري بعد ضمه للسودان دور وتأثير واضح على ذلك الوضع القبلي من حيث تغيير أساسه .

فإن الأساس القبلي في السودان قد تعدل وذلك بفعل عدة عوامل :

العامل الأول :

هو عامل الفتح نفسه ، فان تحركات جيش اسماعيل بن محمد علي قد أحدث الفزع في قلوب كثير من الأهالي في الشمال وهرب نتيجة لذلك الكثير منهم واتجهوا الى حيث يظنون أن به الأمان ولكن اسماعيل كان يؤمّن كل من يطيع ولا يبدي مقاومة فقد " حاصر الشايقية ببلادهم وظفر بهم ،فمن أطاع أعطاه الأمان ،ومن نفر استقر ببلاد "الأبواب" الى حين قدومه السعيد ، فقابلوه وأمنهم " (١) الا أنه عندما عاد من رحلته ـ التي انتهت ببلوغه الى فازغولي بعد أن قضى على السلطة السنارية ـ الى شندي وهناك تآمر عليه المك نمر وقتله " فما كان من أمر دفتر دار بيك (والذي يقيم) بالأبيض فلما تحقق له ذلك الخبر تحرك من كردوفان وأخذ معه من العساكر وفور(٢) والشيخ محمد لوتان والجِمِعْ (٣) و توجه بهم الى نواحي الأبواب ، ولما

---

(١) أحمد الحاج أبو علي ،مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية ـ تحقيق الشاطر بصيلي ، القاهرة : دار احياء الكتب العربية ، بدون تاريخ ، ص ٨٧ .

(٢) فور : أهل دار فور ،هامش كاتب الشونه ،ص ٩٢ .

(٣) الجِمِعْ : هي قبيلة تمثل احدى مجموعات الجعليين ويقطنون جنوب مناطق الكواهلة ، والجميعاب ، نسبة الى الجمع، أنظر محمد عوض محمد ، مرجع سابق ص ١٩٧ .

جاوز دار الجمعيعاب وضع يده بالقتل والخراب ،وخرب تلك المداين وعدم فيها القاطن والساكن" (١) .

بالطبع فان انتقاما بهذا الشكل يجعل استقرار السكان أمرا مستحيلا فهرب الجعليون وتفرقوا أيدى سبأ فى أنحاء السودان فاتجه بعضهم بقيادة المك نمر نحو الشرق قاصدين الحبشة التى استقر بها ومن معه من الهاربين وأطلقوا على المنطقة التى استقروا فيها اسم " المتمه " تيمنا بحاضرتهم " المتمه " بالقرب من شندى ، كما اتجه البعض الاخر بقيادة الملك المساعد نحو الصعيد ، " ثم فى سنة ١٢٣٩-(١٨٢٣) توجه دفتر داربيك ولحق بالملك المساعد بين الدندر والرهد بمحل يقال له " مكدور" فقتلهم مقتلة عظيمة بذلك المحل ،وأسر رجالا ونساء وفرقهم بالجزيرة" (٢) وقد استقرت أعداد كبيرة منهم هناك وأطلق بعضهم على المكان الذى استقروا فيه اسم المتمة (٣) أيضا تيمنا بحاضرتهم المتمه التى خربها دفتردار.

ثم جاء بعد دفتر دار،عثمان بيك ،والذى استمر فى ممارسة العقاب الصارم الذى بدأه سلفه دفتردار ،وكان عثمان بيك قد " نزل بواد مدنى وأزعج فيها البلاد وضافت (الأحوال) على العباد ،وفرقوا عليهم المطلوب وخرجت الحوالة (انكشف الحال) واشتد الكرب،وأحاطوا الحلالات (٤) وخلصوا

---

(١) انظر كاتب الشونه ،مصدر سابق ،ص ٩٢ .

(٢) انظر كاتب الشونه نفس المصدر ،ص ٩٤ .

(٣) تقع قرية المتمة الأخيرة شرق مدينة " الكاملين " والتى تقع على النيل الأزرق جنوب الخرطوم العاصمة .

(٤) الحلالات : جمع حِلّه وتعنى فى اللهجه السودانية " القرية" وتجمع " حَلاَّل" أيضا .

المطلوب ، وظهر الجمرك [١] ، وظهر فيها الغلاء الشديد ،وعلة الجدرى وعما في البلاد شرقا وغربا ،وهربت الناس الى نحو القطارف (القضارف) فلحقهم ابراهيم أفندى فقتلهم مقتلة عظيمة ،ولما كثر فيهم القتل طلبوا الأمان ، فجعلوا يجمعونهم حلقا حلقا ويقتلونهم ،وتشتت العباد فى تلك الأيام من البلاد" [٢] .

العامل الثاني :

اذا كانت أحداث الثأر والانتقام السالفة الذكر قد أدت الى زعزعة استقرار القبائل ،فانه من جهه أخرى قد أدى الفتح التركى المصرى وما ترتب عليه -فيما بعد- من ربط مناطق السودان بعضها ببعض واستقرار الأمن فيه الى تشجيع هجرة الشماليين [٣] فى اتجاه الخرطوم والجنوب والغرب .

وقد عزا البعض هجرة قبائل الشمال مثل المحس والدناقلة والشايقية والجعليين من النيل فى اتجاه الجنوب والغرب ،الى أن قدرة الشريط الأرضى الصالح للزراعة حول النيل على استيعاب الزيادة البشرية كان قاصرا ومحدودا [٤] ، ولكن فى ظنى أن ذلك لميكن سببا من أسباب هجرة قبائل الشمال ، ففى مصر مثلا ،نجد هنالك الزيادة البشرية بمعنى الكلمة ومعظم سكان مصر يسكنون على جانبى النيل ،ومازال شريطهم الأرضى الصالح للزراعة مستوعبا لتلك الزيادة البشرية المضطردة ولم يكن ذلك سببا

---

(١) " ظهر الجمرك" يبدو أنه يقصد بذلك أن جمعت منهم ضرائب عالية مع الغلظة فى جمعها .

(٢) كاتب الشونه ، مصدر سابق ،ص٩٧ .

(٣) هولت ، مرجع سابق ،ص ١٦

(٤) هولت ، المرجع السابق نفسه ص ١٥ .

لهجرتهم ، ناهيك عن قبائل الشمال الذين لا يمكن أن نقارن كثافتهم على النيل بكثافة سكان مصر، اضافة الى أن حرفة الزراعة عند قبائل شمال السودان ليست منتشرة كالتي في مصر، في ذلك الوقت من حيث تعدد أنواع المحاصيل ، وأيضا تعدد الأساليب والطرق الزراعية والري ، مما يساعد على التوسع في النشاط الزراعي .

ولكن السبب الراجح في هجرتهم هو ما ذكر آنفا من أمن واستقرار وفتح للطرق ، مما فتح الافاق أمام قبائل الشمال الى طرق أبواب جديدة تدر دخلا أكبر، الا أنه صحيح ما ذكر أن هجرة قبائل الشمال قد بدأت قبل الحكم التركي المصري ، ولكن هجراتهم آنذاك كانت نادرة ، بل كان أمر يكتنفه المخاوف ويعتبر من المخاطر التي لا يقدر عليها الا المغامرون ، أما ما بعد مجيء الحكم التركي المصري فقد زادت هذه الهجرة بسبب ماقدمه الحكم التركي المصري من اصلاحات يسرت عملية الهجرة أو بالأحرى شجعت عليها ، فحدث نتيجة لذلك أن تنقل الجعليون كصغار تجار في جميع أنحاء السودان ووجدوا خير ما أتيح لهم من فرص الكسب في العمل كوسطاء في تجارة الرقيق وذلك في مناطق الاتصال بين القبائل العربية وغير العربية وعلى وجه الخصوص في كردفان ودارفور وبرز من بين رجال هذه القبيلة اثنان دارت حولهما كثير من أحداث غرب السودان في الأيام التي سبقت المهدية أو عاصرت ظهورها هما الزبير باشا رحمه ملك بحر الغزال غير المتوج وفاتح دارفور ، والياس باشا أم برير الذي عمل لفترة كحاكم لكردفان ، وتولى تدبير المؤامرات ضد الحكم التركي المصري ، وقد استقر كثير من هؤلاء الشماليين نهائيا في المناطق التي نزحوا اليها كما تبعهم من جاء بعدهم من سلالتهم الذين احتفظوا في شتى ربوع ذلك المحيط الواسع من المتخلفين

المقيمين فى الغرب والجنوب بذكرى أصولهم القبلية التى كانت موضعا لفخرهم [1] كما أدت أيضا الاصلاحات التى قام بها الحكم التركى المصرى وانشاء المدن ودارا لصناعة السفن بالخرطوم وجلب لها المواد والفنيين الى تشجيع هجرة الشماليين فأسس بعضهم بيوتا تجارية ناجحة فى الخرطوم وشاركوا فى تجارة الرقيق ،كما عمل بعضهم كجنود لحساب تجار النيل الابيض وبحر الغزال . أما صناع السفن من الدناقلة - كما هو الحال بالنسبة لوالد محمد احمد المعروف بالمهدى - فقد اتجهوا الى الخرطوم ومايليها جنوبا واتخذوا لهم مكانا على شاطئ النيل حيثما أمكن الغابات أن تمدهم بالثروة الخشبية اللازمة لصناعتهم ،وعمل كثير من الدناقلة على المراكب والزوارق التجارية كبحارة وعمال [2] .

أما فى جانب انشاء الحكم التركى المصرى للمدن ،وما أسبغ عليها من هيبة سياسية وعمرانية مما جذبت الأهالى فقد صارت هذه المدن بمثابة عامل آخر لتحريك الأساس القبلى ، حيث انصهروا مع بقية السكان ،ومن الطبيعى أن يكون اختلاط السكان اكثر تطورا فى المدن وخاصة فى الخرطوم .

وعلى العكس فى مدن الأقاليم والقرى الكبيرة كانت العناصر ذات الأصول القبلية المختلفة تميل الى العيش مستقلة عن غيرها و لم تبد ميلا للاندماج فى كيانات موحدة [3] ، أو التداخل والانصهار مع غيرها من القبائل والأمم .

---

(١) هولست ،مرجع سابق ،ص ١٦ .

(٢) هولست ،نفس المرجع والصفحة .

(٣) هولست ،نفس المرجع ، ص ١٩ .

العامـــل الثالـــث :

هو طمع محمد على فى الحصول على أعداد غير محدودة من الرقيــق لتدريبهم وضمهم للجيش الجديد الذى رغب فى اعداده فى مصر، وبذلك يكون قد انتقلت تلك الجموع الغفيرة من الرقيق من أفراد القبائل فى جنوب كردفان وجنوب السودان الى مصر، ورغم أن هذه تعتبر هجرة اجبارية، الا أن عمليات قنص الرقيق نفسها قد كانت أحد الأسباب الرئيسية فى زعزعة الأوضاع القبلية فى السودان، اذ أنها تتم بواسطة الاغارة المنظمة على مجموعات القبائـــل، والتى تصاب نتيجة لذلك بالفزع فتضطر تلك المجموعات الى ترك قراهـــا وأماكنها وتهاجر الى الأماكن التى تعتقد فى أمنها وصعوبة وصول تجار الرقيق اليها.

أما العامـــل الرابـــع :

فهو الضرائب ، ويبدو أن مقادير الضرائب التى كانت تؤخذ مـــن الأهالى كانت أكثر من طاقتهم ، كما يبدو أنهم كانوا يشتكون مرّ الشكوى مـــن كثرتها وكان الجنود وجامعوا الضرائب يعتبرون تلك الشكاوى مجرد ادعاءات وأن الأهالى قادرون على دفعها ، هذا اضافة الى الأساليب غير الكريمـــة التى يستخدمونها فى جمع الضرائب ، كل هذا يجعل من الصعب علـــى القبائل الانتظار والصمود فى مواجهة جمع الضرائب الباهظة بتلك الصـــورة فتضطر الى الهجرة والفرار، والحكومة من جانبها مكلفة بجمع مقادير من المال حددتها لها السلطة فى القاهرة، لهذا بات لزاما عليها تتبع الفارين مـــن وجه الضرائب ، وقد انتهز بعض الفارين حالة بعض الأراضى الواقعة فى شـــرق

السودان والتى لم تكن عليها سيادة فعليه وهى أراضى الهدندوه والحلنقا والبنى عامر[1] وماحول سواكن ، حيث فرّ الناس من الضرائب الى تلك المناطق ، فرأت الحكمدارية أن تلاحقهم هناك ، ولضم تلك المناطق فى نفس الوقت ، وساعد فى ذلك أن الاستعدادات الحربية أصبحت متوفرة مع توقف المناوشات المصرية الحبشية ، لذلك بدأ الحكمدار أحمد باشا أبو ودان فى غزو أراضى الهدندوه والحلنقا وهى التى كانت تسمى التاكا[2] ، وقد شهدت أراضى القاش نتيجة لذلك مواقع حامية بين الهدندوه وجيش الحكومة وانتهت بخسائر من الطرفين ، لكن فعل الرصاص كان أقوى من فعل سيوف الهدندوه ورماحهم ، ولم يجد زعيم الهدندوه " محمد دين " بداً من الاستسلام آخر الأمر وهو ينوى أن ينقض على الغاصبين فى أول فرصة ، وطلب منه أبو ودان أن يدفع ضرائب ثقيلة فاعتذر ، فأمسكه رهينة لديه حتى لا تتكرر هجمات الهدندوه على جنوده ، لكن ذلك لم يثنهم عن الخروج عليه والاستمرار فى مهاجمته حتى اضطر الى أن يعقد معهم صلحا مكتفيا منهم بضرائب اسمية ، وعاد آخر الأمر الى الخرطوم يحمل معه محمد دين حيث توفى هناك ـ وجعل أبو ودان حامية مصرية فى منطقة كسلا وبذلك تمكن من السيطرة على كل من قبائل الهدندوة والحلنقا[3] .

وقد نشبت الثورة المهدية فى شمال وشرق السودان لأسباب تختلف

---

(١) الهدندوه والحلنقا والبنى عامر ، من قبائل البجه ، ومواطنهم شرق السودان ، لمزيد من التفاصيل ، انظر محمد عوض محمد ، مرجع سابق ص ٣٨ الى ص ١٢٥ .

(٢) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .

(٣) ضرار المرجع نفسه ص ٥٩ .

عن بقية جهات السودان الأخرى ، ففى شرق السودان انضمت قبائل الهدندوة لعثمان دقنه حبا فى التخلص من دفع الضرائب ، وايضا فى دارفور فان شيخ الرزيقات "مادبو على" قد تمرد على الحكومة واستجاب البقارة عموما والرزيقات بصفة خاصة لدعوته بالخروج على الادارة التركية المصرية فى السودان بسبب عزله عن رئاسة الرزيقات وطمعا فى التخلص من الضرائب[1] .

فالضرائب الباهظة وطريقة جمعها كانا اذاً سببا فى زعزعة استقرار السكان وكانا سببا ايضا فى فقدان الحكومة لولاء كثيرمن القبائل السودانية حتى انه لم يكفها زوال الحكومة التركية المصرية ، فان الأهالى فى ظل المهدية كانت تتوقع تحقيقا لمطالبها والتى من أجلها شاركت فى قيام الثورة ، والتى من بينها الخلاص من الضرائب الباهظة ، والقسوة فى طريقة جبايتها وكانت بعض القبائل تسعى الى نوع من الاستقلال الذاتى والحرية المطلقة فى ادارة شئون قبيلتها على النحو الذى أُلفته أيام سلطنة سنار أو سلطنة الفور ، والشاهد الغاء الضريبة وحل الزكاة مكانها وحل أمناء بيت المال محل جباة الضرائب ، وحل الجهادية محل الباشبوزوق بالاضافة الى تكاليف أخرى مثل الهجرة والجهاد ، ولجأت حكومة المهدية الى أساليب مركزية أقوى مما كانت عليه أيام الحكم التركى المصرى وهذا يعنى أن السخط العام عاد مرة أخرى فى صورة أخرى ، ولكن هذه المرة ضد سلطة جديدة قوية تستطيع القيام بمصادرة الأموال وتنفيذ الهجرة الجماعية والاخضاع بالقوة المسلحة ، ولم يكن للانتفاضات التى قامت ضد دولة المهدية قيادة موحدة تجمع شتات قوتها ، وانما كانت انتفاضات فردية لم تستطع الصمود أمام حزم وقوة حكومة الخليفه عبد الله[2] ، وهذا دليل واضح ان الحكم التركى المصرى فى هذا الجانب

---

(١) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(٢) محمد محجوب مالك ، نفس المرجع ، ص ٤٣ .

كان أكثر لينا من حكومة المهديه ، فقد كان الحكم التركى المصرى فيما يبدو يدرس عواقب المواجهة مع الأهالى قبل الشروع فيه بينما كان حكم المهدية تضرب معارضيها بدون هوادة ، كما أن الحكم التركى المصرى كان لا يخسر القبائل الموالية له بل يحاول كسبها بقدر الامكان بينما كانت الحكومة المهدية تواجهها بكل بساطة وتقتل زعماءها ولو كانوا من أوائل المشاركين فى تأسيس الحركة المهدية . أود أن أشير إلى ان هذا النوع من التردى السياسى جاء فى عهد الخليفة عبدالله التعايشى .

تأثير الحكم التركى المصرى على ولاء القبائل

عندما دفع الحكم التركى المصرى بقواته لضم السودان كان واثقا من أن أى قوة سودانية لاتستطيع من أن تمنعه من تحقيق ذلك ولكن مع هذا كله كان لابد من اتباع عدة وسائل لكسب ولاء الأهالى المتمثلين فى القبائل وزعمائها وليجعل لنظام حكمه دعائم وركائز فمن بين تلك الوسائل :

١) التجنيد :

ان الجيش التركى المصرى كان أكثر توفيقا فى كسب ولاء المجندين السودانيين والاحتفاظ به وكان معظمهم من نوعين : الجنوبيين والنوباويين وهم عادة من سلالة الرقيق الذين انخرطوا فى سلك الجهادية ثم الشايقية غير النظاميين . وقد حل الأخيرون ، الى حد كبير مكان الجنود غير النظاميين الذين جاءوا من الخارج للسودان خلال فترة الفتح ، وعندما تطورت أزمة المهدية أبدى الجنود من كلا الفريقين اخلاصا كبيرا لحكومة الخديو فى الوقت الذى كان فيه بقاوءها فى السلطة ميوءسا منه ، ومن ذلك قيام الجهادية بثورة فى الأبيض خلال فترة متأخرة أثناء حكم الخليفة عبد الله [١]

---

(١) هولت ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

ولكن ما الذى جعل قبيلة الشايقية بالذات تعبر عن ولائها للحكومة بالانخراط فى سلك قواتها ؟ .

أولا : ان للشايقية نزعة حربية متأصلة ، وكانت لا يهدأ لها بال ان لم تدخل فى حرب مع أى قبيلة ، وقد أرهقت قبائل النوبة والدناقلة بكثرة مناوشاتها واعتداءاتها ، ولم يستريحوا من شرورها الا باستلام الحكم التركى المصرى لزمام الأمور فى البلاد السودانية ، كما أن اسماعيل قد عجز كلية فى القضاء على النزعة الحربية للشايقية وذلك بعد محاولات يائسه قام بها فى هذا السبيل لتحويلهم من شعب محارب الى شعب مزارع يفلح الأرض، وأخيرا رأى اسماعيل أنه من الأجدى أن يستغل هذه النزعة فى خدمة أغراضه العسكرية فى اتمام فتح السودان ، وذلك بأن الحق الكثير من فرسانهم بجيش الحملة(١) .

ثانيا : ان الشايقية وان قبلوا هزيمة اسماعيل باشا لهم الا أنهم لم يتحملوا نتائجها ، فيعيشون عيشة الهدوء والسلم ، يزرعون ويحصدون ، فقد كانوا من قبل يسخرون النوبه الذين يعيشون فى بلادهم والرقيق لزراعة الارض فكيف يرتضون أن يمارسوا حرفة كانوا يزدرونها بالامس؟ لهذا لم يلبثوا أن حولوا هزيمتهم الى وسيلة يتذرعون بها لممارسة حرفتهم المفضلة وهى حرفة القتال والحرب، فانضموا ليحاربوا فى صفوف جيش اسماعيل ، وقد افادهم هذا الوضع المتميز فى الحصول على أراضى زراعية بالقرب من مصب النيل الأزرق وحول خانق السبلوقة فأصبح لهم وطن جديد هو " حلفاية الملوك " والجهات التى تليها

---

(١) نسيم مقار ، رحله واد نجنتون فى السودان "١٨٢٠-١٨٢١" عرض وتحليل ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد ١٤ ، ١٣٨٨/١٩٦٨ ص ٢٤٨

فى الشمال وصاروا بذلك من أكثر العناصر السودانية اخلاصا للحكومة ، ومن أهم العناصر التى يمكن الاعتماد عليها فى المحافظة على الأمن وجمع الضرائب ، وهذا العمل الأخير أكسبهم سخط الأهالى وعداء القبائل الأخرى ، وظل الشايقيون على ولائهم للحكومة لم يتزحزحوا عنه حتى فى عصر المهدية ، وبعد سقوط الخرطوم فى يد أنصار المهدى ، صدر الامر بالعفو عن جميع القبائل ولكن لم يشمل هذا العفو الشايقية[1] .

ثالثا : يبدو أيضا ان للشايقية اضافة الى نزعة الحرب ، نزعة التعالى والشعور بأنها قبيلة لاتقبل أن تكون صغيرة ومغمورة لا أثر لها على المجتمع ولا على السياسة ، وتخشى أن تسبقها فى هذا المجال القبائل الأخرى - لاسيما التى كانت الشايقية تشن عليها الغارات قبل الحكم التركى المصرى - ولا تنال الحظوة عند الوضع الجديد ، ويكون بذلك قد اصبح دورها هامشيا فى ظل الحكم التركى المصرى .

ويبدو مما سبق أن التجنيد كانت رغبة أولى عند الشايقية الا أن الحكم التركى المصرى أيضا قد أفلح فى جعله وسيلة استقطاب وكسب لولاء قبيله لها شأنها بين القبائل .

٢) التجـــارة :

ان من بين الوسائل التى اتخذها الحكم التركى المصرى لكسب ولاء القبائل كانت الوسائل التجارية ، فلما كانت الحملة فى تحركها لضم

---

(١) محمد عوض محمد ، مرجع سابق ، ص ١٨٧ .

السودان تستخدم القوافل ، فقد أمد الكبابيش[١] فى البداية جيش الدفتردار بما احتاج اليه من جمال لنقل العتاد والمؤن من " الديه " الى غرب السودان ، وكانوا هم خير دليل له فى تحديد معسكراته فى أماكن الأبار القليلة الموجودة فى تلك الصحراء ، واستأجر الدفتردار جمالهم لحمل سلاحه ومؤنه[٢] .

وقد استفادت قبيلة الكبابيش أكثر من غيرها من قبائل كردفان باستتباب الأمن الذى أوجدته الادارة التركية المصرية فى السودان لذا نجدها من أهم القبائل التى عارضت حركة المهدية ، حيث لم يكن " التوم ود فضل الله سالم " زعيم الكبابيش متحمسا لدعوة المهدية ولم يبادر بالهجرة الى المهدى ، وكل ذلك نتيجة لما لمشايخ الكبابيش من صلات ودية مع الادارة التركية المصرية فى السودان وليس ذلك فحسب بل كانت لهم علاقات شخصية مع الخديو فى مصر[٣] ، ولكن يبدو أنهم عندما اشتد

---

(١) الكبابيش ، هى من أعظم قبائل السودان وأشهرها ، فهى أعظم قبائل الابالة واكثرها عددا ، ومواطن الكبابيش محورها وادى الملك ، وكلها واقعة شمال خط عرض ٤ ١٩ ، والحدود الجنوبيه مقاربة لهذا الخط وليس لها فى الشمال حدود واضحة سوى الصحراء الليبية ، ومن الناحية الغربية يقترب الكبابيش فى تجوالهم من حدود دارفور ، وفى الشرق قد يسقون ابلهم من وادى المقدم فى وقت الجفاف "الشتاء" وقد يصل عدد منهم الى النيل فى اقليم دنقلة ، وهنالك شواهد تدل على أن هذه القبيلة تتألف فى الواقع من عدة قبائل اندمجت على مدى القرون واتحدت ، ومن الجائز ان هذا الاندماج قد حدث نتيجة لتفوق بعض القبائل فى الثروة والعدد فاستطاعت بواسطة الغزو أو المصاهرة أن توحد الأجزاء وتجعلها كلا متحدا ـ انظر محمد عوض محمد ، مرجع سابق ، ص ٢٤١ .

(٢) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٣٥

(٣) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ، ص ٢٣٦ .

الضغط عليهم من جانب أنصار المهدى أظهر الكبابيش خضوعا للمهدى ولكنهم كانوا يبطنون العداء ، ونفذوا أوامر محمد أحمد فى أعادة الأشياء المنهوبة من قبيلة جهينة ووفد على المهدى التوم ود فضل الله تائبا عما ظهر من قومه وهناك من ذكر بأن محمد أحمد علم قبل وصول حملة هكس أن التوم انسلخ عن المهدية وكاتب غردون وأرسل اليه هدية نحو ألف جمل ، كما يقال بأن الكبابيش قد ساعدوا حملة الانقاذ التى أرسلت فى ١٣٠١ / ١٨٨٤ لانقاذ غردون باشا (١)

ولكن اخلاص الكبابيش لمصر كان مستمرا فقد تمردوا على الخليفه عبد الله ، وقد كان تمردهم خطيرا ، وكلف الخليفه عبد الله الكثير من الجهد ، لأن مواقعهم التى كانوا فيها بعيدة ومهمة فهى تجمع لمديريات دنقلا ودار فور والخرطوم ولديهم منفذ الى مصر ، وبالقضاء على تمردهم تنفس الخليفه عبد الله الصعداء (٢)

ومثل قبيلة الكبابيش كذلك نجد قبيلة العبابدة (٣) ، فهاتان القبيلتان لهما مصالح اقتصادية مع مصر وكانت كل صادرات السودان ووارداته من و الى مصر تنقل بواسطة جمال هاتين القبيلتين ، فينقل الكبابيش البضائع الى غرب السودان ، وينقل العبابده والبشاريون السلع أيضا الى أجزاء السودان

---

(١) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ، ص ٢٣٧ .

(٢) محمد محجوب مالك ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٢ .

(٣) العبابده : هى من القبائل العربية الكبيرة والتى تقطن صحراء العتمور ويوجد فرع للقبيلة بالسودان وفرع آخر بمصر ، فهم حلقة وصل بين السودان ومصر من الناحية الشرقية والشمالية ، وحدودهم فى السودان الى داخل مدينة بربر ،
انظر محمد محجوب مالك المرجع نفسه ، ص ٢٤٧ .

الواقعة على النيل (١) .

والعبابده بحكم أماكن تواجدهم بين السودان ومصر كانوا يتعايشون مع الفريقين ،فابان الحكم التركى المصرى استفادت منهم الحكومة فى خدمتها فجعلت منهم موظفين فى الحكومة ويحملون ألقاب البكوية ويتقاضون مرتبات من الحكومة المصرية ،وعندما انهار الحكم التركى المصرى فى السودان ، حاول العبابدة التكيف مع الوضع الجديد ،فاندمجوا فى الحكومة المهدية وخدموا فيها وكانوا يتقاضون أيضا مرتبات من دولة المهدية ،الا أن الخليفة عبدالله تنبه لهذه اللعبة واتبع سياسة خارجية عرضت مصالح العبابدة التجارية والامتيازات التى سبق أن تحصلوا عليها فى أيام الحكم السابق وأيام المهدية الى الضياع مما جعلهم يتخذون مواقف عدائية من المهدية ، وكانوا فى النهاية أكبر عون للحكومة الانجليزية عند اجتياح كتشنر للسودان (٢) .

فالقبائل المجاورة للحدود المصرية أو ميناء سواكن قد استفادت من عائد التجارة الخارجية التى كانت تقوم بها مصر والسودان كما استفادت هذه القبائل من أجور النقل والعمل بالبريد أو الاشتغال بمهمة الأدلاء للقوافل وغير ذلك من الاعمال التى كانت تدر عائدا ماليا لهذه القبائل (٣) . بل ان الحكومة قد تركت أمر حماية القوافل التجارية لشيوخ القبائل التى تمر هذه القوافل بأرضها طالما كان هوءلاء الشيوخ موالين للحكومة ، وحددت لهم المبالغ التى توءخذ من القوافل المارة بما لا يتجاوز ١٠٪ من قيمة البضائع، وعلى أن تقوم هذه القبائل بتمهيد الطرق البريه ووضع العلامات الحجرية

---

(١) انظر ضرار، مرجع سابق ،ص ٣٥ .

(٢) محمد محجوب مالك ،مرجع سابق ،ص٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(٣) محمد محجوب مالك ، المرجع نفسه ص ٢٣٤ .

التى ترشد القوافل للطريق السليم [1] .

بهذه الطريقة المثلى استطاعت الحكومة أن تكسب ولاء الكبابيش والعبابده كاسلوب آخر غير الأسلوب الذى اتخذ فى استقطاب ولاء قبيلة الشايقية الا أن هنالك **وسيلة ثالثة** استخدمتها الحكومة فى كسب ولاء الأهالى ، وهى اسناد السلطة لبعض الأسر القبلية ، اضافة الى التعامل التجارى .

فمن قبائل الأبالة [2] ذات الصلة الوثيقة بالحكومة ، قبيلة الشكرية [3] التى تسكن اقليم البطانه ، وقد ركزت الحكومه السلطة فى يد الأسرة الحاكمة للشكرية على اقليم البطانه لتنفيذ سياستها القائمة على نظرية التراضى والاعتراف بسلطة زعماء العشائر ، وجعلهم جزءا من جهازها الحاكم وتركت لهم حرية التصرف فى المجالات التى لم يكن لها تأثير مباشر على الحكم وهذا قد أعطى زعماء العشائر سلطات مطلقة ، اذ أن الذى كان يمس سلطة الحكم التنظيمى مباشرة هو الولاء العام ، ودفع الضرائب .

وبتحالف الحكم التركى المصرى مع أولئك الزعماء صار فى ميسورهم أن يحكموا حكما يستند على عصبية مجموعة صغيرة من أهل البيت المتزعم

---

(١) شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ، ج ٢ ، مرجع سابق ص ٥٠٤ .

(٢) الأبالة : نسبة الى القبائل التى تهتم بتربية الابل ، مثل البقارة وهو اسم يطلق أيضا على القبائل التى تشتغل بتربية الأبقار .

(٣) الشكرية : من القبائل العربية المنتمية الى جهينة ، ويعيشون فى اقليم البطانة وينتقلون فيه بابلهم شمالا وجنوبا ، ومن مناطقهم رفاعه وأبودليق ، ويعتبر عصر الحكم التركى المصرى هو العصر الذهبى بالنسبه للشكرية ، انظر محمد عوض محمد ، مرجع سابق ص ١٥٤ .

وعلى سلطة الحكومة ، وبذلك صارت الأسرة الحاكمة ، وهى عائلة" أبى سن "(١) على علاقات حسنة مع الادارة التركيةالمصرية ، واشتهر منهم الشيخ أحمد أبو سن (٢) وتولى وظيفة مدير مديرية لمدة عشر سنوات الى أن وافته المنية بمصر - ونال عوض الكريم أبو سن (٣) لقب الباشويه وقد عينه غردون مديرا

---

(١) عائلة أبى سن : هذه العائلة تمثل زعامة قبيلة الشكرية ، والجد الأكبر لهذه القبيلة يدعى " شاع الدين " وقد عاش فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى ، ولكن القبيلة لم تكتسب اهمية الا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين ، الموافق الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ، وذلك تحت قيادة عوض الكريم أبو سن وابنه ، وخاصه ابان العهد التركى المصرى ، حيث سيطرت هذه القبيلة على الاقليم الاوسط من السودان .

كما أن عائلة أبى سن وقبيلتهم الشكرية قد عزلوا أنفسهم عن الثورة المهدية ، وقد تعرضوا نتيجة لذلك الى الاضطهاد من جانب الدولة المهدية ، التي ضيقت عليهم وسببت فى عدم استقرارهم .

أنظر John obert Voll, op. cit., p. 30.

(٢) أحمد أبو سن : زعيم الشكرية فى عهد الحكم التركى المصرى فى السودان وكان من أعظم المقربين للحكومة من المشايخ فى ذلك الوقت وكان موضع ثقة الحكومة فى ذلك الوقت ، ولا شك أنه كان رجلا ذا شخصية عظيمة وقد وصفه بيكر بالنبل والكرم وجميع المآثر والفضائل التى اشتهر بها العرب فى جميع العصور ، انظر محمد عوض محمد ، مرجع سابق ص ٥١٠

(٣) هو عوض الكريم باشا أحمد أبو سن "١٣٠٣ / ١٨٨٦" تولى نظارة الشكرية فى عام ١٢٨٩ / ١٨٧٢ ثم اسندت اليه وظيفة فى الحكومة المركزية فى الخرطوم ، اشترك مع جنود الحكومة فى اخضاع قبيلة الكواهلة واشترك مع جقلر باشا ضد جيوش المهدية ، عينه غردون مديرا للخرطوم فى عام ١٣٠١ / ١٨٨٤ وعندما تأكد من هزيمة غردون سافر الى منطقة " ريره " كما بايع أخوه عبد الله المهدى وانضم للمهدية - انظر محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ص ٢٤٤ .

على الخرطوم وسنار[1] ، هذا وقد نعم الشكرية بالأمن الذى استتب فى عهد الحكم التركى المصرى ، وازدهرت تجارتهم ونمت ثروتهم ، اذ كانوا يملكون ثروة ضخمة من الابل والماعز ، واستفادوا من جمالهم فى نقل التجارة بين كسلا وشندى كما أنهم تحصلوا على ثروات ضخمة من بيع الجمال وتأجيرها ، وكانوا يتنقلون بجمالهم ويصلون الى منطقة شندى فى النيل ومدينة رفاعه على النيل الأزرق وبسبب موقعهم الجغرافى احتكوا بقبائل الجعليين والبشاريين والهندندوه فى منطقة كسلا .

وقد استمر الشكرية فى ولائهم للحكومة وقد عبروا عن ذلك فى كثيرا من المواقف ، ومن أمثلة ذلك تعاونهم معها فى امداد كسلا بالأغذية والمؤن عند حصار اتباع المهدى لها ، كما شهد عوض الكريم أبو سن وكثير من رجاله وقائع كثيرة مع عبد القادر باشا حلمى لاخماد حركات الثوار التى شبت بأرض الجزيرة عند بداية قيام الثورة[2].

<u>أما الوسيلة الرابعة</u> التى استخدمتها الحكومة فى كسب ولاء القبائل هى دعمها وتربيتها ورعايتها للطوائف الدينية ، فقد حظيت طائفة الختمية وزعيمها محمد عثمان الميرغنى[3] باهتمام بالغ من قبل الحكومة التى تدرك تمام

---

(١) أنظر محمد محجوب مالك ، ص ٢٤٤ ، وانظر ايضا ابراهيم فوزى ، ج ١ ص ٢٧٧ ، مصدر / مرجع سابقين .

(٢) أنظر ابراهيم فوزى ، ص ٢٧٨ ، وايضا انظر محمد محجوب مالك ص ٢٤٥ ، مصدر ومرجع سابقين

(٣) محمد عثمان الميرغنى هو موسس الطريقه الميرغنية فى سنة ١٢٦٨/١٨٥١ حضر الى السودان قادما من الحجاز عن طريق مصر واستقر بكردفان فى منطقة "بارا" وتزوج هناك وولد له ابنه الحسن الميرغنى والذى أقام بقرية الختمية بكسلا ولعب دورا خطيرا فى حوادث عصيان حامية =

الادراك أن كسب ولاء "المراغنة" هو كسب لجميع القبائل ، التي يدين أفرادها بالولاء الروحي لهذه الأسرة بأقل جهد ممكن ، لذا نجد الحكومة قد سارعت في اغراق "المراغنة" بالامتيازات الخاصة ، والتي ساعدت في تحفيزهم على تحريك القبائل الى جانب الحكومة .

فمثلا في شرق السودان وهو معقل المراغنة ، زعماء الطريقة الختمية فان القبائل في تلك المنطقة أصبحت موالية للحكومة ولاء تاما نتيجة ولاء سادتهم أفراد الأسرة المرغنية للحكم التركي المصري ، وأصبحوا رهن اشارتهم ، فعندما وقف المراغنه ضد حركة محمد أحمد المهدي ، وقفت أيضا قبائل الحلنقة والحمران والسبدرات والبنو عامر والحباب ، ضد الحركة المهدية وتجمعوا من كافة مناطقهم في شرق السودان واشتركوا في صد هجوم لأتباع محمد أحمد على مدينة كسلا ، كما تعاونت قبيلة الأمرآر بقيادة زعيمهم " محمود علي " الذي كان يحمل لقب البكوية مع الحاكم الانجليزي في سواكن لمطاردة أتباع المهدي ومهاجمتهم في طوكر وغيرها من المعاقل التي كانت بالمنطقة (١) .

فبسبب قوة نفوذ الختمية صارت قبائل شرق السودان في معظمها

كسلا ١٨٦٥/١٢٨٤ اذ حاول تهدئتهم ، توفي بالختمية ١٢٨٨/ ١٨٦٩ وخلفه ابنه محمد عثمان الذي بنى له قبة ، وقد حطم أتباع المهدي هذه القبة فبنيت مرة أخرى في العهد الثنائي ، وابنه محمد عثمان الميرغني الثاني " المشهور بالصغير" خلف أباه في زعامة الطائفه الميرغنية ، وقف محمد عثمان ضد ثورة المهدي وقاومها مقاومة عنيفة في شرق السودان ثم اضطر الى ترك قرية الختمية وذهب الى سواكن ومنها الى القاهرة حيث توفي في سنة ١٨٨٦/١٣٠٣ وخلفه في زعامة الطائفة ابنه السيد علي الميرغني .

انظر ، ابو سليم الحركة الفكرية ، مرجع سابق ، ص ٩ .

(١) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ، ص ص ١٤١ ، ١٤٩ ، ٢٣٥ .

مناوئة للحركة المهدية ، وليس فى شرق السودان فحسب بل فى شماله كانت القبائل الكبيرة كالجعليين والشايقية والدناقلة والسكوت والمحس ، وكلهم انخرطوا فى سلك الطريقة الختمية ، قد تعاونت أيضا مع كتشنر[1] وعلى رأسهم زعيمهم على الميرغنى (١٣٨٨ / ١٩٦٨) الذى عمل ضابطا فى الجيش المصرى .

الأوضاع القبلية فى غرب السودان :

بالنسبة للأوضاع القبلية هناك لم يؤثر الحكم التركى المصرى عليها كما فى بقية الأقاليم وخاصة فى دار فور وذلك لأسباب من بينها حداثة العهد بذلك الاقليم فى الدخول تحت الادارة التركية المصرية ، فضلا عن أن الحكومة غير راضية عنه بسبب ضآلة عائدات مواردها ، وأيضا ضعف ولاء الأهالى فيها ، وذلك نتيجة لتأثير الحكام الأجانب والذى أدى الى زعزعة استقرار الحكم فى الغرب ، هذا بالاضافة الى عدم قدرة الحكومة على استقطاب تأييد القبائل فى غرب السودان وذلك لأن معظمهم من البقارة التى تشتغل برعى الأبقار وتنتقل بها من مكان لآخر وتنقلهم من أجل البحث عن الكلأ جعلهم يتوغلون فى مناطق تبعد عن دائرة اهتمام الحكومة ، ثم أن جريهم وراء الكلأ جعلهم يتوغلون فى المناطق الجنوبية مما جعلهم يشتركون فى تجارة الرقيق ، ومسألة الرقيق هذه هى التى أدخلت القبائل العربية بدار فور فى نزاع مع الحكومة واصبحوا يشعرون بالظلم نتيجة تحريم الحكومة لتجارتهم تلك ومطاردة العاملين فيها[2] .

---

(١) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ، ص ١٤١ .

(٢) محمد محجوب مالك ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٥

أيضا أصبحت معظم القبائل فى غرب السودان فى عداء مع الحكومة نتيجة لمركزية الحكم والتى أخضعت شيوخ القبائل لمديرى المديريات ونوابهم بعد أن كانوا سادة بين قومهم[1] .

واذا كانت قبائل البقارة بصفة عامة صارت معادية للحكومة وذلك للاسباب المذكورة آنفا ، فانه على النقيض من ذلك نجد قبائل الأبالة على ود وموالاه مع الحكم التركى المصرى ، وذلك نتيجة - لما تقدم ذكره - من أن للأبالة مصالح تجارية واقتصادية أثرت حياتهم وأثقلت موازينهم وأصبحوا فى عيشة راضية ، وكانوا يخشون على هذه النعمة أن تزول ، لذا لا نجد غرابة فى تضحيتهم من أجل الحكومة بأموالهم وأنفسهم ، وفى المقابل نجد قبائل البقارة عندما ظهرت المهدية صاروا أكبر سند لها ووجدوا ضالتهم فيها ، وكأنهم كانوا يبحثون عن قيادة تقودهم الى التعبير عن حقدهم على الحكومة[2]

الوضع القبلى فى جنوب السودان :

الاقليم الجنوبى يختلف تمام الاختلاف فى هذا الجانب عن بقية

---

(١) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ص ٢٦٠ .

(٢) محمد محجوب مالك المرجع نفسه ، ص ٢٣٥ .

أقاليم السودان الاخرى اذ أن الوضع القبلى لم يشهد استقرارا أبدا ليس ابان الحكم التركى المصرى فحسب بل قبلة بزمن بعيد ، وعندما تم ضم السودان كان مسألة الحصول على الرقيق من أولويات السياسة التركية آنذاك ، ولتحقيق ذلك لجأت الحكومة منذ اول حكمها الى الهجوم على المناطق الجنوبية فنشب العداء مع قبائل الدينكا سنة ١٢٤٣ / ١٨٢١ والشلك ١٢٤٦ / ١٨٣٠ عقب سلسلة من الغارات انتهت باضطرار الحكم المصرى على الانسحاب من تلك المناطق دون أن يوطد حكمه فيها واكتفى بأعداد من الرجال لكى ينخرطوا فى سلك الجندية (١) .

وبالطبع كان الجنوب يعانى فى السابق من غارات تجار الرقيق من الأوروبيين واللبنانيين وغيرهم الذين كانوا يمارسون الاسترقاق والسلب والنهب وقد تعرض لها بالأخص الدينكا والنوير ، الا أن الغارات الاخيرة هذه جاءت منظمة وبامكانيات دولة ، ومن المؤكد أن تلك الغارات سوف يجعل استقرار تلك القبائل أمرا مستحيلا ، ولعل قبائل الدينكا والنوير كانت قادرة اذ ذاك بحكم كثرتها العددية على التخلص من الزرائب المسلحة التى أقيمت فى بلادها لاستغلالها لولا تلك الانقسامات والمنازعات التى اشعلها تجار الرقيق بين العشائر المختلفة مما أدى الى انشغالها عن مواجهتهم بقتال بعضها البعض(٢) .

ورغم أن الحكومة قامت عن طريق حاكم أجنبى يدعى" جسى"(٣) باسترضاء الدينكا والنوير وذلك نسبة لحاجة الحكومة لهم بأن دربتهم وجعلت منهم قوة لمقاومة ثورة سليمان الزبير ، ونجحت تلك القبائل فى القضاء على تلك الثورة

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٥٧ .

(٢) انظر جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ١٨٦ .

(٣) سبق تعريفه .

وتذوقت لذة الانتصار، وأدت هذه النشوة الى التقارب بين كل من عشائر الدينكا والنوير والى اعادة أواصر الوحدة بينهما ، الا ان جسى - كما سبق الاشارة اليه - سرحهم وترك الأسلحة بايديهم دون أن يجمعها منهم[1]، مما قد يجعل أفرادها يشعرون بالفتوه وأيضا قد يغرى كثيرمنهم على التعدى وافتعال المناوشات والمعارك مع القبائل الأخرى .

ورغم ان الحكم التركى المصرى قد ترك آثارا طيبة فى جنوب السودان مثل انهاء تجارة الرقيق ،وتنوير سكان الجنوب بمظاهر التمدن من خلال الآليات والبواخر النيليه التى أدخلتها الى الجنوب، وايضا التنظيمات الادارية فى الحكومة وقواتها ،وأكبر من ذلك ربط الجنوب وادخاله ضمن خريطة السودان الحالى.

ولكن على الصعيد الاجتماعى لم يكن الأثر الذى تركه الحكم التركى المصرى فى جنوب السودان أثرا طيبا فى جميع الأحوال ،اذ لم يتحقق فى الجنوب ماتحقق فى الشمال من توفير قدر أكبر من الوحدة والأمن ، اذ بقيت الجماعات القبلية فى الجنوب ممزقة ، وازدادت حياة القبائل الضعيفه وتنظيماتها القبلية ضعفا على ضعف[2] .

فقد أدت سياسة الضغط والقهر التى كان يمارسها الحكام الأجانب فى العهد التركى المصرى الى تفكك وحدة القبائل فى جنوب البلاد وكراهيتها وعدائها لتلك السياسة ،كما أدت فى نفس الوقت الى انضمام تلك القبائل الى قبائل الشمال ذات الأصول العربية فى بحر الغزال والتى

---

(١) جميل عبيد ، مرجع سابق ،ص ١٨٦ .

(٢) محمد عمر بشير ، مرجع سابق ،ص ٣٨ .

شاركت فى تأييد الثورة المهدية فقد تحالف الرزيقات مع الدينكا ضد الحكومة ونتيجة لذلك التحالف استولى اتباع المهدى على بحر الغزال وجنوب دارفور[١]

ومن ناحية أخرى فان للموقع الجغرافى وانتشار القبائل فى أراضى السودان الشاسعة أثر كبير فى تحديد موقف القبائل من الحكومة بتأييدها وابداء ولائها ، فقد لا يستجيب أهالى المناطق النائية عن المركزية لتعليمات وقرارات الحكومة ، وقد يتأثر الوجود المكانى للقبائل بعوامل اقتصادية حسب موقع ديار القبائل ، وقد تتفاوت قوة وضعف هذه المؤثرات حسب موقع ديار القبيلة من الطرق والمنافذ التجارية[٢] فمثلا قبائل الأبالة اضافة الى الرغبة فى المصلحة الاقتصادية فان تعاملهم مع الحكومة ايضا كان نتيجة لقربها من الخرطوم مركز اتخاذ القرار ، ومركز القوة والعتاد ، وفى الغالب كان تعاملهم معها خشية من أن يكونوا أول المتعرضين لبطشها .

---

(١) انظر بونا ملول ، مرجع سابق ، ص ١٩ وايضا انظر ابو سليم ، فى الشخصية السودانية ، الخرطوم : دار جامعة الخرطوم للنشر ، الطبعة الاولى ١٣٩٩ / ١٩٧٩ ، ص ٩٣ .

(٢) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ص ٢٣١ .

الآثار السلبية لولاء بعض القبائل للحكم التركى المصرى

رغم الفوائد الجمة التى جنتها القبائل الموالية للحكومة ، حيث أنها وكما سبق وان تقدم - استفادت من حالة الأمن والاستقرار التى نشرتها الحكومة فى طول البلاد وعرضها فازدهرت التجارة وعرفت تلك القبائل الحكومة المنظمة لأول مرة ، كما ابتدعت نظاما للحكم المحلى أعطى زعماء العشائر سلطات واسعة ، بل ان علاقاتهم الوثيقة بالحكومة فتحت آفاقهم الى الخروج من السودان فى رحلات الى مصر جيئة وذهابا حتى أن زعيم الشكرية أحمد أبو سن والذى كان يذهب الى مصر بين الحين والاخر حتى وافاه الأجل المحتوم وهو فى القاهرة[1] ، كما أن قبائل الكبابيش اضافة الى صلاتهم الودية مع الادارة التركية المصرية فى السودان ، كانت لهم أيضا صلات شخصية مع خديو مصر[2] ، وكذا الحال بالنسبة لجميع القبائل ذات الصلات بالحكم التركى المصرى فى السودان ، الا ان هذه الصلات قد أدت بهم الى بعض المثالب ، منها :

أولا : عندما قامت الثورة المهدية اختلط حابل القبائل الموالية للحكومة بنابلها واضطربت مواقفهم ، واحتاروا الى أى منقلب ينقلبون والى أى جهة ينحازون ومنها من حزمت أمرها ، واستقر رأيها على مواصلة موالاتها للحكم التركى المصرى الى النهاية مثل الشكرية والكبابيش فى البطانه وكردفان ، وفى الشرق القبائل المجاورة لكسلا وطوكر وسواكن مثل الهدندوه ، والأمرآر والحلنقة والبنى عامر والحمران والسيدرات ، وفى الشمال قامت فيها

---

(١) انظر ، ابراهيم فوزى ، ج ١ مصدر سابق ، ص ٢٧٧ .

(٢) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ، ص ٢٣٦ .

القبائل الكبيرة مثل الجعليين والشايقية والدناقلة والسكوت والمحس، وهؤلاء جميعا شاركوا الحكومة فى مقاومتها للمهدية ، التى أخذت شكل الحركة الثورية ضد النظام القائم وكان لابد لها من القضاء على دعائم وركائز النظام السابق وزعماء القبائل الذين كانوا بمثابة موظفين فى الاداره السابقة ، فعندما تعاظم أمر المهدى وكثر أتباعه ،عندها تراخى بعض الموالين للحكم التركى المصرى من القبائل ،عندما تبين لهم أن الحكومة فقدت قواعدها كما أبدوا تراجعا واضحا بعد اعلان سياسة الاخلاء ،وبدأت الحكومة تستعد للخروج من البلاد ، حينها تقدم بعض القبائل وأخذت البيعة مثل قبيلة الجعليين وخاصة أنهم حقدوا على الحكم التركى المصرى ليس من جرّاء حملات الدفتردار فحسب بل بعد مقتل سليمان الزبير" ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م " حيث أصبح الجعليون معادين للحكومة مرة ثانية كما كانت فى ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م"وعندها فقد الأهالى الثقة فى الحكومة التى عطلت القوانين والمحاكم وبدأت سياسة البطش والخيانة باشراف غردون وأعوانه الأوروبيين المسيحيين (١) .

ومن زعماء القبائل من أرسلوا اخوتهم أو بعض أقربائهم لمبايعة المهدى وبقى هو فى مكانه ينتظر عملية التحول ،وذلك مثل عوض الكريم باشا أبو سن عندما شعر بأن حصار المهدى للخرطوم بات أمرا وشيكا أرسل أخاه عبد الله الى المهدى حيث بايعه وصار من أتباعه ، وفريق ثالث لجأ الى عدم المجاهرة بالعداء لأى من الفريقين أمثال قبيلة العبابدة الذين عملوا كموظفين لدى الحكومة المصرية ، كما عملوا موظفين ايضا فى الدولة المهدية وكانوا يتقاضون مرتبات من كلا الجانبين بحسبان انهم من موظفى المخابرات للجانبين (٢) .

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ،ص ٩٠ .

(٢) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ،ص ٢٤٧

ثانيا : بعض القبائل فى شرق السودان رغم أنها وقفت ضد اتباع المهدى الا أنها لم تستطع أن توقف زحفهم العسكرى ، وذلك نتيجة لعدم التنسيق بين القبائل المناوئة للمهدية وتباعد مواطنها كما أن هذه القبائل لم تجد المساعدة الفعاله من القوات الانجليزية فى سواكن أو من مصر عدا بعض المساعدات المالية اليسيرة التى كان يقدمها كتشنر لمحمود بك زعيم الأمرآر وقائد جيوش العربان لمقاومة المهدية فى شرق السودان ، ولم تستطع الحكومة المصرية من تقديم مساعدات ، يبدو لانشغالها بكيفية الفكاك من الاحتلال الانجليزى ، وبالطبع هذا التقصير قد أشعر القبائل الموالية للحكومة بالخذلان أمام أتباع المهدى.

ثالثا : أدى عزل الحكومة لبعض القيادات القبلية وتعيين آخرين سادة على قبائلهم الى وجود اعداء للحكومة ، ومنافسة بين عائلات المعينين وعائلات المعزولين ، ومثال ذلك ما حدث بين عائلة "مادبو على" وعائلة "عجيل الجنقاوى" على زعامة الرزيقات ، ومثال آخر المنافسة بين الياس باشا أم برير ، ومحمد سعيد والذى عينته الحكومة حاكما على الأبيض بدلا عنه حيث قادت تلك المنافسة الياس الى اشعال ونجاح الثوره المهدية فى كردفان ولعب دورا كبير فى سقوط الأبيض ، بينما أسهم مادبو على بنصيب وافر مع أعوانه فى محاربة حاميات الحكومة فى دارفور ، حيث قام بجمع عدد من البقارة واعتدوا على حامية شَكَّا فقتلوا الجنود الذين بها وغنموا سلاحها فى ١٢٩٩ / ١٨٨٢ ، وفى نفس العام هزم مادبو سلاطين فى واقعة أم وريقات[1] .

رابعا : تدليل الحكومة للقبائل الموالية لها دفعها للاعتداء على القبائل الأخرى ، واستغلت نفوذها فى التضييق على القبائل المنافسة لها ،

---

(١) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ، ص. ٢٦

فقد سام الشكرية مثلا قبيلة البطاحين سوء العذاب ونتيجة لذلك اندفع البطاحين الى الاسراع لتلبية دعوة المهدية(١) -

خامسا : تمييز الحكومة الطائفة الختمية ، دون الطوائف الاخرى اكسب هذه الطائفةكراهية كثير من القبائل ، خاصة وأن الأهالى قد انغرس فى عقولهم مسألة أن الترك نصارى واقترن - كما تقدم - اسم الترك باسم النصارى ومن ثم بالكفر ، لمجرد أن الحكم التركى المصرى أوقد فى الأعوام الأخيرة حكاما أجانب ، نصارى وحكموا المسلمين فى السودان باسمه ، مما أدى الى تشويه سمعة الحكومة ، أضافة الى أن أولئك النصارى ، كانوا فى الجانب الاجتماعى مخالفين لأهالى البلاد ، فلم تكن شئونهم الخاصة مرضية لهم وغير مقنعة لهم بأنه السلوك المناسب لمن يمثلون الحكومة ذات الهوية الاسلامية لذا فان موالاة الختمية لهم وجر بقيةالقبائل تجاه ولائهم اعتبروه خيانة عظمى وجعلت القبائل والطوائف الاخرى تسخط على الحكم التركى المصرى وعلى الختمية ، الطائفة المحظية لديهم ، وقد زاد ذلك السخط من اندفاع الناس الى المهدية ، كتعبيرعن مجانبتهم لرأى طائفة الختمية. "٢"

سادسا : عند تنفيذ عملية اخلاء السودان من الرعايا والحاميات المصرية كان أيضا من المناسب مشورة زعماء القبائل الموالية للحكومة عن مدى رغبتها فى خروجهم من السودان الى مصر ، خشية أن يحل بهم انتقام أنصار المهدى نتيجة لمولاتهم السابقة للحكومة .

وبوسعهم بطبيعة الحال أن يغادروا البلاد ثم يعودوا اليها حينما تهدأ الأحوال ، أو قد يسعون للحصول على عفو من قادة المهدية أو نحوذلك

---

(١) محمد محجوب ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

(٢) محمد محجوب ، المرجع نفسه ص ٩٧

ولكن لم يحدث شيء من ذلك اذ تمت عملية الاخلاء ، بينما ترك الموالون للحكومة من القبائل وزعمائها هائمين على وجوههم ، وبات على كل واحد منهم أن يدبر أمره ويبحث عن وسيلة يخلص بها نفسه .

فبعد سقوط الخرطوم ذهب أخلص المخلصين للنظام السابق وهو عوض الكريم أحمد أبو سن زعيم الشكرية وسلم نفسه الى السلطة الجديدة وطلب منها العفو وظل بأم درمان حيث أمسكه أتباع المهدى وعلى رأسهم الخليفة عبد الله رهينة عندهم ثم ارسل الرسل الى قبيلة الشكرية للمجيء مهاجرين الى أم درمان حيث كان الرسل مؤلفين من حسان أحمد أبى سن ، وأحمد محمد عوض الكريم أبى سن وحذرهم من التأخير فلم يستجيبوا للهجرة ، كما أن الشكرية الذين أرسلوا مع السرية المتوجهة الى كسلا هربوا الى أوطانهم ، وأرسل الخليفة عبد الله الى عاملهم محمد حسنين بالقبض عليهم وارسالهم الى أم درمان(١)

وفى ختام هذا الفصل لا يسعنى الا أن اقول ، أن الحكم التركى المصرى قد أدى الى الوضع القبلى فى السودان خدمة جليلة وذلك بمساعدة بعضها الى الترقى والثراء والبعض الآخر فى المشاركة السياسية وساعد بعضهم فى الحصول على الاثنين معا .

الا أنه أخيرا ظهر جليا بأنه لم يساعد تلك القبائل الا بقدر الاستفادة من ولاءاتها فى ترسيخ دعائمه وحسب ، بدليل أنه قد تخلى عنهم أخيرا وكأنه لم يعد لهم سابق اتصال أو تعامل معه . ولكن لا يفوتنى أن اذكر الجهد الذى بذل ابان ذلك العهد فى دمج بعض القبائل الصغيرة لتكون موحدة مع القبائل التى تكبرها ، مما يساعد ذلك فى انهاء ظاهرة التمزق والتشرذم القبلى .

---

(١) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

الفصل الثاني

العناصر غير السودانية

قـدوم العناصر غيرالسودانيةالى السـودان

نقصد بالعناصر غير السودانية هى تلك الأجناس التى كان الحكم التركى المصرى يعد سببا مباشرا فى قدومهمالى السودان وسواء كانت تلك الاجناس عناصر اسلامية أم عربية ،أوروبية كانت أم آسيويه ، وقدجاءت هذه العناصر الى السودان فى عهد الحكم التركى المصرى عن طريق وسائل شتى ، أولي تلك الوسائل : جيش اسماعيل باشا الذى ضم السودان ،وكان مكونا من عناصر متعددة من مغاربة وأتراك وأرناؤوط ، والبانيين ،و سوريين وعرب من صعيد مصر ،وعربان البادية وبالأخص عربان العبابده[1] ، هذا اضافة الى الشراكسة والأرمن ، وايضا شاركت مع الحملة قوة فرسان أخرى ، تتكون من أفراد يتحدثون التركية .

الوسيلة الثانية : جاءت مع طلائع جيش اسماعيل ايضا عناصر شكلت فيما بعد طبقة مهنية تشمل أطباء وقضاة ،ومعلمين ، كذلك جاء فلاحون من مصر لارشاد المزارعين السودانيين الى وسائل الزراعة الحديثة ، وتسلل مع هؤلاء آخرون لزراعة المخدرات وآخرون لدباغة الجلود ثم تبعهم الحدادون والبناؤن والتجارون ثم جاء الفنيون لتشغيل و رشة اصلاح السفن وهكذا ظلت وفود المهاجرين تتقاطر طوال فترة الحكم التركى المصرى طلبا للرزق فى دواوين الحكومة ككتبة ومحاسبين ،او فى الاعمال الحرة ، كذلك هاجرت الى السودان فئة كانت تجد فيه ملاذا للتهرب من الضرائب الباهظة التى تجبى فى شمال الوادى بنسبة قد تفوق فى بعض الأحيان مقدار مايجبى فى جنوبه[2] ، اضافة الى أن كبار رجال الجيش والموظفين كانت تصاحبهم

---

(١) شبيكه ،السودان عبرالقرون ،مرجع سابق ،ص ٩٥

(٢) ميمونه حمزه ،مرجع سابق ،ص٤١ .

أسرهم في مجيئهم الى السودان .

الوسيلة الثالثة : وهى أنه بعد ضم السودان لمصر أصبحت حركة النقل بين مصر والسودان لا تنقطع وبالتالى استمرت حركة المصريين ، اضافة الى الأجانب من أوروبيين وأمريكان ، ومغاربة وأتراك والبانيين وبدأت تتدفق أعداد الذين يودون طرق أبواب العمل التجارى فى السودان ، كما ساعد على ذلك أيضا حالة الأمن والاستقرار التى سادت البلاد بعد تولى الادارة التركية المصرية زمام الأمور فيها فانتشر التجار المصريون والأجانب على السواء فى مدن السودان الرئيسية وأصبح الأجانب من جميع الدول الأوروبية متمتعين بحق الدخول الى السودان والخروج منه وهم فى كلتا الحالتين على أتم ما يتمنونه من أمن وهدوء وسلام ، كما سهلت المواصلات بين السودان والممالك الأوروبية بواسطة الرسائل البرقية والبريدية المنظمة (١) ، وأيضا تزايد نشاط الأوروبيين ونفوذهم الاقتصادى والسياسى والدينى المتمثل فى البعثات والارساليات التنصيرية بدعم ومساعدة الكنائس الأوروبيه ، كما تعد نشاط الرحلات الاستطلاعية والكشفية الجغرافية أحد روافد تدفق الأجانب الى السودان ، اضافة الى اعتماد الحكم التركى المصرى على المغامرين من الضباط الأوروبيين فى عدد كبير من المناصب الادارية والعسكرية الخاصة بجهازه الادارى فى البلاد (٢) .

ورغم أن العناصر غير السودانية قد تواجدوا فى معظم المدن الكبرى والصغرى فى السودان الا أن غالبيتهم تركزت فى الخرطوم العاصمة وذلك لأنها تمثل مركز الثقل السياسى والادارى فى السودان .

---

(١) انظر عبد الله حسين ، ج ٢ مرجع سابق ص ١٥٧ ، وايضا انظر : سلاطين ، مرجع سابق ، ص ٣٩٩ .

(٢) انظر محمد على جادين مرجع سابق ، ص ٩٩ ، وانظر ايضا : عبد الودود شلبى مرجع سابق ، ص ١٠٣ .

وكان سكان الخرطوم خليطا من ثلاث مجموعات ، مجموعة أوروبية ، وأخرى شرقيه ، ومجموعة سودانية بشقيها العربى ، وغير العربى ، ونجد المجموعة الأوروبية بأجناسها المختلفة ، أما الشرقيون فقد كانت أغلبيتهم من المصريين والسوريين الذين كانوا يمثلون أكبر مجموعة من الأجانب على الاطلاق اذ قدر عددهم فى ١٢٩٧ / ١٨٨٠ بسبعين الف تقريبا ، وذكر آخر بأن تعدادهم فى ١٣٠١ / ١٨٨٤ انخفض الى خمسين ألفا منهم خمسة عشر ألف من المسيحيين ، ويبدوا أن هذا الانخفاض نتيجة لاندلاع الثورة المهدية وقرار الاخلاء ، وأيضا نجد أن منهم المغاربة بأجناسهم المختلفة من طرابلسيين وتونسيين وجزائريين ومراكشيين (١) .

الأوروبيون :

ان أوائل الأوروبيين الذين استقروا فى السودان ابان الحكم التركى المصرى كانوا من أفراد المدربين العسكريين ، والأطباء والصيادلة ، وذلك للاستقرار الدائم فى السودان وليس للوجود الموءقت ، هنالك ايضا الكابتن كايسون " Caisson " والكابتن كاديو " kadeau " ، المدربين لأول فوج عسكرى فى السودان عام ١٢٤٠ / ١٨٢٤ ، وكلاهما حاربا فى صفوف جيش نابليون ولكنهما تركا فرنسا عندما تعرض نظام الامبراطورية فيها للانهيار وقدما للخدمة تحت امرة الكولونيل سيبق " Sève " فى جيش محمد على فى نظامه الجديد (٢) .

---

(١) انظر سليمان كشه ، مصدر سابق ، ص ٤ ، انظر ايضا الامور هيد النيل الأبيض ، مرجع سابق ، ص ٨٩ ، وأيضا ميمونه ، مرجع سابق ص ٦٧ ، وأيضا : الرافعى ، مصر والسودان ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

(٢) Hill, op. cit., p. 78.
انظر ايضا ميمونه ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

وبعد استقرار الاوضاع فى السودان وبعد مرور أكثر من أربع سنوات من دخول اسماعيل باشا بقواته البلاد السودانية ، تم عقب ذلك انشاء مدينة الخرطوم ، فنمت وترعرعت فيها مهنة التجارة التى جذبت أعدادا هائلة من الأوروبيين ، الذين بدوء يتقاطرون نحو السودان وأخذوا فى تنشيط التجارة بين السودان والدول الأخرى ، كما فتحوا المتاجر والمخازن فى عدة أماكن من البلاد ، خاصة وأن هنالك بعض التجار الأوروبيين أمثال فايسيير "Vaisyiar" وشيرون Shiron ، وبتتجين "Bitigien" وكانت لهم امتيازات تجارية سيما وأنهم كانوا يمارسون تجارة الاحتكار مع الحكومة المصرية وقد طاف هوءلاء التجار بمناطق رئيسيةفى البلاد ، وعاشوا فى المدن وخاصة فايسيير الذى عاش فترة طويلة فى الخرطوم وكون له عائلة هناك . (١)

ولكن كانت تقابل التجار الأوروبيين بعض الصعوبات فى تجارتهم وخاصة فى التجارة على النيل الأبيض ، اذا كانت التجارة فى تلك المناطق احتكارا حكوميا ، وسبب ذلك بعض الخلافات بين أولئك التجار والحكمدار عبد اللطيف باشا " ١٢٦٦-١٢٦٩هـ / ١٨٤٩-١٨٥٢م" ، وعندما اشتدت الخلافات تقدم الأوروبيون بشكوى للوالى عباس فى مصر يطلبون فيها عزل عبد اللطيف من الحكمدارية بدعوى أنه كان يقيد التجارة ، وأنه كان يمنعهم من التجارة فى بعض السلع ، كما ادعوا بأن الحكمدار يحتكر لنفسه قسما كبيرا من تجارة السودان .

وتجنبا لما يحدثه القناصل الأجانب ودولهم من متاعب فى مصر فان عباس استدعى عبد اللطيف وعين بدلا منه رستم باشا (٢) الذى اتخذ

---

(١) سليمان كشه ، مصدر سابق ، ص

(٢) رستم باشا جركس ١٢٦٨هـ / ١٤ يناير ١٨٥٢ — ٢٨ مايو ١٨٥٢ : جركسى الأصل ، قيل أنه تلقى العلم فى فرنسا وعين فى ربيع الأول ١٢٦٨ =

سياسة ضعيفة نحو التجار الأجانب، واطلق يدهم فى البلاد ليفعلوا مايحلو لهم حتى أصبحوا ذوى نفوذ عظيم أينما حلوا وخاصة فى الأقاليم الجنوبية من السودان، هذا ولقد زاد حجم الأوروبيين وعددهم وخاصة الذين يعملون كموظفين وذلك فى عهد الحكمدار خورشيد باشا (١).

ونسبة لتلك الأعداد الكبيرة من الأوروبيين، فقد أنشأت عدد من القنصليات لرعاية شئونهم ولتنظيم العلاقة بينهم وبين الحكومة، وقد كان لفرنسا قنصل مقيم بالخرطوم، ومثّل انجلترا قنصل سورى الأصل يدعى" خليل الشامى"، وفى ١٢٦٧/ ١٨٥٠ تم تعيين البارون ميلر "Baron Miller" قنصلا للنمسا، كما عينت انجلترا جون باتريك "John-Patherick" مساعدا للقنصل، الا أن القنصلية قد أغلقت فى ١٢٨١هـ/١٨٦٤ عندما تواترت أنباء عن اشتغال القنصل بتجارة الرقيق فعينت انجلترا بعد ذلك روست "Rossit" قنصلا لها، وخلفه فرانك باور "Frank Power" وقد توافد بعد ذلك ممثلون لكثير من الأقطار الى الخرطوم، وكان بينهم ممثلون عن ايطاليا واليونان وايران وامريكا (٢).

وكانت اغلبية المجموعة الأوروبية فى السودان تتشكل من اليونانيين

= ومما يعزى اليه انه أسس مجالس الأحكام بالخرطوم على نمط المجالس فى مصر، وقد أصابه المرض فى واد مدنى، ولم يدعه الا جثة هامدة، ودفن بالخرطوم فى ١٢٦٩هـ/١٨٥٢، أنظر عبد الرحمن زكى مرجع سابق، ص ٤٣٢.

(١) انظر ضرار، مرجع سابق، ص ٦٦،
وأنظر أيضا Hill. op. cit., P. 78.

(٢) انظر ميمونه، مرجع سابق، ص ٤٠.
وانظر ايضا: Ibid., P. 78.

والايطاليين والنمساويين ،ولكن عدد الأوروبيين قدتناقص فى عهد الحكمدار أحمد باشا أبو ودان "١٢٥٤/١٢٦٠ هـ = ١٨٣٨/١٨٤٣م" نتيجة لاسترخاء واضمحلال ثم نهاية التجارة الأحتكارية ،ذلك النوع من التجارةالذى جذب معظم الأوروبين الى السودان ، ثمجىء بعد ذلك بالتجار اليونانيين والايطاليين ليزيد فى عدد المجموعات الأوروبية (١)

اليونانيون :

رغم أنه كان بالسودان فى العهد التركى المصرىأعداد غفيرة من الأوروبيين بمختلف أجناسهم ،الا أن العنصر اليونانى كان اكثر من غيره فى تلك المجموعات الأوروبية ،واذا كان جل الأجانب قد استطاعوا السيطرة على ميدان التجارة بخبرتهم وعلمهم ،فان اليونانيين هم أصحاب القدح المعلى فى هذا المجال ،واذا كانوا يمارسون شتى الأعمال التجارية شأنهم شأن بقية الأجانب ، الا أنهم تخصصوا فى أعمال البقالة ، فكل البقالين كانوا منهم ، بالاضافة الى ذلك فان منهم من كانوا يمتلكون المخابز ،وكان البعض الاخر يتاجر فى سلعة الذرة حتى ان أحدهم قداتهم باخفاء سلعة الذرة حتى يتمكن من بيعها بسعر عال عند اشتداد الحصار على الخرطوم (٢) .

وكان لليونانيين بالسودان قنصلية ،مقرها الخرطوم ، ويقوم عليه قنصل يدعى لونديدى "Londidy" والذى كان يعد من كبار تجار المدينة

---

(١) Hill, op. cit., p. 78.

(٢) محمد أحمدى الجابرى ، مرجع سابق ،ص ٣٣ .
وانظر أيضا ميمونه ،مرجع سابق ،ص ٢٨ ،ص٦٨ .
وايضا سلاطين ،مصدر سابق ص ١٩٨ .

ومن أصحاب روؤس الأموال ، فكان لا يقل ما يملك عن خمسين ألفا من الجنيهات المصرية [١] .

ومما سبق يدل على أن اليونانيين قد تحسنت أحوالهم المادية في السودان وتضخمت ثرواتهم ، وعاشوا عيشة هانئة ، ومما يجدر ذكره أن معظمهم كانوا يعيشون في بلادهم أو في مصر في فاقة شديدة وهم لم ينالوا الثروة الا في السودان ولذلك لم تطاوعهم نفوسهم على تركه أو التخلي عنه .

فعندما أطبق اتباع المهدى الحصار على الخرطوم رغب غردون في هروب اليونانيين من الخرطوم ، وقد أعد لهم سبلا يسلكونها عند مغادرتهم للمدينة ، حيث سلمهم باخرة ، وأمرهم بأن يستغلوها عبر النيل الأبيض ويتجهوا بها جنوبا ليلحقوا بأمين باشا في المديرية الاستوائية ، الا أنهم رفضوا ذلك الاقتراح ، وكان غردون مهتما بسلامتهم ، فاقترح لهم اقتراحا آخر ، بأن أمر الناس بعدم السير في الطريق المؤدية الى النيل الأزرق - بعد الساعة العاشرة مساء ثم كلف اليونانيين بحراسة هذه الطريق وذلك لكي تتاح لهم الفرصة بالفرار على باخرة قد أرسيت قريبا ، ولكن اليونانيين تنازعوا فيما بينهم واختلفوا ، فضاع هذا التدبير [٢] . وكل ذلك لأن ما أصابوه في السودان من رغد العيش ، والثراء الكبير ، جعلهم اكثر تشبثا وميلا للبقاء أملا في استمرار ذلك المكسب والحصول على مكاسب أخرى في الوضع الجديد الذى يعقب انهيار الحكم التركى المصرى في السودان .

فمثلا نجد أحد اليونانيين واسمه " جورج تنسيادى " ، استحوذ

---

(١) محمود القبانى ، مرجع سابق ، ص ١٥

(٢) سلاطين ، مصدر سابق ، ص ١٩٨ .

على قطعة أرض كبيرة على شاطىء النهر وعلى بعد خطوات من مباني الحكومة وشاد عليها قصرا بالآجر وكحله بالجير، وجعل بأسفله متجرا كبيرا، يحتوى على أصناف من المشروبات الأوروبية والبقالة وبجانبه حانه ومقهى كبير[1] فكيف بمن يمتلك هذه الاملاك ويعيش مثل هذه العيشة أن يرضى بمغادرة البلاد خاصة وأنه انفق أموالا طائلة فى سبيل استقراره .

هذا والجدير بالذكر أنه كان بالخرطوم حوالى مائة عائلة يونانية[2] .

النمساويون :

كان العنصر النمساوى فى بدايات العهد التركى المصرى قلة الا أنه بعد استقرار ذلك الحكم وانشاء الخرطوم بدأت أعدادهم فى الزيادة وخاصة بعد وصول بعثة الارسالية الكاثوليكية الى الخرطوم فى ١٢٦٥/١٨٤٨ ومن أجل الرعايا النمساويين وجميع المسيحيين فى الخرطوم، شيدت كنيسة للآباء الكاثوليك فى القسم الأول من الخرطوم[3] فى ١٢٦٧/١٨٥٠ على نفقة امبراطور النمسا والمجر ويكفى لبيان وصفها وأهميتها ان تكاليف بنائها بلغت ثلاثمائة ألف جنيه[4] .

---

(١) محمود القبانى، مرجع سابق، ص ١٤ .

(٢) سليمان كشه ، مصدر سابق، ص ٤ .

(٣) تنقسم مدينة الخرطوم الى ثمانية أقسام، فالقسم الأول سكانه كلهم مصريون مسلمون وأقباط وبعض الأوروبيين وأعيان البلد وتجارها وفى هذا القسم أيضا توجد كنيسة الآباء الكاثوليك.
انظر سليمان كشه ، المصدر السابق نفسه ، ص ٤

(٤) سليمان كشة المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

وفى نفس العام الذى شيدت فيه الكنيسة ، عين أول قنصل للنمسا فى السودان ، وهو " البارون ميلر " Baron Miller " ، ثم عين بعده الدكتور " تيودور فون هوجلين " "Tuder Von" ثم خلفه الدكتور ناترر "Natrar" وقد توفى بالخرطوم عام ١٢٧٩/١٨٦٢.(١)

وبلغت عدد العائلات النمساوية بالخرطوم أربعين عائلة ، وأشهر العائلات النمساوية عائلة " هاك ماخير" "Hak Makhyair"(٢)

وأشهر شخصية نمساوية فى ذلك الوقت فى السودان هو سلاطين باشا والذى دخل فى خدمة الحكومة المصرية ، فعينه غردون حاكما لدارفور سنة ١٣٠١ / ١٨٨٤.

الايطاليــــون :

لعله مما عزز وقوى من وجود الأوروبيين فى السودان ذلك العدد منهم ، الذين يعملون كأطباء وصيادلة ومعظمهم من الايطاليين وأقلهم من الفرنسيين ، وأغلب الايطاليين يعملون فى مجال البناء ، ودهان الجدر وكان منهم واحد أو اثنان يعملان بالتجارة ، وكان بالخرطوم حوالى خمس عشرة عائلة ايطالية أشهرها عائلة دفيد النقاش "Deved" (٣)

ويبدو أن قلة عدد الايطاليين بالسودان جعلت حكومتهم غير مهتمة فى تعيين قنصل لهم فى الخرطوم لرعاية مصالحهم ، وذلك بالرغم من أن قناصل الدول الأجنبية فى السودان لا يهتمون بشئون رعاياهم بقدر مايهتمون

---

(١) انظر محمود قبانى ، مرجع سابق ، ص ٣٤.

(٢) انظر سليمان كشه ، مصدر سابق ، ص ٤.

(٣) المصدر نفسه ، ص ٥.

بممارسة الأعمال التى لاتتفق مع العمل الدبلوماسى أو القنصلى مثل مزاولة الاعمال التجارية وخاصة تجارة الرقيق ، اضافة الى الاشتغال بزيادة نفوذ بلادهم وايجاد موطىء قدم لهم فى السودان .

وهنالك عناصر أوروبية أخرى بالسودان ابان الحكم التركى المصرى أمثال الفرنسيين ، فكان فى الخرطوم تسكن حوالى عشرين عائلة فرنسية أشهرها عائلة الدكتور " بتيه " ، وكانت لهم قنصلية فى الخرطوم يقوم عليها المسيو ثيبو "Thybo" ، وأيضا هنالك حوالى عشرين عائلة روسية أشهرها عائلة " بطرس بك سركيس " ، ولم يكن بين تلك العائلات عائلة انجليزية (١) ، وذلك رغم النفوذ الانجليزى الكبير فى مصر وبالتالى فى السودان ، الا أنه أى السودان كاد أن يكون مقبرة لكبار الشخصيات الأوروبية عموما والانجليزيه على وجه الخصوص ، فقد قتل فيه هكس باشا قائد حملة الحكومة فى معركة شيكان أكثر المعارك خسارة بالنسبة للحكم التركى المصرى ، ثم قتل فيه غردون باشا حاكم عام السودان ١٣٠١-١٣٠٢ = ١٨٨٤-١٨٨٥ على يد أنصار المهدى ، وقبل ذلك مات بالسودان العشرات من دعاة التنصير الاوروبيين .

وايضا كان يوجد بالسودان آنذاك أمريكيون ، وكانت لهم قنصلية يقوم عليها قبطى هو شنوده " الابن " ، كما يوجد ايرانيون ، حتى ان القنصل الايرانى فى مصر قدم طلبا التمس فيه تعيين وكيل لها بالسودان لرعاية مصالح رعاياها ، ويرجو الاعتراف بالتاجر المقيم بالسودان ويدعى جرجس بولص وكيلا له (٢)

---

(١) سليمان كشه ، مصدر سابق ، ص٤٤ .

(٢) سليمان كشه ، المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

ومن العناصر التى جذبتها حالة الأمن والاستقرار التى بسطها الحكم التركى المصرى فى السودا ن ،بعض " الحلب " وهم من الرعاع الذين يقضون حياتهم رحالة ويحترفون التسول باستخدام القردة ،وبعضهم يضربون الدفوف ويتغنون على أنغامها ،ويضحكون الناس، وهم المعروفون فى مصر باسم " غجر الشام" (١) ، ومازالت بقايا كثيره منهم موجوده فى شتى بقاع السودان ،يمارسون أعمال الحدادة والسمكرة ، وهم بصفة عامة قوم تبدو عليهم التعاسه ، وماعرفوا قط صفات مثل الشرف والأمانة والشهامة والمسئولية.

ومن العناصر التى ساعدت فى قدومها الى السودان امتداد الادارة التركية المصرية جنوبا ،السوريون واللبنانيون ،فقد استقروا فى بادىء الأمر فى مصر وكانوا يتواجدون فى كل من القاهرة واسيوط ، ثم هاجروا منها الى السودان وتوغلوا فى جنوبه ،وقد أنشأوا هنالك مشاريع تجارية ومارسوا تجارة الرقيق ، وقد بنوا لهم زرائب (٢) لوضع رقيقهم فيها كما انشأوا لهم قوات مسلحة لحماية تجارتهم (٣) ، وبعد انهيار الحكم التركى المصرى فى السودان تفرقوا فى المدن ،وبعضهم استوطن أم درمان ،فى حى " المسلمانية " الذى يقطنه ، الشوام ،واليونانيون واليهود ، وذكر البعض ،أن من الشوام من كان يحضر الصلاة فى المسجد مع الخليفة عبد الله (٤) .

---

(١) ابراهيم فوزى ،ج ٢ ، مصدر سابق ،ص٢٥٩ .

(٢) زرائب : جمع زريبة ،وهى ارض فضاء ،تسور وتعمل بها مساكن وتودع بها السلع و الأمتعة والخيل والماشية ، انظر عبد الله حسين ج ١ ، مرجع سابق ،ص ١١٧ .

(٣) عبد الله حسين ،ج ١ ، المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

(٤) انظر ، سلاطين ، مصدر سابق ،ص ٢٧٧ .
وانظر ايضا ، ابراهيم فوزى ،ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

الهنـــــود :

ان من محاسن الحكم التركى المصرى ، أن صارت فى السودان حركة تجارية رائجة ، فوفد اليه نتيجة لذلك التجار من كل حدب وصوب ومنهم الهنود ، الذين تركز وجودهم فى سواكن وأم درمان والأبيض .

وكان محافظ سواكن يتقاضى من التجار الهنود ضرائب باهظة ، فلما شعروا بارهاق كثرة الضرائب ، اضطروا لبيع بضائعهم بأبخس الأثمان وعادوا الى ديارهم باحدى السفن ولم يستأنفوا التجارة فى السودان الا فى ١٢٩٨/١٨٨١ ، حيث وصل اثنان منهم ونزلا ضيفين عند الشناوى بك عميد تجار مدينة سواكن ، والذى له اتصالات ومعاملات تجارية بالهند والعراق وشواطىء بلاد العرب وأندونيسيا والملايو ، ثم بدأ سيل التجار الهنود يتدفق الى السودان خصوصا بعد ربط سواحل البحر الأحمر بداخليه القطر فازدحمت سواكن بالباعة والمشترين وأصحاب روءوس الاموال وكبار التجار العالميين ، وانعكست هذه الحالة على الحياة المعيشية للسكان وعلى شكل المدينة حيث كثرت العمارات السكنية والفنادق وقدزاحم الهنود الوطنيين فى التجارة مزاحمة كبيرة (١) .

واستطاع بعض الهنود النزوح من سواكن الى داخل البلاد بحثا عن أماكن جديدة فى السودان لمزاولة تجارتهم أو الى خدمة أخرى تحقق لهم دخلا ، فوصل بعضهم الى أم درمان وبدأوا أعمالا تجارية واستمروا حتى نهاية الادارة التركية المصرية .

---

(١) محمد صالح ضرار ، مرجع سابق ، ص ٨٤ .

وفى ظل الدولة المهدية يبدو أنهم فقدوا جزءا كبيرا من أملاكهم وقابلوا الخليفة لهذا الشأن ، ففى أوائل ١٣٠٣/١٨٨٦ وفد على الخليفة عبد الله التعايشى عشرة رجال منهم سبعة من الهنود المسلمين وثلاثة من بخارى ، فتلقاهم الخليفه بالاكرام وقدم اليهم الاغذية ، وحاول جهده لمساعدتهم ، فأمر بالحاقهم بالعمل فى المطبعة الحجرية القديمة ، حيث كان من بينهم من أبدوا سابق معرفتهم بالكتابة والنسخ ، كما جعل لكل منهم راتبا [١] . وكان الهنود يسكنون فى حى المسلمانية أيضا مع الشوام واليونانيين واليهود [٢] .

كما كان لبعض الهنود وجود فى مدينة الأبيض [٣] ومازالت هنالك بقايا لهم فى كسلا ، و ودى مدنى والخرطوم والأبيض وبور سودان .

المغاربة :

المغاربة اسم فضفاض يطلق على كل من جاء من المنطقة التى تقع مابين حدود مصر الغربية والمحيط الأطلسى [٤] ، وللمغاربة وجود فى السودان من قبل مجئ الحكم التركى المصرى الى السودان ، بل كان المغرب العربى العربى رافد آخر من روافد الثقافة العربية والاسلامية فى السودان ولذلك تسمع عن هجرة مجموعة من علماء الدين المغاربه ، وبذلك شاركوا فى تنشيط الحياة الثقافية والدينية ، فمن هؤلاء المغاربة الشيخ التلمسانى المغربى ،

---

(١) ابراهيم فوزى ، ج ٢ ، مصدر سابق ، ص ٩٧ .

(٢) ابراهيم فوزى ، ج ٢ ، المصدر نفسه ، ص ٢٩٣ .

(٣) ميمونه ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٤) ايطالى مجهول الاسم ، مصدر سابق ، ص ٤٩ .

ووالد الشيخ سعد ولد شاشاوى [١] ، ووالد الشيخ على اللبدى [٢] ،ومن قبل كان محمد بن عمر التونسى [٣] الرحالة قد أتى الى سلطنة دار فور للحاق بوالده الذى استقر هناك ليعلم الناس الفقه وعلوم القرآن والحديث واللغة وأيضا جاء الى السودان الشيخ دفع الله بن مقبل [٤] ، ووالد الشيخ حسن ود حسونه [٥] .

ومن الملاحظ أن المغاربة قبل العهد التركى كانوا يأتون الى السودان على هيئة أفراد الا أنه بعد ضم السودان للادارة التركية المصرية صار العنصر المغربى يهاجر الى السودان طلبا للرزق والاستقرار.

فكان أول مجيء للمغاربة الى السودان فى العهد التركى المصرى عندما انضم عدد كبير منهم الى جيش اسماعيل باشا ، وقد ضمت فى صفوفهم جنودا من كل بقعة تقع بين حدود مصر الغربية و المحيط الأطلسى [٦] من طرابلسيين وتونسيين وجزائريين ،ومراكشيين ،وجميعهم كانوا فرسانا وبعضهم كان لديه سونكى [٧] مثبت على بندقية [٨] .

---

(١) محمد النورود ضيف الله ،كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء ،والشعراء فى السودان ،تحقيق يوسف فضل ، الخرطوم ، الطبعة الثالثه ، دار جامعة الخرطوم للنشره ١٤٠٠ / ١٩٨٥ ، ص ٢٢٢ .

(٢) ود ضيف الله ، المصدر نفسه ، ص ٢٦٢ .

(٣) محمد بن عمر التونسى ، صاحب كتاب تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب ، والسودان . وهو الكتاب الذى سلط فيه كاتبه الأضواء على التاريخ السياسى والاجتماعى فى سلطنة دار فور بغرب السودان .

(٤) ابن ضيف الله ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ .

(٥) ابن ضيف الله ، المصدر نفسه ، ص ١٣٣ .

(٦) ايطالى مجهول الاسم ، مصدر سابق ، ص ٣١ .

(٧) هى الشفرة التى تتقدم آلة اطلاق الرصاص، انظر عون الشريف القاموس مرجع سابق ، ص ٥٨١ .

(٨) نسيم مقار ، مرجع سابق ، ص ٢٤٩ .

وعندما جاء احمد باشا ابو ودان بعد خورشيد باشا استغنى عن المجندين المغاربة وأرسلهم الى مصر، واعتمد فى تكوين الفرسان غير النظاميين على الشايقية بصورة مطلقة [١] ، ويبدو أن قسما كبيرا من المغاربة لم يرق له الرجوع الى مصر، وفضل البقاء فى السودان ، فتفرقوا فى أنحائه، ويبدو أن هذه الفئة بالذات من المغاربة لم تشترك فى الحملة الاللاستفادة من امكانات الحملة عند وصولها الى السودان .

وقد استقر جزء من المغاربة فى العهد التركى المصرى، فى " حلة كوكو " شمال شرق الخرطوم ، وجعلوا لهم زعيما يدعى الشيخ عبد السلام الذى أوكله خورشيد باشا بنقل الطوب من خرائب " سوبا " الى الخرطوم ليستخدمه الأهالى فى البناء [٢] .

وتوجد الآن كثير من الأسر المغربية فى السودان ورغم أن معظمهم انصهروا فى المجتمع الا أن بعض هذه الأسر تعرف من خلال أسمائها ، حيث أن بعض الأسماء تنتهى بالمغربى ، أو زرُّوق ومنهم من تنتهى اسماؤهم ب " بتيك " أو " كعوره" أو الادريسى أو سنهورى أو الطوخى .

هذا وقد تركز وجود المغاربة حاليا فى السودان فى أم درمان ، وشرق الخرطوم وفى منطقة النيل الأزرق ، فى الهلالية ، ورفاعة ، وود السيد [٣] ، وفى أبى حراز شمال ود مدنى ، ومنهم كثيرون بحلفا الجديدة [٤] ، كما يوجد

---

(١) ايطالى مجهول الاسم ، مصدر سابق ص ٦٠ .

(٢) ميمونه ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٣) الهلاليه ، ورفاعه ، وود السيد ، كلها مناطق تقع على الضفه الشرقية للنيل الازرق جنوب الخرطوم .

(٤) عثمان بن حمد الله ، دليل العارفين ، القاهرة : شركة الطباعة الفنية المتحدة الطبعة الاولى ١٩٦٥ ، ض ٤٩ .

باقليم الجزيرة مايعرفون " بالهواره " وهم عنصر من البربر استقر بعضهم في صعيد مصر .

اضافة الى ذلك فقد صاحبت الحملة ايضا عناصر من" الاكراد" استقروا فى السودان ولكنهم يدعون بأنهم مغاربة ،ويبدو أنهم اتخذوا هذا الادعاء ليسهل عليهم الانصهار فى المجتمعات العربية فى السودان وحتى يتجنبوا مجافاة العرب لهم نتيجة للحساسيات القديمة .

الأقباط :

لقد كان الأقباط أحد العناصر التى شاركت فى ضم السودان فى حملة اسماعيل باشا وايضا فى الحملة التى قادها الدفتردار الى كردفان مما يكشف لنا سر الوجود المبكر للأقباط فى كردفان وفى الأبيض بالذات،وكان مع اسماعيل باشا ،" مباشر "(١) يدعى حنا الطويل وهو من أقباط مصر(٢) وكثير من الموظفين الأقباط رافقوا الحملة الى السودان .

وعندما زار محمدعلى السودان فى ١٢٥٤ / ١٨٣٨ رأى أنه من الواجب تنظيم الشئون المالية والادارية فى السودان ، وهذا يستدعى تعيين عدد من الكتبة والمحاسبين ، ولهذا السبب استقدم عددا من الاقباط ومن ثم وزع أربعين من أولئك الكتاب وعائلاتهم فى الأقاليم اثناء حكم محمدعلى(٣) يرأسهم أحد الأقباط يدعى هاريون (٤) .

---

(١) المباشر : هو لقب لرئيس الكتبة ،أنظر الايطالى المجهول الاسم ، مصدر سابق ، ص٩٣ .
(٢) كاتب الشونة ، مصدر سابق ، ص ٨٨ .
(٣) ب . م ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .
(٤) انظر الايطالى مجهول الاسم ، نفس المصدر ، ونفس الصفحة .

وفى عهد عباس ظهر أن السودان مازال فى حاجة الى أعداد كبيرة حتى يتم تنظيم الادارة الحكومية وخاصة فى النواحى المالية ووضع أسس صحيحة للحسابات والمراجعة المالية العامة ، ونتيجة لهذه الحاجة فقد وفدت أعداد أخرى كبيرة من الأقباط للقيام بذلك العمل [١]، فلما زادت أعدادهم ، أنشأت الجالية القبطية الأثرذكسيه كنيسة فى موقع الكاتدرائية القبطية الحالية فى الخرطوم .

وقد لعب الاقباط دورا هاما فى الادارة التركية المصرية فى السودان وقد ساعدت سياسة محمدعلى باشا فى اعادة تنظيم الادارة فى مصر على ازدياد الوظائف المالية والحسابية فى دواوين الحكومة بشكل كبير، وكان الأقباط - فى ذلك الوقت - أجدر الناس بشغل هذه الوظائف، بما عرفوا من خبرة فى التجارة والائتمان ،لذا فقد اصبحوا هم العنصر الوحيد الذى استقدم من المصريين الى السودان لأداء هذا النوع من الأعمال [٢] .

ولقد تضاعفت كراهية السودانيين للأقباط لأنهم كانوا الأداة البغيضة فى جمع الضرائب ،وقد لعبوا هذا الدور الجائر نيابة عن الحكومة فتولوا أمر دفاتر التقديرات وعائدات الضرائب ،وأهم من ذلك كله ، فانهم كانوا على علم بديون الحكومة على كل فرد ، فالسودانيون كانوا لذلك السبب يكرهون الأقباط رغم التعذيب الذى يلاقونه من الحكمدارين وخاصة للمحاسبين منهم والصيارفة [٣] .

---

(١) ضرار، مرجع سابق ،ص ٦٥ .

(٢) الايطالى مجهول الاسم ، مصدر سابق ،ص ٩٢ .

(٣) الايطالى مجهول الاسم ، المصدر السابق ،ص ٢٧ .

والأقباط على عكس الحكام والمديرين ، فان هذه الفئة من المصريين قد استقرت بالسودان ، فهم منذ قبولهم العمل بالسودان ، كانوا قد وطنوا أنفسهم على الاستقرار فيه ، وقد اندمج أبناؤهم في البلد الجديد باعتباره موطنا لهم وهذا هو مايفهم من الرواية التي ذكرها أحدهم[1] ، وهو ابن أحد أولئك الأقباط المهاجرين ، اذ تحدث عن وصول مدرس قبطي جديد عندما كان بالمدرسة في الأبيض وقد رفض هذا المدرس السماح للتلاميذ بالانصراف للاشتراك في الاحتفالات التي أقيمت لاستقبال غردون سنة ١٢٩٤/١٨٧٧م ، فثار التلاميذ واعتدوا عليه بالضرب ولكنه انقذ منهم وهو يصيح " أنني أجنبي ولا أفهم طبيعة صبية السودان ، لعن الله صبية السودان وكردفان"[2] .

هذا وقد لعب الأقباط دورا غاية في الأهمية ، في ادارة كان يتحكم فيها حكام مسلمون بعضهم أميون وانصاف أميين في غالبيتهم .

---

(١) وهو يوسف ميخائيل .

(٢) ب . م . هولت ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .

أوضاع العناصر غير السودانية فى الدولة المهدية

عند ما بدأت شرارة الثورة المهدية تتطاير، أصاب كثيرا من الأجناس غير السودانية الجزع، ونتيجة لذلك غادرت البلاد طوعا واختيارا، ولكن بعد صدور قرار الاخلاء، اعتبر كثير من الأجانب أن ذلك يعنى أن الحكومة سوف تتخلى عن حمايتهم بسحب حامياتها وجنودها ومعهم عتادهم واسلحتهم وتتركهم لاتباع المهدى، وقد أحس كثير من تجار الصادرات والواردات بين مصر والسودان بما يلحق متاجرهم من فادح الخسائر والمضار، فألفوا فى ١٣٠١/١٨٨٤ لجنة للدفاع عن مصالحهم وقدموا مذكرة الى الخديو ونوبار باشا رئيس النظار ووكلاء الدول السياسيين، أبانوا فيها المضار التى ستلحق بهم من جراء اخلاء السودان[1]، الا أنهم لم يدركوا أنه منذ أن حدث الاحتلال الانجليزى لمصر، لم يكن للخديو أو نوبار يد أو رأى فى قرارات كبيرة ومهمة مثل قرار الاخلاء .

وعندما حدث حصار الخرطوم، بدأ غردون يساعد كل من أراد مغادرة البلاد، حتى اذا ما فتح أنصار المهدى الخرطوم انقسمت العناصر غير السودانية الى فريقين اثنين :.

الفريق الأول :

رغب فى البقاء فى الخرطوم، أملا فى التكيف مع الوضع الجديد :-

فعندما فتح محمد احمد الخرطوم و استقر بأم درمان، أصدر منشورا سمح فيه لجميع الأجانب بالاقامة فى الخرطوم ومنذ صدور ذلك المنشور أخذ الأجانب فى السعى للارتزاق، وصاروا يمارسون شتى المهن مثل صناعة

---

(١) انظر الرافعى، مصر والسودان، مرجع سابق، ص١٢٢ .

الخبز ، وفتح جوانيت الاطعمة ،ولكن بعد وفاة محمد أحمد أصدرالخليفة عبد الله منشورا أمر فيه الأجانب بالتخلى عن الخرطوم وعليهم الاستقرار بأم درمان ،ولذلك الأمر وفر لهم الخليفه أسباب النقل لهم ولأمتعتهم من الخرطوم الى أم درمان [١]

وهناك من استقر فى أم درمان من المصريين ،بلغ عددهم زهاء الخمسة الاف رجل ،معظمهم كانوا من جنود الحكومة النظاميين [٢] وأولئك كلهم من الرجال فضلا عن النساء ، لأن معظمهم قد بقى ومعه اسرته ،عكس الذين خرجوا الى الأقاليم كانوا أفرادا ، فى غالبيتهم غير متزوجين .

وكان سكان السودان من المصريين يبلغون وقت صدور قرار الاخلاء خمسين ألفا ،منهم خمسة عشر ألفا من الأقباط [٣] .

ومن سكان السودان المصريين من تقدم عند المهديين و نال وظائف كتابية وصناعية جمة كانوا بواسطتها فى رغد من العيش [٤] ، فان الدولة المهدية استفادت من خبرتهم السابقة فى الخدمة المدنية حيث كانوا موظفين موفدين من الحكومة ، بل أن من المصريين من كان يصاحب جباة الزكاة من أتباع المهدى [٥] .

ولما سقطت الخرطوم جمع أنصار المهدى رجالا من المصريين كانوا فى السابق عمالا فى مصنع للذخيرة ، فجعلوا لهم رواتب للاستمرار فى

---

(١) ابراهيم فوزى ،ج ٢ ،مصدرسابق ،ص٩٢ .

(٢) ابراهيمفوزى ، ج ٢ المصدر نفسه ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٣) الرافعى ، مصر والسودان ،مرجع سابق ،ص ١٢٢ .

(٤) ابراهيم فوزى ، المصدر نفسه ،ص ٢٦١ .

(٥) ابراهيمفوزى ،المصدر نفسه ،ص ٢٥١ .

نفس العمل وليعملوا بتعبئة الخرطوش "[1] ووضع المواد المتفجرة فيه ، كما أنشأ الخليفة دارا لاستخراج ملح البارود وكلف أحد الصيادلة المصريين بالعمل فيها[2] ، وكان الخليفة يستصحب فى رحلاته اثنين من المصريين للنفخ فى البوق وتوقيع النغم[3] ، ويبدو أنها أنغام عسكرية حماسية .

ومن جهة اخرى فان أكثر المقاهى فى عصر المهدية كان يديرها مصريون[4] أما الأقباط فقد ادعوا الاسلام فى عصر المهدية ، وقد سكنوا حى " المسالمه " والذى يقع الان فى وسط أم درمان ، وشمال سوق أم درمان الرئيسي ، وكانوا يبعثون كل صباح للخليفة عبد الله باللقيمات " الزلابيا " كنوع من الود ولتذكيره بأنهم مازالوا على ولائهم له ، وان الحى الذى يسكنه الاقباط " المسالمة " يعد الآن من أقدم أحياء أم درمان وأرقاها ويمتاز بمنازله الفاخرة وكنائسه ذات المنارات العالية .

لكن دخول بعض أولئك الاقباط للاسلام كان مجرد ادعاء ، والدليل على ذلك كان يسكن بجوار بيت المال - وهو بمثابة وزارة الخزانة بالنسبة للدولة المهدية - قبطى اسمه " محروس" مع قريبة له اسمها" مصطفية " وكلاهما كانا من أهالى الخرطوم ، وقد أصيب ذلك الرجل بجنون ، فصعد ذات يوم على ربوة عالية وخطب الناس قائلا انه " مارى جرجس" فدنت منه

---

(١) انبوب ماء من البلاستك او سواه ، وهو أيضا اسم لقناة الالة الخاصة باطلاق الرصاص أو اسطوانه يستعمل فيها البارود .
انظر : عون الشريف ، القاموس ، مرجع سابق ص ٣٢٩ .

(٢) ابراهيم فوزى ، مصدر سابق ، ص ١٤٩ .

(٣) سلاطين ، مصدر سابق ، ص ٢٨١

(٤) ابراهيم فوزى ، المصدر السابق ، ص ٣٠٩

قريبته المذكورة وقالت له "يامحروس انك بدعواك هذه تنبههم الى أننا لا زلنا نصارى[1]"، اضافة الى اضطهاد النصارى لمن يهتدى منهم الى الاسلام ، بعد التخلى عن نصرانيته ، هذا وان الأقباط مثلما لعبوا دورا هاما في الادارة التركية المصرية فى السودان ، فقد لعبوا نفس الدور الهام فى أثناء الحكم الثنائى " الأنجلو مصرى" وقد اشتهر الأقباط بأنهم أبغض الأجانب من غير المسلمين فى السودان فقد كرههم الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء ، فهم عند أنصار المذهب الكاثوليكى كفارا ، أما بالنسبة للبروتستانت فهم من مروجي البدع والخرافات ، ولذلك سعى أنصار المذهبين الى تحويل الأقباط الى مذاهبهم.[2]

وكان المسلمون فى مصر يتلطفون معهم لاعتمادهم على خبرتهم فى الحساب وأعمال السكرتارية والصيرفة ومع ذلك كانوا يشعرون بشىء من الضيق ويبدو أن ذلك الشعور بالضيق ، هو الدافع الذى شجعهم الى النزوح بأعداد كبيرة الى السودان لطرق أبواب الرزق والاستقرار فيه ، والسودانيون لسماحتهم تركوهم ولم يمسوهم بسوء رغم كراهيتهم السابقة لهم ، والان الاقباط فى السودان يعدون من أثرى الأثرياء ، ويسكنون أرقى الأحياء فى المدن فلا تجد الا قليلا منهم فى القرى ، والأحياء التى يسكنونها تمتاز بجمال بنائها وغلاء ايجاراتها واثمانها ، كما أن متاجرهم تجدها فى الغالب الأعم فى نواصى الأسواق ، حيث الواجهات التى يكثر عليها اقبال المشترين من الناس، وقد تخصصوا أيضا فى تجارة الادوية ويمتلكون معظم الصيدليات فى المدن ، وأكبر شركات استيراد الادوية فى السودان يمتلكها أقباط، وأيضا تخصصوا فى صناعة وتجارة الخمور، كما أن معظمهم يتعامل بالربا ، وكبار

---

(١) ابراهيم فوزى ، ج ٢ ، مصدر سابق ، ص ٢٥٣ .

(٢) الايطالى مجهول الاسم ، مصدر سابق ص ٢٦ .

المرابين فى السودان نجدهم من الأقباط أيضا ،اضافة الى أنهم يمتلكون عددا من المستشفيات الخاصة.

أما الأوروبيون فى دولة المهدية ،فقد استقروا فى حى" المسلمانية" وهو اسم يطلق فى ذلك العهد على غير المسلمين بوجه عام ، وقد أطلقه أتباع المهدى على كل من لم يدينوا بالاسلام ،ويشارك الأوروبيين فى السكن فى حى" المسلمانية " بعض السوريين والأرمن وبعض الأقباط ،وقد انشغل أهل ذلك الحى بأمورهم وانتخبوا من بينهم أميرا يأتمرون بارشاداته وأوامره ،وقد كان ذلك الرئيس المسيحى مسوءلا أمام الخليفه عن كل مايجرى فى دائرته ،وعن كل شخص أوربى مسيحى فى أم درمان ،واسم الأمير الذى تولى ذلك المنصب فى١٣١٣/١٨٩٦ هو" نيكولا" ،وهو رجل يونانى يطلق عليه السودانيون اسما عربيا مماثلا لاسم الخليفة عبد الله ،ومهما يكن الأمر فليس مسموحا لأى شخص من أولئك المسيحيين بمغادرة أم درمان[1] ويبدو أن ذلك الاجراء هو اجراء موءقت ريثما تستتب الأمور بالنسبة للخليفه ،ويبدو أيضا أنه اتخذ هذا الاجراء خشية أن يدلى هوءلاء المسيحيون بمعلومات الى الحكومة فى مصر أو الانجليز تخص الدولة المهدية ولكن على العموم بدأ البعض من أولئك الاوروبين يتضايق من ذلك الاجراء الذى اعتبر كالأسر وقد تمكن أحد القسس النمساويين واسمه" أورفالدر"[2] Ohrwalder ومعه مجموعة من النساء من الهروب من أم درمان الى

---

(١) سلاطين ، مصدر سابق ،ص ٣٤١.

(٢) أورفالدر : هو صاحب كتاب" عشر سنوات من الأسر فى معسكر المهدى" وقد كتبه باللغة الألمانية ،وترجمة عن الالمانية الى الانجليزية ،" ونجت باشا ".

Ten years' Captivity In The Mahdi's Camp.

مصر وكان هذا القسيس يجاور عددا كبيرا من اليونانيين فى الحى ، وكانت مساكن الأوروبيين فى أم درمان فى عصر المهدية صغيرة ومتلاصقة وتبعا لذلك كان من اليسير جدا زيارة بعضهم البعض مما يخفف عنهم كثيرا من آلام الوحشة والاغتراب [١] .

وقد حدثت زيجات بين هؤلاء الأوروبيين وبين غيرهم من الأجناس المسيحية حيث أن طائفة من اليونانيين والأرمن والأقباط بلغ مجموعهم جميعا خمسة وأربعين رجلا وامرأة تزوجوا من مسيحيين ولدوا فى السودان [٢] .

وكان كثير من الأوروبيين الذين عاشوا فى أم درمان يمارسون الاتجار فى مواد مختلفة فى حى يقرب من ميدان سوق أم درمان الحالى حيث بنوا غرفا خاصة لتجارتهم ، ظلوا فيها آمنين لا يعكر صفوهم أى تدخل من الأهالى .

وكان القسيس الهارب الأب أورفالدر يعمل نساجا ، يعيش هو وأهله مما يكتسبه من نسج القطن ، وعاش القسيسان الايطاليان ، الأب روسينيولى [٣] "Rossignoli" والأب "بوروجنتو "Puorgento" وكلاهما من طائفة الارسالية الكاثوليكية ، وكانا يتاجران فى الساعات فى الدائرة المركزية للسوق ، وقد عاش السيدات الأوروبيات الى جانب أولئك الأوروبيين [٤] ، وكان من الأوروبيين من عمل فى الحكومة المهدية ، فعندما أدرك عبد الله

---

(١) سلاطين ، المصدر السابق ، ص ٣٤١ .
(٢) سلاطين ، المصدر السابق نفسه ، ص ٣٤١ .
(٣) الأب روسينيولى : صاحب كتاب : i miei dodici anni di prigiona in mezzo ai dervici del Sudan. "اثنا عشر عاما فى السجن وسط دراويش السودان" .
(٤) سلاطين ، المصدر السابق ، ص ٣٤١ .

التعايشى أن البارود والذخيرة التى عنده لابد من نفاذها ،أخذ يسعى الى التوصل الى طريقة لاستخراج البارود فعهد الى يونانى اسمه " ديمترى بردغاجى" باستخراج البارود وأنشاء دارا لهذا العمل ،فنجحت تجارب بردغاجى ، ومكث مشتغلا باستخراج البارود بضع سنوات كما أنشأ التعايشى دارا لعمل مادة ملح البارود ،التى توضع فى الكبسول والمسماة (عجينة الكبسول) وأسند العمل فيهاالى" لبتون بك" مدير بحر الغزال سابقا ، وحسن أفندى زكى - مصرى - أحد أطباء الحامية فى الخرطوم سابقا[١] .

وكان الأوروبيون والأقباط يتلقون رسائل من ذويهم ويحملها لهم الى أم درمان عرب العبابدة[٢] ، وان الحرية الدينية بالنسبة للمسيحيين كان مسموحا بها ولكن بصورة غير مباشرة ،فيذكر أحد المعاصرين أنه كان يسمح له بالذهاب للأب أو رفالدر فى أيام الأحد ،وفى يوم أحد بعد الظهر أرسل اليه ليتأكد من وجوده ،فلم يجده وسأل عنه جيرانه اليونانيين فعرف منهم أنه تمكن من الهرب[٣] ، فانهم ان لم يكن يمارسون شعائرهم الدينية ، فما الذى يجعله يذهب كل يوم أحد للأب أورفالدر ؟؟

وكان معمل تكرير ملح البارود مجاور لبناء الكنيسة التابعة للارسالية الكاثوليكية فى الخرطوم ،مما مكن الأوروبيين الذين يعملون فى ذلك المعمل أن يقضوا ليلهم فى حدائق كنيسة الارسالية بعد الانتهاء من عمل النهار[٤] وبامكانهم استغلال تلك الفرصة فى أداء شعائرهم الدينية ، ويبدو أن الخليفة

---

(١) ابراهيم فوزى ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٢) سلاطين ، مصدر سابق ، ص ٣٣٧ .

(٣) سلاطين ، المصدر السابق ، ص ٢٥٩ .

(٤) سلاطين ، المصدر السابق ، ص ٣٣٦ .

عبد الله كان يعلم ذلك ولكنه يتلطف معهم لاعتماده عليهم فى انجاز تلك الأعمال المهمة التى أوكلت اليهم خاصة وأن الدولة فى حاجة ماسة لذلك لاستخدامه فى الدفاع عن الدولة ، وللقضاء على حركات المقاومة الداخلية للدولة المهدية والتى بدأت تظهر من حين لآخر.

وان لم يكن الخليفه يسمح لهم بأداء شعائرهم الدينية ، فقد كان بوسعه نقل معمل تكرير ملح البارود الى مكان بعيد من بناء الكنيسة خشية دخول أولئك الأوروبين اليها ، أو حتى الى الحديقة المجاورة لها ، وكان بوسعه أيضا تحويل تلك الكنيسة الى مسجد أو هدمها بحكم أنها أحد رموز الوضع السياسى السابق .

الفريق الثانى :

بعد سقوط الخرطوم فر كثير من الجنود المصريين المسلمين منهم والاقباط والاتراك والاوروبيين ، وتفرقوا فى الاقاليم ، بعضهم فر لاحقا من سيقه من قبل واستقر فى المدن والقرى ، والبعض الاخر فر ايضا الى الانحاء المختلفه من السودان ليكون لنفسه مستقبلا جديدا أو يحاول ان يبدأ حياته من جديد .

فمنهم من اتجه نحو الشمال واستقر فى المدن والقرى المجاورة للنيل حيث بدأوا فى ممارسة بعض المهن التجارية والزراعية ، ومن الأتراك والمصريين من اتجه جنوب الخرطوم وخاصة العنصر القبطى حيث مازال قسم منهم موجودا بمدينة الكاملين على الضفة الشرقية للنيل الأزرق وقد تخلوا عن المسيحية وأصبحوا مسلمين ، ويعرفون باسم " أولاد الأفندى " وهم ذرية أحد

الأقباط واسمه " راشد " ، كان يعمل سكرتيرا لخورشيد باشا ،وان راشدا سبق وأن اشترى جارية شركسية سرا لأن خورشيد شركسى ولا يقبل لقبطى أن يمتلك جارية شركسية ، وقد يناله نتيجة لذلك أشنع أنواع التعذيب ولكن الشركسية بعد مده استنجدت وهى تصرخ بأعلى صوتها وتوسلت بأنها تريد الخلاص من قبضة المسيحى الكافر، فما كان من راشد الا أن أشهر اسلامه خاصة وأن الشركسية كانت حبلى ، وكان ذلك فى ١٢٥٤/١٨٣٨٠

ولما كان خورشيد نفسه يعد من المسلمين المتمسكين بأهداب دينهم فقد اغتبط لهذا الحدث أيما اغتباط ،وأمر بالاحتفال بهذه المناسبة الدينية فى موكب كبير،وصار اسم راشد منذ ذلك اليوم " محمد نور الدين" وعند ختانه انهمرت عليه الهدايا والهبات من علية القوم(١) .

وقد خرج راشد وأسرته من الخرطوم بمحاذاة النيل الأزرق عقب سقوط الخرطوم وهناك من المصريين الأقباط من اتجه نحو كردفان ودارفور لينضم لاخوانه الذين استقروا فى تلك الجهات من قبل خاصة وأن كثيرا من المصريين والاتراك والجراكسة الذين دخلوا السودان مع حملة الدفتردار الى كردفان قد استوطنوا تلك المناطق ،منهم والد القبطى يوسف ميخائيل صاحب المذكرات التى تحكى عن تاريخ حياته وأسماها " غردون والسودان " ، ويوسف ميخائيل من مواليد الأبيض عاصمة اقليم كردفان ،وقد انضم هو واخوته الى المهدية بعد فتح الأبيض ويبدو أنهم نجحوا فى خلق علاقات طيبة مع العهد الجديد ، وبعد الفتح الثنائى عاش يوسف فى الأبيض، وقبض عليه ١٣٥١/١٩٣٤ وأدين بحيازة الخمور البلدية ،فسجن بسجن

---

(١) الايطالى مجهول الاسم ،مصدر سابق ،ص ٦٤ ، ص٦٥ .

الأبيض ،وفى السجن كتب مذكراته التى سبق ذكرها ، وبعض فصول هذه المذكرات تلقى أضواء جديدة على أحوال كردفان قبيل المهدية ،وتحوى أخبار الأوضاع الداخلية فى الدولة المهدية فى ظل قيادة الخليفة عبدالله التعايشى (١) .

ولم ينتشر العنصر المصرى بوجه عام والقبطى بوجه خاص فى جنوب الخرطوم أو فى كردفان ودارفور فحسب ، وانما فى معظم جهات السودان واصبح السودانيون من المصريين معروفين فى جميع أنحاء البلاد السودانية من الفاشر غربا الى سواكن فى أقصى الشرق ،ومن جنوب السودان الى حلفا فى أقصى الشمال .

ومما يجدر ذكره أن قسما من الاتراك والمصريين الذين استقروا فى دارفور بغرب السودان ، قد تركز وجودهم فى مدينة الفاشر ،فى حى من أحياء تلك المدينة أطلق عليه حى" اولاد الريف " ، وهو لقب يطلقه السودانيون على المصريين والأتراك على السواء (٢) ، وقبل الحكم التركى المصرى يوجد هناك بعض المصريين ، يبدو أنهم من الذين كانوا يمارسون أعمالا تجارية بين أسيوط والفاشر.

ومثل انتشار الاقباط كان انتشار اليونانيين والمسيحيين من الشوام والأرمن وقد هاجرت اكثر هذه الفئات الى جنوب الخرطوم حيث مدن وقرى

---

(١) ابو سليم ، الحركة الفكرية ، مرجع سابق ،ص ٦ .

(٢) ابراهيم فوزى ،ج ٢ ، مصدر سابق ،ص ١٦٠ .
وكلمة الريف : مدلولها فى العربية الفصحى ،الارض المزروعه الخصبة ولكنها اطلقت فى السودان على مصر لشهره ارضها بالخصوبة .
انظر عبد المجيد عابدين ،مرجع سابق ص ١٩ ،الا انه صار لقبا للمصرى والتركى على السواء لاشتراك العنصرين فى حكم السودان .

النيل الابيض والنيل الازرق وأن مدينة " كوستي" أكبر مدن وسط السودان بعد " ود مدني " هو اسم لأحد اليونانيين كان يمتلك في تلك المنطقة معملا لصناعة الجبن ومنتجات الألبان .

هذه الفئات غير السودانية قد تخصصت في الأعمال التجارية وخاصة كما تقدمت - في تجارة البقالة ، وتجارة الخمور، اضافة الى امتلاكهم لمطاحن الغلال وأيضا بناء وامتلاك المخابز ، اضافة الى تجارة الأقمشة .

ونسبة للاهتمام الكبير الذي وجده ميناء سواكن في العهد التركي المصري فقد انتعشت التجارة ،وتقاطر التجار الى السودان نتيجة لذلك وخاصة التجار اليمنيين لاسيما من أهل حضر موت ،واستقر جزء كبير منهم بالسودان الشرقي في مدن سواكن وكسلا ، وصاروا من كبار اصحاب رؤوس الاموال و مازالوا ، وقد استطاعوا أيضا الذوبان في المجتمع السوداني الا ان بعضهم يعرف من اسمه الذي قد ينتهي ،بعازرعة ، أو باوارث ، أو اليمني وما شبه ذلك .

المولدون :(١)

والكلمة جمع مولد وهو مصطلح يطلق في السودان على أبناء الأجناس غير السودانية الذين قدموا في العهد التركي المصري ، وولدوا في السودان - ويطلق عليهم أيضا " المواليد" وهو جمع مولود.

---

(١) اطلقت كلمة مولدون - المستقى من نفس الاصل - في العصور الوسطى على المسيحيين الاسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام وعرفوا في اسبانية باسم المولدين . "Muladies"
انظر هولت مرجع سابق ،ص ٢٣ .

وقد تتابعت هجرات أبناء مصر ، من مسلمين وأقباط ومعهم الاتراك والجراكسة والارناؤود وغيرهم ، للسودان للعمل كموظفين فى الخدمة المدنية أو مجندين فى الخدمة العسكرية ، أما الخدمة المدنية فقد سيطر عليها - كما تقدم - المصريون كموظفين موفدين من قبل الحكومة . فى حين حظى الاتراك بالوظائف الكبرى فى جهاز الادارة وعرف أبناؤهم الذين ولدوا فى السودان باسم المولدين أو المواليد ، وقد كون مثل هؤلاء الأفراد المصريين اصلا أو جزئيا - " حيث كان هناك كثير من التزاوج المختلط " - خلال جيلين طبقة على درجة كبيرة من الأهمية خاصة فى المدن ، ويبدو أنه لا يوجد دليل على ابدائهم اى ولاء خاص للادارة التركية المصرية ، فى عهد المهدية (١).

وقد حدث كثير من الزيجات بين المصريين من فلاحين ومجندين وبين نساء سودانيات ، وكان الخليفه عبد الله قد جعل على المولدين أميرا يدعى " حسن حسنى " وهو مصرى الأصل ، كردفانى المولد (٢) ، وكان الأتراك الذين يعملون فى السودان يتركون زوجاتهم فى مصر ويتزوجون بعد ذلك فى السودان ، ومن نتائج ذلك الاختلاط أن خلق كيانا جديدا فى المجتمع السودانى تركز فى المدن الكبيرة مثل الخرطوم وأم درمان وود مدنى وكسلا والأبيض (٣) ، وأن كثيرا من قادة العمل السياسى والثقافى والقانونى والتربوى فى السودان الآن نتاج ذلك التزاوج والاختلاط .

ويمتاز المولدون بميزات اجتماعية كثيرة من ابرزها القدرة على

---

(١) هولت ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .

(٢) ابراهيم فوزى ، ج ٢ ، مصدر سابق ، ص ٢٥٩ .

(٣) Hill, op. cit., p. 4.

الانصهار فى المجتمعات السودانية الأخرى ، فهم متحررون من أمراض التعصب القبلى ، والأسرى .

والجدير بالذكر أن نسبة المولدين فى السودان يبلغ حوالى ٣ ٪ من جملة المجموع الكلى للسكان فى السودان (١) فى الوقت الحاضر .

وأخيرا فانه مما سبق يتضح لنا أن الحكم التركى المصرى قد ساهم مساهمة كبيرة فى اضافة عناصر جديدة الى الأمة السودانية ، وأعتقد انه بقدر مافى ذلك من خير كثير الا أنه أيضا قد انطوى على شر مستطير ، فالنواحى الايجابية فى ذلك أن العناصر الاسلامية والعربية قد ساهمت فى زيادة وثقل العنصر العربى المسلم فى السودان وقد بدأ السودان يجنى ثمار ذلك فى وقتنا الحاضر ، اذ أن تلك الزيادة وذلك الثقل قد أديا الى كسر شوكة التمرد الذى يشهده السودان فى جنوبه الآن ، اضافة الى أن العناصر المعنية استطاعت الانصهار والذوبان فى المجتمع السودانى ، لما لها من قابلية فى ذلك .

أما النواحى السلبية فى قدوم العناصر غير السودانية ، فأن منهم أوروبيين ويهود وهنود وأرمن ، لاتزال بقاياهم لم تستطع الاندماج فى المجتمع وبالتالى لايتفاعلون مع قضايا البلاد العامة ومشاكلها ولا يشاركون أهالى البلاد مشاعرهم عند تحقيق الأمجاد أو عند المصائب والأزمات . بل تجدهم دائما يكرسون جهودهم على قدر المنفعة الشخصية فى حدود أسرته أو فى حدود العنصر الذى ينتمى اليه

---

(١) مختار عجوبه ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

ومازالوا يعيشون غرباء فى البلاد وكأن أحدهم قد جاء اليها قبل بضع سنين فقط . والأسوء من ذلك أنهم لا يتقيدون بعادات وتقاليد البلاد ومما زاد من هذه الحالة أن سفاراتهم أصبحت فى الآونة الأخيرة اكثر اهتماما بهم لتربطهم ببلادهم الأصلية وتحيى فيهم لهجاتهم وعاداتهم وتقاليدهم .

الفصل الثالث

دور الحكم التركي المصري في استقرار وتوطين الرحل

دور الحكم التركى المصرى فى استقرار وتوطين الرحل

مما تقدم ذكره نرى أن كثيرا من السودانيين قد غادروا مواطنهم الى جهات مختلفة ، بعضهم تبدلت حرفتهم التى كانوا يزاولونها فى زمن استقرارهم ، فمنهم من أصبح راعيا بعد أن كان مزارعا ، وذلك لأن الرعى فى هذه الحالة ، حالة عدم الإستقرار هى أنسب المهن بالنسبة اليه ، لينضم بذلك الى الذين يزاولون فى الاصل حرفة الرعى من قبل ، وليزيد من عدد الرحل الذين لا يقر لهم قرار ، وقد حدث ذلك بسبب الفزع الذى أصابهم نتيجة قدوم ذلك الجيش بقيادة اسماعيل بن محمد على وما صاحب قدومهم من مصادمات مع قوات القبائل ، ولكن أكبر عامل أدى الى الهلع والهجرة وعدم الاستقرار ، هى حملات محمد بك الدفتردار الانتقامية التى كانت من آثارها ان هلك خلق كثير مما ادى الى اهمال الزراعة واستغلال الاراضى وهروب عدد من الرعاة بثرواتهم الحيوانية ، وصارت قرى بأكملها خاوية من السكان ، فتعذر بذلك جمع الضرائب (١)

وعند ما شعرت الحكومة بتلك النتائج السلبية للحملة بصفة عامة ، ولأعمال الدفتردار العنيفة بصفة خاصة ، اتخذت عدة اجراءات تعيد بها الأمور الى نصابها وقد تمثل ذلك فى :

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

اولا : كسب ثقة الرحل والفارين :

ولتحقيق هذا الهدف أنشأ الحكمدار خورشيد المجالس المحلية في كثير من أنحاء السودان ، وكان مجلس الخرطوم يضم عددا من الأعضاء، أبرزهم الشيخ عبد القادر ود الزين ،المستشار الأول للحكمدار ،وقد أمتاز عبد القادر بسعة الأفق ، وأمانة النصح ،وشجاعة أدبية جعلته نافذ الكلمة عند الحكمدار ،وكان أقوى حلقة اتصال بين الحاكم والمحكوم (١) ، فاستعان به خورشيد ، في معرفة أنجع السبل والسياسات التي يمكن اتخاذها في توطين الرحل وارجاع الفارين واستقرارهم (٢) ، فقدم اليه عبد القادر الحل المطلوب ، ـ وكانت لآرائه أفضل النتائج على السودانيين وعلى الحكم التركى المصرى في السودان ـ فقد أشار على خورشد بأن يعفى مشايخ القبائل من الضرائب وكذلك الفقهاء ورجال الدين ،ووجه الصواب في هذا ،أن هؤلاء يمثلون قيادات المجتمع وموطن ثقتهم فان رضوا عن الحكومة ، رضيت العامة والا سخطوا عليها ، واذا اطمأن هؤلاء لنزاهة الحكم أطمأنت العامة ، وعادوا الى أوطانهم.

كما أوحى اليه بأن يلغى متأخرات الضرائب وأن يعطى الأمان لكبار الفارين من الزعماء ومن معهم . وعملا بهذا النصح استخدم خورشيد عبد القادر نفسه لتنفيذ مقترحاته ، لأنه أقرب السودانيين مودة للذين فروا وزعمائهم ، وهو أقصر الطرق للنفاذ الى قلوب قياداتهم.

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٥٦.

(٢) سعاد عبد العزيز احمد ، بدأ تحديث السودان ،مجله المؤرخ العربى ـ بغداد ، الامانه العامه لاتحاد المؤرخين العرب العدد ١٤ ، سنة ١٤٠٠ / ١٩٨٠ ، ص ٢٦٥.

فبدأ عبد القادر ود الزين بادريس ود عدلان وهو أخ الوزير محمد ود عدلان الذى اغتيل قبيل قدوم اسماعيل باشا الى السودان[1]، بأعتبار أن أسره ود عدلان مازالت مكانتهم فى نفوس الأهالى باقية لأنه لم يمض على قدوم جيش محمد على للسودان الا بضع سنوات ، فلمتكن فترة كافية لتتبدل فيها الولاءات القديمة ، سيما وأن حملات الدفتردار، والقسوة المتبعة فى جمع الضرائب قد أفسدت بذرة الولاء للوضع الجديد ، والتى كانت لها قابلية للنمو فى السابق قبل اغتيال اسماعيل باشا .

وسلم عبد القادر، أمان الباشا خورشيد لادريس ود عدلان ، فقبل الأمان واستصحبه عبد القادر الى خورشيد فأمنه هذا على حياته وعينه شيخا على الفونج[2].

وذهب الشيخ عبد القادر موفدا أيضا من خورشيد الى زعيم قبيلة العركيين الذين ثاروا بعد مقتل اسماعيل فى أرض الجزيرة واضطروا للرحيل الى أرض الحبشة واستطاع أن يقنع الشيخ أحمد الريح العركى بالعودة[3].

واستمرت الجهود من هذا القبيل لتوطين الرحل وعودة الذين فروا ، فقد وجد الزعماء الوطنيون والمشايخ حظوة عظيمة أيضا فى عهد عباس باشا فقد قلد عباس عبد القادر ود الزين وظيفة معاون حكمدار، ومشيخة مشايخ عموم الجزيرة ،وقلد الشيخ عدلان محمد مشيخة جبال الفونج وعهد الى حسن خليفه مشيخة العتمور، وعومل شيخ قبيلة الشكرية أحمد

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ،ص ٥٦ .

(٢) سعاد ، مرجع سابق ،ص ٣٧٣ .

(٣) ضرار ، المرجع السابق ، ص ٥٦ .

ابو سن أحسن معاملة ، واشترك الزعماء الوطنيون فى شئون الحكم والادارة[1] وهذه الاجراءات فى مجموعها تعطى على المدى البعيد نتائج قيمة وتساعد على دفع هذه الشخصيات الى استدعاء رجال القبائل الموالين لها للاستيطان والاستقرار ، ولاشك أن تكريمهم من قبل الحكومة ، واعطاءهم الاعتبار اللائق بهم ، هو بمثابة تكريم للأهالى التابعين لهم ، مما يبعث الثقة أيضا بين الحكومة والأهالى .

وكان الحكمدار موسى باشا حمدى ١٢٧٩-١٢٨٢/١٨٦٢-١٨٦٥ ، اميز ولاه السودان ، حيث حقق اثناء ولايته اصلاحات عديده ، منها انه عين من الاهالى نظار اقسام " مأمورى مراكز " ومعاونين وكون رؤساءهم مجلسا ، وسن قوانين جديدة لتنظيم الضرائب وتسهيل جبايتها[2] وفى عهد أحمد باشا ابو ودان ١٢٥٦-١٢٢٦/١٨٣٩-١٨٤٣ هبطت الأسعار حتى صار سعر الأردب من الذرة بخمسة قروش[3] ، وذلك بمثابة دعم من الحكومة لتلك السلعة الاقتصادية لتصل الى يد المواطن بتلك القيمة المتواضعة ، تخفيفا لأعباء معيشته ، ولكى تساهم تلك العملية فى تشجيع الرحل على الاستيطان والاستقرار.

كما جعلت الحكومة على القبائل الرحل شيوخا منهم يتصلون بالمديرية رأسا[4] ، وذلك حتى يسهل تبليغهم بحوافز الحكومة المعدة لهم ، وتنويرهم بالمشروعات والاجراءات التى اتخذتها الحكومة وستتخذها لتتمكن من خلالها من توطينهم .

---

(١) سعاد ، مرجع سابق ، ص ٣٧٣ .
(٢) سعاد ، المرجع نفسه ، ص ٢٧٦ .
(٣) سعاد ، المرجع نفسه ، ص ٢٦٩ .
(٤) سعاد ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٥ .

ثانيا : الاهتمام بالزراعـــة :

ان الجهود الحكومية السابق ذكرها قد آتت ثمارها حيث استجاب كثير من الرحل والفارين لنداءات الأدارة التركيةالمصرية على لسان زعمــاء القبائل والمشايخ والعلماء والفقهاء ،والان جاء دور الحكومة حيث بات من الواجب عليها استيعاب تلك الاعداد الكبيرة من الذين فضلوا الاستقرار على الترحال .

ونسبة لأراضى السودان الشاسعة والخصبة والتى تمتاز أيضا بكثرة أمطارها و أنهارها ، لذلك فان الزراعة هى أكثر المهن التى تساعد تلــك الجموع من الرحل على الاستقرار ، وأول من بدأ من مسئولى الحكومة فــى السودان بتوجيه الناس نحو العمل الزراعى ، هو الحكمدار عثمان باشـــا جركس ١٢٤٠-١٢٤١/١٨٢٤-١٨٢٥ غير أنه ارتكب خطأ فادحا فى تنفيـذ هذه الخطوة ، فقد لجأ الى استخدام القوة لأرغام الأهلين على الاهتمـام بفلاحة الارض، اذ قام بالهجوم على أهالى قرية " العوضيـة " الذيـــن لجأوا الى الجبال ، وأجبرهم على النزول منها ، ولم يتركهم الا بعـــد أن تعهدوا باقامة السواقى واصلاح الاراضى ،كما أجبر المزارعين فى ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م على زراعة النيلة على شواطىء النيل ، وقد استثنى الشايقية الذين زرعوا اراضى الجعليين فى شندى والعبدلاب فى الحلفاية من هذاا لقرار لأنهم كثيرا ماتركوا أراضيهم وذهبوا بعيدا عن النيل فى مأموريات لحفــظ الأمن [١] ولكن سياسات من هذا النوع من شأنها تنفير الناس، وقد يساعد على عصيانهم لأوامر الحكومة وتعليماتها ، وكاد فعلا أن يؤدى ذلـــك

---

(١) حسن أحمد ابراهيم ، مرجع سابق ،ص ١٣٦ .

الاجراء الذى اتخذه عثمان بك الى نتائج عكسية لولا قصر مدة ولايته والتى بلغت فقط سنة واحدة تقريبا .

ولكن الحكام الذين جاءوا بعده ، اهتموا بارساء قواعد حياة لمجتمع مستقر فرغّبوا المجموعات الضاربة فى البادية للسكن فى مواطن الزراعة والافادة من مياه الروافد [١] ، فمثلا أغرى خورشيد السكان البعيدين عن النيل فى الجزيرة بأن يبنوا بيوتهم على النيل وينشئوا السواقى هناك كما استحضر أغراس الأشجار المثمرة من مصر لتزرع فى السودان ، وشجع على زراعة بعض المزروعات كالنيلة وقصب السكر والقطن والقمح الذى نجحت زراعته فى مديريتى بربر وسنار ، فأنشأت الحكومة مزرعة قصب سكر ضخمة فى الكاملين على النيل الأزرق ومعها مصنع للسكر [٢] .

ودعما للجهود الرامية لزيادة انتاج البلاد وزيادة ثرواتها الزراعية والطبيعية أوفد محمد على باشا ، مع خورشيد باشا ماينوف على المائة من الفلاحين ليدربوا الأهالى على اتباع أحدث الطرق الزراعية ، كما طلب خورشيد عمالا من مصر يجيدون صناعة السواقى المصرية لتروى أراضى الجعليين بعد أن فكر فى الاعتماد على الرى المستديم بدلا من الأمطار ، وطلب عمالا لحفر الترع لاستغلال مياه الفيضان [٣] ، كما أرسل محمد على أيضا فى عهد خورشيد سنة ١٢٤٦ / ١٨٣٠ ، مهندسين والف فأس لشق القنوات وتنظيفها فى مديرية بربر ومناطق الجعليين [٤] ، كما أدخلت زراعة الأرز والقنب والتوت

---

(١) الشاطر بصيلى ، معالم تاريخ سودان وادى النيل ، مرجع سابق ص ١٤٦

(٢) Hill, op. cit., p. 64 نقلا ... ترجمة سعاد احمد

(٣) سعاد ، مرجع سابق ، ص ٢٦٦ .

(٤) حسن احمد ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

وقد أدخلوا أنواعا مختلفة من الفواكه كالليمون والعنب والتين وصدر أول انتاج منها فى عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م بناء على طلب الحكمدار خورشيد[١] وقد تركزت زراعة الارز وانتشرت فى كل من بربر وسنار حتى أن أحد الألمان أنشأ مصنعا لعصير القصب المزروع فى هذه الجهات لاستخراج السكر منه[٢] .

وفى عهد أحمد باشا أبو ودان أنشىء سد من التراب لتحويل مياه فيضان خور القاش الى أراضى جديدة لزراعتها ، وأيضا شملت زراعة قصب السكر توسعا كبيرا فى عهد أبو ودان[٣] ، كما بذلت الجهود لمكافحة الافات الزراعية كالجراد وفى عهده أيضا ، صدرت الاوامر للمديرين بمصر لتسهم مديرياتهم فى ارسال عدد من الفلاحين المهرة للمساهمة فى تعمير سنار وكردفان ، وتدريب السودانيين هناك أيضا على طرق الزراعة الحديثة[٤] .

وفى نفس الوقت أبدى مدير بربر حسن بك خليفه عناية كبيرة بالزراعة هناك وأدخل رى الحياض بالترع والسيالات وأدخل زراعة القطن ، وقد بدأت اهتماماته تلك منذ أن عين مديرا على تلك المناطق ، فوسع نشاطه واهتمامه بالزراعه وعمل على دراسة السودان جميعه من حيث الأراضى الصالحة للزراعة وخاصة القطن ، وقدر مايمكن زراعته فى مديريات السودان المختلفة[٥] كما جلبت الحكومة فنيين من مصر لتدريب الأهالى على صناعة النسيج ، وأحدث زراعة القطن وحلجه ونسجه الى دمور تنمو وتزدهر ، وزرع

---

(١) حسن احمد ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

(٢) شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل جـ ٢ مرجع سابق ، ص ٤٢ .

(٣) سعاد ، مرجع سابق ، ص ٢٦٩ .

(٤) شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ، جـ٢ مرجع سابق ص ٤١ .

(٥) سعاد ، مرجع سابق ، ص ٢٨١ . وقد قدر ذلك بما يربو على المليون من الافدنة .

الكتان لصناعة النيل ،وأسست مصانع لاستخراج الصبغة النباتية واستخراج الألوان المعينة مثل " الحرته " أى اكسيد الحديد لتثبيت الأصباغ وهو مايعرف فى مصر بالزاج الأخضر ،وما تزال آثار هذه المصانع باقية الى الان فى القضارف وكسلا وسنار وكركوج وجنوب الخرطوم ،وشندى والبجراويه والكاملين ورفاعه وغيرها [1] .

وكدليل على تطور صناعة النسيج فى السودان فان محمدعلى قد أعجب بثوب الدمور السودانى ،عندما رأى رئيس كتبته ويدعى "حنا الطويل" يتدثر به ، فسأل عن مصدره ،فعرف انه من القطن الذى يزرع فى السودان فأمر بارسال بذرته التى أصبحت فيما بعد أم القطن المصرى الطويل التيله [2]

وقد امتدت هذه النهضة الزراعية أيضا الى جنوب السودان حيث قام مدير المديرية الاستوائية أمين باشا بتعليم بعض الاهالى طريقة زراعة الأرز والبن والنيلة ،وعلمهم بعض الصناعات، وخاصة صناعة الصابون والنسيج والاحذية والشمع [3] كما تفرغت بعثه بيكر من قبل للاعمال الزراعية ،كزراعة الفواكه ،وبعض الحاصلات الاخرى [4] .

---

(١) محمد احمد الجابرى ، مرجع سابق ،ص ٢٣ .

(٢) ضرار ، مرجع سابق ،ص ٦٢ .

(٣) الرافعى ، مصر والسودان ،ص ١٥٣ .

(٤) جميل عبيد ، مرجع سابق ،ص ٥١ .

ثالثا : الاهتمام بالثروة الحيوانية :

ومواصلة لخطة توطين الرحل ، فقد بذلت الادارة التركية المصرية جهودا لتحسين الانتاج الحيوانى فاستوردت بعض المواشى من الأكباش والاغنام من الخارج لتهجين نسل الاكباش والاغنام السودانية ، كما أرسل من مصر خبراء لتدريب السودانيين على الاستفادة من جلود الحيوانات[1] واتباع الطرق الحديثة فى كلبيهما .[2]

رابعا : حفر الآبار :

قامت الادارة التركية المصرية فى السودان ، بحفر عدد من الآبار فى عهد الحكمدار محو بك وفى عهود أخرى ، والغرض من حفر هذه الآبار هو توفير مياه الشرب فى المناطق البعيدة عن مصادر المياه وذلك للأهالى عامة ، وللرحل منهم بصفة خاصة ، مما يساهم فى استقرارهم وقد بدأ العمل فى حفر هذه الآبار فى المنطقة مابين كرسكو وأبو حمد فى ١٢٥٧ / ١٨٤٠ ، وقد عين البكباش[3] محمد أفندى للاشراف على حفر هذه الآبار من قبل محمد على باشا ، بعد أن زوده بعدد من القرب بلغ حوالى أربعة وستين

---

(١) انظر شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ، ج ٢ مرجع سابق ص ٤٣ وانظر ايضا ضرار ، مرجع سابق ، ص ٦١ .

(٢) سعاد ، مرجع سابق ، ص ٢٦٦ .

(٣) بنياشى أو بكباشى هى كلمة تركية مركبه ، وتعنى رأس الالف ، وهى رتبه عسكرية عثمانيه او هى تعادل رتبة مقدم حاليا ، انظر السعيد سليمان ، تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل ، القاهرة دار المعارف ١٣٩٩ / ١٩٧٩ ، ص ٤٤ . فى خوجلى أحمد صديق نظم الحكم فى السودان ، رسالة ماجستير من جامعة أم القرى ١٤٠٨ / ١٩٨٨ ، لم تنشر ، ص

قربة من الحجم الصغير وستة قرب من الحجم الكبير بالاضافة الى تزويد البعثه بما يلزمها من موئن وخلافه (١)

وكان من المهندسين الاجانب الذين عينوا فى هذه البعثة المهندس ايموك "Eimok" الذى رفض السفر مع البعثة بحجة أنه يعمل فى منجم الفحم فى السودان ، ولما علم محمدعلى بذلك ، اصدر امره الى مجلس الشورى لكى يعين مهندسا غيره ، فاختير المهندس حافظ أفندى، ومعه رزق الحتاتى خبير حفر الابار ، والذى صرف له مقدما مرتب شهرين زيادة على حصوله على يومية قدرها ستة قروش (٢) وذلك تشجيعاً له -

وكان محمدعلى يتابع سير العمل فى حفر الابار ، فكان يسأل من وقت لاخر عن عدد الابار التي تم حفرها ، وعن المسافة التى تقع بين كل بئر وأخرى وكان يحث رئيس البعثة أن ينجز حفر هذه الآبار فى أقرب وقت (٣).

لم يقف محمد على عند حفر الابار فقط بل نجده يصدر أوامره فى ١٢٦٠/١٨٤٣ الى ديوان المدارس يطلب منه حفر قناه فى طريق العتمور الكائن بين كرسكو وابو حمد ، وقد اسند ديوان المدارس هذه المهمه الى المهندس الفرنسي" دارنو " الذى اصطحب معه كلا من المهندس محمد سليمان والمهندس عبد الرحمن عمر وهما من مدرسة الهندسة ، وقد زود أعضاء

---

(١) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ١١٥ .

(٢) دفتر ٢١٠ صادر ديوان المعاونه وثيقة ١٤١٩ فى ٢٠ جمادى الاولى ١٢٥٩ الموافق ١٨٤٣ ، فى خوجلى احمد صديق ، مرجع سابق ، ص ٥٢ .

(٣) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ١١٦ .

هذه البعثه بالادواتوالمهمات اللازمه لعمليه الحفر ،وكان قد صرف مقدما لدارنو جميع مرتباته بالاضافهالى تخصيص ذهبيه لكى تنقله من القاهرة الى أسوان ومن هناك يركبون الجمال الى مواقع العمل[١] .

هذا ولم يقتصر حفر الابار على منطقة كرسكو وابى حمد فقطبل امتد الى المنطقه الواقعه بين سواكن وبربر وذلك بحفرعدد آخر من الابار وقد عين للكشف عن هذه المنطقه اليوزباشي احمد افندى الذى كان برفقته الشيخ حسن خليفه ، شيخ قبائل العبابده وكان الغرض من ارسال هذه البعثه هو معرفة المناطق التى يمكن حفر الآبار فيها [٢]

خامسا : صور اخرى من مجهودات توطين الرحل :

واستكمالا لأهداف التوطين فقد بعثت الحكومة فى مصر فرقا طبية الى السودان لتطعيم الأهالى ضد مرض الجدرى والأمراض الوبائية والاشراف على المستشفيات التى أنشئت فى دنقلا والتاكا وسنار والخرطوم وبذلك تحسنت الخدمات الصحية فى السودان [٣] ، كما أن مدير الاستوائية أمين باشا كانت له جهود طبية أيضا فى تطعيم أهالى الاستوائية ضد مرض الجدرى [٤] .

ولكن ليس بالضرورة أن تنحصر المشروعات المساعدة على التوطين

---

(١) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ١١٦ .

(٢) السيد يوسف نصر ، المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

(٣) سعاد ، مرجع سابق ، ص ٢٨٣ .

(٤) الرافعى ، مصر والسودان ، ص ١٥٣ .

فى كسب ثقة الأهالى أو الأهتمام بالثروة الزراعية والحيوانية أو الاهتمام بمصادر الحياة أو التطعيم ضد الأمراض ،فان السياسة العمرانية ،وانشاء المدن تعتبر أيضا جزءا منها وتعتبر أيضا اكبر حافز على الاستيطان والاستقرار ، خاصة وأن الحكومة ترغيبا فيها للناس فى البناء والعمارة جعلت من سياستها أن تبيع الطوب والحجارة والجير والبلاط والخشب للأهالى بالثمن الأساسى دون ربح [1] ، فنشأت المدن الجديدة ،وانتشر فيها العمران.

والجدير بالذكر أنه قد وصل عدد من الخبراء ايضا لتدريب بعض الأهالى على عمل الجبس والجير وذلك لتطوير أعمال البناء والعمران ، اضافة الى ابتعاث عدد من السودانيين لنيل الخبره ولتعلم بعض الصناعات والحرف[2] ويعودوا ، لتستفيد البلاد وأهلها من خبراتهم فى المجال الصناعى والحرفى ،ولكى يحلوا محل الخبراء الذين جلبوا من مصر وذلك لأنهم لم يبعثوا الى السودان للعمل بصورة دائمة.

كما أن الترسانة التى أنشأتها الحكومة لصناعةالبواخر على النيل قد أعطت السودانيين الذين يعملون فى مجال المراكب خبرة ساعدتهم فى تطور صناعتهم ، كما هو الحال بالنسبة لوالد محمد أحمد المعروف بالمهدى فقد اتجهوا الى الخرطوم وما يليها جنوبا واتخذوا لهم مكانا على شاطئ النيل حيث أمدتهم الغابات بالثروة الخشبية اللازمة لصناعتهم ، وعمل كثيرمن الدناقلة على المراكب والزوارق البخارية كبحارة وعمال [3] .

---

(١) سعاد ، مرجع سابق ،ص ٢٨٠ .

(٢) سعاد ، المرجع السابق ،ص ٢٦٦ .

(٣) هولست ، مرجع سابق ،ص ١٦ .

كما أنه من أسباب ووسائل التوطين ، نشر الأمن ووضع حد للحروب التى كانت تنشب بين القبائل ، وتأمين المواصلات ، وربط مناطق السودان ببعضها البعض ، والتقليل من العصبية القبلية والتى تحققت بسبب الوحدة الادارية[١] ، والشعور الطاغى عند الناس بأنهم جميعا تحت ظل حكومة قوية ذات هيمنة ، وهى الجهة المؤهلة و القادرة على حمايتهم ، والقائمة برعاية كافة شئونهم الآنية والمستقبلية .

كما أدخل العهد التركى المصرى نظم ادارية وقضائية ومالية فى السودان لأول مرة ، فتركزت الادارة السودانية ، وانتشرت الطمأنينة والاستقرار[٢] .

كما أن من عوامل التوطين أيضا نشر الوعى بين أبناء السودان ولعل أهم ما قامت به الادارة التركية المصرية فى هذا المجال ، قيام التعليم النظامى الذى يختلف فى أسلوبه ومناهجه عن نظام التعليم التقليدى الذى كان سائدا فى السودان قبيل ذلك العهد[٣] ، فقد كان للمدارس التى أنشأها الحكم التركى المصرى أثرها فى نشر الثقافة الحديثة فى السودان وكانت تمثل أول احتكاك بين الثقافة العربية الحديثة التى تأثرت بالحضارة الاوروبية والأفكار الغربية وبين الثقافة العربية التقليدية ، واستمرت هذه المدارس حتى قيام الثورة المهدية فتعطلت ، لأن المهدية كانت تنظر لها كبدعة من بدع العصر.[٤]

---

(١) سعاد ، مرجع سابق ، ص ٢٧٢ .

(٢) سعاد ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٥ .

(٣) محمد فوزى مصطفى ، مرجع سابق ، ص ٧٢

(٤) محمد فوزى مصطفى ، المرجع نفسه ، ص ٧٤ .

وقبل انشاء المدارس المعنية ، كان من الأعمال الهامة التى أدخلها محمد على الى السودان ، تطويره انظام التعليم الذى كان سائدا هناك والذى كان قاصرا على حفظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة لبعض الأطفال فى الزوايا وفى الجوامع الصغيرة التى كانت توجد فى بعض قرى السودان الشمالى وكانت هذه الزوايا لا تؤدى دورها فى خدمة العلم بالكفاءة المطلوبة ، لأنه لم يكن لها مصدر ثابت للانفاق عليها ، وقد قام محمد على بتطويرها عن طريق بناء المساجد ، مثل مسجد الخرطوم التى كانت وظيفته تنحصر فى تعليم أبناء السودان القراءة والكتابة وبعض العلوم الاخرى كالنحو والخط ، وقد خصص لهذا الجامع مبلغ مائة وخمسين قرشا فى الشهر للانفاق منها على التلاميذ الذين كانوا يدرسون فيه ، ولما كان هذا المبلغ لا يفى باحتياجات الامام "شيخ المسجد" والدارسين معا ، أدى ذلك الى شكواهم لدى الحكمدار الذى طلب بدوره زيادة المبلغ المخصص لهذا الجامع بحوالى مائة قرش فيصبح مجموع مخصصاته مائتين وخمسين قرشا كما طلب أيضا تخصيص ثلاث أرادب من الذره لهذا المسجد كى يؤدى دوره فى خدمة العلم (١) .

وقد بلغ مجموع الدارسين فى مسجد الخرطوم فى عصر محمد على حوالى واحد وثمانين تلميذا كانوا جميعا من أبناء السودان ، وفيما بعد تقرر أن يتقاضى كل تلميذ من هؤلاء التلاميذ مرتبا شهريا قدره قرشان فقط بالاضافة على حصوله على ربعين من الذرة " كيلة واحدة " وذلك لكى يهتم كل واحد منهم بدروسه ، وهذه وسيلة من وسائل التجشيع وان دل هذا العمل على شئ ، فانما يدل على مدى اهتمام محمد على بنشر العلم الدينى فى السودان . (٢)

---

(١) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ١٢٢ .
(٢) السيد يوسف نصر ، المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

ولم يقتصر نشاط محمد على التعليمى على الخرطوم وحدها دون غيرها بل امتد نشاطه الى المناطق الاخرى كدنقلا التى وافق محمد على على انشاء مسجد آخر بها لتعليم أبنائها القراءة والكتابة وحفظ القرآن بالاضافة الى ذلك فانه قد سمح لأبناء سنار بالالتحاق بالأزهر وذلك لمواصلة دراستهم العالية ، فكانوا يدرسون التفسير والفقه والشريعة الاسلامية وما الى ذلك(١) .

كما أن عباس الأول قد فاجأ السودانيين والمصريين معا بقيامه بافتتاح مدرسة نظامية فى الخرطوم تعتبر الأولى من نوعها فى السودان وجعل على رأس هذه المدرسة الأستاذ رفاعه رافع الطهطاوى. "٢"

---

(١) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ١٢٢ .

(٢) الرافعى ، عصر اسماعيل ، جـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ١١٨

الفصل الرابع

الطرق الصوفية

الطرق الصوفيه فى السودان قبل قيام الحكم التركى المصرى

كان انتشار الدعوة الاسلامية عند قيام دولة الفونج ١٥٠٤م/٩٠٠هـ لا يعدو أن يكون اسميا فى مرحلته الأولى ، فالذين مارسوا الدعوه قبل قيام دولة الفونج بقليل كانت تنقصهم الثقافة الدينية العميقة بالاسلام ، وقد بذلوا جهدهم لكسب المسيحيين والوثنيين فى السودان ، معتمدين فى ذلك على الطقوس دون الدخول فى التفاصيل المرهقة أو المقيدة ، وقد شارك أولئك الدعاة بعض الصوفية الذين اسهموا فى بث تعاليم الدين الاسلامى ، ولعل أول هؤلاء العلماء من الصوفية هو الشيخ غلام الله بن عائد اليمنى ، وقد قدم من " الحليلة " باليمن الى دنقلا فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، كما قدم الشيخ حمد أبو دنانه ، صهر محمد بن عبد الله بن سليمان الجزولى مؤسس الطريقة الشاذلية (١) بالمغرب ، والذى يروى أنه قدم الى السودان فى القرن الخامس عشر واستقر فى " سقادى غرب " الواقعة " غرب المحمية " (٢) ، فاذا صدقت هذه الرواية تكون الشاذلية أول

---

(١) الشاذليه : منسوبة الى أبى الحسن الشاذلى" ٦١٤/٦٧٤ هـ = ١١٩٦/١٢٥٨" ولد فى شاذلة بتونس ، وانتشرت طريقته فى مراكش فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى على يد أبى عبد الله محمد بن سليمان الجزولى مؤلف "دلائل الخيرات" ويقال ان احدى بناته تزوجت من الشريف حمد ابى دنانه الذى نزح الى السودان ومعه ابنه السيد بن الحسن ، وسكنا فى البقعة التى تسمى الان " بالمحمية" قبل عصر الفونج ـ وحينئذ عرفت الطريقة بالشاذلية ، ثم رسخت دعائمها ايام الفونج على يد الشيخ خوجلى عبد الرحمن المحسى المتوفى فى ١١٥٩/١٧٤٧ ، انظر عبد المجيد عابدين ـ مرجع سابق ، ص ٦٦ .

(٢) منطقة تقع شرق النيل .

الطرق الصوفية انتشارا فى السودان [١] .

وفى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى ، فى عهد الشيخ عجيب المانجلك قدم الشيخ ابراهيم البولاد من مصر الى دار الشايقية ، ودرّس فيها الفقه وانتشر علم الفقه فى الجزيرة ، ثم بعد يسير قدم الشيخ تاج الدين البهارى من بغداد وأدخل الطريقه الصوفية فى دار الفونج ، ثم قدم الشيخ التلمسانى المغربى الى الشيخ محمد ولد عيسى سوار الذهب [٢] وسلكه طريق القوم ، وعلمه علم الكلام وعلوم القرآن وروايات وتجويد ونحوه [٣] .

---

(١) الطبقات ، مصدر سابق ، هامش التحقيق ، ص ٣ .

(٢) هو الشيخ محمد بن عيسى بن صالح الجعلى ، البديرى المشهور بسوار الذهب وأمه اسمها " حقيقه" ، قرأ مختصر خليل على أبيه الشيخ عيسى فاخذ عنه ختمة تامة والثانية الى الجنايز" اى حتى باب فى الصلاة على الجنائز" من " رسالة أبى زيد القيروانى"فتوفى أبوه ودرس بعد أبيه ، وقرأ العقائد والمنطق وعلوم القرآن على المصرى " محمد بن على قرم الكيمانى المصرى الشافعى" وسلك عليه الطريق ، ثم انتشر علم الشيخ محمد فى دار الفونج ، انظر الطبقات مصدر سابق ، ص ٣٤٧ .

(٣) كاتب الشونه ، مصدر سابق ، ص ٥ .

* ابراهيم البولاد : هو الشيخ الامام ابراهيم بن جابر بن عون ابن سليم بن رباط بن غلام الله والد السادة الركابية ، ولد" بترنج " جزيرة بأرض الشايقية" دخل الى مصر ، وتفقه على يد سيدى الشيخ " محمد البنوفرى" وأخذ عليه الفقه والاصول والنحو ، ثم رحل الى " ترنج " ودرس فيها " خليل" والرساله " وهو أول من درس "خليل" ببلاد الفونج وشدت اليه الرحال ، انظر الطبقات ـ مصدر سابق ، ص ٤٥ .

* تاج الدين البهارى ، ولد ببغداد ، وحج الى بيت الله الحرام ومنه قدم الى السودان فى أول النصف الثانى من القرن العاشر ═══

وحين وطد الفونج اركان دولتهم توافد عليهم علماء الدين بتشجيع من ملوك السودان وزعمائه الذين أغدقوا عليهم الهبات والعطايا ، فأخذ رجال الدين يشرحون للناس اصول دينهم مبينين لهم ما يتعارض مع موروثاتهم من عادات وثنية وتقاليد مسيحية وبازدياد عدد علماء الدين بدأت المرحلة الثانية فى نشر الاسلام وتعميق مفاهيمه على اسس سليمة الا أن الطابع الصوفى كان هو الغالب عند أولئك النفر من الذين قدموا لنشر الاسلام فى السودان وذلك لأن تلك الفترة قد غلبت فيها الطرق الصوفية وهيمنتها على كثير من مظاهر الفكر الاسلامى [1] وقد خضع انتشار الاسلام فى السودان خضوعا تاما للجو الصوفى المتفشى ، وصار الاغلبية من السودانيين منخرطين فى سلك المريدين من اتباع الطرق الصوفية مفضلة اياها على الطابع العلمى الفقهى من الدين .

هذا وقد سعى طلائع المتصوفة الذين قدموا الى السودان الى نشر وتعميق الاسلام بطريقة مبسطة أساسها الزام المريدين اتباع منهج خلقى تعبدى خاص مع المداومة على قراءة اذكار وأوراد معلومة ،وكانت درجة نجاح بعضهم فى هذا المسعى تعتمد اعتمادا مضطردا على ما يتمتعون به من علم وخلق دينى وورع وزهد ، ولكن من ناحية أخرى فقد ساهم كثير منهم وللأسف فى افساد عقيدة المسلمين فى السودان ، وذلك عندما اعتقد الناس أن الشيخ المتصوف عنده بركة من الله ، وهو بما أوتى من بركة يعتبر خير

= الهجرى السادس عشر الميلادى وسكن فى وادى الشعير فى منطقة الحصاصيصا جنوب الخرطوم وقد تزوج من نساء العك "قرية على الشاطىء الأيمن للنيل الأزرق" وسلك خمس رجال منهم "الشيخ محمد الهميم" والشيخ بان النقا" و"حجازى" بانى أربحى" ومسجد هاوشاع الدين ولد التويم جد الشكريه ، والشيخ عجيب الكبير.
انظر الطبقات ، مصدر سابق ، ص ١٢٧ .

(١) الطبقات ، هامش التحقيق ، مصدر سابق ، ص ٤ .

واسطة بين العبد وربه ، وأن صاحب هذه البركة " حيا كان أو ميتا " قادر على أن ينقذ أو يشفع لمن يتوسل به ، فصار شيوخ الصوفية يمثلون قوة روحية ذات سلطان عظيم على النفوس، كما أنهم اعتقدوا بأن مخالفة الشيخ قد تعود عليهم أو على ارزاقهم أو على أطفالهم باللعنة والضرر وبصريح العبارة فان الشيخ أصبح فى نظرهم هو الذى يضر وينفع، ثم نسبوا الى شيوخهم أفعال الله سبحانه وتعالى مثل احياء الموتى والعلم بالغيب ثم أن شيوخ الصوفية استمرأوا هذا التقديس ولم يبذلوا أى جهد لتصحيح هذه المفاهيم الخاطئه حتى صار التعلق بالصوفية ماهو الا تعلق بالدجل والشعوذة والخرافات وعلى أى حال فان التصوف قد وجد على وجه الخصوص لدى عامة السودانيين قبولا تشهد به الأضرحة والقباب المنتشرة على شاطئ النيل الرئيسى والنيل الازرق [1] ، وبدلا من أن تدل تلك الظواهر على عمق التدين صارت تدل على قصور فى إدراك الاتجاه الصحيح الى الله تعالى وفساد فى تصور العبادة الصحيحة .

وعندما جاء الحكم التركى المصرى الى السودان وجد الصوفية وطرقها متمكنة فى السودان ،فحاول الاستفادة منها الى أقصى درجة ، والاستعانة بها فى كثير من المواقف لتثبيت دعائم وضعه السياسى فى البلاد .

---

(١) الطبقات ، هامش التحقيق ،مصدر سابق ، ص ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

دور الادارة التركية المصرية فى دعم الطرق الصوفية فى السودان :

الواقع ان سياسة محمد على فى السودان تقوم على توثيق العلاقات الدينية أولا وقبل كل شىء بين البلدين ، لذلك شجع الطرق الصوفية للرحلة الى السودان ولعله كان على علم بأن الدعوة الدينية خير سبيل لكسب عواطف السودانيين تجاه الحكم التركى المصرى ، فحرص منذ اللحظة الأولى على أن يصحب جيش اسماعيل الى سنار ثلاثه من رجال الدين الذين لا يخلو أحد منهم من نزعة صوفية ووهب محمد على لكل منهم خلعة سنية ، وخمسة عشر كيسا (١) .

ولما كانت حكومة محمد على وأسرته يدركون تماما أن الصوفية لم تهتم الا بجانب واحد فقط من جوانب الدين وهو الجانب التربوى وتكريس الزهد فى الدنيا بقدر الامكان ، أما الجوانب الاجتماعية الأخرى والاقتصادية والسياسية ، لم تكن للصوفية فيها من سبيل ، ونسبة لهذه النظرة المحدودة جدا للدين عند الصوفية ، نرى أنها وجدت اهتماما كبيرا من الادارة التركية المصرية ، والتى فتحت لها كل سبل النمو والانتشار والتركيز فلم يكتف محمد على بارسال العلماء بل حاول تشجيع الطرق الصوفية على النزوح الى السودان بدعوى توثيق الصلة بين مصر والسودان ، فشجع الطريقة السعدية وهى فرع من الرفاعية ، والطريقة الرحمانية ، وهى فرع من الدرقاوية (٢) ، والطريقة البدوية نسبة الى أحمد البدوى (٣) ولى طنطا ، والبرهانية

---

(١) عبد المجيد عابدين ، مرجع سابق ، ص ١٠٤ .

(٢) هى طريقه جاءت الى مصر عبر المغرب ، انظر هولت ، مرجع سابق ص ٣٠.

(٣) فى مصر تسمى بالطريقه البدوية أما فى السودان فتعرف بالطريقة الاحمدية السطوحية ، وهى نفسها الطريقة البدوية .

والدسوقية ، نسبة الى محمد عثمان عبده البرهانى ، وابراهيم الدسوقى[1]، على التوالى وايضا الطريقة الأحمدية الدندراوية .

ويشار الى الخديو اسماعيل باهتمامه اكثر من سابقيه فى النواح التعليمية ، فقد اهتم بالمساجد والأوقاف و " الكتاتيب " القديمة وحاول تطويرها واضافتها الى وزارة المعارف ، وكانت تلك الكتاتيب تتبع معظمها لشيوخ الصوفية ، وقد كلف جعفر باشا مظهر[2] وكيل عموم السودان فى جهات مصوع وسواكن بتوزيع أموال وكساوى الشرق على مشايخ الصوفية، وعلى العلماء والقاضى والمفتى وذلك" تشجيعا لهم لما يقومون به من أنشطة فى الشئون الدينية[3] ، وعندما عين حاكما على السودان ، كان يقرب اليه شيوخ الصوفية وعلماء السودان ويكرمهم ويقيم لهم المآدب[4] .

وقد انتشرت الطريقة التيجانية فى السودان فى العهد التركى

---

(١) محمد فوزى مصطفى ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٢) جعفر باشا مظهر : ١٢٨٣/١٢٨٨ = ١٨٦٦/١٨٧١ ، فى أيامه الغيت حكمدارية السودان ، استهل خدمته فى البحرية عام ١٢٤٦ / ١٨٣٠ وتركها بعد سبع عشرة سنه ، وفى عام ١٢٨٠ / ١٨٦٣ عين مديرا لجزيرة طاشيوز "بالقرب من تركيا" ثم عين حكمدارا للسودان فى ١٢٨٣ / ١٨٦٦ ، وسار فى حكمه للسودان سيرة عدل واصلاح وفى عهده نشطت مطاردة الحكومة لتجار الرقيق ، وقد انتقد الحكومه لاسنادها ذلك العمل لأجنبى ، ولكن الحكومة لم تلتفت الى رأيه ، اشتهر جعفر بالنزاهة والعدل ، انظر عبد الرحمن زكى ص ٤٣٨ .

(٣) عوض عبد الهادى العطا ، مجلة الدراسات الأفريقية ، مقال عن الاسلام فى سواحل البحر الاحمر الغربية ، الخرطوم ، العدد ٣ ، ١٤٠٧ / ١٩٨٧

(٤) عبد الرحمن زكى ، المرجع السابق ، ص ٤٣٨ .

المصرى وهذه الطريقة فى الأصل نشأت فى بلاد الجزائر فى نهاية القـــرن الثامن عشر وانتشرت فى البداية فى شمال أفريقيا ثم تقدمت نحو مصر، حيث شجعت الحكومة فى مصر المبشرين بها على نشر الطريقة التجانية فى بـــلاد السودان ،وقد اتخذ دعاة هذه الطريقة ، أساليب الطريقة القادريـــة السلمية فى نشر الدعوة فى السودان وقد استمروا على ذلك فترة من الزمن حتى جاء أحد زعماء التجانية ويدعى الحاج عمر، والذى جاء الى مكة المكرمة للحج حيث وجد بعض الدعاة فتأثر بهم ،والحاج عمر هذا من أهالى السنغال الأدنى ، وكان ذا نفوذ وسلطان ،وكان أحد أبناء المرابطين ،وتثقف ثقافـــة دينية متينة ،واشتهر بعلمه وورعه قبل خروجه الى الحج عام ١٢٤٤/١٨٢٨ ، وقيل أن يعود الى وطنه فى ١٢٤٩ / ١٨٣٣ مرّ بالسودان الأوسط فظفـــر بكثير من الأتباع ،رغم ما كان بينه وبين شيوخ الطريقة القادرية من خصومـــة ومنازعة ، بعده جاء الى السودان ـ وبتشجيع من والى مصر محمد سعيـــد باشا ـ أحد أقطاب الطريقة التجانية ويدعى محمد المختار[١] ١٢٩٩ / ١٨٨٢" وهو المعروف فى السودان ب" ودعاليه " ، ومما يجدر ذكره أن دخول الطريقة التجانية الى تركيا كان على يدى هذا الرجل ،ويروى عنه أيضا أنه سبـــق وان جمع مالا كثيرامن أرباح التجارة ، ثم وزعه بين الفقراء والمحتاجين واعتزل الدنيا وانقطع للطريقة ووجه همته الى نشر الدعوة فى الاقاليم الوسطى من السودان على وجه الخصوص[٢] .

الطريقة التجانية تتركز الآن فى غرب السودان " كردفان ودارفور" وذلك لتأثير تلك المناطق من السودان ببعض التيارات الثقافية للســـودان

---

(١) هو محمد المختاربن عبد الرحمن الشنقيطى ،أعطى عهد التجانيـــة لوالى مصر، محمد سعيد باشا وجعل منه سفيرا بين سلطان دارفـــور والسلطان العثمانى عبد المجيد بالاستانه ، لانه كان من أصحـــاب الحظوة لديه ،انظر عبد المجيد عابدين ، مرجع سابق ص١٠٤ .

(٢) عبد المجيد عابدين ،مرجع سابق ص ١٠٣ .

الغربى ، حيث يقطن فيه الآن كثير من العناصر ذات الأصول الشنقيطية والسنغالية من المتمسكين بالطريقة التيجانية ، حيث أنها هى الطريقة الغالبة فى تلك المناطق ، ولكن على كل حال يعتبر الحاج عمر ومن بعده محمد المختار واللذين ساهم الحكم التركى المصرى فى قدومهما الى السودان ونشر طريقتهما فيه يعتبران نواة الدعاة للطريقة التجانية فى السودان .

الطريقة الختمية :

ومما لا شك فيه أن أكثر الطرق التى وجدت تشجيعا ورعاية ودعما من الحكم التركى المصرى ، كانت الطريقة الختمية [1] ، و التى خرجت الى الوجود بفضل حركة السيد أحمد بن ادريس القاسى المتوفى ١٢٥٣ / ١٨٣٧ ، فقد كان معلما دينيا فى مكة المكرمة منذ عام ١٢١٢ / ١٧٩٧-١٢٤٩/ ١٨٣٣ وكان الزعيم الروحى لجماعة الخضرية ، وقد أرسل قبل موته ١٢٥١ / ١٨٣٥ أحد أتباعه وهو السيد" محمد عثمان الأميرغنى" فى رحلة الى أفريقيا لنشر تعاليم الاسلام ، فعبر البحر الاحمر الى القصير [2] فى مصر ، وشق طريقه حتى بلغ

---

(١) فى الاصل تكتب" خاتمية" اشتقاقا من خاتم الطرق ، ولكن ختمية هى الكلمة الدارجة التى جرى العرف على استخدامها سواء فى التعبير والكلام أو الكتابة فى السودان وكان محمد عثمان مؤسس الطريقة قد اعلن ان طريقته تشتمل على مضمون الطرق الأخرى وتكملها ومن ثم أطلق عليها اسم" خاتم الطرق" ورئاسة الطريقه وراثية فى الأبناء المباشرين لمؤسسيها ، انظر هولت مرجع سابق ص ٢٨ .

(٢) القصير: هو ميناء بمديرية قنا والتى منها نزل محمد عثمان الى قرية الزينية بمركز منفلوط وبعد ان أقام بها سافر الى السودان ، انظر: عبد الله حسين ، ج ٢ مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

النيل ،وظل يدعو الى الاسلام والى الطريقة التى ينتسب اليها ونجحت دعوته من أسوان حتى دنقله نجاحا تاما أول الأمر وأسرع النوبيون الى الدخول فى الطائفة التى كان ينتسب اليها محمدعثمان وأثرت فى الناس مظاهر الهيبة التى كانت تحيط به تأثيرا فعالا ، وقد اصطنع بعض الكرامات التى جذبت اليه كثيرا من الأتباع .

ومن دنقله اتجه محمدعثمان الى كردفان وأقام فى منطقة " بارا " وتزوج من احدى نسائها فأنجبت له ابنه الحسن ،ودعا أهلها الى طريقته فتبعه كثير من الناس، وتوجه من بارا الى سنار ،ونزل " بحلة شاذلى" ودعا الناس فصدقه قوم ،وكان عمره حين دخل سنار ست وعشرين سنة ،وكانت قبائل كثيرة فى هذه البلاد وحول سنار لاتزال على الوثنية ،وقد نجحت دعوة محمد عثمان بين هوءلاء القوم نجاحا كبيرا ، وعمل على توطيد نفوذه فيهم بأن تزوج بعض النساء منهم فتولى نسله منهن بعد وفاته عام ١٢٧٠/١٨٥٣ نشاط الطائفة التى أسسها "الاميرغنيه " نسبة اليه[١] .

وبذا فان محمد عثمان الأميرغنى قد أدى دورا كبيرا فى الدعوة الى الاسلام فى السودان وذلك باخراج كثير من السودانيين من ظلام الوثنية الى نور الاسلام .

ولكن الطريقة اشتهرت وذاع صيتها بصورة صارخة فى شرق السودان بين قبائل الحلانقة وبنى عامر والحباب ،وفى شمال السودان بين النوبة والشايقية والبشاريين والعبابده[٢] ، ثم بعد ذلك تأتى بقية مناطق السودان

---

(١) عبدالمجيد عابدين ، مرجع سابق ،ص ١٠١ .

(٢) عبدالله حسين ،ج ٢ ، مرجع سابق ،ص ١٥٦ .

حيث شمل نفوذهم النيل الأزرق والجزيرة وصارت بذلك أوسع الطرق انتشارا واعظمها خطرا (١)

وقد كانت هذه الطائفة تمثل الأداة الروحية والسياسية المساعدة للحكم التركي المصرى فى السودان ، وخاصة فى السودان الشرقى حيث تركزت نشاطاتها وازداد عدد الأهالى الموالين لها ، وقد أصبح نفوذها عظيم فى تلك المناطق ،اذ باتت ذرية محمدعثمان الأميرغنى فى نظر القبائل فى تلك المناطق مقدسين وأولياء ،تنسب اليهم المعجزات ، وتنتقل بركاتهم الى أبنائهم وذرياتهم بالوراثه ، ومن ثم أصبحت مدافنهم مزارات يحج اليها ، واكتسبت ممتلكاتهم صفة المخلفات الدينية ، كما تنتقل رئاسة الطريقةبعدهم بالوراثة أيضا ،فرئيس الطريقة أو رئيسها المحلى عرف " بالشيخ " وأتباع الطريقة فى كل محلة أو جهة يصبحون تحت اشراف وكيل لها يعرف باسم " الخليفة " .

وسبق أن اتصل محمد احمد المعروف بالمهدى بمحمد عثمان بن الحسن بن محمد عثمان زعيم الختمية المقيم بكسلا طالبا منه الانضمام لحركته الا أنه رفض ذلك ، ولم يكن رفض الختمية للدعوة المهدية سلبيا بل حاولوا علنا القيام بنشاط مضاد لها (٢) .

وقد استفاد الحكم التركى المصرى من ولاء الأهالى لهذه الطائفة ومن تقديسهم لها وذلك فى عدة مواقف منها مثلا ابان ثورة ، الجهادية فى كسلا بسبب تأخير رواتبهم لعدة أشهر ،والتى زلزلت سلطان الحكومة فى تلك المنطقة ، ولم تستطع الحكومة وضع حد لتلك الثورة الا بعد الاستعانة

---

(١) محمدعوض محمد ، مرجع سابق ،ص ١٩ .

(٢) ميمونه ،مرجع سابق ،ص ١٣٠

بالسيد الحسن الميرغني وذلك لنفوذه الروحى على الجند [١] سنـــة ١٢٨٢ / ١٨٦٥.

وعند قيام الثورة المهدية فى السودان تحملت هذه الطائفةواتباعها طوعا واختيارا قدرا كبيرا من مسئولية التصدى لتلك الثورة بل شاركـــوا الحكومة فى مقاومة تلك الثورة مشاركة فعلية ، وقد بدأوا مشاركتهم فى التصدى للثورة فى أول الامر بمنح بركاتهم وتوزيعها على قادة القوات التركية المصريـــة ومثال ذلك فقد سلمهم أحد شيوخ الميرغنية " بيرقا " وذلك لاشهاره فـــى وجه قوات أتباع المهدى عند الهجوم عليهم ومن ثم سوف يعمل ذلك البيرق عمل السحر فى ايقاف هجوم أتباع المهدى ولكن تلك البركات لم تجد نفعـــا فى أغلب الأحيان فكم من مرة كان الجنود يفرون ويتركون بيرقهم ملقيا علـــى الأرض .

وعندما انصرف عثمان دقنه لحصار سواكن والتضييق عليها ، وجد أن هناك بعض العوامل التى لم تساعده على الاستيلاء عليها ،أهم تلـــك العوامل وجود البوارج الحربية الانجليزيه بالبحر الاحمر واستمرارها فى اطلاق القنابل على جيش عثمان وكانت هذه البوارج تقوم بامداد المدينه بمـــا تحتاج اليه من ماء مقطر من البحر وجلب الأطعمة ، كما أنها كانت معقـــلا من معاقل الختمية ، فقد قام خلفاء السادة الميرغنية بالتشويش على الدعـــوة المهدية وساعدوا فى انفضاض الناس وصرفهم عن التفكير فى الانضمام الـــى عثمان دقنه [٢] .

---

(١) انظر شبيكه ، السودان عبر القرون ، ص ١٦٢ وابوسليم ، الحركـــة الفكرية ، ص ٩ ، مراجع سابقه.

(٢) ضرار ، مرجع سابق ، ص ١٤٢

وكان من نتائج ثورة عثمان دقنه أن تسلل من سواكن كل تلاميذ الشيخ المجذوب[1] وقد كانوا يعملون أئمة في المساجد ومؤذنين وقضاة فلما التحقوا بعثمان دقنه عينت الحكومة مكانهم بعض المشايخ من الطريقة الختمية ، حيث احتلوا المناصب وزاد نفوذهم في شرق السودان[2]

وكان أول هجوم يقوم به عثمان دقنه في ١٣٠٠ / ه أغسطس سنة ١٨٨٣ حيث هاجم سنكات التي كان يحرسها المحافظ المصري محمد توفيق ، وطلب عثمان دقنه من المحافظ التسليم ، ودخل خلفاء طائفة الختمية كوسيط بين الجانبين بغية الوصول الى اتفاق يتم بموجبه التسليم دون اراقة دماء وتم الاتفاق على هدنه من الصباح حتى الظهر ، وفي هذا الوقت كان توفيق يحصن المحافظة بالمتاريس وزكائب الرمل ، وعثمان يرى ذلك ولكنه بقي محافظا على كلمته حتى اذا جاء العصر رفض توفيق الاستسلام بعد أن فرغ من تحصين موقعه ، فهاجمه عثمان واتباعه وهم يحملون السيوف والرماح والخناجر ودخلوا المحافظة ولكن بعد أن فعل فيهم الرصاص فعله ، وقد بلغت خسائر أنصار عثمان دقنه ستين قتيلا وخسائر الحامية سبعة وخمسين قتيلا وأصيب عثمان بجراح خطيرة فاضطر الى الانسحاب[3] .

---

(١) المجذوبية ، طريقة صوفيه أسسها احد الجعليين ويدعى حمد بن محمد المجذوب "١١٠٩/١٦٩٣=١١٩٢/١٧٧٦" ، الذي التحق خلال احدى زياراته لمكة المكرمة بشيخ من شيوخ الطريقة الشاذلية فتأثر بطريقته ، وعند عودته انشأ له طريقه متفرعة عن الطريقة الشاذلية وسميت بالمجذوبيه ، ويدعى أتباعه بالمجاذيب وجعل مقرها منطقة الدامر ، والذي اصبح فيما بعد مركزا دينيا هاما للجعليين وغيرهم من القبائل الممتدة على المجرى الرئيسي للنيل
انظر عبد المجيد عابدين ، مرجع سابق ، ص ٦٦ ، وانظر أيضا هولت مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(٢) ضرار ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

(٣) ضرار ، المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

فخلفاء الطائفة الختمية الذين مارسوا دور الوساطة بين المحافظ وعثمان دقنه وكانوا على علم بما يفعله محمد توفيق من انتهازه لفترة الهدنه وتحصين مواقعه ، وكان بامكان الخلفاء الختمية أن يتدخلوا لايقاف خرق المحافظ للهدنة ، الا أنه نتيجة لموالاتهم للحكومة جعلوا من أنفسهم وسطاء خير بين قوات الحكومة والثوار ،لا لشيء الا لاخراج المحافظ وقواته من ورطة الحصار ولكي تتاح له فرصة يحصن فيها نفسه .

ولم يقتصر دعم قيادات الميرغنية للحكومة على الذكور فقط فالعنصر النسائي من عائلة الميرغني أيضا قد لعبن دورا مهما في تثبيط وتخذيل الأهلين من الانضمام الى المهدية ، حيث قام نفر منهن بحركة نشطة في «شندي» بتأليب الجعليين والشايقية ضد المهدية وكان نشاط الأسرة الميرغنية في أواخر الحكم التركي المصري على أشده حيث قام «عبد الله بن محمد سر الختم» بزيارة الى سواكن لدعم الجهود الرامية الى تنفير الناس عن عثمان دقنه وعن الدعوة المهدية اضافة الى أن الخديو محمد توفيق قد أوفد سر الختم الثاني الى سواكن في ١٣٠٠ / ديسمبر ١٨٨٣ جريا وراء الهدف نفسه .

وفي شندي ما ان وصل اسطول غردون المكلف باستطلاع رجال الحملة الانجليزية حتى تعاون خلفاء الميرغنية ونساؤهم معه في اجراء سلسلة من الاتصالات تهدف الى حمل رجال القبائل على هجر المهدي والرجوع مرة أخرى الى طاعة الحكومة [(١)].

واستمر نشاط الأسرة الميرغنية في اثارة المعارضة وكسبها الى

---

(١) انظر محمد محجوب مالك ، ص ١٤٩ ، وايضا ميمونه ، ص ٣١ ، مراجع سابقة

جانبهم ، فقد استمر عثمان تاج السر يدعو ضد المهدية في سواكن ،كما عمل "علي الميرغني" كوسيط بين قبيلة بني عامر والحكومة وكتب السيد محمد عثمان الى حاكم طوكر وساعد في تنظيم اجتماع جمع بين شيوخ القبائل وحاكم عام سواكن عام ١٣٠٣/١٨٨٦ ، وبالرغم من أن القبائل المحلية لم يكن في استطاعتها اتخاذ عمل جماعي ضد عثمان دقنه ،فانه بنهاية عام ١٣٠٦ / ١٨٨٩ نجد أن قوات عثمان دقنه قد تضعضعت وانتهى تهديد المهدية في شرق السودان باحتلال طوكر في وعام ١٣٠٨/١٨٩١ من قبل قوات الحكومة وعلى امتداد هذه الفترة التي ضعفت فيها المهدية بالشرق كان لعائلة الميرغني نشاط واسع، وكانت القبائل التي لها علاقة وطيدة مع الختمية بسبب قوة نفوذ هذه الطريقة عليهم ،تعمل بنشاط أيضا في اضعاف المهدية في شرق السودان (١) .

وعلى العموم فان طائفة الختمية تعد ربيبة الحكم التركي المصري كما تعد من أبرز الآثار الاجتماعية للحكم التركي المصري في السودان وبنفس القدر تجدها من أبرز الآثار السياسية أيضا ، ذلك بأن الدور الاجتماعي المرموق الذي وجدته هذه الطائفة ابان الحكم التركي المصري قد قادته الى أن تتبوأ مركزا سياسيا مرموقا أيضا في السودان مستقبلا .

فعلى الصعيد السياسي فان مركزهم الروحي ابان الحكم الثنائي قد تزايد تزايدا منقطع النظير خاصة وان زعيمهم علي الميرغني قد دخل السودان بصحبة قوات الحكم الثنائي ولم يدخل بشخصيته الدينية فحسب وانما كان يحمل رتبة عسكرية فضلا عن ذلك ، وقد أفسح الحكم الثنائي

---

(١) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ،ص ١٥٠ .

الحال لهذا الزعيم ، سياسيا واجتماعيا واقتصاديا .

فمن الناحية السياسية فقد أضفى الحكم الثنائى عليه مظاهر الهيبة له ولأسرته وطائفته وحشد له القوى البشرية ،وربط النظام الثنائى تعامله مع الأهالى بمدى تعامل الأهالى واحترامهم وتقديسهم وولائهم للأسرة الميرغنية ، وكل ذلك ليكونوا قوة سياسية تخدم أهدافا بعيدة المدى فى المستقبل .

واجتماعيا فقد اهتم الحكم الثنائى بتشجيع الناس وتوجيههم نحو الاهتمام بطقوس الطريقة الختمية ، فكان قادة الحكم الثنائى يشرفون اجتماعات الطائفة الدينية عند الاحتفال بذكرى المولد النبوى أو عند اقامة الحوليات[1] حتى صار عقيدة قطاع كبير من السودانيين مرتبطة بهذه الطائفه فلا يؤدون شعائرهم الدينية الا عبر الارشادات والتعاليم المرغنية وما من أحد يموت فلا يدفن حتى يصلى عليه أحد افراد الاسرة الميرغنية وما من أحد يريد الزواج حتى يسارع بدعوة أحد أفراد الأسرة الميرغنية ليكتب له عقد النكاح ،وصار كثير من السودانيين يسمون أبناءهم وبناتهم بأسماء الأسرة الميرغنية فما اكثر الأسماء المركبة أمثال محمد عثمان ،وسر الختم ، وتاج السر ، ومحمد الحسن وتاج النعيم ، وسيد أحمد ، وأسماء الميرغنى والحسن ،والسر والسيد والاحياء السكنية فى أكثر من مدينة بالسودان

---

(١) الحوليات ،جمع حولية ، ولفظ الحولية من الحول وهى السنة .
واصطلاحا : هو احياء ذكرى سنوية لخليفة أو لولى أو لشيخ من المشايخ ، وذلك بأداء طقوس وشعائر معينة ، وتلقى فيها أشعار وقصائد تحكى مآثر المحتفى به أو من أقيمت الحولية ذكرى له .

تسمى بالميرغنية وبالختمية .

الطريقة الاسماعيلية : [1]

ان نظام الطرق كنظام القبائل ، أو ككل نظام اجتماعى لهتطوراته الخاصه فكما أن القبيلة تنقسم وتتفرع منها قبائل ، أو يندمج بعضها فى بعض كذلك الطرق الصوفية ، قد تتفرع طريقة من طريقه أخرى وقد تضعف او تقوى ، وقد ينمو الفرع ويزدهر ، ويضعف الأصل ويضمحل .

فالطريقة الاسماعيلية تفرعت فى القرن التاسع عشر عن الميرغنية [2] فليس فى السودان قاطبة طريقة أسست على يد عربى سودانى سوى **الطريقة** الاسماعيلية . وقد نشأت هذه الطريقة فى عهد الحكم التركى المصرى

---

(١) الاسماعيلية : نسبة الى اسماعيل بن عبد الله المشهور باسماعيل " الولى " ١٢٠٩ / ١٢٨٠ " =١٧٩٣ / ١٨٦٣ ، مؤسس الطريقة الاسماعيلية المنتشرة فى كردفان ، ولد بالأبيض ، ووالده أصلا من دنقلا واستقر كتاجر فى كردفان ، تتلمذ "اسماعيل" على "محمد عثمان الميرغنى" ثم استقل بطريقته فى ١٣٥٩ / ١٨٤٢ عندما صرح له محمد عثمان بانشاء طريقة مستقلة ، وقد اهتم اسماعيل بنشر الاسلام فى جبال النوبا ، بعد وفاته خلفه ابنه محمد المكى والذى اصبح مع الأيام من انصار المهدى بينما انضم ابنه الاصغر واسمه احمد ـ ولقب بالأزهرى لدراسته بالأزهر ـ للحملة التى أرسلتها الحكومة لمقاتلة المهدى فى ١٢٩٨ / ١٨٨١ ، وقتل فى موقعة " أبا " .

أنظر ابو سليم ، الحركة الفكرية ، ص ٧ ، وانظر ايضا هولست ، ص ٢٩ مراجع سابقه .

(٢) انظر محمد عوض محمد ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

وذلك بمدينه الأبيض وكان صاحبها ختميا فى أول أمره ، ثم أسس طريقته باذن صريح من الشيخ محمد عثمان الميرغنى شيخ الطريقة الختمية ، وقد انتشرت هذه الطريقة بسرعة البرق فى جميع أنحاء السودان وخاصة كردفان وأم درمان ودنقلا ، وهى الطريقة الوحيدة التى كانت قائمة أيام المهدى ، وظفرت باحترام المهدى لها ، وهى طريقة متينة من حيث مؤلفات مؤسسها الذى جمع بين علمى الشريعة والحقيقة فى عصر كان يعد مظلما فقد زادت مؤلفات الشيخ اسماعيل عن الخمسين كتابا ، ولم يطبع منها الا القليل جدا (١) ، أما اليوم فان نفوذ الطريقة مقصور على منطقة الأبيض وبعض جهات غرب السودان (٢) .

واخيرا فان الحكم التركى المصرى لم يكن مسؤلا عن نشأة جميع الطرق الصوفيه بالسودان الا أنه مسئول مسئولية مباشرة عن ترسيخها وذلك بالاهتمام بها على المستوى الرسمى ولفت أنظار الاهالى اليها للالتفاف حولها .

---

(١) عبد الله حسين ، ج ٢ مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

(٢) محمد عوض محمد ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

محاولات التنصير قبل قيام الحكم التركى المصرى

اعتبر السودانيون فى القرن العاشر الهجرى ، أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، تحالف عمارة دونقس وعبد الله جماع لاقامة دولة الفونج الاسلامية على أنقاض دولة علوة المسيحية ، اعتبروا ان تلك هى نهاية الدولة المسيحية فى السودان والى الأبد ، وبالفعل فقد انحسرت النصرانية انحسارا تاما ، وبدت الغلبة للاسلام فقط يجاهد لاستكمال القضاء على بقايا الوثنية فى دولة الفونج .

ولكن بعد ان استمرت دولة الفونج فى النمو ومايقارب القرنين من الزمان ، بعدها بدأت المسيحية تظهر على السطح من جديد ، فقد اشتهر فى عهد السلطان " بادى" (1) نشاط البعثات التنصرية من جماعة الفرنسسكان الكاثوليك ويسندهم بابا روما ، والجزويت (اليسوعيون) ومن خلفهم لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، وكل من هاتين الجماعتين الكاثوليكيتين تحاول بسط نفوذها فى أثيوبيا وسنار ، وأخذ الفرنسسكان فى التودد الى السلطان السنارى ، لتسهيل سفر رجالهم عبر بلاده من مصر الى أثيوبيا بدلا من السفر اليها عبر القاهرة عن طريق عيذاب وسواكن ، بسبب العراقيل التى يقيمها باشا سواكن ، وتتابعت بعد ذلك الرحلات عن طريق النيل (2)

---

(١) المقصود هو السلطان بادى الأحمر ١١١٢/١٦٩٢ ، تولى الحكم فى دولة الفونج بعد وفاة والده السلطان" أونسه ولد ناصر" ، وفى عهد بادى الاحمر خرج عليه جماعة من الفونج تآمروا عليه مع" الامين آرادب " من العبدلاب ونصبوا أميرا من العائلة المالكة ملكا بدلا عنه الا أنه دحرهم وثبت على عرشه ، انظر: مكى شبيكه ، السودان عبر القرون - مرجع سابق ، ص ٧٤ .

(٢) الشاطر بصيلى ، معالم تاريخ سودان وادى النيل ، مرجع سابق ص٨٣

وبدأت البعثات الفرنسية اليسوعية ،تعبر أراضي الفونج الى الحبشة ، وقد فكروا أثناء مرورهم لما رأوا الأمن مستتب بالنسبة اليهم ،وأن القائمين على دولة الفونج في غفلة من أمرهم أن تلك فرصة يستغلونها في انشاء مراكز تنصيرية لهم في دولة الفونج الا أن السودانيين انتبهوا لهذه الخطوة الماكرة ،وخشي المسؤلون في دولة الفونج من أن يستغل تسامحهم ذلك في نشر المسيحية ، فقاموا بقتل رجال البعثة الفرنسية وقضوا عليها في ١١٢١هـ/١٧٠٥م ، وقد حدث رد فعل من جانب الحبشة نتيجة لهذه العملية حيث قاموا بتسيير حملة قوية ضد الفونج انتصر فيها الأحباش اول الأمر لكن مالبث أن شتت السودانيون شملهم وهزموهم هزيمة منكرة في عام ١١٦٠هـ/١٧٤٤م(١) .

جهود التنصير ابان الحكم التركي المصري :

ازداد التفات الاوربيين النصارى الى السودان خلال فترة الحكم التركي المصري نتيجة لاهتمامهم بنشر النصرانية في تلك الأصقاع وما وراءها من أنحاء أفريقيا الأخرى ، وقد تبينوا أهمية السودان نظرا لمرور الطرق المؤدية الى غرب أفريقيا وجنوبها أو شرقها عبر أراضيه ، كما رأوا فيه بابا دائما يمكنهم من الوصول الى مملكة أثيوبيا النصرانية التي كانوا يسعون لاحتكار العمل التنصيري فيها ، وتحويل كنيستها القبطية الى المذهب الكاثوليكي(٢) .

كما أدى انشاء مدينة الخرطوم والكشوف الجغرافية وفتح الطرق

---

(١) انظر محمد عمر بشير، ص٣٧ ، وضرار، ص ١٦ ، مراجع سابقه .

(٢) محمد عمر بشير، المرجع السابق ، ص ٣٦ .

وتيسير سبل الاتصال بين مناطق السودان المختلفة وانتشار الأمن ، والحاجة الى خبراء للتنقيب عن المعادن ومدربين للجيش ، ادى كل ذلك وغيره الى توافد عدد كبيرمن المجموعات الأوروبية للسودان وبالذات فى مدينة الخرطوم العاصمة وأيضا ما أن استيقظت الكنائس الأوروبية الى ظهور السودان بشكله الجديد فى العهد التركى المصرى حتى بدأت توجه نشاطها اليه وكان أول من شجع على ذلك فى وادى النيل الرحالة التشيكى "بالمى" فى ١٢٥٣ / ١٨٣٧ م حينما زار السودان وكتب كتابا يشجع أوروبا على نشر المسيحية فيه قبل أن ينتشر فيه الدين الاسلامى (١) .

ونتيجة لذلك ولغيرها من الاسباب كثرت القنصليات الاجنبية ، مما اعطى مبررا قويا للمهتمين بعمليات التنصير بالتسابق الى السودان ، بغية انشاء كنائس وممارسة النشاطات التنصيرية بشكل واسع وكبير ، وقد زاد من همم المنصرين وتشجيعهم سياسة التسامح التى اتبعها محمد على باشا ازاءهم ، فأسسوا أول كنيسة كاثوليكية فى عام ١٢٥٩ / ١٨٤٢ ، فكان ذلك يعد أول موطىء قدم ثابت للكاثوليكية فى السودان (٢) واستمروا فى نشر عقيدتهم ففى نفس العام قدم "بلونديل" القنصل العام البلجيكى فى مصر الى الخرطوم بعد جولة قام بها فى الحبشة ، وكان يصحبه فى هذه الزيارة القس منتورى (٣) ، ولما كان بلونديل يعد من الكاثوليكيين المخلصين فقد

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٧٢

(٢) محمد احمد محجوب ، الديمقراطية فى الميزان ، بيروت : دار النهار للنشر الطبعة الاولى ، ١٣٩٣ / ١٩٧٣ ، ص ٢١٠

(٣) هو : ليوقى منتورى "Luigy Monturi" أحد القساوسة من نابلس بفلسطين جاء الى السودان قادما من الحبشة وهاربا من اضطهاد بطريرك الكنيسة الحبشية ، وكان معه فى كنيسته التى بنيت له فى الخرطوم مساعد آخر هو القس قيرولا موسيرو "Gerolamo Serro" من الحبشة والذى فتح ==

طلب اذنا من أحمد باشا أبو ودان للسماح للقسيس منتورى ببناء كنيسة ومدرسة فى الخرطوم ، فضلا عن أنه طلب أيضا منحه قطعة أرض على الطرف الجنوبى للمدينة لاستخدامها كمقبرة للنصارى[١] .

ويعتبر عام ١٢٦٣/١٨٤٦ أكثر الاعوام التى شهدت نشاطا تنصيريا مكثفا منذ قيام الحكم التركى المصرى فى السودان ، حيث أقاموا مدرسة أخرى كاثوليكية فى الخرطوم ، وفى نفس العام أصدر البابا جريجورى مرسوما بابويا يقضى فيه بتعيين القاصد الرسولى لمنطقة أفريقيا الوسطى وجعل مركزه الخرطوم ، وأسمه السنيور " رولى" ، وقد بذل جهدا كبير فى استمالة قلوب الأهالى حتى اكتسبت البعثة سمعة طيبة فى الطرف الغربى المحاذى للنيل الأزرق ، كما أسست البعثة على الساحل الشرقى للنيل الأزرق كنيسة ، وفتحت مدرسة لتعليم الأطفال الذين بيعوا فى سوق الرقيق ، وقد حظيت البعثة بمساعدة المكتشفين والخبراء العسكريين والمدربين وخبراء التنقيب الأوربيين كما أن عائلات كثيرة من أهالى تلك المناطق رغبوا فى ارسال ابنائهم لمدارس الارسالية[٢]، مع أن ذلك قد يوءدى بهم فى النهاية ليكونوا مسيحيين على المذهب الكاثوليكى .

ولم يلبث هذا القاصد الرسولى أن مدّ نشاطه الى الجنوب حيث أنشأ مركزين للتنصير أحدهما فى غندكرو عام ١٢٦٧/١٨٥٠ والآخر فى كاكا

= مدرسة فى الحبشة وكان يعزف موسيقى القداس ولكن القسيسين قد طرأ عليهما عجز مالى ، مما ادى الى فشل بعثتهما التنصيرية .
أنظر : Hill, op. cit. , p. 79.

(١) Ibid. p. 78.

(٢) Ibid. p. 78.
وانظر أيضا خضر عبد الرحيم ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

على النيل الأبيض عام ١٨٦٢/١٢٧٩ ، وان كان هذا النشاط التنصيري قد لقي مقاومة من جانب السكان المحليين [1] .

وبعد موت " رولي" استمرت تجاحاته بواسطة تلميذه السلوفاكي " د . اجناز نوبلهيز" "Dr. Ignaz Knoblehar" والذي بدأ عمله لنشر النصرانية بحماس شديد الا أن همته فترت نتيجة بعض الثورات التي حدثت في أوروبا ، وانعكست نتائجها على العمل التنصيري ، حيث اهتزت أعمال التنصير ، مما حدا بالقسس والرهبان الى ترك مواقعهم والفرار منها ، ومن ثم أصدر البابا مرسوما يلغي فيه المرسوم القاضي بتعيين القاصد الرسولي لمنطقة وسط أفريقيا الا أن " نوبلهير" دافع وباصرار عن القرار السابق وطلب من البابا الغاء قراره الأخير وسحبه ، بعد ذلك بدأ دعاة النصرانية يتدفقون على السودان ، واستمر القسس والرهبان في تنفيذ مهامهم الموكلة اليهم وبدأوا بزراعة حدائقهم وزخرفة مباني أديرتهم وارسالياتهم ، وهو أسلوب دعوة تنصيرية لتأليف قلوب السودانيين نحو النصرانية ، وامتدت أنشطتهم ، فأسست محطات تنصيرية في أماكن كثيرة خاصة في جنوب " منطقة الفونج " ، ونشروا تعاليم الصليب في مناطق المستنقعات بين شامبي وبور ، واستغلوا في ذلك أن الادارة التركية المصرية لم تكن لتتدخل في شئونهم [2] وقد انصب تخطيطهم للمستقبل على جنوب السودان ، لأنهم يعتبرونها أرضا خصبة للتنصير لأن أهلها وثنيون مما يضمن لهم سرعة وسهولة انتشار النصرانية بينهم ، كما أنهم يعولون على تلك المنطقة من السودان لاستخدامها

---

(١) محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .
وانظر أيضا حسن مكي ، مرجع سابق ، ص ١

(٢) Hill, op. cit., p. 79.

مستقبلا كنقطة انطلاق الى بقية أجزاء أفريقيا [1] لا سيما وأن بعض وفود المنصرين والذين انطلقوا من السودان الى أجزاء من أفريقيا قد أفلحوا فى ادخال كيانات أفريقية كثيرة فى النصرانية [2] .

وفى ١٨٤٨/١٢٦٥ وصلت الخرطوم ارسالية نمساوية وأقامت أول بناء حجرى عرفته العاصمة ، وفى عام ١٨٥٠/١٢٦٧ شيد الآباء الكاثوليك كنيسة على نفقة امبراطور النمسا والمجر ويكفى لتوضيح ضخامتها وفخامتها أن نفقة بنائها كلف نحو ثلاثمائة ألف جنيه [3] ، وقد ألحقت بالكنيسة منازل القسس ، وقد بنيت بالحجارة ، وأيضا سقوفها بنيت بعقود حجرية غاية فى الاتقان والمتانة والابداع بأيدى الصناع الايطاليين من نحاتين وبنائين ونجارين وحدادين وقد أنفقت نفقات طائله لجلب الحجارة من جهات جبل أولياء " جنوب الخرطوم" ، ومعظم الكنائس والارساليات فى السودان شأنها فى نمط البناء شأن الكنيسة الكاثوليكية فقد بنيت بطوب الكمائن المحروق وشيدت واجهتها من الحجارة ، وأن بناء قصر الحاكم العام أيضا كان شبيها بذلك والذى صمم أيضا بعد بناء الارسالية على أسلوب الفن الايطالى والذى أعيد بناء جزء منه بواسطة احمد ممتاز باشا [4] .

وقد سمى القسس الذين يعملون فى هذه الكنيسة باسم " المرسلون الأفريقيون " وقد تعهد بحمايتهم امبراطور النمسا والمجر واعترفت بهذه الحماية الحكومة التركية المصرية [5] ، كما وصلت فى نفس العام ارسالية بروسية

---

(١) محمد احمد محجوب ، مرجع سابق ، ص ٢١ .

(٢) حسن مكى ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٣) سليمان كشة ، مصدر سابق ص٤ ، ص ٨ .

(٤) Hill, op. cit., p. 161.

(٥) محمود القبانى ، مرجع سابق ، ص ١١ .

بروتستانتية أقامت بالخرطوم وأسست معبدا ودارا ومدرسة بنيت من الآجـر لا بأس بعمارتها (١)

ثمُ ان الفرنسسكان بامكانياتهم الكبيرة حاولوا مواصلة جهودهم السابقة فى السودان قبل الحكم التركى المصرى ،وعملوا فى شتى الجهات فى السودان ،وقد تحرروا من قيود المناصب الكنسية ، والاستقرار فى مكان واحد ،فأبحروا الى أعالى النيل ،وأسسوا ارسالية فى "كا كا" الا أن الموت قد قهرهم ،فقد توفى عشرون من الفرنسسكان فى أعالى النيل فى الأربعة أشهر الأولى لعام١٢٧٩ / ١٨٦٢ ، الا أنه فى المقابل نجحوا فى ادخال عدد كبير من أهالى كاكا والمناطق المجاورة لها فى النصرانية (٢) .

الا أن أكثر رجالات التنصير حماسا ذلك هو القسيس الايطالى الشاب النشط ، " دانيال كمبونى" "Daniele Comboni" والذى جاء الى السودان عام ١٢٨١ / ١٨٦٤ ان هذا القسيس بحماسته وفعاليته أعطى العمل التنصيرى فى افريقيا بصفة عامة والسودان بصفة خاصة دفعا يقدر بعمل عشرات الأعوام الى الأمام ،ويبدو أنه واضع الأسس النظريةللعمل التنصيرى فى افريقيا والسودان ، وأنه واضع أيضا ابجديات التصور الحركى للعمل الكنسى وكيفية تأهيل من أدخلوا الى النصرانية حديثا ،ذلك لأن الكنيسة فى افريقيا مازالت تتخذ من نظريات وأقوال وأفعال وتقارير كمبونى نبراسا تستهدى بها فى عملها حتى هذه الآونه.

أن كمبونى قد قام أول الأمر عام ١٢٧٤ / ١٨٥٧ ورجع بعد ذلك وأصدر كتابا باللغةالايطالية بعنوان :

---

(١) محمود القبانى ، مرجع سابق ،ص ١٢ .

(٢) Hill. op. cit., p. 105.

بمعنى "Piano Per la rigenerazione dell Africani"

" خطة اعادة تشكيل أجيال جديدة من الأفارقة " ، وخطة كمبونى ، هى تجديد أساليب التنصير فى أفريقيا ، واعادة الحيوية اليها بواسطة الأفريقيين أنفسهم (١) ويرى كمبونى ان اعتناق الوطنيين الأفارقة للنصرانية يكون أكثر انتشارا وفعالية اذا تمت بواسطة قسيسين من جنسهم يُدربون لهذا الغرض، وكان يرى فى التعليم أنجع الوسائل لتحقيقه ، ونتيجة لذلك أسس كمبونى معهدين لهذا الغرض فى مدينة " فيرونا ، بشمال ايطاليا " فى عام ١٢٨٥ / ١٨٦٧ ، الأول ، معهد " ملاذ السود " يقوم بتعليم وتدريب القسس للعمل التنصيرى فى أفريقيا ، وثانيهما معهد " الأمهات الصالحات لأرض السود" لتدريب الراهبات ، كما أسس كمبونى معهدين مماثلين لنفس الغرض فى القاهرة (٢) ، وكانت خطة كمبونى تهدف الى الاقتراب من جنوب القارة وربط ارساليات الروم الكاثوليك فى حوض النيجر بالارساليات الكاثوليكية فى شمال القارة ففتح مدرسة "العبيد" فى كردفان عام ١٢٩٠ / ١٨٧٣ وهو نفس العام الذى عاد فيه كمبونى من ايطاليا الى الخرطوم ، ثم فتح بالأبيض مدرسة حرفية بلغ عدد طلابها فى عام ١٢٩٣ / ١٨٧٦ مائة وخمسين طالبا يتلقون التعليم فى مختلف الحرف (٣) ، بيد أننا نلاحظ أن كمبونى ينتقى للمعاهد التى يفتتحها ، أسماء تؤدى رسالة تنصيرية فمثلا معهد " ملاذ السود" ، ومعهد" العبيد"

---

(١) Hill, op. cit., p. 127.
- ان الخطط التنصيرية الحديثة قد طبعت عدة طبعات، وترجمت الى عدة لغات وقد خول البابا بيوس السادس للمطابع طبع أى من الكميات التى يراد ارسالها للخارج ، انظر: Ibid, p. 127

(٢) خضر عبد الرحيم ، مرجع سابق ، ص ١٤٢ .

(٣) خضر عبد الرحيم ، المرجع نفسه ، ص ١٤٣ .

هى اسماء قصد منها استدارا ميل الأفارقة للنصرانية ،وتستخدم مثل تلك الأسماء أيضا لاشعارهم بأن المسيحية دين يهتم بهم ويرعاهم لأنهم سود مطاردون من قبل تجار الرقيق ،وأن النصرانية هى الجهة الوحيدة التى تحميهم من شرور الاضطهاد والاسترقاق .

وفى عام ١٨٧٢/١٢٨٩ عُين كمبونى قسيسا وقاصدا رسوليا لوسط افريقيا [١] وذلك لما أبداه من اخلاص نادر ومنقطع النظير للعمل التنصيرى وتضحياته الجسام وابداعاته التى أثرى بها العمل التنصيرى ، ثم واصل كمبونى فى نفس العام عمله حيث أسس محطة للقسس والراهبات وارسالية فى " الأبيض" ، كما أسس ارسالية أخرى فى" الدلنج " فى مناطق جبال النوبا بينما أسس قسيس آخر يدعى" كاميليان" "kamilian" ارسالية فى بربر [٢] وكانت معظم هذه الارساليات بمثابة نقاط انطلاق للبعثات التنصيرية الى أرجاء البلاد حيث يجوبون القرى والبوادى .

ومن جهة أخرى فقد استمرت مدرسة الارسالية الكاثوليكية فى الخرطوم فى تقديم تدريباتها فى المواد الفنية والانسانية ،ففى عام ١٢٩٤/١٨٧٧ بلغ عدد التلاميذ بمدرسة الخرطوم خمسمائة طالب ثلاثمائة منهم من البنين ومائتان من البنات اكثرهم من السودانيين وهى المدرسة التى بدأ بناءها " نوبلهيز" ١٢٧٠/١٨٥٣ وأكمل بناءها كمبونى فى ١٢٩٥/١٨٧٨ ، وفى نفس العام كان مائتان من المخدمين أو العمال الذين يعملون فى موقع بناء السفن بالخرطوم اغلبهم فى السابعة كانوا تلاميذ بمدرسة الارسالية . [٣]

---

(١) -Hill. op. cit., p. 127.

(٢) -Ibid, p. 128.

(٣) -Ibid, p. 127.

وانظر أيضا خضر عبد الرحيم ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

هذا ومما يجدر ذكره أن أحد أبناء قبيلة الدينكا الذين تلقوا دراسات نصرانية بمنطقة كاكا ، قد ابتعث الى انجلترا للاشتراك فى مراجعة ترجمة انجيل لوقا الى لغة الدينكا ، ونشرت هذه الترجمة عام ١٢٨٣ / ١٨٦٦ [١] ، مما يوضح مدى التقدم والابتكار الذى صاحب عمليات التنصير فى أفريقيا والسودان ، مما مكنها من الانتشار والاستقرار .

ومن جهة اخرى يذكر شاهد عيان أنه شهد مراسيم جنازة المطران دانيال كمبونى عام ١٢٩٧ / ١٨٨٠ بالخرطوم ، وقد اسست كلية كمبونى احياء لذكراه ، وقد أقيم احتفال بهذه المناسبة وقد كان احتفالا رائعا حضره حكمدار عموم السودان محمد رؤوف باشا وأورطه الجند النظامية وقناصل الدول والاعيان والموظفون ، وقد خلفه فى هذا المنصب المطران "سوغاروا" ، ثم غادر القساوسة الخرطوم فى أوائل ١٣٠٠ / ١٨٨٣ [٢] . ولكن من أراد أن يدرك تماما حجم الهجمة التنصيرية على السودان فليرى مقابر القس المنتشرة من مصر العليا شمالا حتى غندكرو فى جنوب السودان [٣] .

دور الحكام الاجانب فى عمليات التنصير :

قطعا لم يكن التنصير أحد الأهداف التى من أجلها بعث الحكم التركى المصرى الحكام الأجانب الى السودان لتنفيذه ، بل لم يكن فى حسبان المسئولين فى مصر أن الحكام الاجانب سيمارسون نشاطات تنصيرية أو يستغلون مراكزهم لنشر النصرانية فى السودان ، ولكن تعيين مسيحى

---

(١) محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

(٢) سليمان كشه ، مصدر سابق ، ص ١١ .

(٣) Hill, op. cit., p. 105.

حاكما على السودان أو على جزء منه كان أمرا بالغ الخطورة وكان من الواجب على الحكم التركى المصرى أن يشمل هذا الأمر بكثير من بعد النظر، ذلك فان المسئول النصرانى اذا لم تكن له رغبة فى نشر النصرانية ، فسوف يساعد المنصرين والراغبين فى نشره ويستغل منصبه الحساس الاستغلال الأمثل خدمة لدينه، وأبناء عمومته .

فكثيرمن سياسات الحكام الأجانب فى السودان وتصرفاتهم رغم أنها لاتبدو فى ظاهرها أنها لنشر النصرانية الا أنها تخدم جهود التنصير بطريقة أكبر من أسلوب الذين نذروا أنفسهم وتفرغوا لخدمة الكنيسة ودين النصرانية . فمثلا رغبة غردون الجامحه للعمل فى الاقليم الاستوائى فى بداية الامر ،وذلك لتنوير انسان جنوب السودان بالشخصية النصرانية ولفتح ذهنه ليتقبل الدينا لنصرائى مستقبلا ، وكأن غردون جاءليتعرف على الأحوال فى الجنوب عن كثب ، وبالتالى كتابة تقارير عنها والاستفادة من هذه التقارير فى معرفة انجح الوسائل التى تساعد القسس والرهبان ودعاة التنصير فى نشر النصرانية فى تلك البلاد ،ولهذا نجد ان الفترة التى قضاها غردون مديرا للاستوائيةقصيرة جدا ١٢٩١-١٢٩٣/ ١٨٧٤-١٨٧٦، اضافةالى أن السبب الذى قدم به غردون استقالته عن ادارة الاستوائيـة والرجوع الى بلاده ، لميكن سببا قويا يقنعنا بأن ذلك أمر يدعو للاستقالة وفى الغالب أنه ذهب لاعطاء تقارير وملاحظات واقتراحات تساعد على نشر النصرانية فى السودان بصفة خاصة وفى الجنوب بصفة عامة لاسيما وان غردون قبل التحاقه بالخدمة مع الحكومة المصرية قد اصابه نوع من الهوس الدينى قبل أن يتسلمزمام الأمور فى المديرية الاستوائية وأنه ماجاءالى السودان ، ذلك البلد الشاسع ذات الطرق الوعرة والمناخ القاهر، والعمل

فى ظل تلك الظروف البيئية الصعبة ، أضافة الى قبوله العمل نظير أجر ضئيل هو فقط الفين من الجنيهات فى العام بدلا عن العشرة الاف جنية فى العام التى يتقاضاها " بيكر" من قبل ، الا لكى يعمل عملا يخدم به دينه وصليبه ويعتقد أنه بذلك قد ارضى ربه ، وكفّر عن سيئاته .

اضافة الى أن اضطهاد الحكام الأجانب فى السودان للمسؤلين المصريين واهانتهم ذلك يجعل الاحتقار والصغار فى نفوس الأهالى للمسئول المصرى ، ولتتحول هيبة الشخصية المسيحية وسيادتها الى قلوب الاهالى بدلا عن هيبة الشخصية المصرية المسلمة وسيادتها - بدليل أن كل تلك الاجراءات المسيئة ضدهم لم تكن نتيجة لأسباب موضوعية . أو لأخطاء ظاهرة يستحق ذلك الجزاء من الحكام الأجانب .

كما أن الدول الأوروبية وعلى رأسها انجلترا حاولت بقدر الامكان التشهير بالحكم التركى المصرى أمام الرأى العام العالمى بأن القادة انفسهم يمارسون تجارة الرقيق ويسمحون لغيرهم من الناس بممارسة تلك التجارة، وحينها شعرت الادارة التركية المصرية بالاستفزاز والحرج ، ولدفع هذا الاتهام عن نفسها اتخذت عدة اجراءات لمناهضة الرق والاسترقاق ، من بينها تعيين الحكام الاجانب ، وذلك لاقناعهم بمدى جدية الحكومة فى ابطال الرق .

ولكن انجلترا ظلت تكيد دوما لمصر وتروج بأنها غير واثقة من أن المسؤلين فى مصر جادون فى ابطال هذه التجارة ، ولا تكتمل ثقتها الا اذا تولى مكافحة الرق شخصيات أوروبية ، وكثير من المؤرخين يذكرون بأن هذا الطلب من جانب انجلترا ليس لضمان تنفيذ تجارة الرقيق فقط وانما جعله كمدخل لممارسة الهيمنة على مقدرات شعوب تلك المنطقة ، والتى تعد لها

انجلترا عدتها ومنذ زمن بعيد ، هذا من ناحية ،ومن ناحية أخرى أرادت اتخاذ مكافحة الرق ذريعة لتنفيذ مخططات التنصير ، فان محاربة الحكام الأجانب ومطاردتهم لتجار الرقيق والتضيق عليهم ، لم تنفذ بصورة تؤدى الى ابطالها والقضاء عليها ،فانها وان كانت قد اختفت فى ظاهرها الا أنها ظلت تمارس ولكن فى نطاق ضيق ، فكان الحكام الأجانب يمارسون مكافحة الرق والاسترقاق بصورة ،وكأنهم يريدون من وراء ذلك اشعار الجنوبيين بأننا نحن النصارى ما جئنا الا لحمايتكم من المسلمين الذين أثخنوا فيكم استرقاقا وقتلا وتشريدا ،ولتعلموا من هم الذين أقرب الى نفعكم ،ومن هم الذين يستحقون الاتباع.

كما أن هناك تشويها لتاريخ الزبير باشا رحمة وتركيزا عليه واتهاما له من قبل الأوروبيين بأنه تاجر رقيق ليس الا ، وقد تبع الأوروبيين فى ذلك بعض المؤرخين السودانيين والمصريين ،والشيء الذى يرجوه المؤرخون الأوروبيون من ذلك هو أولا اذكاء روح البغضاء بين سكان السودان الشمالى والجنوبى (1) ، وثانيا وهذا هو الأهم أنهم تبنوا موقف الصليبية العالمية من الزبير ،والصليبية العالمية تقول بذلك الاتهام مخاطبة بأهالى أفريقيا بصفة عامة وأهالى جنوب السودان بصفة خاصة ، وتحاول بذلك أن تظهر لهم ان الاسلام بصفة عامة والعنصر العربى بصفة خاصة ممثلا فى شخص الزبير هم الذين يسترقونكم ويستعبدونكم كما أن عزل بيكر وغردون للمسئولين المصريين فى السودان ،وتلفيق التهم ضدهم ، ذلك ليحل محلهم أوروبيون يعدون العدة للهيمنة الاستعمارية ولتنفيذ المخطط التنصيرى دونما رقيب أو حسيب .

---

(1) خوجلى احمد صديق ، مرجع سابق ، ص١١١ ، وانظر ايضا بونا ملوال مرجع سابق ، ص١٨ .

أيضا الصورة التي عولجت بها ثورة سليمان الزبير ، وثورة صباحي والرشيد في دارفور ، رغم أنها فيما يبدو لاثارة الحقد وكراهية الأهالي على الحكم التركي المصري ، الا أنه من المعروف أن معظم الأهالي في السودان مسلمون ، والادارة التي يستظلون تحتها يقوم عليها مسلمون ايضا واثارة الكراهية و الحقد ضدهم ، هو أمر قصد به شق الصف المسلم حتى لا يستطيع مواجهة النشاط التنصيري مجتمعا ، وأيضا كان الحكام الأجانب يوضحون للأهالي في السودان بأن اسلوب القمع والعنف الذي يمارسونه ضدهم هي سياسة مرسومة من قبل الحكم التركي المصري ، وهم الأجانب ما عليهم الا اتباعها ، ولكي يؤدي في النهاية تلك الخطة الى كراهية الأهالي للحكومة لأنها هي الجهة صاحبة الأوامر وماهؤلاء النصارى الا منفذين لتلك التعليمات ، وبالتالي فان الكراهية ستنسحب الى دولة الخلافة ، لأن الحكام الأجانب يعلمون أن الأهالي مازالوا يعتقدون أن الادارة التي ترعاهم هي ممثلة لدولة الخلافة الاسلامية في تركيا ، فهم بذلك شوهوا سمعة دولة الخلافة الاسلامية ونسبوا اليها أعمال النصارى ، وهذا ماجعل أهل السودان - كما سبق ان تقدم - يقرنون اسم النصارى بالترك ، فأطلقوا على الحكم التركي المصري ، التركية الأولى ، كما أطلقوا على الحكم الثنائي - الذي جاء بعد المهدية - بالتركية الثنائية ، رغم انه يمثل الوجه الصارخ للاستعمار الانجليزي في السودان .

فان الرغبة الجامحة للحكام الأجانب في الدعوة الى التنصير ونشر المسيحية كانت ظاهرة واضحة ولا يستطيع أحد انكارها ، ويتضح هذا الأمر في الرسالة التي بعث بها غردون الى أخته ، موضحا رأيه في نوعية المبشر الذي تتطلبه مناطق أفريقيا الصعبة ، فالرسالة في حد ذاتها تعبير

صادق عما انطوت عليه نفس غردون من اخلاص لنصرانيته ، فيقول غردون في رسالته " ينبغي أن يكون الداعية الرجل الذي يستغني تماما عن الناس، والذي ليس له أواصر من أي جنس ، وان يحن الى الموت ماشاء الله أن يناله والذي يطيق البيئة القاسية لهذه المناطق والذي ينشد رسائل قليلة ،والذي يوءمن بأن يموت مبعدا ، والان فالرجال الذين يقبلون هذه الوظيفة قليلون جدا ولكن نصف الحل لا يصلح ، ينبغي على الرجل أن يقلع عن كل شيء ليفعل أي شيء للمسيح ،فهنا نصف الحل أو ثلاثه أرباع الحل لا يفي بالحاجة ومع ذلك ياله من مجال" (١)

كما قدم غردون مساعدات جمة لنشاط المبشرين عندما عين حاكما للمديرية الاستوائية ،وكتب في عام ١٨٧١/١٢٨٨ الى" جمعية المبشرين البريطانية " يدعوها للعمل في مديريته ، ولكنها لم تتمكن من اجابة رغبته نظرا لالتزامها في مناطق متعددة أخرى (٢) .

ولم تقتصر جهود غردون في دعم الدعوة الى ادخال الوثنيين في الدين النصراني فحسب انما امتدت جهوده أيضا لتحويل المسلمين الى نصارى ، فقد اهتدى الى الاسلام ملك أوغندا المدعو اميتسة والذي أثر فيه التجار القادمون من ساحل شرق أفريقيا وأدخلوه في الاسلام ، وأن"الكباكا"(٣) قد أبدى تفهما للاسلام منذ عام ١٨٦٢/١٢٧٩ وقد كان أول من تلقى تعاليم الاسلام في أوغندا ،وأظهر تفوقا في استيعاب الاسلام وأوامره ونواهيه،

---

(١) The christian approach to Islam in the sudan" P.4.
في خضر عبد الرحيم ، مرجع سابق ،ص ٥٥ .

(٢) انظر محمد عمر بشير ،ص ٣٧ ،وانظر أيضا بونا ملوال ،ص ١٩ ، مراجع سابقة .

(٣) " الكباكا" هو لقب ملك أوغندا .

واللغة العربية ، وقد أصدر منشورا لمعاونيه يحثهم فيه على اعتناق الاسلام وتعلمه ، وقد استجابوا له وكانوا يجدون صعوبة فى تعليم اللغة العربية ، وبدأ سعى أميتسه لنشر الاسلام فقام ببناء مسجد فى قصره ، تبعته مساجد أخرى فى الساحات العامة وكان يرفع على المساجد علما أحمرا به هلال ونجمة دلالة على الاسلام وقد بدأ أميتسة عام ١٢٨٤/١٨٦٧ صيام رمضان ، ولأجله بنى قصرا على البحيرة أطلق عليه اسم " السلام " يقضى فيه شهر رمضان [١] .

ونسبة لاقتناع امتيسه بالاسلام ، رغب فى التقرب الى المسلمين فى مصر ، لاسيما وأن بها الأزهر ، فطلب الحماية المصرية ، اضافة الى أنه طلب ايفاد بعض العلماء من الأزهر ليعلموه هو ورعيته الدين الاسلامى [٢] ، أما القول بأنه هدف من ذلك من أجل أن تساعده الحامية فى حروبه ضد اعدائه من القبائل الأخرى ، فلا بأس فان المسلم يتناصر بأخيه ضد أعدائه ، اضافة الى أنه ليس هناك مايدل على أن اميتسه لا يهدف الى التقرب من المسلمين الا من أجل الغرض والسعى وراء غاية معينة .

ومما يذكر أيضا أن فى عهد اميتسة شاع الذبح على الطريقة الاسلامية وكانت العادة الوثنية أن تضرب الحيوانات على رأسها حتى الموت ، كما أوقف " الكباكا " الصيد عن طريق الكلاب ، وأيضا دعا أعوانه أن يحيوه بتحية الاسلام " السلام عليكم" وكان يحزن عندما ينطقونها خطأ رغم تفهمه لبطء استيعابهم ، اضافة الى أن أميتسة قد أقلع عن شرب الخمر ولكن ليس من

---

(١) عبده كاسوزى ، مرجع سابق ، ص ١١٤ .

(٢) شبيكه ، تاريخ شعوب ، ص ٥٣٩ .

الثابت أنه قد فرض ذلك على أعوانه هذا وقد أصبح عام١٢٩٢/١٨٧٥ قمة انتشار الاسلام فى أوغنده[١]

بالطبع فان مثل هذا التحول الكبير لم يرض النصارى المستعمرين أبدا ولابد من السعى لتقويضه ، والا نحراف به عن هذا الصراط المستقيم الى هاوية النصرانية السحيقة ،فاعتزم الرحالة الأمريكى " ستانلى" أن يتصدى لتحويله وشرع فعلا فى عقد سلسلة من الاجتماعات لقراءة التوراة فى بلاط أميتسة ولكن يبدو أنه لم يفلح[٢] ". ولكن عزم غردون على تنصير اميتسه لم يفتر فقد حاول عدة محاولات، كان آخرها أن أرسل اليه مبعوثه " آرنست رينان دى بلفون" والذى بذل جهدا كبيرا من أجل تنصيره ،ومازال به حتى استطاع أن يزرع فى قلبه الشك والاضطراب ، ومن ثم تحول اميتسه الى النصرانية[٣] ليبدأ العد التنازلى لانتشار الاسلام فى أوغندا[٤] .

بل ان غردون حاول استغلال الزبير أيضا فى أن يؤدى له خدمة للنصرانية والكنيسه والدليل على ذلك أنه عندما اقترح لافلن بارنج استخدام الزبير ليكون خليفة لغردون ، طلب أن يُمنح نيشان القديسين" ميخائيل وجورج " الذى يخول حامله لقب سير وعضو فى الامبراطورية البريطانية من درجة فارس[٥] ، وبالطبع فان نيشان القديس لايخلو من وجود صليب

---

(١) عبده كاسوزى ، مرجع سابق ،ص ١١٥ .

(٢) الان مورهيد ، النيل الابيض، مرجع سابق ،ص ١٣١ .

(٣) محمد سيد محمد ، المديرية الاستوائية ، مرجع سابق ص ٣١١ .

(٤) بعد ذلك تقدم اميتسه الى كل من البروتستانت والكاثوليك بطلب لتعميده الا انهم رفضوا ذلك لاجباره على تسريح زوجاته والابقاء على واحدة حسب التعاليم النصرانية ، انظر عبده كاسوزى ، مرجع سابق ،ص ١١٦ .

(٥) الشاطر بصيلى ، معالم تاريخ سودان وادى النيل ، مرجع سابق ص ١٨١

عليه ،وبوسعنا ان نتخيل الزبير الذى يستهدى بالكتاب والسنة فى سياسته وهو يتقلد الصلبان ،ماذا سيكون مصيره أمام انصار المهدى .

ورغم أن صمويل بيكر يعد أقل أثرا من غردون الا أنه لم يستطع اخفاء نواياه للعمل من أجل التنصير ،والتى اطلقها مناشدا أبناء عمومته النصارى ،ومستصرخا اياهم بعدم تفويت فرصة نشر التصرانية فى السودان ومعددا مزايا العمل التنصيرى فى هذه البلد ، ومنذرا اياهم عواقب التباطوء فى هذا المجال ،ومذكرا اياهم بمدى الخسارة الفادحة فى عدم الاقدام الى السودان .

كما أضاف بيكر يقول :" ان عمل المبشر عسر ويكاد يكون مستحيلا ، فالوفد النمساوى قد أخفق ،ومقارهم هجرت، وصار جهدهم ميئوسا من نجاحه والاباء الاتقياء ماتوا على الارض المجدبة. ولكن فى الوقت نفسه يستطيع الرجل العاقل أن يقدم نفعا ببقائه بين الاهالى" (١) فان صمويل بيكر يوضح الحالة العامة فى مناطق التنصير،ومدى صعوبة العمل فى تلك المناطق ورغم ان هنالك مئات أخفقت فى السودان ، الا أنه كأنما يومى لأهله الانجليز أنهم أقدر من تلك المجموعات التى لم تتمكن من أن تصمد فى وجه ظروف السودان الصعبة ، اضافة الى أنه يشجعهم على الموت والاستشهاد فى سبيل ذلك العمل .

ومما يجدر ذكره أن بعض الحكام الأجانب يتشجيعهم المسلمين على التخلى عن الاسلام والدخول فى النصرانية ، قد شجع كثيرا من دعاةالتنصير

---

(١) The christian approach to Islam in the Sudan P. 2.
فى خضر عبد الرحيم ،مرجع سابق ،ص. ٥ .

(٢) ابراهيم فوزى ،جـ ٢ ، ص ١٥١ .

للاقدام على اجراء محاولات لتنفيذ هذا النوع من التنصير وقد أصابت محاولاتهم النجاح فى كثير منها، وأن لبتون Lupton بك حاكم مديرية بحر الغزال السابق قد تزوج سودانية مسلمة ، وقد تنصرت بدعوة من أحد الآباء الكاثوليك، وقد أنجبت له بنتين ، وكان يسكن معها فى عهد الخليفه عبد الله فى " حى المسلمانيه " فى أم درمان . وعندما مرض لبتون فى ١٣٠٥/١٨٨٨ ثم حضرته الوفاة أوصى سلاطين باشا خيرا بابنتيه وزوجته (١) .

وهذه المعلومه بالذات تؤكد لنا مدى النجاح الكبير الذى حققته مجهودات التنصير وفى فترة وجيزة وقياسية ، وندرك من ذلك مدى اهتمام الصليبية العالمية بالعمل التنصيرى فى السودان ، الا أننا يحق لنا أن نتساءل لماذا لم نجد هذا الاهتمام يتركز فى مصر أيضا وان صح ان هنالك ايضا نشاط تنصيرى فلماذا لم يحالفه النجاح كما حدث فى السودان .

ويمكننا أن نرجع ذلك الى عدة أسباب :-

أولا : وجود الأزهر الذى ساهم فى انتشار ثقافة اسلامية واسعة وعلى أسس علمية فى مصر، ساعد ذلك فى رفع مستوى الوعى بين الأهالى ، واصبحت لهم مناعه ضد الوباء المسيحى .

ثانيا : تعايش المسلمين ، مع النصارى الأقباط فى مصر عبر القرون ، اعطى المسلمين فى مصر خبرة فى مواجهة مخططات التنصير، مما ساعدهم على تحجيم الدور التنصيرى واحباط كل التدبيرات التى قد يراد بها تنصير المسلمين فى مصر .

---

(١) ابراهيم فوزى ، ج ٢ ، ص ١٥١

ثالثا : ان من الوسائل التى يستخدمها المنصرون ،بناء الكنائس بصورة رائعة وجذابه ويقدمون الخدمات التعليمية والثقيفية لجذب الانتباه وتأليف القلوب ولكن يبدو أن الأهالى فى مصر قد تجاوزوا هذه الملهيات وما عادت توءثر فيهم بحكم أنها صارت من معطيات الحضارات التى تقاطرت على مصر.

رابعا : ان الانسان القبطى تجده عنصر خاملا لا يتطلع لأى انتشار للدعوة النصرانية ،ولا يطمع فى ان تتعدى عقيدته الى غيره .

خامسا : تركز السكان فى مصر فى وضع جغرافى واحد وهو تواجدهم على ضفاف النيل مما ساعد على سهولة الاتصال ، مما يجعل أى نشاط تنصيرى مكشوفا ،ولكن بالسودان يمكن ان تنزل بعثه فى مكان ما بين الجبال لا يعرفهم أحدا الا السكان الوثنين مثلا ،ولا يغادرون ذلك المكان الا بعد أن يصبغوا جميع أولئك السكان بالصبغة المسيحية ثم ينتقلون الى مكان ناء آخر.

مواصلة جهود التنصير بعد المهدية :

لقد لاحظنا مدى النشاط المحموم لدعاة التنصير فى السودان ابان العهد التركى المصرى ، ويبدو ان ذلك العمل الدوءب والذى وظفت له امكانيات هائلة وحشد من أجله عدد كبير من المنصرين ، يبدو وكأنه تعبير عن مدى الحسرة والأسى لما سبقتهم به الدعوة الاسلامية والانتشار الذى حققته فى السودان ، لذلك فانهم اعتبروا أنه قد آن الأوان لكى يعملوا فى خمس وستين سنة ما كان يمكن انجازه فى قرنين أو ثلاث قرون مضت ، وذلك بمضاعفة الجهد ، وأبلغ تعبير عن تلك الحسرة هى أن أول خطوة خطاها الدعاة المسيحيون فى عملهم فى السودان ايقاف التيار الاسلامى ومنعه من الزحف الى الجنوب ، وتهافتهم على تنصير " الكاباكا " اميتسة ملك أوغندا ولم يهدأ اهتمام المنصرين بالسودان وبجنوبه على وجه الخصوص الا بعد عام ١٣٠١ / ١٨٨٥ عندما سقطت الادارة التركية المصرية ، ان قيام الحركة المهدية ونجاحها كانت كارثه الكوارث بالنسبة للعمل التنصيرى فى السودان فى ١٣٠٠ / ١٨٨٤ ، فعندما غادر غردون مصر متجها الى السودان للمرة الثالثة ، التقى فى مصر بالقساوسة الكاثوليك الذين كانوا دعاة للنصرانية فى الخرطوم ، وعندما اشتد أوار الثورة المهدية هربوا منها الى مصر فسألهم غردون عن الأحوال ، فكانت اجابتهم مخيبة للآمال (١) فباندلاع الثورة المهدية فى البلاد تم القضاء نهائيا على النشاط التنصيرى بأجمعه فى السودان الا فى حدود ضيقة ، وفى مناطق لم تستطع يد السلطة المهدية الوصول اليها .

---

(١) خضر عبد الرحيم ، مرجع سابق ، ص ٨٣ .

الا أنه بعد زوال الدولة المهدية عادت الهجمة التنصيرية بقوة أكبر ، وبامكانيات ضخمة ، وبوسائل للتنصير أحدث مما كانت قبل المهدية ومما ساعد على اجراءات العمل التنصيرى فى هذه المرحلة أنها كانت مدعومة دعما مباشرا سياسيا واقتصاديا من قبل دولة بريطانيا العظمى ، ولم يكد الحكم الثنائى يستقر فى السودان ، حتى تقاطر عليه رجالات التنصير ، ولم تكن الحكومة الانجليزية فى البداية راغبة فى ممارسة العمل التنصيرى فى السودان فى باكوره عهد الحكم الثنائى بدليل أنها وضعت بعض العراقيل أمام دعاة التنصير ، ووقف المنصرون ضد هذه العراقيل موقفا عنيفا ، ومضوا يؤكدون أن المسيحيه كانت الدين السائد بين أهالى السودان ، طوال قرون عديده [١] ، ومعنى ذلك انهم يريدون اعادة النصرانية الى أيام مجدها وذروة تألقها فى السودان ، قبل قيام الدويلات الاسلامية ، واوضحوا أن تلك العراقيل سوف تفوت عليهم فرصة مساعيهم فى جعل السودان حلقة من سلسلة المراكز النصرانية الممتدة من القاهرة حتى رأس الرجاء الصالح . وهكذا تكاثرت الضغوط من جمعيات التنصير المسيحية ، وقد تلقى كل من اللورد كرومر فى القاهرة ، وكتشنر فى الخرطوم رسائل من المنصرين تتضمن طلبات فى هذا الخصوص .

ومما يبدو أن قادة الاستعمار الانجليزى فى مصر والسودان قد قصدوا من تلك العرقلة التدرج ، فقط لكى لا تكون الهجمة التنصيرية ، دفعة واحدة وبامكانيات كبيرة وبأعداد كثيرة من المنصرين ، مما قد يؤدى الى رد فعل لا يحمد عقباه ، لاسيما وأن الانجليز قد أدركوا مدى قوة الحماس

---

(١) محمدعمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .
وانظر : ايضا مختار عجوبه ، مرجع سابق ، ص ٦٣ .

الديني عند السودانيين والذى قد يقود البلاد الى ثورة دينية سياسية أخرى كالثورة المهدية ، فتفسد على انجلترا خططها للهيمنه على السودان وبقية أفريقيا ، فالمنع هو منع موءقت فقط .

الاستفادة من مقتل غردون فى العمل التنصيرى :

تعرضنا للحسرة الشديدة التى أصابت دعاة التنصير من الانتصار والانتشار الواسع النطاق والذى وجده الاسلام فى السودان ، وردود الفعل الذى أحدثه ذلك عند دعاة التنصير من نشاط واسع وعمل تنصيرى سريع ودوءوب ، الا أن هذا النشاط قد انقطع بفعل الثورة المهدية ، والتى لم تقف عند قطع العمل التنصيرى فقط ، بل أزهقت أرواح كثير من المنصرين من بينهم غردون أكبر داعية نصرانية سياسية ، فقد جعل منصبه مطية للعمل التنصيرى فى السودان ، كتب لهم التقارير عن أحوال البلاد وصاغ لهم المقترحات وخطط لهم طرق العمل ، وأخبرهم بأساليب التنفيذ وبعد كل ذلك كان الدعم السياسى والمعنوى ، والتغطية والحماية من الأعداء لذا فان مقتل غردون قد خلق فجوة عظيمة فى العمل المسيحى فى السودان ان صيحة الانتقام لغردون ظلت مدوية منذ أن قتله أنصار المهدى وقد أطلق عليه عدة ألقاب منها بطل المسيحية " Christian Hero " والشهيد " Martyr "(١) .

وان رد الفعل على قتله لم يكن قتل عشرات الألاف فحسب بل فتح أبواب العمل التنصيرى على مصراعية ، وقد اتخذ المنصرون من " الثأر

---

(١) محمد فوءاد شكرى ، وحدة وادى النيل السياسية ، مرجع سابق ص ٤٣٢ .

لغردون " شعار الالهاب الحماسى ، وايقاظ أحلقاد الحروب الصليبية فى نفوس الأوروبيين ، وصارت أغلب النشاطات التنصيرية مقرونه بذكرى غردون حتى أن جمعيات التنصير قد اعتبرت أن العراقيل التى وضعتها حكوماتهم فى السودان ، اعتبرت تلك السياسة تنكرا لرغبات غردون ، والذى كان يرغب فى أن يعم العمل التنصيرى كافة أنحاء السودان وظل يعمل على تحقيق ذلك الهدف حتى آخر لحظة من حياته .

وقد شكلت فى عام ١٣٠١ / ١٨٨٥ فى لندن جمعية باسم "ارسالية ذكرى غردون " (١) ، كما انتهز كتشنر فورة حماس الشعب الانجليزى للانتقام لغردون فطلب منهم أن يتبرعوا لتخليد ذكرى الجنرال غردون بانشاء معهد تعليمى فى السودان يطلق عليه ، " كلية غردون التذكارية" جمعت التبرعات فى انجلترا بلغت مائة الف جنيه وبدىء العمل فى البناء الذى تم فى عام ١٣١٩ / ١٩٠٢ (٢) .

وأعربت بعض جمعيات التبشير عن اعتقادها بأن الاسلام والتربية الاسلامية لا يتفقان مع التطور اللازم لأهالى تلك المناطق ورخائهم ولهذا ينبغى السماح للمنصرين بالقيام بالعمل التربوى (٣) ، ولهذا يعتقد ان انشاء كلية غردون كان لتخريج " غرادين" يحملون المبادىء والحضارة النصرانية .

وقد استهلك اسم غردون ، حتى استنفذ الاسم أغراضه وصار مسخا مشوها من الدعاية ، وضربا من المزايدة والمتاجرة باسمه ، فقد عقدت "جمعية

---

(١) محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٢) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦ .

(٣) محمد عمر بشير ، المرجع السابق ، ص ٥٤ .

مبشرى الكنيسة" فى١٣١٦/١٨٩٩ ، اجتماعا قررت فيه " ان المشاعر الدينية لهذه البلاد " انجلترا" تفرض بذل الجهد لتخليد ذكرى غردون وان ذلك يتضمن الدعوة الى انجيل يسوع المسيح بين كافة الأجناس التى تقطن المشارف العليا للنيل ، ولذا فانها تعمل لتدعيم مراكزها فى مصر كخطوة نحو تعزيز ارسالياتها فى الخرطوم والمناطق المجاورة لها بمجرد السماح بذلك ، وتتبعا لخطوات غردون فقد أقامت كل من جمعية مبشرى الكنيسة ، والاروام الكاثوليك فى مصر ارسالية سودانية (١) .

بذلك كان تسلم الحكم الثنائى لزمام الحكم فى السودان فرصة لتنفيذ الخطط والمشروعات التى استغرق وضعها أمدا طويلا ، وفى عام ١٣١٦/١٨٩٩ وصل الى الخرطوم كل من القس لولن جاين Lolen Gain والدكتورهاريون Hariun مندوبين عن جمعية مبشرى الكنيسة ، والاب أورفالدر ومرافقوه ممثلين لآباء كنيسة فيرونا (٢) ، والقس كى . جريفن Greifen والدكتور أ . واطسون Watson ممثلين للارسالية الانجيلية فى القاهرة (٣) .

وكان الاتفاق قائما بين جمعيات المنصرين والحكومة على أنه ينبغى التخلص من النفوذ الاسلامى فى جنوب السودان فى أقرب وقت ممكن وعمدت جمعيات المنصرين - تجنبا للنزاع بين اتجاهاتهم المختلفة وتجنبا لنشر الخلافات اللاهوتية بين أبناء الجنوب - الى تقسيم الاقليم الجنوبى

---

(١) محمدعمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٢) نسبة لمقر رئاسة الكنيسة بمدينة فيرونا بشمال ايطاليا .
انظر : خضر عبد الرحيم ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

(٣) انظر محمدعمر بشير ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

فيما بينها الى مناطق عمل ، بحيث تخصص لكل جمعية منطقة تمارس عملها داخل حدودها ، وقسمت كافة أراضي السودان جنوبي خط عرض ١٠° باستثناء منطقة صغيرة في الجانب الشمالي الشرقي لبحر الغزال - ذلك لأنه يغلب فيها العنصر المسلم - بين مختلف جمعيات التنصير، ولم ترض الارسالية الكاثوليكية عن هذا التقسيم ، اذ كانت تعتقد أنها بما تملكه من خبرة واسعة وموارد مالية وخبرة ، تستطيع ان تقوم بعمل تنصيري وتعليمي على نطاق اوسع مما حدده لها نظام المناطق ، غير أن كبار موظفي حكومة السودان كانوا يتبعون الكنيسة الانجليزية باستثناء القليل منهم ،وكانوا يميلون بطبيعة الحال الى جمعية مبشري الكنيسة ويرون أن جمعية آباء " فيرونا " الايطالية عنصرا غريبا لابد من استبداله بارسالية كاثوليكية انجليزية (١) ، فمن الملاحظ أن العمل التنصيري قد انتشر بالسودان ،وانتقلت معه حتى الخلافات المذهبية والعقائدية فانهم لم يكتفوا بتنصير السودانيين فحسب بل ينشرون بينهم النصرانية بخلافاتها .

وقد أنشأ ونجت Wingate حاكم السودان العام الذى خلف كتشنر كنائس بدأت نشاطها بين أبناء الجالية بيد أنها شرعت تدريجيا في ممارسة النشاط بين الوافدين ، ثم مدته الى مناطق التخلف ، ومن هذه الكنائس كنيسة الأرمن الكاثوليك (٢) ، وهناك فريق أخر من المنصرين يدعى " أعضاء الكنيسة الكبرى" يعمل بتأييد من عدد من الأساقفه ذوى النفوذ وكذلك بعثة مبشري الكنيسة وغيرها ممن اندفعوا في هذه الحركة التنصيرية الواسعة (٣) .

---

(١) محمد عمير بشير ، مرجع سابق ،ص ٥٥ .

(٢) خضر عبد الرحيم ، مرجع سابق ،ص ١٣٦ .

(٣) محمدعمر بشير ، مرجع سابق ،ص ٥٢ .

كما لم يقتصر اهتمام جمعيات التنصير بالسودان على الجمعيات التي كانت لها صلة سابقة بالبلاد ، ولا على الارساليات التي تتحدث اللغة الانجليزية ، فقد شكلت في عام ١٣١٧ / ١٩٠٠ ارسالية لطلائع العاملين في السودان المصري الانجليزي ، وأنشئ في أسوان شمال حلفا مركز تنصيري للعمل بين قبائل البشارية في شمال شرقي السودان وبين أبناء دنقله ، وقد أطلق على الارسالية فيما بعد اسم "الارسالية المتحدة للسودان" ووصل أحد أعضائها النشطين وهو الدكتور كارل كوم - الى السودان في عام ١٣٢٧ / ١٩١٠ [١] .

وكانت قد وفدت ايضا بعض الارساليات الثانويه الى السودان وأغلبها بروتستانية وهي :

١) ارسالية ارض افريقيا ، ومقرها تورنتو بكندا
African Land Mission.

٢) ارسالية السودان المتحدة ، تكونت في انجلترا سنة ١٩٠٤
Sudan United Mission.

٣) ارسالية السودان الداخلية ومقرها أيضا تورنتو بكندا
The Sudan Internal Mission.

هذه الارساليات ركزت نشاطها على جنوب وغرب السودان واكتفت بوجود رمزي لها في العاصمة الخرطوم [٢] .

---

(١) محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٥٢ .

(٢) خضر عبد الرحيم ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

أبرز نتائج عمليات التنصير في السـودان :

ان اكثر مناطق السودان تضررا من نشاطات التنصير كانت الاقاليم الجنوبية ، ذلك فان الانتشار الواسع والانتصار الباهر للمسيحية فى جنوب السودان جعل الاداريين البريطانيين فى عهد الحكم الثنائى يفكرون فى المديريات الجنوبية الثلاث تفكيرا مختلفا عن الشمال، ولذلك ترددت الأقاويل بأنه من الأفضل ضم هذه المديريات أو الحاقها بالبلدان الأفريقية المجاورة مع اقامة حاجز من الأفارقة المسيحيين يقف ضد الشمال الاسلامى ، ولذلك اتخذ قرار فى عام ١٣١٩ / ١٩٠٢ بمعاملة الجنوب معاملة منفصلة عن الشمال باعتبار أنهما هويتان مختلفتان فى مراحل التطور والتقدم وفى عام ١٣٣٩ / ١٩٢٢ قررت الادارة الانجليزية فى السودان جعل مناطق الجنوب مناطق مقفلة وأصدرت لذلك قانونا أطلق عليه " قانون المناطق المقفلة" والذى يقضى بعدم خروج الجنوبيين من مناطقهم ومنع دخول الشماليين المسلمين الى الجنوب (١) ، وزعمت الادارة الانجليزية أن الهدف من "قانون المناطق المقفلة" هى حماية سكان تلك المناطق من الاستغلال والاحتكار ولكن الذى يبدو جليا أن القانون كان يهدف الى ماهو أعمق من ذلك اذ كان يرمى الى الاحتفاظ بتلك المناطق منعزلة عن تأثير التيار الاسلامى القادم من شمال السودان (٢) ، وهذا هو سر القضاء على زعامة الزبير باشا ودولته فى بحر الغزال ودارفور وذلك ليخلو الجو مستقبلا لتنفيذ مثل هذه السياسات الاستعمارية التنصيرية التى تتمثل فى اغلاق جنوب السودان لكى تنمو فيها الثقافات المحلية وتكون خاضعة للمؤثرات التنصيرية. كما أن سياسة فرق تسد هى سياسة متبعة من قبل بريطانيا فى السودان.

---

(١) مختار عجوبه ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(٢) محمد فوزى مصطفى ، مرجع سابق ، ص ٨٦ ، ص ٨٧ .

ولما أغلقت مناطق الجنوب لتهيأة الجو لاستخدام كل وسيلة عرفتها النصرانية في سبيل تغيير هوية الشخصية السودانية في تلك المناطق بمعزل عن رقابة العالم الاسلامي بصفة عامة والسودانيين الشماليين بصفة خاصة فقد كان معظم القطاع التعليمي في الجنوب في ايدى المنصرين ، الذين استطاعوا أن يغرسوا في عقول الجنوبيين الشكوك في اخوانهم الشماليين ، بأنهم هم الذين كانوا يسترقونهم ويبيعونهم في أسواق النخاسة في اوروبا والبلاد العربية ، فساعدوا بذلك على تعميق الخلاف ، وزرعوا عدم الثقة بين الجانبين ، فأصبحت مشكلة مستعصية وعقبة كأداء تقض مضاجع السودان السياسية والاقتصادية والعسكرية ، ويتوارثها جيل عن جيل .

ومنذ أوائل عهد الحكم الثنائى تقرر أن تكون اللغة الانجليزية هى اللغة الرسمية في جنوب السودان ، ويوم الأحد عطلة نهاية الاسبوع كما كان على التلاميذ أن يتنصروا قبل أن يبدأوا التعليم ، ولم يكن أمام التلاميذ خيار غير التنصير اذا ارادوا مواصلة تعليمهم .

وقد انعكس دور الارساليات بصورة واضحة بعد الاستقلال وتفجرت مشكلة الجنوب ، ففي تقرير اللجنة التي كلفت بتقصى حقائق وظروف تمرد ١٣٧٢/١٩٥٥ اتهمت اللجنة صراحة الارساليات ورجالات التنصير بأنهم يهدفون الى تنصير الجنوب على حساب الاسلام واللغة العربية اضافة الى أن التعليم الذى قدمته الارساليات لم يكن تعليما جادا بقدر ما كان موجها للتنصير[1] ، وقد بلغ مجموع المدارس النصرانية حتى عام ١٣٦٦هـ / ١٩٤٩م ثمانمائة واثنين وثلاثين مدرسة قروية ، وواحد وستين مدرسة اولية للأولاد وثمانية مراكز تدريب لمدرسى مدارس القرى ، وثلاث مدارس تجارية ، ومدرستين

---

(١)   مختار عجوبه ، مرجع سابق ، ص ٦٣ .

صناعيتين ، كما كانت هناك ثلاثون مدرسة أولية للبنات وأربعة مدارس فوق الأولية والذى يهمنا هنا ان المناهج التعليمية التى وضعت لهذه المدارس التنصيرية لم تكن تنفصل عن الاطار العام للسياسة الانجليزية التى تهدف الى عزل الثقافة الاسلامية العربية بعيدا عن جنوب السودان (١) ، ولندرك أيضا مدى التأثير الكبير الذى سيخلفه هذا الكم الهائل من المؤسسات والاجهزة والهيئات التنصيرية .

ومما يجدر ذكره أنه كان بالجنوب مناطق يغلب عليها السكان المسلمون فمثلا كانت مدينة " واو " فى وقت من الأوقات كأحد مدن الشمال تماما لنشاطها التجارى والان و بعد التغيير الذى طرأ على سياسة الحكومة تجاه الجنوب اصبحت كأنها احدى المدن اليوغندية . (٢)

وبعض المناطق الاسلامية فى الجنوب والتى استعصت على المنصرين تنصيرها مثل "دادنقا" و " مكركه " أجبر سكانها على مغادرتها حيث أخرجوا منها الى اقليم دارفور، ويبدو أن سكان تلك المنطقتين قد سكنوا مدينة الفاشر عاصمة اقليم دارفور ، حيث مازال اسم اثنين من أحيائها ، أحدهما يسمى " دادنقا " والاخر " مكركه " .

وفى نهاية هذا الفصل أحب أن أشير الى أن النتائج الانفه الذكر ليست الا بنسبة واحد من الألف تقريبا من حجم النتائج والتأثيرات فالتنصير فى السودان قد اصبح خطره عظيم وشره مستطير ولابد للعالم الاسلامى ان يعى ذلك جيدا وأن يحسب له اكثر من الف حساب .

---

(١) بشير محمد سعيد - The sudan p. 90 فى محمد فوزى مصطفى - مرجع سابق ، ص ٩٦

(٢) Christian Approach to Islam . فى خضر عبد الرحيم مرجع سابق ، ص ٩٥

الفصل السادس

تجارة الرقيق

الرق فى السودان قبل الحكم التركى المصرى :

الرق ظاهرة اجتماعية قديمة ،عرفها الانسان ومارسها منذ زمن بعيد ، والرق يعتبر وصمة عار فى تاريخ البشرية لأنه يمثل أبشع صور استغلال الانسان لأخيه الانسان ،فقد تعامل الانسان مع الرق منذ أن عرف الحروب، فكان أسير الحرب هو أول المسترقين ، ثم تطورت فكرة الاسترقاق الى درجة الاحتراف والتخصص .

والسودان مثله مثل بقية بلدان العالم بات فيه الرق ظاهرة اجتماعية عميقة الجذور ، حتى غدا الأرقاء جزءا لا يتجزأ من الكيان الاجتماعى وهو من أبجديات الحياة السودانية للغنى والفقير على السواء وبين المسلمين والوثنيين و العرب وغير العرب بلا استثناء ، ومن اجل ذلك فان الحكم التركى المصرى حينما بدأ يناهض الاسترقاق لم يكن الناس فى السودان مقتنعين بعدالة تحريمه ، ولم يرو فيها منكرا اذ كان المجتمع قائما على هذا الوضع ، وكان الاتجار بالرقيق مهنة من أهم المهن فى السودان كما كان اقتناء الرقيق والاماء أشبه " بالعرف التفاخرى " فى هذا العصر اذ كان بعض الأهالى يكثرون منهم لمجرد العظمة والمباهاة ليضفوا على أنفسهم شيئا من المكانه المرموقة فى المجتمع .(١)

وتختلف تجارة الرقيق فى السودان عنها فى أوروبا ،فقد كانت موجهه للمتاجرة فى الشعوب من أفريقيا ، بينما كانت فى السودان فى الغالب أثرا مترتبا على الحروب القبلية بين سكان الشمال والجنوب على السواء وكانت القبائل تستولى على الرقيق بغض النظر عن اللون أو القبيلة ،فعندما

---

(١) بشير كوكو ،مرجع سابق ، ص ١٤٤ .
وانظر ايضا محمد عمر بشير، مرجع سابق ،ص ٣٤ .

تغير قبيلة قوية كالبقارة أو البجه او الزاندى على قبيلة ضعيفة ، فانها تأخذ منها الأسرى فتسترقهم ،وأيضا تأخذ منهم مايمتلكون من رقيق أيضا.[١]

ان المجتمع السودانى كمافى مناطق أخرى من دار الاسلام قد احتفظ بالكثير من العادات والتقاليد القديمة ، وهكذا بقى الرقيق وتغلغل فى كيان السودان الاقتصادى ،وصار دعامة النشاط فى حياته اليومية[٢] .

وفى السودان ايضا كانت تراعى الجوانب الانسانية بالنسبة للرقيق فهو فرد فى أسره سيده وفى المجتمع عامه وعلى ذلك فله من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات ، وليس ثمة فارق كبير بين السيد والمسود ، من حيث اللون والعمل والعقيدة . حقا كان الرقيق هم الذين يقومون بأغلب الاعمال المنزلية ولكن الرق كان يحارب بجانب مولاه ،وهما يتعاونان على فلاحة الأرض والحصاد ، ولا يؤمر الرق بما لا يطيق[٣] ومما يجدر ذكره ان السودانيين يسترقون الوثنيين بحكم أنهم غير مسلمين لذا يستحق الاسترقاق ،فقد كتب الزبير الى سلطان الفور يقول له ان الرقيق لا دين لهم وهم عبده أوثان ويحل استرقاقهم شرعا ، فكتب اليه سلطان دارفور يقول له صدقت،يحل لنا استرقاق عبدة الأوثان[٤] ، وهذا فهم خاطىء للشرع ، فلا يتم استرقاق المسلمين لغير المسلم لمجرد أنه وثنى ، الا اذا دخل المسلم مع غيره فى حرب لها مايبررها ، لرفض الوثنين الدعوة الاسلامية واعتدائهم على ديار الاسلام ، هذا على سبيل المثال لا الحصر.

---

(١) انظر محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٣٤ .

(٢) الشاطر بصيلى ، معالم تاريخ سودان وادى النيل ، مرجع سابق ص١٥٥

(٣) كوكو ، مرجع سابق ، ص ١٤٦ .

(٤) ابراهيم فوزى ، ج ١ ، ص ١٣٧ ، مصدر سابق .

وعلى أى حال فان السودانيين كانوا يشجعون الرقيق على اعتناق الاسلام فاذا اعتنقه أعتق ، بل لم تقف جهود العلماء والفقهاء عند تعليم من يأتيهم من طلبة العلم " الحيران " ولكن بعضهم كان يشترى الرقيق ويعتقهم ويعلمهم الاسلام ويردهم الى ديارهم ليقوموا بنشر الاسلام فيها ، كما كان يفعل الشيخ " حمدود أم مريوم "(١) ، وغيرهم من الشيوخ العلماء من خلال هذه الادوار استطاع هؤلاء الفقهاء أن تعم فائدتهم كل قطاعات المجتمع فهم الذين يرشدون الغنى والفقير والصالح والفاسق والسيد والمسود (٢) .

وكان الأرقاء يعتبرون فى السودان وربما فى مصر أيضا جزءا من الكيان الدينى فى المجتمع ، فمن الناس من اقتنى الرقيق والاماء ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى بادخال رقيقه فى دين الله وجعلهم مسلمين ، فان أسلموا اعتقهم ، والحقيقة التى لا جدال فيها ان الاسلام لم يشرع الرق ، وانما شرع العتق ، وذلك فى شكل عدة قنوات يعمل السادة من خلالها على تحرير الرقيق الذين فى أيديهم ،(٣) ، وقد شجع الاسلام الاقدام على العتق تشجيعا كبيرا .

---

(١) هو حمد بن محمد بن على المشيخى المشتهر عند الناس بأمه مريم " اشتهر بود أم مريوم ، وهو تصغير لمريم ، وعرفت ذريته بالمريوماب" أمه محسية ـ أى أنها تنتمى الى قبيلة المحس ، ولد الفقيه بالجزيرة " توتى" سنة خمس وخمسين بعد الالف للهجرة ، وحفظ القرآن على الفقيه أرباب الخشن ، وكان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، مغلظا على الملوك ومن دونهم ، انظر الطبقات ـ مصدر سابق ، ص ١٧٤ .

(٢) انظر مختار عجوبه ، ص ٦٨ ، وايضا انظر كوكو ، ص ١٦٤ مراجع سابقه .

(٣) كوكو ، مرجع سابق ، ص ١٤٥ .

منهم كما أن المماليك لم يكن فى استطاعتهم الحصول على السلاح النارى الا بالرجوع لوادى النيل وبرقة وطرابلس، وعمدوا للحصول على هذا السلاح باستبداله بالرقيق (١) ، وبذلك تحصل تجار الرقيق على السلاح ، مما ساعد على التوسع فى عمليات القبض على الأهالى فى الجنوب ، واسترقاقهم حتى اصبح خطرا عظيما ، وكانت " شندى " قبيل الحكم التركى المصرى من أهم مراكز التجارة فى السودان وفيها سوق للرقيق يأتيه التجار من الحبشة وسنار وكردفان ودار فور وجنوب السودان ، وقد وصفها "كايو" بأنها بلدة عامرة فيها نحو تسعمائة بيت ، وسبعة الاف نسمة وبيوتها مربعة الشكل ، وكلها طبقة واحدة ، الا بيت المك فانه من طبقتين ومطلياً بالجير ، وكان عند المك نمر نحو ثلاثمائة فارس وأربعين من الرقيق مسلحين بالبنادق (٢) .

وكان أربعة أخماس الرقيق الذين يمرون بشندى يرسلون أما الى بلاد العرب أو الى مصر، هذا بخلاف الأعداد الكبيرة من الرقيق الذين كانوا يتغلغلون فى النظام الاجتماعى للقبائل العربية فى السودان سواء كانت هذه القبائل مستقرة أم متنقلة واما عن طريق التسرى أو للخدمة فى البيوت وفى الحقول ، واستمرت عملية الامتصاص لأجيال متتالية ، الامر الذى ترتب عليه تعديل المظاهر الجسمانية لكثير من القبائل التى ترجع لأصول عربية ومنهم البقارة (٣) .

وكانت هنالك عدة قوافل للرقيق تأتى من السودان الى مصر ، تعرف

---

(١) شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ، ج ٢ ، مرجع سابق ص ١٢

(٢) شقير ، مرجع سابق ، ص ٤٢٥ ، وانظر ايضا شكرى ، وحدة وادى النيل السياسية ، مرجع سابق ، ص ٢٥١ .

(٣) هولت ، مرجع سابق ، ص ١٧ .

الأولى بقافلة النيل الأزرق التى كانت تبدأ رحلتها من سنار الى شندى ثم الى أبى حمد ، ومنها الى كرسكو ، فأسوان ، وتعرف الثانية بقافلة النوبه والتى كانت تبدأ رحلتها من المحس الى أسيوط ، والقافلة الثالثة ، تعرف بقافلة كردفان ، والتى تبدأ رحلتها من الأبيض الى دنقلا أو الدبة ثم تصل الى المحس فأسيوط ، وتعرف الرابعة والأخيرة بقافلة دار فور والتى تبدأ رحلتها من " كوبى" عبر صحراء الليبيا ثم تصل فى النهاية الى أسيوط عن طريق " درب الأربعين*" (١) .

ولقد كانت تجارة الرقيق ظاهرة اقتصادية عالمية شارك فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون ، وعدة اجناس من أوروبيين وعرب والأفارقة أنفسهم (٢) ، فكان من أشهر تجار الرقيق فى الجنوب أحد رؤساء قبيلة الزاندى ويدعى " موبوى" وقد باع من الرقيق آلافا أخذهم من القبائل التى هزمها فى الحرب أو خطفهم فى الغارات التى نظمها ضد القبائل المجاورة (٣) .

---

(١) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

* درب الأربعين : هو طريق يعبر صحراء مصر الغربية الى نظيرتها فى السودان ، حيث يخرج ذلك الدرب التاريخى من اسيوط فى النيل الى الواحة الخارجه فى مصر مارا بواحة سليمة ودخيلة والعطرون الى كُتُم والفاشر ، ومنها مايصل الى أمبابه فى محافظة الجيزة .
وسمى بدرب الاربعين لأن السيرفيه من أسيوط الى الفاشر يستغرق أربعين يوما ـ انظر محمد عبد الغنى سعودى ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

(٢) مختار عجوبه ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

(٣) محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .
كان تجار الرقيق من الافارقة قد أنشأوا لهم محطات تجارية أيضا فى مواقع فى افريقيا ثم اخذوا فى اقتناص اخوانهم وبيعهم أو تصديرهم ووجدوا فى هذه التجارة أرباحا كثيرة ، وبنوا زرائب يتخذونها قواعد لهم فى عملياتهم ، تمهيدا لبيعهم ، كما استعان عدد من التجار الاجانب برؤساء القبائل المحليين للاغارة على قبائل أخرى واسترقاق افرادها ـ انظر : جلال يحى ، مرجع سابق ، ص ٥٦ .

فالقبض على الأهالي واسترقاقهم أمر لا يتهم فيه فئة بعينها ، فتاجر الرقيق الذى هو من جنوب السودان هو أبلغ رد على الدعاية التى بثتها وتبثها مؤسسات الاستعمار والصليبية العالمية بأن التجار الشماليين هم الوحيدون الذين استرقوا الجنوبيين ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، فالذين يروجون لهذه الدعاية دون الالتفات للحقائق التاريخية للأمور والأحداث، ودون بذل أى جهد في معرفة الأسباب والمسببات ،والظروف والملابسات انما يهدفون الى تحقيق مكاسب تنصيرية واستعمارية لا غير.

الرق في عهد الحكم التركى المصرى :

ان من الأسباب التى دفعت محمدعلى باشا لضم السودان ، هو الحصول على أعداد كبيرة من الرقيق لانشاء جيش قوى وفق النظام الجديد ـ النظام الأوروبى ، ومن المؤكد أنه هو الهدف الرئيسى لضم السودان [١] ،فبعد أن دخل اسماعيل باشا السودان وقبل أن يكمل مهمته بدأت مراسلات والده تترى مبديا فيها مدى حرصه على الظفر بأكبر عدد من الرقيق ، وكانت أول ارسالية منهم قدرت بحوالي ألف وتسعمائة ،وقد أمر محمدعلى بفرز الصالح منهم وابقائه فى "إسنا" فى صعيد مصر، كما امر باستخدام البعض منهم لممارسة الاشغال التى تحتاج اليها الدولة ، وبيع البعض الآخر [٢].

هذه كانت فى رأيه أنجح الوسائل لتكوين الجيش ،لأنه لمس المميزات الجسمانية للرقيق الذين يجلبون للأسواق فى مصرمن مختلف أنحاء أفريقيا وزد على ذلك استعدادهم للتخلق بالأخلاق العسكرية كالطاعة

---

(١) سليمان بن محمد الغنام ، مرجع سابق ،ص ٥٠ Hill, op.cit. p.4
(٢) شبيكه ،تاريخ شعوب، مرجع سابق ،ص ٣٢٩ .

للروءساء والولاء لصاحب الكلمة ، وكان يعتقد أن ذلك أمر لا ينتهى ومورد لا ينضب اضافة الى النظر على أنهم ارقاء ليست لهم ارتباطات ، ولا يكلفون كثيرا وكانت الطريقة التى تجمع بها الرقيق ، هى أن يغار على منطقة من المناطق فاذا جمع عدد من الأسرى يوءخذ منهم الصالحون ، ومن هم دون ذلك حتى يبلغ عددهم عشرات الالاف فيرسلون على جناح السرعة الى مصر ، وقد صدرت أوامر عليا بتحريم تعاطى تجارة الرقيق بواسطة "الجلابة"[1]، اذ اصبح ذلك حكرا للحكومة ، كما حرمت الحكومة على الجلابة بيع ما يحصلون عليه من رقيق حتى للحكومة ذاتها[2] ، الا أن محمدعلى قد استثنى من هذا القرار تجار دارفور ، رغم انه قد طلب فى السابق من مدير دنقلا أن يمنع هوءلاء التجار من القدوم الى مصر وان يعرقل تجارتهم ، هذا ولم يسمح لهم محمدعلى بالتجارة فى الرقيق فحسب بل أمر المديرين فى السودان بشراء الرقيق من تجار دارفور ، وكانت دارفور فى ذلك الوقت غير خاضعة لحكم محمدعلى[3].

ويبدو أن محمدعلى خطا بتلك الخطوة كنوع من المرونة السياسية ليكسب بها ود اهالى دارفور تمهيدا لضمه مستقبلا للادارة التركية المصرية من ناحية ، ولمساعدته فى زيادة رصيده من الرقيق من ناحية أخرى .

وقد اتفق الأخوان اسماعيل وابراهيم ابنا محمدعلى على خطة

---

(١) الجلابة : هم التجار من سكان الحضر ، ويتوغلون فى البادية لنشر تجارتهم بين سكانها ، والاعراب يعجبون بذكائهم وتفوقهم عليهم فى المستوى الاجتماعى ، وقد مارس هوءلاء الجلابة القبض على الاهالى وتجارة الرقيق ، حتى اطلق على كل تجار الرقيق بمختلف اجناسهم انظر عبد المجيد عابدين ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .

(٢) شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ج ٢ مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٣) السيد يوسف نصر مرجع سابق ، ص ٣٨ .

يسترقان بها الأهالي ،وكان لأبراهيم أن يقود حملة تخترق أراضي الجزيرة ويكون مكان نشاطه أراضي" الدينكا " شرق النيل الأبيض، واسماعيل يصعد على النيل الازرق وحتى الحدود الحبشية ،ولكن اسماعيل لم يتمكن من الظفر بالعدد الذى كان يأمله ويتوقعه لأنه وجد مقاومة وأزعجته أخبار الثورة على الضرائب مما استدعاه للرجوع الى سنار، أما ابراهيم فقد اشتد به المرض في وسط اقليم الجزيرة مما جعله غير قادر على الاستمرار في رحلته ، فقفل راجعا الى مصر[1] ولم تثمر محاولاته في الحصول على اكثر من ستمائة أسير، وسبق لوالده أن ذكر له بانه سوف لن يرسل له امدادات من الجند الا بشرط ان يستحوذ على ثلاثة آلاف من الأسرى ،وسيرسل له نظير ذلك ألف جندى.[2]

ومن جهة أخرى فان الدفتردار قد استولى في كردفان على كل رقيق وجوارى المقدوم مُسَلَّم وبعث بثمانمائة منهم الى دنقلا بغية ارسالهم الى أسوان ،وفرض على أهالي القرى في كردفان ان يجمعوا له ثلاثة آلاف من الرقيق[3] .

وبالاضافة الى الاسترقاق عن طريق الغارات والأسر ،والاستيلاء على رقيق الأهالي ، كانت هناك وسيلة أخرى استخدمها محمدعلى في السودان ،وهى جلب الرقيق عن طريق الشراء ،فان والى مصر لم يكتف بالعدد المرسل ، لذا ارسل يطلب من ابنه اسماعيل المزيد منهم، وكان محمد على قد افهم ابنه أن الرقيق بالنسبة اليه لا يقل في اهميتهم عن

---

(١) شبيكه ،تاريخ شعوب، مرجع سابق ،ص٣٣٥ .

(٢) ضرار، مرجع سابق ،ص ٤٠ .

(٣) شبيكه ، تاريخ شعوب، مرجع سابق ،ص ٣٣٤ .

الجواهر، وطلب منه أن يحافظ على حياتهم بقدر الامكان وخاصة أثناء قدومهم الى مصر، وذلك بتوفير مايلزم لهم من مأكل ومشرب [١] ، ونسبه لذلك لجأ اسماعيل الى الشراء ،كما أصدر محمد على اوامره لمأمورى المصالح فى كل من أسوان وجرجا ، بشراء الرقيق من الافراد لصالح الدولة [٢] وكان من نتائج عمليات الشراء هذه ان ازدحمت ثكنات أسوان بالرقيق وكان بعضهم لا يزيد أعمارهم عن الثلاثة عشر عاما .

أما الوسيلة الثالثة لجلب الرقيق ، فكانت عن طريق الضرائب ، فالى جانب عمليات الشراء ، استخدم محمد على نظام " الفردة " الذى كان يعتبر نوعا من أنواع الضرائب المعروفة بالسودان ، فقد قرر محمد على أن يحصل على واحد من الرقيق مقابل الفردة المقررة على كل خمس سواقى .

ومن المرجح أن تلك الطرق الثلاث التى استخدمت فى جلب الرقيق قد لعبت دورا كبير فى حصول الحكومة على أكبر عدد ممكن من الرقيق اللازمين لمشروعات الحكومة الاقتصادية والعسكرية [٣] .

وقد استخدم الرقيق الذين جلبوا من السودان فى كافة الأعمال المختلفة فعملوا فى الجيش وفى الزراعة والصناعة وفى الاعمال المنزلية الاخرى الا أن الجيش قد استأثر بالغالبية العظمى منهم ،فقد الحق محمد على الشباب الذكور منهم بمختلف وحدات جيشه وكون منهم فى بداية الأمر "الايان" يتألف الواحد منهما من ثلاث اورطه " كتيبه " ، وبجانب عملهم فى الجيش عمل الرقيق فى الزراعة ، فقد اختار محمد على مجموعة منهم اشتملت على الاطفال

---

(١) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

(٢) السيد يوسف نصر ، المرجع نفسه ، ص ٣٩ .

(٣) شقير ، ص ٦٣٤ ، والسيد يوسف نصر ، ص. ٤ ، مراجع سابقه .

والنساء والرجال ، وخصص لهم قرية صغيرة بجوار منفلوط عرفت باسم "كوم كام بوها " وقد زودها بعدد من الفلاحين المصريين المهرة ، وذلك لتعليمهم حرفة الزراعة ، وبطاحونة لطحن الغلال وبعدد من الماشية والاغنام والملابس والاطعمة [١] ، ولكن افضل ماقدم لهؤلاء الرقيق هو بناء مسجد لهم في هذه القرية التي أنشئت لهم وبالاضافة الى تواجد الرقيق بتلك القرية " كوم كام بوها " فان مجموعات منهم قد توطنت في بعض مديريات الوجه القبلي وذلك بطلب من محمد علي عام ١٢٦٢/١٨٤٥ لحكمدار السودان احمد باشا المنكلي [٢] ان يرسل له حوالي مائتين من الرقيق الذكور والاناث وذلك للعمل في الاعمال الزراعية بمنطقة البحيرة وقد ارسل احمد المنكلي العدد المطلوب في العام التالي ، كما ارسل أيضا أعداداً أخرى الى حي السيدة زينب بالقاهرة ، والى ميت غمر ، وقد شمل النساء والأطفال [٣] .

---

(١) السيد يوسف ، نصر ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .

(٢) هو احمد باشا قوللي المنكلي : " ١٢٦١/١٢٦٢ " = ١٨٤٤/١٨٤٥ " :-
من قادة الجيش التركي المصري في حروبه العديدة في الشام والجزيرة العربية في ايام محمدعلي وقد عين حاكماً "لأدنه" من قبل وفي سنة ١٢٥٦/١٨٣٩ شغل منصب ناظر الجهادية ، وعندما عين حكمدارا على السودان ١٢٦١/١٨٤٤ قام بحملة تأديبية ضد قبائل "الهدندوه" وبعض عشائر مناطق التاكا بشرق السودان اصيب بالروماتيزم ، وتوفي في ١٨٦٢ ودفن بالقاهرة بمقبرة الامام الشافعي . انظرعبدالرحمن زكي ، مرجع سابق ص ٤٣١ .

(٣) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ٤٥ .

ممارسة تجارة الرقيق فى العهد التركى المصرى :

ان قرار حكومة محمد على باحتكار الرق ومنع التجار حتى من بيع مالديهم من رقيق للحكومة ، هذا القرار لم يجد حماية من الادارة التركية المصرية .

فقد أسهمت الكشوف الجغرافية " بعثات سليم قبطان" فى فتح الطرق وربط الجنوب بالشمال خصوصا بعد انشاء ترسانة السفن والمراكب بالخرطوم والتى وفرت للراغبين فى التوغل الادوات المناسبة وقد أفادت المعلومات التى أذاعتها تلك البعثات عن غنى اقاليم السودان الجنوبى وخاصة فى سن الفيل الى تشجيع حكام السودان على ارسال حملات تجارية سنوية لجلب مايمكن من الحاصلات الحيوانية والنباتية لتلك المناطق من ناحية ، لكن من ناحية أخرى ـ وهذا مانحن بصدده ـ مهد لحركة التجار الاوروبيين واللبنانيين[١] ، وكان نقل العاج الابيض وغيرها من السلع يكلف التجار مبالغ طائلة ، لذا عمدوا الى اصطياد الاهالى واجبارهم على حمل العاج دون مقابل حتى الخرطوم حيث يبدأ تصديرهم مع العاج سواء بسواء[٢] وبذا فقد كانت تجارة الرقيق فى الحكم التركى المصرى نتيجة طبيعية لتجارة العاج ، وبعد ان كانت تجارة الرقيق محصورة ضمن النظام التقليدى للحياة القبيلة الا أنه فى ظل الادارة التركية المصرية بدأ التجار الاوروبيون يستخدمون التجار العرب كوسطاء برؤوس اموال كافية مكنت هؤلاء من تشكيل جيوش خاصة بهم واقامة محطات فى داخل البلاد لحماية تجارتهم[٣] وبذلك

---

(١) حسن مكى ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

(٢) ضرار، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

(٣) Richard Gray A history of the Southern Sudan, Oxford Green Wood. 1960. P. 104.

أصبح الكثيرون من العرب المتاجرين فى الرقيق يعتمدون على رؤوس الاموال التى يقدمها الممولون الاوروبيون [١] ، كما ساهمت ايضا محطات تجار سن الفيل والرقيق فى معاونة تجار الرقيق القادمين من كردفان ودار فور على التوغل فى هذه المناطق وتصدير اسراهم [٢] ، مما يوضح أن معين الرقيق فى تلك المناطق قد نضب وذلك بفعل " الصيد الجائر" مما حدا بتجار كردفان ودار فور بالتخلى عن مناطقهم والبحث عن اماكن أخرى للرقيق ، ومن المرجح أيضا ان عدد التجار قد كثر هناك مما قلل من الكسب المتوقع الشى الذى يجعل قسما منهم يفكر فى طرق أبواب تجارة الرقيق فى أدغال الجنوب ، وهناك احتمال ثالث وهو الاحتمال الأقوى وهو ان انخراط عدد من أبناء دنقلا فى تجارة الرقيق بعد ان هجروا سواقيهم نتيجة للضرائب الباهظة وفظاظة الأسلوب الذى يستخدم فى جمعها وجاؤا لممارسة تلك التجارة فى مناطق دار فور وكردفان وجدوا ان المنافسة شديدة بين التجار فى هذه المناطق لكثرتهم فحولوا نشاطهم الى الاقاليم الجنوبية ليعملوا كجنود يحرسون زرائب تجار الرقيق ، وكقوات تابعة لأولئك التجار يستخدمونهم للاغارة على مناطق الاهالى والقبض عليهم ، ثم تدرج بعضهم حتى اصبح تاجرا مستقلا بذاته .

ولما كان المماليك فى السابق قد ساعدوا فى امتلاك تجار الرقيق للاسلحة التى مكنتهم من زيادة نشاطهم فى هذه التجارة الا أن مجىء الحكم التركى المصرى ، قد ساعد على انتشار الاسلحة وامتلاكها لدى كثير من الاهالى وهذا بالطبع ادى الى زيادة عمليات القنص مما ادى الى هروب

---

(١) محمد عمر بشير ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

(٢) هولت ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

الاهالى ولكن التجار كانوا يلاحقونهم فتوغلوا فى النيل الابيض حتى وصلواالى أعاليه واكتظت بهم بلاد بحر الغزال وخط الاستواء ، ومما زاد من نشاط التجار وخاصة الاوروبيين هو الغاء سياسة احتكار قنص الاهالى وتجارتهم من قبل الحكومة[١] ، فاستشرت هذه التجارة حتى انفلتت الأمور من يد الحكومة وخضعت لسلطان تجار الرقيق[٢] .

وكان من أشهر تجار الرقيق من الاوروبيين المالطيان (ديبونى) Debone و (أمبيلى) Ambyly وهما مالطيان تجنسابالجنسية الانجليزية وكل من الفرنسيين (ملزاك) Melzak الذى انتشرت زرائبه على طول نهر الرهد وبحر الغزال ، وقد جعل من منطقة رومبيك فى بحر الغزال - مركزا هاما لتجارته ، و(بارتلمى) Barthelmy ، و(لافارج) Lafarg والنمساوى (فرانز بايندر) ، وهناك أسماء مشهورة كثيرة لتجار من العرب منهم احمد العقاد وشريكه موسى العقاد وعلى ابو عمورى ومحجوب البصيلى وغطاس القبطى ، وكلهم غير سودانيين وكانوا يشتركون فى اقامة التجارة على اوسع نطاق[٣] .

هذا ونظرا لازدهار تجارة الرقيق قرر محمدعلى أن يفرض عليها رسوما جمركية ، وذلك على الرجال والنساء من الرقيق، ولكن استثنى الاطفال نهائيا من هذه الرسوم ، الا انه عاد وفرض ضريبة على الاولاد[٤] ، اما فى عهد سعيد فكانت الرسوم الجمركية للرقيق القادم من السودان تحصل بقسوة وان

---

(١) شقير ، مرجع سابق ، ص ٥٥٥ ، ص ٥٥٦ .
(٢) شكرى ، وحدة وادى النيل السياسية ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ .
(٣) انظر السيد يوسف نصر ، ص. ٥ ، وضرار ص٧٢ ، مراجع سابقه .
(٤) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

التجار الذين لم يدفعوا الرسوم الجمركية كانوا يتعقبون باستمرار، ثم يقرون بأن يجعل لهم الرسوم كدين يسدد فيما بعد، وقد فرضت خمسة جنيهات كرسوم جمركية لكل تسعين من الرقيق الذين يرسلون الى مصر، ونتيجة لوفاة خمسة وعشرين تقريبا من الرقيق فى الطريق لذا فان التجار طالبوا بأن تكون الرسوم الجمركية على الاحياء من الرقيق فقط (١)

ومما يجدر ذكره أنه لما لوحظ ان مايقرب من ثمانين بالمائة من مجموع الرقيق يموتون فى الطريق بسبب سوء النقل والاوضاع غير الصحية، ويموتون فى مصر بسبب عدم ملاءمة الجو لكثير منهم ، ولم يبق على قيد الحياة سوى أعداد ضئيلة جدا قياسا بالكميات الضخمة التى جلبت الى مصر، لذا فان محمدعلى رأى أن الاستفادة منهم فى مصر وفى أجزاء امبراطوريته الاخرى قليلة، وغير مجزية ، فآثر اعادتهم الى السودان حيث أصبحوا جنودا للحكم التركى المصرى فى السودان ويطلق على هؤلاء " الجهاديه " ومهمتهم المساعدة فى حفظ الأمن ، وجمع الضرائب ، وهناك من ذكر بأنهم فى السودان وضعوا تحت أمره ضباط من شباب المماليك(٢) ، ولكن لا تبدو صحة هذه المعلومة خاصة اذا علمنا تلك الضربات الموجعة التى سددها محمد على للمماليك، مما لا يجعل أحد من المماليك يفكر ان يعمل فى حكومة محمدعلى فضلا عن الاستئصال الجذرى للمماليك ، يجعلنا نشك فى بقاء أحد من المماليك حتى يعمل تحت امرة الحكم التركى المصرى .

هذا ويمثل ماكان السودانيون يموتون بمصر بسبب الوضع الصحى الشىء ، فانه كان يموت بالسودان الجنود الاتراك ايضا بسبب الاحوال الصحية لذا اعاد محمدعلى بعضهم الى مصر، وبدأ فى تجنيد الفلاحين ليحلوا محل الاتراك فى السودان . (٣) .

---

(١) Hill, op. cit., p. 101.

(٢، ٣) ضرار، مرجع سابق، ص ٥٤ .

دور الزبير باشا رحمة ، فى تجارة الرقيق :

ان الزبير باشا التاجر السودانى المعروف والذى اصبح ملكا غير متوج لمنطقة بحر الغزال ، قد غادر قريته " الجيلى" ، شمال الخرطوم متتبعا خطوات أخيه للحاق به ومحاولة اقناعه بالعدول عن قراره بالذهاب فى رحلة تجارية الى جنوب السودان فى صحبة أحد التجار المصريين الكبار، الا أن الاقدار ساقته الى مصاحبة أخيه والسير معه نحو هدفه جنوب السودان ،وهناك أبدى الزبير نجاحا باهرا فى خدمة التجار وحاز على اعجابهم وقد ساعدته تلك الممارسة التجارية فى كشف الملكات والابداعات التى يتمتع بها ،الامر الذى ادى الى زيادة طموحاته ثم تدرج فى العمل التجارى حتى أحس بانه آن الاوان كى يستقل بنفسه ومن ثم بدأ ينمى النشاط التجارى الخاص به ،ولكن صفات الزعامة والقيادة التى يتمتع بها أهلته للتقدم والسعى نحو الملك والسلطان ،فتحالف مع بعض الملوك فى جنوب السودان ،وناصرهم فى صد الهجمات التى كانت تأتيهم من الاعداء كما أن الزبير قد تعاون معهم فى الاغارة على ملوك القبائل الاخرى ،ونظرا لاتساع تجارته وعظم ثروته فكر فى تكوين جيش قوى يحمى به نفسه وأمواله ، نظرا لانعدام الأمن فى تلك المناطق وقد استغل الزبير الجيش الذى كونه فى الدخول فى معارك مع أحد زعماء القبائل حيث استطاع ان يهزمه ويستولى على املاكه والتى اصبحت فيما بعد نواة لدولته التى جعل لها عاصمة اسمها " ديم الزبير" ، ويقول الزبير عن كيفية تكوين دولته " وخرجت" أى الزبير" الى بلاد قولو حيث يقيم الملك " عدوه شكو" فدخلتها أول محرم ١٢٨٢هـ/٢٧ مايو ١٨٦٥ وكان هذا الملك قد غدر بأخى منصور وقتله هو ورفاقه الذين ارسلتهم للاتجار فى بلاده واستولى على جميع مالهم ، فلم

يشك في أني جئت للاخذ بثأر أخي فلم يسمح لي بالبقاء في بلاده وتهددني بالحرب فتزلفت اليه بالهدايا واكدت له ان لا قصد لي سوى التجارة فرفض الهدايا واصر على خروجي من بلاده في الحال ، وكان الفصل شتاء والبلاد مغمورة بالمياه فسألته ان يمهلني الى أن ينقطع المطر وتفتح الطرق فأبى، فناجزته اذ ذاك الحرب وجرى بيني وبينه عدة وقائع دموية حتى قتل ، فخلفه ابنه فتغلبت عليه ، وأخذته اسيرا وامتلكت بلاده وجميع البلاد المجاورة لها الى بحر العرب واتخذت عاصمته " بايه " التي سميت فيما بعد " ديم زبير " مركزا لي فصرت فيها ملكا وصارت الناس تتقاطر الى من كل الجهات للانتظام في خدمتي فجلبت الاسلحة وجمعت جيشا قويا وحكمت البلاد بالكتاب والسنه وشرعت في تمدينها وعمارتها وتوسيع نطاق التجارة فيها "(١) .

كما جلب التجار انواعا عديدة من السلع والبضائع أهمها الخرز على اختلاف الوانه وانواعه ، ثم الصدف والقصدير وكله مما يتزين به النساء والرجال في الجنوب ، وكان الاهالي يفضلون هذه الاشياء على الذهب والفضة فكانوا يأخذونها من التجار ويقايضونها بسن الفيل والخرتيت وريش النعام والمطاط والحديد والنحاس وغيرها من باقي حاصلات البلاد(٢) . ونتيجة لهذه الحركة التجارية تشجع الزبير في توسيع مساحة دولته بأن استطاع الاستيلاء على أراضي ثمانية من كبار ملوك النمانم ، وأهمية خطوته هذه تكمن في أن أولئك الملوك كانوا في صراع دائم مع بعضهم البعض، بل ويتعاونون مع تجار الرقيق في الاغارة على بلاد بعضهم بعضا ، وهنا ندرك مدى أهمية جعلها تحت ادارة دولة الزبير الموحدة ، فنعموا نتيجة لذلك بالأمن وساد بينهم الرخاء

---

(١) شقير مرجع سابق ، ص ٥٧٧ .

(٢) سعد الدين الزبير ، الزبير باشا رجل السودان ، القاهرة : الطبعة الاولى ١٩٥٢م ، ص ١٩ .

بعد ما كانت فى السابق تسحقهم المؤامرات والحروب والمكائد وصاروا يتعاملون بالبيع والشراء ويتصاهرون ، وصاروا يأتون الى الزبير من مسافات بعيدة يقدمون فروض الولاء والطاعة (١) .

هذا وقد كون الزبير لنفسه جيشا قويا كان قسما من أفراده من الرقيق الذين جلبوا اثناء فترة تجارته فى هذا المجال ، وكان يدخلهم الاسلام ويطلق عليهم الاسماء الاسلامية ويدربهم على السلاح وذلك للدفاع عن دولته التى اسسها على أن تكون نواة للدولة العربية الاسلامية فقد كان البعض من قواته رقيقا اشتراهم رأفة بهم ولا خراجهم من جور سلاطينهم (٢) فقد جرت العادة فى تلك البلاد ان يبيعوا فى الاسواق اصحاب الجنايات كالسارق والزانى ويذبحونهم كالغنم ويبيعون لحومهم طعاما ، فكان الزبير يفتدى أولئك المغلوبين على امرهم وينضم من فوره الى صفوف القوات المسلحة لدولة الزبير (٣) ، وهذا دليل واضح على أن الزبير كان صاحب رسالة ، ورغب فى استغلال امكاناته وتسخير وضعه السياسى المتميز فى أداء هذه الرسالة فحتى عمله السابق فى الرقيق كان لاعتقاده بانهم غير مسلمين لهذا فانه من الحلال استرقاقهم ، ومن ثم ادخالهم فى دين الاسلام ، ولا يتم ذلك الا من خلال دولة اسلامية قوية تهتم بهذا الامر وتبسط نفوذها على تلك المناطق وتكوين جيش من الاهالى ليشاركوا بأنفسهم فى انجاز التغيير الذى ينشد الزبير تحقيقه .

ولتحقيق الهدف المذكور فان الزبير منذ باكورة عهده بالعمل فى

---

(١) شقير ، مرجع سابق ، ص ٥٧٩ .

(٢) خضر عبد الرحيم ، مرجع سابق ، ص ٥٧ .

(٣) شقير ، مرجع سابق ، ص ٥٧٦ .

جنوب السودان حرص على ألا يكون دوره سلبيا فتغلغل في المجتمع وتزوج من بنات أحد زعماء القبائل، وقد حذا حذوه عدد من التجار السودانيين، وأثروا في مجتمع الجنوب، وقامت بذلك مستوطنات شبه شمالية وشبه مسلمة في وسط مناطق الجنوب، حتى أن غردون باشا وجد كثيرا من القرى تتحدث العربية في جنوب السودان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما أنه لم يجد تفرقه عنصرية أو عرقية بين الشماليين والجنوبيين داخل هذه القرى، وأصبح روء ساء القبائل الجنوبية - على الاقل ان لم يد خلوا الاسلام - يقلدون الشماليين في مأكلهم وملبسهم ومعاملاتهم، واصبح للاعياد والشعائر الاسلامية مكانتها بين معتقدات الجنوبيين القديمة، وليس أدل على المؤثرات الاسلامية التي أحدثها الزبير ومن سار نهجه من أن بعض زعماء الدنيكا والنوير ذهبوا الى محمد احمد المعروف بالمهدى وبايعوه على مناهضة الحكم التركي المصرى [١] .

ان اهمية الزبير باشا الذى أفلح في قيام دولة تحكم بالشريعة الاسلامية وكون جيشا من جنوده " البازنقر" - وهو مصطلح محلى يطلق على الرقيق المجندين [٢] - أهميته تكمن في انه ساهم في تقدم الفكر العسكرى لاهالى البلاد وذلك بانشائه جيشا نظاميا حديثا يتبع أسسا تكتيكية سليمة فالزبير كان صاحب الفضل بلا منازع في تدريب وتخريج أعداد كبيرة من اهالى البلاد المدربين على الاسلحة النارية، كما أن الزريقات والفور لم يعرفوا استخدام السلاح كمجاميع الا عندما حاربو ضد الزبير [٣] - كما سبق وان تقدم - فان جيوش المهدية استفادت فيما بعد من الدروس والخبرات

---

(١) مختار عجوبه ، مرجع سابق ، ص ٦٢
(٢) عون الشريف ، مرجع سابق ، ص ٧٠
(٣) عصمت حسن زلفو ، مرجع سابق ، ص ٣١ .

التى أفرزتها مدرسةالزبير الحربية [1] وأن أهميةالزبير أيضا تكمن في أن جهوده في انشاء دولته العربية الاسلامية ، قد أدى الى أستتباب الأمن وازدهار التجارة مما أدى بدوره الى تقوية انتشار الاسلام واللغة العربية كما لعب البازنقر أيضا دورا بارزا فى نشر اللغة العربية ،لان ولاء هوءلاء ظل ينتقل عبرالحكام والمغامرين بعد ابعاد الزبير فعملوا مع غردون وأمين باشا وجسي وعدد هوءلاء ليس بالقليل ،اذ فى الجيش الاسلامى الذى كونه الزبير بلغ عدد الجنوبيين اثنا عشر ألفا من المجندين ،وبعضهم واصل دوره كمقاتل تحت راية المهدية حيث عرفوا ايضا "بالجهاديه" وقسم أخر يقدر بحوالى ألف منهم ساروا مع رابح فضل الله فى تجريدته الشهيرة الى الغرب ، حيث تم على ايديهم فتح مملكة البرنو وفتح وداى وكانم ومناطق متوغله فى تشاد الحالية ،وتوءكد هذه المعلومة التفاف الجنوبيين طواعية واختيارا فى جيش الزبير [2] .

ونتيجة للنجاح الكبير الذى أحرزه الزبير فى تحقيق رسالته فى انشاء الدولة الاسلامية العربية فى جنوب السودان ، لذا فان الصليبية العالمية صبت جام حقدها عليه وجعلته فقط تاجر رقيق ليس الا،مما ادى الى تشويه سمعته ،وجعل صورته تهتز فى الاذهان داخل السودان وخارجه ـ كما سبق وان تقدمت ـ متجاهلين الظرف التاريخى وظروف المنطقةواوضاعها ومتناسين اصلاحاتالزبير ودوره الرائد فى وضع لبنة هامة فى بناء السودان المعاصر [3] .

ولكن هناك من دافع عن الزبير باشا رحمه فذكر بانه لميكن تاجرا

---

(١) حسن مكى ، مرجع سابق ، ص١٢ .

(٢) حسن مكى ، المرجع نفسه ص١٢ .

(٣) حسن مكى ، المرجع نفسه ص ١١ .

للرقيق فقط بدليل أنه دخل بحر الغزال ودارت بينه وبين زعمائه وقبائله حروبا انتهت بانتصاره عليهم وتأسيس حكومة اسلامية شورية ،" فقد كون الزبير مجلسا للشورى ، لا يبت فى أمر من الأمور الا بعد الرجوع اليه" ، ومن الجدير بالملاحظة أن حكومة الزبير هى أول حكومة اسلامية تقام فى بحر الغزال[1] .

الجهود الدولية لانهاء تجارة الرقيق فى العهد التركى المصرى فى السودان :

فى القرن الثالث عشر الهجرى ، اوائل التاسع عشر الميلادى ، بدأ العالم يسمع صيحات المنادين بالغاء الرق وتجاره الرقيق ، ومما يؤسف له أن تلك الصيحات والنداءات - رغم انها انسانية فى الظاهر الا أنه قصد من ورائها كثير من الغرض - قد جاءت من اوروبا ، بينما العالم الاسلامى الذى بيده معطيات الحلول الجاهزة لهذه المشكلة الاجتماعية المستعصية ، نجده يغط فى نوم عميق ، فقد اصدرت الدول المجتمعة فى مؤتمر " فيينا" ١٢٣١ / ١٨١٥ عدة قرارات من بينها قرارا بابطال تجارة الرقيق[2] ، ورغم أن المؤتمر أقيم فى عاصمة النمسا الا أن انجلترا تزعمت العالم فى المناداة بابطال تلك التجارة ، ذلك لأن وقت صدور قرارات مؤتمر فيينا كان التنافس المحموم على امتلاك المستعمرات - بل امتلاك ارادة الشعوب - على أشده لذا تلقفت انجلترا زعامة النداء والمطالبة كوسيلة من ضمن وسائلها للنفاذ الى تحقيق السيطرة والهيمنة الاستعمارية ، فقد تحولت محاولات الغاء الرق الى أداة من أدوات الاستعمار وقد استخدمتها ، انجلترا فى تعطيل تقدم واستقرار الحكم التركى المصرى فى السودان ، وليس المقصود بتلك

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٨٠ .

(٢) شوقى الجمل ، تاريخ سودان وادى النيل ، ج ٢ ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

النداءات مصر فقط ، ولكن قصد به العالم الاسلامى بصفة عامة ممثلة فـــى سلطان الخلافة الاسلامية .

الا أن تأثير ضغط الدول الكبرى وعلى رأسها انجلترا قد ظهر على محمدعلى صاحب السلطان فى السودان ، قبل أن يظهر على تركيا فقد وجهت لمحمد على بعض الادعاءات فى هذا السبيل ، فمثلا قيل أن الضباط المصريين فى السودان يتجرون فى الرقيق وان مرتبات الجند تدفع أحيانا من الرقيـــق وان الجنود يستخدمون فى صيد الرقيق[1] ، وزادت انجلترا على ذلك بـــأن ارسلت عام ١٢٥٣ / ١٨٣٧ عضوا من البرلمان الانجليزى الى مصر للحديـــث عن تلك الادعاءات[2] .

لذا فان هذه الادعاءات قد اربكت محمدعلى مما دفعه الى اصدار أوامر مشددة فى ١٢٥٣ / ١٨٣٧ الى الحكمدار " خورشيد باشا" يمنـــع فيه استخدام الجنود فى صيد الاهالى ومنع دفع مرتبات الجند من الرقيـق كما أمر بالتأكد من تنفيذ هذا الامر لأن مخالفة ذلك يلحق العار بشخصـه فى نظر جميع الشعوب المتمدينة وبخاصة فى نظر الحكومة الانجليزية الـــتى تقوم بينه وبينها علاقة ود وصداقة ، وعندما زار محمدعلى الســـــودان ١٢٥٤ / ١٨٣٨ شدد على تنفيذ تلك الاوامر ، بل وزاد عليها ، امرا جديـــدا وهو اطلاق سراح الرقيق الذين كان احمد باشا ابو ودان قد اسرهم اثنـــاء قيامه بحملته لقمع بعض حركات التمرد ، كما أمر بانشاء مستعمرة زراعية علـــى

---

(١) شوقى الجمل ، ج ٢ مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٢) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ٥٢ .

— عضو البرلمان البريطانى الذى ارسل الى محمدعلى اسمه "جـــون بورنج " John Bowring انظر السيد يوسف نصـــر ، المرجع نفسه ، والصفحة .

النيل الازرق لتوفيرعمل مناسب لمن يستطيع العودة من هوءلاء الاهالى لبلاده (١) .

أما الدولة العثمانيةفقد بدأتاستجابتها لطلب الحملة ضد تجارة الرقيق فى عام ١٢٦٤/١٨٤٧ ، حين صدر قرار بمنع تجارة الرقيق فى حدود الدولة العثمانية (٢) .

وفى عهد ابراهيم وعباس لم نعثر على مايثبت نشاطات الدولة فى منع تجارة الرقيق ،ولكن سعيد باشا تأثر بالاراء الاوروبية التى كانت تنادى بتحريم تجارة الرقيق ،وكان من بين الاوامر التى أصدرها فى ١٢٧٤/١٨٥٧م منع تجارة الرقيق ، ولكن منع هذه التجارة لم تكن بالسهولة التى توقعها سعيد فقد تجاهل التجار اوامر سعيد ،وواصلوا تجارتهم ، الا ان القنصل العام النمساوى - وهو أحد الشخصيات التى لها صلة قوية بالارساليات الكاثوليكية - ،قد ساعد فى الضغط على الحكومة المصرية التى بدورها ارسلت تحذيرا للحكمدار فى الخرطوم بعدم التباطوء فى تنفيذ اوامرالحكومه فى هذا الخصوص (٣) .

تلك المجهودات رغم انها لم تقض على تجارةالرقيق نهائيا الا أنها أيضا ساهمت فى التضييق على تجار الرقيق ، فأصبحوا أشد حذرا فى تجارتهم من ذى قبل ،كما بدأوا يسلكون برقيقهم طرقا وعرة لم تكن مطروقةمن قبل ،واختفت ظاهرة بيع الرقيق علنا فى مدن الشمال مثل الخرطوم وشندى والابيض، بل كان يسرب الى نقاط محددة للقاء فى الصحراء خارج المدينة

(١) شوقى الجمل ، ج ٢ ، مرجع سابق ،ص ٧٩ .
(٢) مختار عجوبه ، مرجع سابق ،ص ٦٢ .
(٣) Hill, op. cit., P. 102.

ثم يساق عن طريق القوافل الى البحر الاحمر[١] .

الا أن عدم مصداقية الدول الكبرى وعلى راسها بريطانيا تبدو ظاهرة فى انها لم تمنع رعاياها من ممارسة تجارة الرقيق ، بل هنالك عدة شواهد على أن تلك الدول كانت تحمى رعاياها الذين تقبض عليهم الادارة - التركية المصرية متلبسين بجريمة الاتجار فى الرقيق ، بعدما ملأت رعاياتهم الدنيا ونداءاتهم بأن النخاسة اصبحت تجارة غير مشروعة ، فان قنصليات الدول الأوروبية التى تعمل فى الخرطوم كانت تجتهد فى عرقلة كل قانون يحرم على رعاياها الاتجار فيما يريدون وكان التجار الاوروبيون يتمتعون بحصانات دولهم ويستحيل تنفيذ القانون عليهم[٢] ، فمثلا ديبونى Debone مالطى تجنس بالجنسية الانجليزية - قد وجد سند قويا من جانب انجلترا حين اتهم بالتجارة فى الرقيق فلم يقدم للمحاكمة . مع انه من أشهر تجار الرقيق ومثال آخر فهناك جون باتريك John Batherick ، مساعد قنصل انجلترا فى السودان كان ايضا يتاجر فى الرقيق[٣]، ولم تتخذ انجلترا تجاهه اى اجراء ، الا بعدما تواترت الأنباء وتعالت صيحات الاحتجاج ضد انجلترا التى تأمر الناس بالبر وتنسى نفسها فعند ذلك اغلقت القنصلية - وليس جون باتريك لوحده وانما كان معظم قناصل الدول الاوروبية فى الخرطوم يتعاملون فى هذه التجارة[٤] .

وهذه شواهد تؤكد ان الدول الأوروبيه ارادت بنداءاتها واحتجاجاتها وصخبها فقط بث دعاية ضد العالم الاسلامى ممثلة فى الدوله

---

(١) الان مورهيد ، النيل الابيض ، ص. ٩

(٢) ضرار ، مرجع سابق ، ص٧٢ .

(٣) انظر الباب الثانى ، الفصل الثانى ، ص: ٢٤٧ فى هذا البحث.

(٤) ضرار ، مرجع سابق ، ص ٧٣ .

العثمانية ومصر والسودان وذلك لكي يؤدى في النهاية ذلك الضجيج وذلك الادعاء الى ارباك هذه الدول واحراجها واستفزازها بوصفها بصفة التخلف وهذه الصفة بالذات تستفز محمدعلي باشا وأسرته أيما استفزاز وكانوا يحاولون بقدر الامكان ابعاد هذه الصفة عن انفسهم ،لذا نجدهم يعبرون عن ذلك الشعور من ناحية ، باستخدام الاجانب في مراكز ذات مسئولية خطيرة في السودان ،ولاظهار حسن نيتهم واستعدادهم لالغاء تجارة الرقيق من ناحية أخرى ،ومن جانب آخر فانهم ايضا في حاجة الى ادخال الطمأنينة في قلوب الأجانب لما وقعت فيه مصر من مشاكل مالية (١) .

ان الاحتجاجات و النداءات الاوروبية ماهي الا بذل جهد سياسي لايجاد نافذة ينفذون منها الى افريقيا عامة ومصر والسودان بصفة خاصة وقد تزعمت ذلك انجلترا التي عرفت أنها من أعرق الدول في تجارة الرقيق وكانت أهم تجارة لها مع أسبانيا ، فقد عقدت مع اسبانيا معاهدة "يوترخت" عام ١١٢٩/١٧١٣ احتفظت لنفسها بالحق في ان تحتكر تجارة الرقيق في ممتلكاتها ، كما اجبرت فرنسا على اعطائها الحق في تصدير أربعة الاف وثمانمائة من الرقيق في السنة وذلك لفترة ثلاثين سنة وكان جملة ماصدر من الشركات الانجليزية من رقيق في الفترة مابين" ١٠٩٦/١٢٠٢هـ =١٦٨٠/ ١٧٨٦م" ما يبلغ مليونان ومائة وثلاثين ألفا من الرقيق ،واستمرت الاعداد بعد ذلك في تصاعد (٢).

ولكن في القرن التاسع عشر لم تعد انجلترا بحاجة الى ممارسة تجارة الرقيق نسبة لانها اصبحت من اولى الدول الصناعية في العالم ،واكتفت

---

(١) الشاطر بصيلي ،معالم تاريخ سودان وادى النيل ،مرجع سابق ص١٥٩

(٢) ضرار ،مرجع سابق ،ص ٨٢

بتصدير المصنوعات بدلا من تجارة الرقيق ، وجاءت بعد ذلك تمارس الضغوط على العالم الاسلامى وتشهر به ، وكأن انجلترا لم تمارس هذه التجارة منذ أن اصبحت دولة ذات سيادة ، ولكن فى مصر والسودان كانت انجلترا تقف موقفا متصلبا من هذه التجارة لتجد لنفسها ذريعة للتدخل فى ممتلكات مصر الافريقية ، اذ كانت مصالحها الحيوية فى سبيل وجود اسواق لها ، تقتضى التوسع على حساب الدول الضعيفة .

وكنوع من ممارسة انجلترا لنفوذها على مصر ظلت تضغط على الخديو اسماعيل منذ ١٢٩٠ / ١٨٧٣ حتى عقدت معه معاهدة لتحديد مدة معينة يتم فيها ابطال تجارة الرقيق نهائيا من مصر والسودان، فأسفر هذا الضغط عن ابرام " معاهدة الرقيق مع انجلترا فى ١٢٩٤ / ١٨٧٧ (١) .

وتحت هذا القناع تسللت انجلترا الى وادى النيل حتى تم لها احتلاله فى القرن الثالث عشر الهجرى ، الموافق التاسع عشر الميلادى .

جهود الحكم التركى المصرى فى ابطال تجارة الرقيق :

بالرغم من أن أول مهام الحكم التركى المصرى فى السودان كان جمع اكبر عدد من الاهالى للعمل كجنود ، وعمال ، ومزارعين ، وللخدمة المنزلية فى مصر ، وقد استمر محمدعلى يجمع ويوصى ـ كما تقدم ـ ابناء ه بالاخلاص فى الجمع وذلك منذ ان دخلت قواته السودان ، وحتى عام ١٢٥٧ / ١٨٤٠ حيث لم يكن اهتمام محمدعلى بجمع الرقيق كما كان فى السابق ، بل لقد بدأت مظاهر توقف الرق والاسترقاق على المستوى الرسمى ، ويمكن تعليل

---

(١) شكرى ، وحدة وادى النيل السياسيه ، مرجع سابق ، ص ١٣٤ .

ذلك بعدة عوامل منها ابرام معاهدة لندن بين الدولة العثمانية من ناحية ، وبين الدول الاوروبية " انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا " من ناحية أخرى ، فقد ادى عقد هذه المعاهدة الى نقطتين اساسيتين أولهما تخلى محمد على عن ممتلكاته فى كل من سوريا ، والجزيرة العربية ، وكريت واقليم ادنه وثانيهما تحديد عدد جيشه بثمانية عشر ألفا من الجنود فقط ومنها أيضا أن محمد على ألغى نظام الاحتكار الاقتصادى الذى كان سائدا فى مصر وملحقاتها الاخرى [1] .

وفى عهد ابراهيم بن محمد على ومن بعده عباس بن طوسون لم تشهد البلاد فى كل من مصر والسودان جهودا تذكر فى مجال مكافحة تجارة الرقيق الا أنه فى عهد سعيد ظهرت تحركات فى شأن مكافحة هذه التجارة فى عام ١٢٧٨ / ١٨٦١ فقد جرت محاولات لانشاء جهاز للشرطة النهرية لتفتيش ومراقبة تجار الرقيق فى النيل الابيض، كما امر والى مصر محمد سعيد بارسال أربعة بواخر نيلية الى السودان ، ومفرزة بست سفن بحرية مع مدفع على ان يتبعها قافله وقود ، هذه البواخر بعد حوادث كثيرة فى رحلتها عبر الشلالات وصلت الى الخرطوم فى بداية عهد الخديو اسماعيل [٢] .

كما ان سعيد قد افتتح ادارة منع تجارة الرقيق وصيده فى منطقة النيل الابيض، وكانت رئاسة هذه الادارة فى منطقة فاشوده وكانت تحت اشراف احد المصريين ويدعى" صالح حجازى" ،والذى يقوم مقام المحافظ على تلك المنطقة [٣] ، وبالطبع فان هذه الاجراءات رغم انها بداية طيبة

---

(١) السيد يوسف نصر، ص ٥٠ .

(٢) Hill, op. cit., p. 102.

(٣) Ibid.

وجهود مقدرة الا أنها غير فعاله فى مكافحة تجارة الرقيق ، خاصة وان التجار الذين يمارسون مثل هذا العمل من المغامرين كانوا يتحدون الحكومة وان سعيدا لما رأى أن قراراته ومجهوداته لم تسفر عن نتائج طيبة كتب الى حاكم الخرطوم وسنار يقول له :-

" مع أن تجارة الرقيق قد الغيت منذ زمن بعيد وابطل العمل فيه فان الرقيق من النيل الابيض مازالت التجارة فيه مستمره فى الخرطوم ، وهذا يظهر مدى القصور والاهمال فى تنفيذ أوامرنا وهو مايدعو للدهشة والاستغراب لذا يجب ايقاف هذه التجارة فى الاقليم التابع لكم نهائيا وارجاع كل البواخر التى تحمل الرقيق الى موانئها (١)".

ولكن ليس معنى هذا ان حملات سعيد ضد تجارة الرقيق كلها كانت فاشلة ، فقد شعر التجار بالمضايقات التى سببتها لهم الاجراءات الحكومية الاخيرة وبدأوا يجأرون بالشكوى من تلك الحالة السيئة التى آلت اليها مصالحهم ، وخاصة أن اكثر الشكوى جاءت من تجار الرقيق الاتراك القدامى الذين يعيشون فى الابيض فى ١٢٧٥ / ١٨٥٨ ، ذلك لأن بعض الرقيق الذى تم شراؤهم من السودان فى عام ١٢٧٣ / ١٨٥٦ ، كان بالكاد يغطى تكاليف الشراء ، ولكن على كل فان التجار فى نهاية عهد سعيد أصبحوا يمارسون اعمالهم التجارية تلك عبر الطريق المؤدى الى مصر فى خفية وحذر شديدين (٢).

الا أن عهد الخديو أسماعيل يعد من اكثر عهود ولاة الحكم التركى المصرى نشاطا فى الغاء الرق على أوسع نطاق وذلك لعدة اسباب منها :

---

(١) Hill. op. cit., p. 102.

(٢) Ibid.

اولا : ان اسماعيل هو اكثر افراد أسرة محمدعلى ثقافة ووعيا واعلاهم تعليما ، فقد التحق بالمؤسسات التعليمية فى أوروبا ،وفى وقت كان قرار مؤتمر فيينا الخاص بالغاء الرقيق قد بدأ يوضع موضع التنفيذ ،وقد عاصر اسماعيل تكوين الجمعيات المنادية بالغاء الرق ، لذا فانه عندما تولى زمام الامور جاء متأثرا بقرار فيينا وبمجهود تلك الجمعيات .

ثانيا : لما كان اسماعيل لا يستغنى عن الاستدانه من الاموال الأوروبية كان لزاما عليه ارضائهم ليضمن استمرار تدفق اموالهم ،ولا يتأتى ذلك الا بمحاولة اقناع الاوروبيين بانه يتصرف ويسير فى الاتجاه الصحيح وحسب مايرضيهم .

ثالثا : كان اسماعيل فوق ذلك يرمى الى نجاح مفاوضاته مع البريطانيين الخاصة باعترافهم بسيادة مصر على ساحل البحر الاحمر الغربى وساحل الصومال (١) .

وعلى هذا الاساس قام الخديو اسماعيل باتخاذ اجراءات جعلته متفردا بين ولاة مصر فى مجال ابطال الرق ،وتجارة الرقيق .

ومن بين تلك الاجراءات أنه أمر بمصادرة المراكب التى تعمل فى النيل الابيض والتى تضبط عليها متلبسة بالجريمة ، وقد تم بالفعل ضبط سبعين مركبا فى فترة قصيرة ،وتم تحرير ماضبط فيها من رقيق (٢)، كما امر الخديو بتشديد الرقابة على سفن الشركة العزيزية المصرية التى تعمل فى البحر الأحمر وحذرها من نقل الرقيق من سواكن ومصوع وغيرها من موانىء

---

(١) كوكو ، مرجع سابق ،ص٣ ١٤ .

(٢) السيد يوسف نصر، مرجع سابق ،ص٢ ١٤ ،وايضا انظر الرافعى ،عصر اسماعيل ج ١ ، مرجع سابق ص ١٣١ .

البحر الاحمر الاخرى .

ولكن بعد هذا كله ظهرت كتابات كثيرة من شهود العيان الأوروبيين كما نشروا قصصا تخص ضبط عشرات من السفن المحملة بالرقيق فى المحيط الهندى فى طريقها من زنجبار وشرق افريقيا، واصبحت محاربة تجارة الرقيق هى الصيحة الوحيدة التى تتردد بين حين وآخر وسط الدول الاوروبية الباحثة عن ذريعة للتدخل فى افريقيا (١) ، لذا فان الخديو سارع الى تلبية رغبات الاوروبيين وذلك بأن جعلهم يقودون بانفسهم نشاطات الغاء الرق فأرسل حملة عسكرية الى منطقة اعالى النيل وذلك لمهاجمة مراكز تجارة الرقيق فى المنطقة الواقعة بين الخرطوم وغندكرو وعين على رأس هذه الحملة السير صمويل بيكر الذى زوده بسلطة مطلقة حتى يكون له الحرية فى اتخاذ القرارات التى تتطلبها الحملة ، وكان من المهام التى كلف بها بيكر توفير الرقابة على منافذ الطرق التى كانت تستخدم بواسطة الجلابة وقد وصف بيكر تجارة الرقيق بأنه وجدها منتشرة بين جميع القبائل التى زارها كما وجد الرق نظاما متأصلا فى البلاد ، ولذلك رأى ان يعدل عن المناداة بمقاومة التجارة على اساس انها عمل غير انسانى وتحول الى استخدام وسائل محسوسة لمكافحتها (٢) ، لقد أعتبر بيكر أن الرق وتجارة الرقيق سمة من سمات التخلف ، ولذلك بممارسته العنف للقضاء عليها يريد ان يدفع التطور دفعا ، ويدخل المدنية الاوروبية الى قلب أفريقيا بدون ان يسمح لها بأخذ المراحل الانتقالية الطبيعية (٣) ولكن المهم فى هذه الناحية ، انه بعد أن كانت

---

(١) عصمت زلفو ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

(٢) جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ٧١ .

(٣) جلال يحيى ، مرجع سابق ، ص ٧٠ .

خطابات محمد على لابنه وصهره تتحدث عن الرقيق الصالحين للجندية هى الهدف مهما كانت الحالة التى بها يجلبون ، يتحدث امر اسماعيل الى بيكرعن الشرائع الانسانية التى تمنع النخاسه وتضرب على القائمين بها [١] ، وصارت مشكلة الرق من المشاكل الملحة بالنسبة للخديو اسماعيل والتى تتطلب حلا جذريا ، وعين لالغائها رجال أمثال صمويل بيكر للاسراع فى ذلك ، مما اتاح الفرصه لبيكر ليعالج مسألة الرق بذلك الاسلوب القاسى المتعسف.

وبالاضافة الى نشاط بيكر فقد قرر الخديو فتح قنوات يتم من خلالها تحرير الرقيق الذين يعملون خدما فى جميع المديريات السودانية ، من تلك القنوات ، اذا تقدم الرقيق بأى شكوى الى أى جهة حكومية من سوء المعاملة التى يلاقيها من سيده ، ففى هذه الحالة تقوم الجهة الحكومية باستدعاء السيد وتقوم بمساءلته فيما نسب اليه من رقيقه ، فاذا اتضح انه اساء معاملته بالضرب ففى الحال تقوم الجهة الحكومية بتحرير شهادة عتق من الرق [٢]، أيضا طلب اسماعيل من حكمدار السودان " اسماعيل أيوب " أن يعين عددا من الجواسيس لمراقبة تحركات تجار الرقيق ، وقد اسفرت هذه المراقبة عن ضبط سكان منطقة " كيكابية " فى دار فور يمارسون تجارة الرقيق ، فأخبر الجواسيس الحكمدارية بذلك ، فسيرت بدورها قوة عسكرية قوامها اربعمائة من الجنود الخيالة ، وهناك تمكنوا من ضبط مايقرب من ألفين وستمائة من الرقيق ، وذهبوا بهم الى مركز الحكمدارية حيث منحوا هناك شهادات العتق للاصحاء منهم والذين يشكون من المرض تركوا للعلاج [٣] .

الا أنه لايبدو هناك اى معنى لشهادات العتق التى تمنح لهم

---

(١) شبيكه ، تاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص ٥٣٥ .
(٢) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ١٤٤ .
(٣) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ١٤٦ .

لأن الرقيق لا يعلمون بفائدتها ولا تمنع تلك الشهادة تاجر الرقيق من اعادة استرقاقهم ، لأن تلك الشهادة لا تحمل اى معنى او صفة قانونية . فمنح الرقيق شهادة عتق بعد تحريره من قبل الحكومة امر لا يقدم ولا يوءخر.

ومما يجدر استحسانه والاشادة بة ،أن بعض الرقيق لم يلجأوا الى الجهات الحكومية فقط بل لجأوا الى الكنيسة الكاثوليكية بالخرطوم والى قناصل الدول الاوروبية فى السودان لكى تساعدهم الكنيسة وهوءلاء القناصل فى الحصول على العتق وقد بلغ عدد الرقيق الذين لجأوا الى تلك الجهات حوالى خمسين ،ولكن حكمدار السودان عندما علم بذلك سعى الى استدعائهم ومنحهم شهادات عتق والحق الشباب الذكور منهم بالجهادية [1] وبذلك يكون قد أدى الحكمدار واجبه فى تخليص اولئك الرقيق من براثن التنصير.

ومن ناحية اخرى فانه رغم الحماس الذى أبداه بيكر الا أنه كان فيما يبدو متفائلا اكثر مما ينبغى ،فكل ما استطاعه هو ابعاد التجارة عن النهر، فاشتد ازدهارها ـ اكثر من قبل ـ فى صحراء السودان الفسيحة ،والتى لم يجد فيها النخاسون عناء يذكر فى اتخاذ طرق جديدة بالبر الى مصر والبحر الاحمر،واستمر صيد الادميين فى مراكزهم القديمة [2]،وذلك رغم تعليمات الخديو الصريحة للحكمدارين بحصر عدد الزرائب فى مناطق صيد الرقيق وهدم مراكزهم ،ووقف منح اى تصاريح جديدة تخول للتجار انشاء زرائب جديدة للرقيق أو حتى مراكز تجارية تمارس فيها أعمال تجارية أخرى غير تجارة الرقيق ، لأنه ثبت جليا ان اى عملية تجارية فى جنوب السودان تقود فى النهاية التجار الى استغلالها فى المتاجرة بالرقيق .

---

(١) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ١٤٥ .

(٢) الان مورهيد ، النيل الابيض، مرجع سابق ، ص ١٨٧ .

لذا فان بيكر لم يفعل الا القليل جدا لتحسين الموقف ،وأن حملته كلفت اكثر من مليون جنيه ،ولم يحقق نتيجة هامة واحدة ، ولذلك اكد أحد الحكام[١] الأجانب فى السودان أن أساليب بيكر قاسية ودونما داع[٢] فقد فشلت بعثة بيكر فى القضاء على تجارة الرقيق وربما يرجع ذلك الى عدم كفاءة البعثة العسكرية وعدم مقدرتها على احكام الرقابة على الجلابة ، هذا بالاضافة الى المصاعب الطبيعية التى تعرضت لها الحملة من غابات واحراش ومستنقعات وأيضا مقاومة القبائل النيلية[٣] .

وقد خلف بيكر فى ادارة مكافحة الرق فى أقاليم جنوب السودان الكولونيل غردون وكان ذلك فى أوائل ١٢٩١ / ١٨٧٤ ، وقبل مجيء غردون الى الخرطوم ،صادق أبا السعود ـ أحد تجار الرقيق ـ فى مصر ،فأخذه معه وجعله فى خدمته مع نفر من تجار الرقيق ليمنعهم عن الاتجار بالرقيق من جهة ويستعين بهم على تعقب تجار الرقيق من جهة اخرى ،وبعد وصوله الى غندكرو بشهرين اكتشف ثلاث زرائب لتجار الرقيق على بحر الزراق فهدم الزرائب واعتق الأرقاء الذين وجدهم فيها ،لكن أبا السعود ورفاقه لم يخلصوا معه فعزلهم جميعا ،وكان اكثرهم من الجعليين والدناقله وأن ضرب التجار هذا قد اثلج صدور الاهالى الذين عبروا عن ذلك بقدوم خمسة وعشرين من رجال القبائل فى الاستوائية ،وذلك لتقديم الولاء والطاعة

---

(١) الغريب أن الحاكم الاجنبى المعنى هو " جسى" ، ويقول عن بيكر هذا الكلام ونسى نفسه بانه هو اكثر حاكم دموى ومهووس فهو الذى اراق الدماء وكان" قاسيا دونما داع" ،بل ان " جسى" هو أحد العناصر الذين ابتلى بهم الحكم التركى المصرى فى السودان .

(٢) الان مورهيد ، المرجع نفسه ،والصفحة نفسها .

(٣) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ،ص ١٤٣ .

لغردون ويشكرونه على مطاردته تجار الرقيق من بلادهم ، وفي الشهر التالي ضبط يوسف بك مدير فاشوده زمرة من النخاسين ومعهم ألف وستمائة من الرقيق أتوا بهم من بحر الزراف (١) .

وقد امتدت حكومة غردون من ملتقى نهر السوباط بالنيل الازرق الى بحيرة " نيانزا " فكتوريا " ، وكان أهم ما اشتغل به تأسيس نقط عسكرية قوية على النيل لاجل حماية البلاد من تجار الرقيق وحفظ النظام والأمن ، فلم تنته ١٢٩١ / ١٨٧٤ حتى كان قد اسس احدى عشرة نقطة وهي السوباط والناصر " على نهر السوباط " ، وشاميه ، ومكركه ، وبور ، واللاتوكه ، واللادو ، والرجاف ، والدفلاى ، وفاتيكو ، وفويره وجعل فيها ستمائة واربعين من العساكر السودانية ، ومائة وخمسين من العساكر المصرية ، وستمائة وخمسين من الباشبوزوق الدناقله والجعليين ، وبعد ذلك اسس نقاطا في نمولي في نيل نيانزا ، وجند في جيشه عددا كبيرا من الأرقاء الذين حررهم من الزرائب (٢).

وكان قد سبق لغردون أن أصدر قرارا وهو في طريقه الى غندكرو مفاده احتكار تجارة العاج - سبق الاشارة اليه - لحساب الحكومة ، وتجارة العاج كانت الستار الذى يخفي وراءه تجار الرقيق نشاطهم ، كما تضمن ذلك القرار منع اى فرد من الذهاب الى مديريه خط الاستواء دون أن يكون لديه مقدما اذنا يخول له الذهاب ، وذلك الاذن يمكن الحصول عليه من حكمدار السودان وموقعا عليه من سلطات المأمورية في غندكرو او في غيرها كما امتنع بفضل هذا القرار انشاء الجماعات المسلحة في مديرية خط الاستواء وادخال الاسلحة والبارود اليها ، وصار كل مخالف لهذه الأوامر مهدد

(١) شقير ، مرجع سابق ، ص ٥٦٤ .

(٢) شقير ، نفس المرجع السابق ، ص ٥٦٥ .

بتوقيع اشد العقوبات التى تجيزها القوانين العسكرية عليه. ولا ريب فى أن قرار الاحتكار هذا ، هو اكثر قرارات غردون صوابا ، فقد كان اجراء ضروريا لانه اريد به وقتئذ اصابة تجارة الرقيق بضربة قاتلة ، ولكن بالرغم من ذلك فان للقرار عيبا كبيرا أيضا فى تعطيل النشاطات التجارية الاخرى مما أدى ، الى تذمر الاهالى . [1] .

بعد انتهاء فتره خدمة غردون فى المديرية الاستوائية ومغادرته السودان فى ١٢٩٣/١٨٧٦ ، وقع الخديو اسماعيل معاهدة مع الحكومة الانجليزية للتعاون على منع تجارة الرقيق ، وقد نصت المعاهدة على ان تقفل اسواق الرقيق فى مصر والسودان فى الحال ولكن يغض الطرف عن بيع الرقيق بين العائلات فى مصر حتى عام ١٣٠١/١٨٨٤ ، وفى السودان حتى عام ١٣٠٦/١٨٨٩ ثم يمنع البيع بتاتا فى البلدين [2]، ونصت المعاهدة أيضا على اباحة الرقابة الانجليزية على السفن الحاملة للراية المصرية وضبطها وتفتيشها للتأكد من عدم ممارسة تجارة الرقيق [3] ولكن من الصعب زوال مسألة الرق فى فترة قصيرة كهذه وهى الاثنتا عشرة سنة المنصوص عليها فى المعاهدة كما انه من المتعذر انهاء مشكلة اجتماعية معقدة كمشكلة الرق عن طريق عقد المعاهدات [4] ، والخديو كان يعلم ذلك ، الا انه بعقده للمعاهدة مع انجلترا كان يهدف الى تحقيق مآرب أخرى اكثر مما يحقق حلا لمشكلة الرق وتجارة الرقيق .

---

(١) شكرى ، وحده وادى النيل السياسية ، مرجع سابق ، ص ١٣٣

(٢) شقير ، مرجع سابق ، ص ٦١٩ .

(٣) الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، مرجع سابق ص ١٣٣ .

(٤) شكرى ، وحدة وادى النيل ، مرجع سابق ، ص ١٣٥ .

فالخديو اسماعيل كان يرمى من وراء عقد المعاهدة كسب ود الحكومة الانجليزية لاستخدام مساعيها لدى الدولة العثمانية فى تحقيق مطالبه من الباب العالى ، وقد أفلح الخديو فى تلك الخطة ،اذ بوساطة انجلترا لدى الدولة العثمانية ،أصدر الباب العالى للخديو عدة فرمانات، نال بموجبها امتيازات ،كان آخرها الفرمان الشامل ١٨٧٣/١٢٩٠ الذى جمع كل الفرمانات السابقة التى نالتها مصر من الدولة العثمانية بفضل المساعدات الانجليزية (١).

وعندما عين غردون حاكما عاما على السودان فى ١٨٧٧/١٢٩٤ أفاد كثيرا من معاهدة لندن، رغم مابها من نصوص تمكن الانجليز من الافتئات على سيادة الحكومة فى مصر والسودان ومصالحهما ،اخذ غردون المعاهده ونشر فحواها فى جميع جهات السودان ،وذلك كتدعيم المجهوداته السياسية ضد تجارة الرقيق . كما قام بفصل معظم المسئولين المصريين وعين مكانهم أوروبيين وامريكان ، فعين من بينهم جقلر باشا مديرا عاما لمنع تجارة الرقيق وسمى فى كل مديرية عدة مأمورين لهذه الغاية ، فأخذ الرقيق يفدون اليه افواجا أيضا يطلبون " شهادات العتق " فتعطى لهم (٢) .

وقام المسؤلون الاوروبيون الجدد الذين عينهم غردون بتشديد الرقابة على تجارة الرقيق وعلى موظفى الحكمدارية أيضا ،والدليل على ذلك بأنه عندما قابل " جسى" مدير بحر الغزال احدى ذهبيات الميرى (٣) " المراكب

---

(١) كوكو ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .

(٢) شقير ، مرجع سابق ، ص ٦١٩

(٣) ذهبيات : جمع ذهبيه ،وهى نوع من المراكب المستخدمة فى النيل ، وقد طورت بحيث تكون وسيلة جيدة ومناسبة للنزهة والترفيه حتى صار استخدامها دلالة على الغنى والرفاهية. انظر الايطالى مجهول الاسم مصدر سابق ، ص ٢٢

الحكومية" القادمة من مديرية خط الاستواء ، وبعد تفتيشها وجدها تحمل عددا من الرقيق التابع لبحارة هذه الذهبية ،فقام من فوره بابلاغ غردون بهذا الحادث فقرر بالتالى محاكمة الطاقم ،فعوقب رئيس البحارة المدعو "عبد الكريم نقورى" بالسجن لمدة ثمانية شهور مع فصله من خدمة الميرى وعوقب زميله المدعو صالح عبد الرجال بالسجن ستة اشهر مع فصله من الخدمة ايضا ،وعوقب اليوزباشي مصطفى افندى فتيح بالسجن لمدة ثلاثين يوما ،وذلك لأنه كان يعلم بوجود رقيق بالذهبيه ولم يبلغ عنه كما عوقب مدير فاشوده بفصله من الخدمة لأنه رأى الرقيق اثناء نزوله من الذهبيه ولم يتخذ اى اجراء من جانبه [1] .

كما بذل امين باشا والمسئولون معه جهدا كبيرا فى سبيل ازالة شكوى الاهالى ضد بقايا الدناقله الموجودين بينهم ،وأجروا تحقيقات واسعة أدت الى اعادة الكثيرمن الاهالى المسترقين الى عشائرهم الاصليه ، كماضيق مدير المديرية الخناق على الدناقلة بالغاء بعض امتيازاتهم التى توارثوها بحكم نفوذهم السابق مثل الاعفاء من الضرائب ، مما ادى الى تقليل مكانتهم بين أهالى الجنوب ثم أمرت المديرية باعتقال بضع مئات منهم وارسالهم تحت الحراسة الى "لادو" لترحيلهم منها الى الخرطوم ، مما أزال من الاهالى رهبتهم وخشيتهم ،كما اتاح للاهالى أيضا فرصه الاستهانة بهم [2] ، ويبدو أن هذا هو الجانب الاهم لان الرق ،هو استرقاق للقلوب فى المقام الاول ، ولكن من جهة اخرى فان نقل الدناقلة " البحارة" من الأقاليم الجنوبية الى الخرطوم ، قصد به ايضا تخفيف الاقاليم الجنوبية من العناصر الاسلامية العربية ، ثم استغلال تحرير الاهالى من الاسترقاق فى خدمة الاهداف

---

(١) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ١٥٤

(٢) جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ١٨٧ .

التنصيرية بمعزل عن المؤثرات الاسلامية والعربية وتنمية الثقافات المحلية على أسس نصرانية .

هذا وقد شعر البقية الباقية من الدناقلة " البحارة " بأن وجودهم فى الاقاليم الجنوبية قد بات فى خطر وبدؤا يتجهون من تلقاء انفسهم الى تحرير ماتبقى لديهم من رقيق ومغادرة الاقاليم الجنوبية الى الشمال [1] ، كما أن سياسه الحزم التى اتبعها غردون ومديروه أدت الى ردود فعل صاخبة من قسم كبير من الأهالى وذلك فى شكل ثورات محلية احداها فى بحر الغزال بقيادة سليمان بن الزبير باشا ، ولكن قوات الحكمدارية التى كانت بقيادة " جسى " تصدت له وهزمته فى ١٢٩٦ / ١٨٧٩ ، وقامت ثورة اخرى بقيادة احد امراء الفور السابقين ويدعى هارون - ويلقب بالرشيد - ، وقد ساعد العنف الذى اتخذه الحكام الاجانب فى تحريك كوامن الغضب والثورة فيه ، حيث جمع الرشيد اهله الفور ضد الحكومة ، فلطاردته جنود الحكومة واشتبكت معه ، فهزم وقتل فى نفس العام الذى قتل فيه سليمان الزبير ، وفى نفس السنه ، قام قائد آخر من قواد الزبير هو الصباحى بثوره اخرى ضد الحكومة فهزمته أيضا قوات الحكومة وقبضت عليه وحكموا عليه بالاعدام ونفذ فيه فى عام ١٢٩٦ / ١٨٧٩ أيضا .

وفى نفس عام ١٢٩٦ / ١٨٧٩ أجبر الخديو اسماعيل على التخلى عن عرش الخديوية فى مصر ، وتبعه فى ذلك غردون بأن قدم استقالته عن الخدمة كحاكم عام فى السودان ، واذا حاولنا تقييم جهود الخديو اسماعيل فى مجال ابطال الرق وتجارة الرقيق ، نجد أنها جهود آتت ثمارها الى

---

(١) جميل عبيد ، مرجع سابق ، ص ١٨٧

حد ما ، اذ أوقفت تلك الجهود - الى حد كبير - الحملات المكثفة لاصطياد الرقيق التى ظلت قائمة منذ عهد محمدعلى حتى غدت تلك التجارة عملا خطيرا للغاية ، فعلى الأقل تلك المجهودات - ان لم تؤد الى اى نتيجة - يكفى انها اجبرت التجار لكى يمارسوا عملياتهم بصعوبة بالغة ، يسلكون اليها الطرق الوعرة ، ويصرفون عليها المبالغ الطائلة ، ويبذلون تجاهها الجهود المضنية ، ويتحملون فى سبيلها المجازفات الخطيرة .

ومن نتائج تلك الجهود أن الخديو اسماعيل قدعمل على حل مشاكل المحررين من الرقيق والاماء ، فقد كان يجند الصالحين من الرجال فى الجيش ، ويوجه بقيتهم للخدمات المنزلية باجور والنساء يزوجن اذا شئن لمن شاء ، ويرسل البعض الى الحقول الزراعية كما يلحق الأطفال بالمدارس أو يلحقون بالكتاتيب التى كانت نواة للمدارس " التعليم المنظم" ، هذه هى أبواب العمل المفتوحة أمام الارقاء بعد تحريرهم فى مصر والسودان ، أما فى مصر نتيجة لأن الأرقاء الذين يباعون فى مصر يستخدمون فى المنازل ونتيجة لعدم وجود العامل الحر المدرب على العمل فى البيوت ، فقد أنشأ الخديو اسماعيل مدرسة فى القاهرة لتدريب بنات الفقراء على الخدمات المنزلية كفن الطهى ، والتدبير المنزلى لمقابلة هذه الحاجة فى البلاد عسى أن تلغى اعمال الرقيق فى بيوت الاثرياء ، والطبقة الوسطى من المصريين [1] .

ولكن رغم ذلك فان سياسة اسماعيل تجاه الرق وتجارة الرقيق لم تخل من القصور والسلبيات ، فقد اشار البعض الى ان اسماعيل قد أمر ، بل حول فى وقت من الاوقات مشروع صيد للرقيق فى جنوب السودان لجيشه وحين كشف قنصل انجلترا أمره ، لم يملك الا أن يعتذر له ، ويأسف على أنه

---

(١) كوكو ، مرجع سابق ، ص ١٤٧ .

خدع فى أخلاق الرجل الذى اختاره حكمدارا للسودان بسبب تعليمه الاوربى ،ويعنى بذلك " اسماعيل باشا أيوب "(١) .

وهكذا صار اسماعيل باشا ايوب كبش فداء ،متحملا هذا الاتهام القبيح دون أن ينطق بكلمة ،وبذا فان أوامر الخديو للحكمدار باصطياد الرقيق ينم عن تناقض واضح فى مواقف الخديو اسماعيل تجاة هذا العيب الاجتماعى" الرق " .

ان جدية اسماعيل فى تحقيق هدف ايقاف الرق وتجارة الرقيق يجعل كثير من المحللين يضعونها محل شك وجدل خاصة وانه كان يغمض عينيه طوال السنين عن مصادر ثروات عماله فى الخرطوم وعن اعمال شركات الاستثمار المشبوهة التى تكون ثروات كبيرة فى زمن وجيز(٢) .

خلف غردون بعد استقالته من العمل فى السودان ، محمد رؤوف باشا الذى ارتكب نفس الخطأ الذى ارتكبه غردون من قبل ،من حيث الاستعانة بالموظفين الاجانب فى كفاح حكومته ضد تجار الرقيق ،فقد استبقى رؤوف الأوروبيين فى مناصبهم ،وعينهم حكاما ومفتشين فى مختلف المديريات واصدر اليهم التعليمات بوجوب المضى فى القضاء على تجارة الرقيق بنشاط اكبر مما فى السابق ، ففى بحر الغزال تسلم المديرية الانجليزى "ليتون بك" بعد استقالة الايطالى جسى فى ١٢٩٧ / ١٨٨٠ ، وفى دارفور بقى فى مراكزهم كل من سلاطين فى " داره " واميليانى فى " كوبى" ومسيدليا فى "الفاشر" ، وفى مديرية خط الاستواء بقى الدكتور امين باشا ، كما عين رؤوف أوربيا آخر

---

(١) كوكو ،مرجع سابق ،ص ١٤٧ .

(٢) عصمت زلفو ، مرجع سابق ،ص ٢٨ .

هو النمساوى " آرنست مانرو " Arnest Manrow مفتشا فى فاشودة[1] ، وكل هؤلاء الاوروبيين بقوا فى مراكزهم يعملون فى مطاردة تجار الرقيق ، لان أمر تلك التجارة لم ينته رغم المجهودات التى بذلت خلال حكم اسماعيل وغيره بغرض مكافحته والغائه ، حيث ظلت تلك التجارة تمارس بعد حكمه ، لذا بات على محمد روءوف مواصلة الجهود التى بدأها اسلافه الحكمدارين من قبل ، فقام بمحاولات عدة فى ذلك المجال ، من ذلك أنه قام باغلاق طريق القوافل الذى كان الجلابة أعادوا فتحه بعد رحيل غردون بين دار فور ومصر ، فمنع بذلك تصدير الرقيق الى مصر من " كوبى " و " الفاشر " بل أفلح روءوف فى انزال أقصى العقوبة بالمخالفين من التجار[2] .

كما أن الحكومة فى القاهرة قد عينت فى ١٢٩٩ / ١٨٨٢ ، مفتشا عاما ، للاشراف على محاربة الرق فى البلاد السودانية ، وكان يعمل تحت رئاسته عدد من المفتشين الخصوصين والمأمورين والخفراء وقد وزع هؤلاء - الأفراد على المحطات والنقاط الهامة ، وكان من واجبهم جميعا مراقبة الطرق والمنافذ والبوغازات التى كان تجار الرقيق يسلكونها ، فكان هؤلاء المفتشون الخصوصيون يقومون من وقت لا خر بالمرور على المحطات والنقط التابعة لمديرياتهم ، وقد زود مديرو المحطات بدفاتر كى يسجلوا فيها عدد الرقيق الذين يتم تحريرهم ، كما كانوا يقومون فى نهاية كل شهر بارسال التقارير التى تتضمن كافة اعمالهم الى المفتش العمومى الذى يقوم بدوره بارسال التقارير اولا بأول الى مركز الحكمدارية وكانت هذه التقارير تتضمن كافة البيانات التى تجمعت لديه عن حركة تجارة الرقيق[3] ، ولكن رغم أن

---

(١) شكرى ، وحدة وادى النيل ، مرجع سابق ، ص ٢٥٧ .

(٢) شكرى ، وحدة وادى النيل ، نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

(٣) السيد يوسف نصر ، مرجع سابق ، ص ٣٠٤ .

المجهودات الاخيرة تبدو متطورة اكثر من المجهودات السابقة ، الا أنها لم تجد نفعا فى مجال الغاء الرق وتجارة الرقيق ، التى لم يوضع لها حد الا فى عهد الحكم الثنائى ، حيث ان تجارة الرقيق عادت الى بعض نشاطها فى ايام الدولة المهديه " ١٣٠٢-١٣١٥ " = " ١٨٨٥-١٨٩٨ " [1] .

---

(١) مختار عجوبه ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

الفصل السابع

أثر الحكم التركي المصري على الثقافة والعادات والتقاليد واللهجات

ان للوضع الجغرافى الذى يتمتع به السودان والتركيبة السكانية الفريدة دورا كبيرا فى تأثره بجميع التيارات التى تهب على القارة الافريقية ونادرا مايقع شىء فى هذه القارة ثم لا ينعكس صداه على السودان بحكم هذه العوامل الجغرافيه والديمغرافية .

فبالاضافه الى أنه شهد موجة هجرة عربية واسعة فى حقبة من الزمان فان السودان يعد ايضا معبرا للحج بالنسبة لمسلمى غرب افريقيا حيث يأتى بعضهم الى السودان " ويفلت" فيه عندما تتقطع بهم السبل عند الذهاب الى الحج أو الاياب منه ، فأطلق اهل السودان على ذلك الصنف من المهاجرين " الفلاته " حيث يستقرون ويصبحون بمرور الزمن مواطنين .

فالمهاجرون " الفلاته " والعرب اضافة الى سكان البلاد الاصليين من بجاه ونوباويين ونوبيين وفور وجنوبيين وغيرهم امتزجوا وكونوا الكيان السودانى المعروف الان ، وتأثر السودان بثقافات تلك الاجناس وعاداتها وتقاليدها ، ونريد من كل هذا ان نؤكد أن الذى جعل السودان شديد التأثير بتلك التيارات هو موقعه وقابليته لاستيعاب اى دخيل .

لذا فليس من الغريب أن تترك الادارة التركية المصرية بصماتها على السودان خاصة وانه ظل تحت ادارتها مدة خمس وستين سنة ، فكانت النتيجة الهامة التى ترتبت على ذلك أنها فتحت السودان شماله وجنوبه للعالم الاسلامى والعربى والاوربى ، ومن هنا فإنعكاس اى تأثير من هذه الجهات على الصعيد السياسى او الاجتماعى فى السودان ننسبه الى الحكم التركى المصرى لأنه هو السبب المباشر فى تأثير السودان بتلك الظواهر .

وأن الاثار الاجتماعية للحكم التركى المصرى ، تأثر السودان بمعظمها من العناصر التى صاحبت الوجود التركى المصرى أكثر من تأثره بالاتراك انفسهم

ذلك لأن العناصر التركية لم تتغلغل فى كيان المجتمع السودانى كبقية العناصر الاخرى ، فالأتراك عاشوا فى السودان مترفعين عن الاهالى لا يبغون سوى السيادة والحكم ، لذا نجد ان اثرهم يغلب على المستوى الرسمى وما يصاحب ذلك من اسماء والقاب ومصطلحات .

ويعزى البعض قلة التأثير الاجتماعى للأتراك فى السودان الى قلة عددهم وعجزهم فى مجال الفنون والتمدن ، ومن الأسباب أيضا قسوة مناخ السودان وصعوبة أجوائه التى لا تشجع الاستقرار الدائم للأتراك لتثبت ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم فى السودان (١) .

التأثير الثقافى :

مع فشل الثقافة التركية فى التغلغل فى أوساط الأهالى الا أنها اكتسبت ارضها الخصبة فى القطاع المثقف ، اذ سرعان ما التف حولها صفوة من المتنورين واصبحوا من حملتها والناطقين باسمها والذين اخذوا على عاتقهم بثها بين الناس ، وبحركة من تلك الصفوة حدث ثمة تغيير فى الولاء الثقافى ادت الى نبذ تقاليد العهد الفونجى لتحل محلها تقاليد ثقافية جديدة "تركية مصرية الأساس ولكنها سودانية الصبغة ، وشجبت بضربة واحدة أساليب التتلمذ القديمة لتخلفها الاساليب الجديدة الوافدة ، فأصبحت مصادر العلم تتدرج من حلقات العلم التى يعقدها العلماء فى منازلهم ، الى المدارس التى فتحت - " ثم أغلقت " - الى الازهر الشريف ، وعبر هذه السلسلة المتفرعة استطاع قدر محدود من العلم والثقافة ان يجد طريقا الى السودان ، فقد اصبح السفر الى الازهر سهلا وميسورا ، واصبح التعليم نفسه مورد رزق للمتعلمين وصار

---

(١) Hill. op. cit., p. 4.

للطلاب اروقه فى الأزهر اهمها رواق الستاريه ، وتجرى لهم الجرايات وتلطف عليهم حياة الاغتراب وتسهل لهم سبل المعرفة ، وعن طريق هذه النافذة الجديدة ، استطاع السودان لاول مرة ان يقيم جسرا ثقافيا بينه وبين منابع الثقافة الاسلامية ، فكثر العلماء وتوفرت الكتب ، حتى عندما صارت الصحافة فى العالم العربى تردد صداها فى أوساط السودان العلمية ، لم يتأخر الادباء والعلماء السودانيون عن مراسلتها والكتابه اليها [1] ، وهذه النتيجة الاخيرة جاءت بعد نهاية الدولة المهدية ، ولكنها اتت بتأثير الخلفيه الثقافيةابان الحكم التركى المصرى .

ولا شك أن ظهور طبقة من العلماء من الذين تلقوا العلوم الدينية واللغوية بطريقة نظامية قد اضعف بمرور الزمن مكانة طبقة "الفقراء" [2] القديمة وقد حدث هذا بصورة تلقائية [3] ، ذلك لأن نشوء الاتصال الثقافى بين السودان ومنابع الثقافة الاسلامية تكفل بفتح عيون السودانيين على حقيقة موقفهم من الثقافة العربية خلال الثلاثة قرون السابقة فنتج عن ذلك أن تزعزع اليقين القديم الذى كان يعتمد عليه المثقف السودانى وبدأ يدرك أن الشقة قد بعدت بينه وبين الاصول العربية والدينية ، فاكتشف بأن اللغة التى كان يكتبها اسلافه فى عهد الفونج لم تكن سوى صورة شائهة ، ومحرفة للعربية الفصيحة ، وان التصوف الذى كانوا يتباهون به ، ويدعون فيه أعلى الدرجات لم يكن سوى مظهرا أجوفا ومنحولا ، وأن المعرفة الواسعة بالفقه والشريعة لم تكن اكثر من ادعاء مفضوح ، وعن هذا الوعى الجديد بالتخلف الثقافى ، نتج

---

(١) محمد المكى ابراهيم ، مرجع سابق ، ص ١١ .

(٢) فى الغالب تكون الجمله اصلا " الفقير الى الله" وفيما يبدو أنها تعادل كلمة" درويش" وهى فارسية تعنى محتاج ، والتى تنطق بالانجليزية "Drevesh"

(٣) هولت ، مرجع سابق ، ص ٣٠

لدى أجيال السودانيين ،نوع من الحساسية تجاه كل ماهو اسلامى وعربى ـ نوع من الحساسية التى تحيس صاحبها فى قفص الاتهام ،وتلزمه بالمبادرة الى اتخاذ موقف الدفاع ، ولذلك بدأوا فى الاضطلاع بجد واهتمام لملأ الفجوة الواسعة التى تفصلهم عن التعمق فى المعرفة وتخرجهم عن قصور الادراك وفساد التصور[١] .

اما عن تأثير العهد التركى المصرى ـ فى مجال اللغة ، فقد وعى المثقفون السودانيون أخيرا ،حقيقة الفرق بين اللغة الفصيحة واللهجة المحلية ، فعرفوا ان العصر لم يعد يسمح باستعمال اللهجة الدارجة فى المؤلفات والمكاتبات والفتاوى ، وان العصر يعتبر مجرد الالمام بأصول اللغة وقواعدها نوعا من العلم والثقافة ،وانتصارا يغنى عن الكثير، فضلا عن أن التقاء اللهجة السودانية الدارجة بالأذن المصرية والاذن التركية اثبت ان تلك اللهجة ليست دائما مفهومة وبالتالى لاتصلح لمخاطبة الأذن الأجنبية التى كانت تنصت بامعان ، وكاستجابة لهذه التحديات ،وجد مثقفو فترة الحكم التركى المصرى انفسهم داخل سياق لاهث وسريع على الالمام بأصول اللغة لاثبات تفوقهم فى ذلك المجال ،وكنتيجة اولى لهذا السياق اكتسب المثقف السودانى طريقة عقليه الاجنبى على فهم اللغة "Mentality of the Lingual Foreigner" فأصبح يحس بغربته تجاه اللغة ويضع نفسه على الدوام فى موقف المتعلم وليس موقف المبدع[٢] .

واللغة التركية هى لغة السلطة الحاكمة فى السودان وقد تبنتها واتخذتها اللغة الرسمية للمكاتبات والدواوين[٣] ، فى الغالب يكون لها

---

(١) محمد المكى ابراهيم ،مرجع سابق ،ص١١ .
(٢) محمد المكى ابراهيم ، نفس المرجع السابق ص ١٣ .
(٣) هولت، ص٢٢ ، والايطالى مجهول الاسم ،ص. ٢ ، مراجع سابقه .

تأثيرها على المستوى الفكرى والثقافى .

ومما يجدر استحسانه أنه عندما هم الحكم التركى المصرى بمحاربة الرقيق ارسل قوات لذلك الغرض كان جلها من النوبه والشماليين حيث ساهموا مساهمة كبيرة ، فى نشر اللغة العربية ، ليضيفوا الى تلك ، الجهود السابقة - كما سبقت الاشاره اليها - فى اسهام الجلابة " شماليون ، سوريون ، مغاربه " والذين استعملوا اللغة العربية لأغراض التجارة فى نشر اللغة ، كما وأكسب نشاط هذه الطائفة الجنوبيين المستعربين ، و الذين امتزجوا مع هذه الفئات فزادوا من حركة اللغة ، اضافة الى أن اللغة أحيانا تصبح سلعة يحكمها قانون العرض والطلب ، لذا فقد اقبل الجنوبيون على تعلمها لمصلحتهم ومصلحة حركة تجارتهم [1] ، كما ساعد ذلك على جعل اللغة العربية لتكون وسيلة التخاطب الوحيدة بين القبائل الجنوبية الكثيرة المختلفة .

أثره على المصطلحات والأسماء والالقاب العسكرية والحكومية :

ونتطرق هنا لكل ماهو أثر تركى فى هذا المجال ولكل ماهو غير تركى قد يكون الحكم التركى المصرى السبب فى وجوده ، **ففى الجانب العسكرى ،**

أولا : الرتب :

لقد برزت بصمات الاتراك واضحة فى الالقاب والرتب العسكرية ، ذلك لأن حضارة الاتراك ، حضارة عسكرية وادارية فورث السودان عنهم كثيرا من المصطلحات العسكرية والادارية [2] والتى ظلت تستخدم حتى عام

---

(١) حسن مكى ، مرجع سابق ، ص ١٠ ، ص ١٣ ، انظر ايضا بونا ملوال ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

(٢) عون الشريف ، دراسات فى العامية السودانية ، الخرطوم ، الدار السودانية للكتب ، الطبعة الاولى ١٣٩٤ / ١٩٧٤ ، ص ٣٨ .

١٣٨٤ / ١٩٦٤ [1] حيث تغيرت مثلا رتبة " الأمير لاى" : وهى " جملة من كلمتين " أمير ، ألاى" ، وهو قائد المجموعة من الكتائب والتى تجمع الى الايات ، قد تغيرت الى " عميد" ويميز صاحب هذه الرتبة بأن يوضع فى كتفيه شكل لثلاث نجوم ومجسم لنسر ، ومثال آخر ، فقد تغيرت رتبة قائمقام ، وهى أيضا فيما يبدو أنها مركبة من كلمتين" قائم ، مقام" وقد تغيرت الى" عقيد" ويميز صاحبها ويوضع مجسم لنجمتين ونسر ، ورتبة البكباشى استبدلت باسم " مقدم" ويرمز الى ذلك بوضع مجسم لنجمة واحدة ونسر ، واليوزباشى الى نقيب ويشار الى ذلك مجسم لثلاث نجوم ، ثم تغيرت رتبة صاغ الى رائد وعلامة صاحبها مجسم لنسر على كتفيه . .

كما تغيرت رتبة الاونباشى - وهى رتبة عسكرية لأدنى درجة بين ضباط المشاه فى الجيش التركى[2] - الى ملازم ثانى ويرمز اليه بمجسم لنجمة واحدة .

أما قسم الشرطة والسجون فان اسم " الحكمدار" الذى كان يعنى حاكم السودان العام ، قد استخدم لقائد الشرطة فى مدينة كبيرة فى السودان ورئاسة الشرطةفى المدينة تسمى الحكمدارية ، اما رئيس شرطة الاقليم فى السودان فيطلق عليه لقب قمندان [3] ، ورئاسة شرطة الاقليم أوالمديريه تسمى القمندانية ، اما المسئول العام للسجن كان يسمى مأمور السجن .

وقد تغيرت هذه الأسماء الآن ، فالقمندان والحكمدار استبدلا بمدير

---

(١) تم تعريب مسميات الرتب العسكرية بواسطة الجمعية التأسيسية "البرلمان" فى ١٣٨٥ / ١٩٦٥م فى السودان .

(٢) عون الشريف ، القاموس ، مرجع سابق ، ص ٦٣ .

(٣) هى من الكلمة الانجليزية Commander بمعنى الآمر أو القائد .

عام الشرطة ، ومأمور السجن استعيض عنه بمديرعام السجن ، ولكن رغم هذه التغييرات على المستوى الرسمى الا أن العامة من السودانيين وخاصة أهل القرى والبوادى مازالوا متمسكين بتلك الالقاب التركية القديمة ، ولا يدركون معنى الالقاب والرتب الحديثه الا اذا شرحت لهم بأسماء الرتب القديمة .

ثانيا : الأسلحة :

من الأسماء التركية للاسلحة فى السودان مثل جبخانه ـ وهواسم يتكون من كلمتين ، جبه / خانه ، جبه بالتركية ذخيرة أو سلاح ، وخانه ، يعنى مكان واطلق على محل الاسلحة أو الرصاص وخلافه الذى تزود به الأسلحة[1] ـ جبخانه ورغم أن هذا المصطلح قد تبدل الان الى " مخازن الذخيرة" وأصبح هو المصطلح الرسمى الا أن مصطلح جبخانه مازال مسيطرا على الاذهان والاستخدام وخاصة بين الجنود فى كافة أنحاء السودان .

ومن الاسماء ايضا بندقية : وهى آلة رمى الرصاص، والكلمة أصلها اغريقية[2] أخذها عنهم الاتراك ، ويبدوا أن أول من أدخل الى السودان هذه الآلة هم المماليك وخاصة الذين فروا من اضطهاد محمد على الذى بدأ ضدهم عام ١٢٢٧/١٨١١ .

وايضا هناك أسماء لقطع البندقية مثل الخرطوش، "خرطوش البندقية" وهى المقدمة الاسطوانية للبندقية ويستعمل فيها البارود ، وهى كلمة ايطالية الأصل[3] ، أخذها الاتراك منهم ، وهناك قسم آخر من البندقية وهو "الدبشق" وهو طرف البندقيه الخشبى ، وأيضا هناك الشفرة التى تثبت فى البندقية

---

(١) عون الشريف ، القاموس، مرجع سابق ، ص١٠٢ .

(٢) " " " " " ، ١٣١ .

(٣) " " " " " ، ٣٢٩ .

وتسمى "السونكى" (١) .

ومن الأسماء التركية للأسلحة الطبنجه والتى تعرف حديثابالمسدس[٢] حيث مازالت تعرف فى السودان بالطبنجة . ومن الالفاظ التركيةالمتعلقة بالأسلحة لفظ" فشنك " وهى تطلق على الطلقات التى لاتحتوى على الرصاص[٣] وقد تطور استخدام هذه الكلمة فى السودان بحيث صار يطلق على كل ما ليس له مفعول ،كقولهم رجل فشنك أى يقصد به الرجل غيرالمسوءل ولا يوءدى عمل ذا فعالية ، والتلاميذ يقولون اختبار فشنك يعنى اختبار سهل .

وهناك أيضا بعض المنشآت التى تخص العسكر مازالت محتفظة فى السودان بأسمائها التركية ومنها قشلاق : وتطلق على محل نزول الجيش وفى السودان مازالت هذه الكلمة تطلق على المساكن الخاصة بالعسكر وغالبا ماتكون بالقرب من المنشآت العسكرية ،وتكون أيضا منفصلة تماما عن بقية أحياء المدينة ،وينطقها السودانيون " اشلاق" ويبدو أنهم أخذوا هذا النطق من المصريين لأنهم يقلبون القاف ألفا فى لهجتهم . والاسم الرسمى لهذه الكلمة "ثكنات"

ومن أسماء المنشآت أيضا اسم " طابية " : وهى تعنى الحاجز أو الساتر ، وهى مأخوذة من الاصل العربى تعبئة(٤) ، ومن المصطلحات العسكرية التركية لفظ "بلك" ، وتعنى : فوج ، أو فرقة من العسكر(٥) ، ومازال كبار السن من السودانيين يستخدمون هذه الكلمة ويطلقونها على ثكنات الجيش ، والمنشآت العسكرية ،وفى الخرطوم العاصمة يوجد طريق يسمى الان

---

(١) عون الشريف ، القاموس، مرجع سابق ،ص ٥٨١ .

(٢) ، ، ، ، ، ، ٧٠٦ .

(٣) ، ، ، ، ، ، ٨٦١ .

(٤) ، ، ، ، ، ، ٧٠٦ .

(٥) ، ، ، ، ، ، ١٢٧ .

بشارع الجيش كان يطلق عليه حتى وقت قريب " شارع الطابية" ، ومازال فى أم درمان شارع يعد من الطرق الرئيسية فى المدينة يعرف أيضا رسميا بشارع الطابية ، كما نضيف من الكلمات التركية المتعلقة بالنظام العسكرى كلمة " طابور ، وتعنى صف ، وظلت كلمة طابور هى الوحيدة التى مازالت تعنى فى السودان وقوف الناس بنظام وتدل على ذلك اكثر مما تدل عليه كلمة صف وقد تطور استخدامها ، فلم تعد يستخدمها العسكر فقط وانما تستخدم فى المدارس أيضا، فطابور الصباح ، نظام يفتتح به اليوم الدراسى يوميا فى كافة المراحل دون الجامعة ، فى كافة مدارس مدن وقرى وبوادى السودان .

فى جانب الأطعمة والمشروبات :

نتيجة لوجود جاليات كثيرة بالسودان وخاصة فى العاصمة الخرطوم فى العهد التركى المصرى ، حدثت عدة تأثيرات فى مأكولات أهل السودان ذلك لأن تلك الاجناس تأتى ومعها عاداتها وتقاليدها فى هذا المجال ، فتوفرت بالسودان أصناف من الماكولات والمشروبات ، كما انتشر استيراد المواد التى تساعد على صنعها مثل السكر والارز والانواع العادية من المربى والفواكه المجففة مثل الزبيب والمشمش، اضافة الى وجود عدة اماكن لصناعة الجبن ومستخلصات الألبان (١) ، وكانت من الاطعمة التى صاحبت الجاليات واصبحت الان جزء من اصناف المائدة السودانية ، " الطعمية " وكان الأقباط يتقنون صنعها ، وكانوا يسمونها " بالقريصة " (٢) ، ومن الأطعمة التركية " الكفته " وهى عبارة عن لحم مقطع يطبخ على شكل كرات (٣) ومنها أيضا

---

(١) سلاطين ، مصدر سابق ، ص ٣٠٩ .

(٢) محمود القيانى ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٣) عون الشريف ، القاموس ، مرجع سابق ، ص ٩٧٩ .

"اليخنى" وهو عبارة عن لحم مضافا اليه البقول والبصل والارز[١] ويعمل منها "سجوك" وهو عبارة عن امعاء خروف فارغ أو محشوة لحما أوارزا [٢] ومن الاطعمة البسطرمة ، وهى نوع من اللحم المقدد ، وهى من الكلمة التركية "باصديرمه" وأخذها الاتراك من اليونانيه وتنطق " بسطرمه " [٣] .

واضافة الى تلك المأكولات التركية نجد هناك " الطرشى" وهو عبارة عن خضار مخلل أو خيار أو فقوس مضافا اليه زبادى مع حب الكمون ، ومن الماكولات ايضا" السنبوسه " وهى نوعا من الزلابيه المحشيه وتسمى ايضا سنبوسق [٤] ، ومن الحلويات السودانية ذات الاصل التركى " حلاوة لكوم" وهى حلوى مطاطية ، " ولكوم " كلمة تركية تعنى "لزج" و تطلق على المادة الصمغية ، ومن الحلوى " الباسطة " وهى نوع من البقلاوة ، والباسطة كلمة أيطالية أخذها عنهم الاتراك ، ومنها ايضا " بسبوسة " .

ومن الآثار التركية على أصناف المائدة السودانية ، طعام" القاورمة " وهو عبارة عن طعام من بصل ، وعند الاتراك لحمة مفرومة أو مقليه بالبصل [٥] اضافة الى ذلك المكرونة والشعيرية ، وهى عبارة عن فتائل من عجين البر تجفف وتطبخ [٦] ، أما المكرونة فهى ايطالية ، وتشبه الشعيرية فى مكوناتها، وادخلت بعض المرهفات كالبسكويت الفرنسى [٧] .

---

(١) عون الشريف ، مرجع سابق ، ص١٤٤ .

(٢) " " " " ، ٥٢٥ .

(٣) " " " " ، ٧١ .

(٤) " " " " ، ٥٦٧ .

(٥) " " " " ، ٩٤١ .

(٦) ابراهيم انيس ، عبد الحليم منتصر ، عطيه الصوالحى ، محمد خلق الله احمد ، المعجم الوسيط ، ج ١ ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، ١٣٩٣ / ١٩٧٣ ، ص٤٨٤ .

(٧) الان مورهيد ، النيل الابيض ، مرجع سابق ، ص ٨٩ .

ومن المشروبات ،" التنكه " وهى نوعا من القهوة لا يعرض فيها مادة البن الى القلى الشديد ، ويسخن فى اناء خاص شكله قريب من الشكل المخروطى ويسمى أيضا " بالتنكه " .

أما من الظواهر غير الكريمة ، بيع المشروبات الكحولية ، فقد كان كثير من الاوروبيين فى العهد التركى المصرى ، يمتلكون مصانع للخمور ، ويديرون متاجر لمختلف أنواع الخمور[١] والتى تعرف فى أوروبا بـ" بار" "Bar" ودخلت هذه الكلمة فى اللهجة السودانية وتجمع على " بارات " ، وكان أحد الالمان يدعى " بوير" يدير مصنعا للخمور فى منطقة الكاملين[٢] ـ على النيل الازرق جنوب الخرطوم ـ وكان الحكام الاتراك والاوروبيين غير منضبطين فى سلوكهم العام والخاص، فكانوا يشربون الخمر جهارا [٣] .

وقد انتشر استعمال أنواع الصابون والعطور الاوروبية المختلفة وأنواع الالعاب والملاهى مثل البلياردو والشطرنج [٤]، واصبحت الحياة فى الخرطوم فى ذلك العهد شبيهة بالحياة فى جنوب اوروبا حيث معظم الاوروبيين الذين قدموا الى السودان فى العهد التركى المصرى كانوا من تلك الجهات من أوروبا [٥] مثل اليونان وايطاليا والنمسا وفرنسا .

فقد ذاع فى الخرطوم التقليد الغربى وعادات المدنية الاوروبية وصارت عادات وأخلاق السكان من الطبقة الاولى والثانية حتى فى المأكل

---

(١) الان مورهيد ، النيل الابيض ، مرجع سابق ، ص ٨٩ .

(٢) الايطالى مجهول الاسم ، مصدر سابق ، ص ٧٣ .

(٣) محمد محجوب مالك ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

(٤) محمد احمد الجابرى ، مرجع سابق ص ٣٤ ، وانظر ايضا سلاطين ، مصدر سابق ، ص ٣٠٩ .

(٥) Hill, op. cit., p. 78.

والمشرب أوروبية محضه وذلك لسببين أولهما وجود المدارس الأوروبية التي تقدمت ونمت بسبب قبولها التلاميذ بلا أجر وثانيهما ميل سكان الخرطوم الى كل ما يُقرِّب من المدنية الأوروبية والى الاوروبيين ولاسيما الفرنسيين ويدل على ذلك أن بالخرطوم نحو ألف شاب يتكلم باللغتين الفرنسية والايطالية (١) .

كما تأثر كبار السودانيين الذين اتصلوا بالحكام الاتراك في المدن الكبيرة بطباعهم في الاكل واللبس، ولكن في القرى والبوادي ظلوا على ماهم عليه ، ولم يعرف أهل القرى والبوادي عن الاتراك غير الضرائب المرهقة واستخدام السوط وادوات التعذيب في جبايتها . (٢)

الرشـــوة :

أما من العادات غير الحميدة التي اكتسبها السودانيون في ذلك العهد عادة الرشوة ، فكان الاداريون الاتراك ومن عاونهم ،آفة الادارة في السودان اذ كان شغلهم الشاغل الاثراء عن طريق الرشوة وابتزاز الأموال من السكان ،واحتكار بعض التجارة لانفسهم والاختلاس أحيانا وذلك قبل أن ينقلوا أو يعادوا الى مصر، ونسبة لبعدهم عن القاهرة كانوا آمنين من أعين المسؤلين في مصر، فأدمنوا هذه العادة حتى أن السكان لايستطيع احدهم ان يقضى غرضا دون رشوة ، وبذلك ادخلوا الفساد في الحكم الى بلاد لم تعرف عن ذلك شيئا من قبل بسبب بدائية نظامها الادارى السابق الذى لم يعرف الضرائب أو الاحتكار التجارى . (٣)

وقد حاول الوالي عباس أن يعالج ذلك الداء بوضع موظفين برتب

---

(١) سليمان كشه ، مصدر سابق ، ص ٥ .

(٢) شبيكه ، تاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(٣) من الاسباب التي تشجع على الرشوة في الولايات العثمانية :-
(أ) قصر فترة عمل المسئول .
(ب) بعد الولاية عن مركز السلطة

عالية فى الوظائف المسئولة ، فقد كان محمدعلى فى السابق يعيين الحكام من ذوى الرتب الصغيرة فى أواخر عهده بالسلطة وذلك خوفا من المطامع وكانت أول خطوة قام بها عباس فى هذا المجال هى تعيين المديرين من رتبة الاميرلاى بعد ان كانت فى رتبة القائمقام من قبل وكان يظن ان الموظف المسئول ان كان فى رتبة عالية ويتناول مرتبا اعلى خفت حدة رغبته فى استلام الرشاوى كما أن رتبته العظمى وكبرياءه تمنعانه من قبول الرشوة (١) ، وهذه بالطبع مجهودات مقدرة فى انهاء هذه الظاهرة ، رغم ان هذه الحلول المطروحة لا تمنع الرشا ، الا أن اهميتها تكمن فى أنها توضح الرغبة الصادقة فى معالجة ظاهرة من ظواهر الفساد الادارى .

الأزيـاء :

عندما رغبت الادارة التركية المصرية فى بسط نفوذها على البلاد حاولت كسب ود القبائل بشتى الوسائل من ضمنها حاولت استمالة رؤسائهم بالهدايا كالملابس مثلا وذلك بأن كانت تهدى لكل واحد منهم طربوش (٢) مغربى وشال كشميرى ، ومركوب أحمر وعباءة أو قفطان ، وذلك لاستعمال هذا الزى فى الظروف العادية ، أما فى الاعياد فقد الزمت الادارة رؤساء القبائل بارتداء كسوة شرف حمراء او بنفسجية وسيف وحزام من حرير (٣) ، هذا وقد كان الطربوش يعد رمزا للسيادة العثمانية ، وكان يستعمله حتى الأوروبيون الذين يعملون مع الحكومة المصرية ، كحكام فى السودان (٤) ، ويستعمله أيضا الجنود

---

(١) انظر محمود قبانى ، مرجع سابق ، ص ٢٢ ، وانظر ايضا ضرار ، مرجع سابق ، ص ٦٣ ، ص ٦٥ .

(٢) الطربوش : هو غطاء خاص للرأس والكلمة محرفه من سربوش الفارسية بمعنى غطاء الرأس ، انظر عون الشريف / القاموس ، مرجع سابق ص ٧٠٧

(٣) محمد صالح ضرار ، مرجع سابق ص ٦٨ .

(٤) Hill, op. cit., p. 160.

والضباط كقطعة من قطع الزى العسكرى الرسمى ، وظل الجنود السودانيون والضباط والمثقفون يلبسونه وبالذات المدرسين والموظفين ، حتى ان أعضاء أول حكومة سودانية بعد الاستقلال ١٩٥٥/١٣٧٥ كان بعض منهم يستعملون الطربوش ، فقد ارتبط استعماله بالمثقفين بصفة عامة .

كما ان الزى الذى الزمت به الادارة روءساء القبائل على لبسه قد أضفى عليهم هيبة ، وصار هو الزى الرسمى لروءساء القبائل وزعماء العشائر وظل كذلك حتى بعد الاستقلال عن الحكم الانجليزى ، ولكن هذا الزى مقصور على روءساء القبائل فى الشمال [١] فقط ، دون الجنوب لأن الحكام الأجانب قصدوا ذلك بحكم انه "اى الزى" يخص المسلمين ، ويخشى أن لو عومل روءساء القبائل الجنوبية معاملة نظائرهم فى الشمال أن يوءثر ذلك على ثقافة الجنوبيين المحلية وعلى عقيدتهم ، والتى أريد لها أن تنمو وتزدهر على الأسس النصرانية وبمعزل عن اى تأثير اسلامى أو عربى ،

هذا وكانت كسوة الشرف الحمراء التى يستعملها زعماء العشائر تسمى " بالخوجليه " ، وكان الوالى سعيد باشا قد امر بجعل بعض من الاهالى مديرين ومأمورين ونظار أقسام ومعاونين بمرتبات شهرية من الحكومة ، وأمرهم بلبس الملابس " العثمانية " مثلهم كمثل الحكام الاتراك لا فرق بينهم ولا تفاوت [٢] ، وكان الزى المعنى عبارة عن ستره طويله ذات أزرار كثيرة وفتحات مريحة ، عكس الزى الاوروبى الذى لا يساعد على الجلوس على الطريقة الشرقية ، والذى يستعمله من الرسميين لا يحصل على الاحترام اللائق من جانب الرسميين المصريين أو الاتراك [٣] ، وكان الأوروبيون فى مصر والسودان

---

(١) اطلاق الشمال فى الغالب نعنى به " الشمال والغرب والشرق" معا ونعنى بالجنوب المديريات الجنوبية فقط .

(٢) محمد احمد الجابرى ، مرجع سابق ، ص ٢٤ .

(٣) Hill, op. cit., p. 160 -

- غير الرسميين منهم - يخجلون من ارتداء الزى الشرقى ، بل ويسخرون منه ومن الذين يرتدونه حتى انزوا فى كثير من افراد المجتمع ، فترك الرجال مثلا الملابس الشرقية الاسلامية المعروفه عندهم وتزيوا بالزى الاوروبى ولم يقتصر هذا التأثير على مصر والسودان فحسب بل فى الدولة العثمانية أيضا ويبدو أن التأثير هناك كان اكبر مما حدث فى مصر نسبة لقرب تركيا من اوروبا ولانها اصبحت من البلاد التى تعج بالاوروبيين ، ويكثر فيها سفراء وقناصل الدول الاجنبية خاصة الاوروبيين منهم . وقد انتشر مع شيوع هذه الملابس الاوروبية استعمال الفرش لتنظيفها رغم انها كانت مكروهة عندهم لكونها مصنوعة من وبر[1] الخنازير وقد بدأ انتشار هذا الزى الأوروبى فى السودان منذ ذلك الوقت ، والان أصبح منافسا خطيرا للزى التقليدى/الجلباب والعمامة ، وقد أثبت الزى الاوربى وجوده فى جميع مدن السودان وقراه ، وحضره وبواديه روابيه وأوديته ، وبعد أن كان زيا مقتصرا على المثقفين فقط بات زيا يرتديه معظم قطاعات المجتمع وخاصة الشباب منهم ، لان البنطال والقميص أصبح يستفزهم وان الذى لا يتزيا به يشعر كأنه متأخر ومتخلف ، ورأوا ان الزى الأوربى هو زى عملى لأنه مُبسَّط ولا يحتاج الى قدر كبير من الأقمشة ، بالاضافة الى أنه يدوم طويلا اذا نظرنا اليه من ناحية اقتصادية .

ومما يجدر الاشارة اليه أنه مع انتشار الزى الاوربى انتشرت أيضا الاسماء المتعلقة به مثل بنطلون ، وهى كلمه ايطاليه وهى ذلك السروال الاوربى نسبة الى القديس " بنطلونى " أول من استعمل لبسة ، وفى السودان يقال له ايضا " منطلون "[2] ، والقطعة الاخرى وهى المعطف الذى نسميه

---

(١) عوض عبد الهادى العطا ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ .

(٢) عون الشريف ، القاموس ، مرجع سابق ، ص ١٣١

بالقميص، وهناك زى آخر شبيه بالبنطلون الا أنه اقل منه فى الطول ويقال له فى السودان " الرداء" وهو جزء من الزى الرسمى للجنود والمدرسين وللذين يعملون فى الحقل الطبى ويستعمل مع القميص ، كما انتشر ايضا استعمال انواع الاحذية الأوروبية (١) .

هذا ورغم ظهور الزى الاوربى ، الا أن الزى الشرقى فى العهد التركى المصرى كان هو الطاغى ، وبالاخص الازياء التى تستعمل معها العمائم ، وكان من بين العمائم المتباينة المختلفة منها العمائم المصرية الصعيدية ، والعمائم السودانية ، والسورية ،والهندية والبخارية والتركية (٢) ، وكان يوجد بالخرطوم محلات لبيع الملابس الاوروبية الجاهزة من جميع أصناف الاجواخ والصوف والتيل (٣) .

ومن افضال الحكم التركى المصرى على السودانيين أن وصل - وقد سبقت الاشارة اليه- الاسلام الى الجنوب ودخل التجار الشماليين وأثروا فى الجنوبيين الذين لبسوا ملابس اهل الشمال ، حيث كان الجنوبيون يشترونها منهم ، حتى عندما فكر الانجليز فى فصل الجنوب عن الشمال فى أوائل عهد الاحتلال ، وعزله ليصير كيانا مختلفا عن الشمال ، اصدروا - فى سبيل تحقيق ذلك الهدف وهو استئصال الثقافة الاسلامية والعربية - عدة قرارات واجراءات منها ذلك الامر العام الى جميع التجار الشماليين بايقاف بيع الأزياء العربية الى الجنوبيين (٤) .

---

(١) عوض عبد الهادى العطا ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ .

(٢) محمود القبانى ، مرجع سابق ، ص ٢١ .

(٣) محمود القبانى ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٤) محمد فوزى مصطفى ، مرجع سابق ، ص ٨١ .

هذا ومن الاشياء الحديثة التى دخلت السودان فى العهد التركى المصرى آلة قياس الزمن ، وهى ماتعرف " بالساعة " وقد دخلت السودان بأنواعها واحجامها المختلفة ، فبخلاف ساعة الجيب كانت هناك ساعات الحائط وقد برزت نتيجة لذلك ، مهنة اصلاح الساعات والتى كان يقوم عليها الأرمن واليونانيون ، وكان من اشهر الذين يجيدون اصلاح الساعات أرمنى يدعى " أرتين " (١) .

العمارة :

لما كثر عدد الاجانب من الاوروبيين رغبوا فى تشييد دورهم على شاطىء النهر ، فبذلوا أثمانا عاليه لأصحاب البساتين حتى بلغت قيمة المتر الواحد من جنيهين الى ثلاثة ، ومنهم من فاز بقطعة كبيرة على شاطىء النيل وعلى بعد خطوات من مبانى الحكومة من الناحية الغربية (٢) ، وكانت هذه المبانى قد اهتم اصحابها بتشييدها بالطوب الاحمر المحروق ، وقد استعمل الجير فى طلائها ، ولكنها لم تزد أعلاها عن طابقين ، وكانت تخصص الطوابق السفلى فى الغالب للاعمال التجارية كالبقالات ، وبجعلها محلات لبيع المشروبات الروحية كما تستخدم متاجر لبيع الملابس الاوروبية الجاهزة ، وبها ايضا المقاهى الكبيرة والتى تشتمل على الالعاب الترفيهية كالبليارد والشطرنج وكان لسكان الخرطوم فى ذلك العهد ميل شديد الى تزيين منازلهم بادوات الرياش الفاخر ويقتدون بالأوروبيين فيما يستعملون من أصناف وأثاثات المنازل وانواع الملابس ، وكان بالخرطوم مايقرب من المائه من أماكن الملاهى والرقص والمقاهى (٣) .

---

(١) سلاطين ، مصدر سابق ، ص٣٤٣ .
(٢) محمود القبانى ، مرجع سابق ، ص١٤ .
(٣) سليمان كشة ، مصدر سابق ، ص٥ .

ونسبة لكثرة اقبال الاجانب على اعمال التشييد فقد نشأت لذلك طبقة من الحرفيين من بنائين وحدادين ونجارين ودهانين وعمال تجميل " ديكور " ومعظم أفراد هذه الطبقة من الايطاليين .

وبذلك فان كثيرا من الكلمات والالفاظ التركية والايطالية والانجليزية واليونانية المتعلقة بالانشاءات والتعمير والتى مازالت تستخدم فى السودان فى هذا المجال قد دخلت منذ ذلك الوقت ، فمثلا كلمة " خرسانة " كلمة تركية يقصد بها تلك الخلطة المؤلفة من مادة الاسمنت والحصى والرمل وتتخذ مؤونة لعمليات البناء (١) وخاصة بناء العمائر ذات الاكثر من طابق ، مما يدل على تقدم نمط البناء فى ذلك الوقت ، ومن الألفاظ أيضا كلمة " أوضة " وهى تركية ايضا بمعنى غرفة وهاتان الكلمتان التركيتان مازالتا مستخدمتين ولم يتطرق الناس الى استخدام غيرهما فى هذا المجال وذلك عند العامة من الناس وغير العامة ، ومن الالفاظ أيضا كلمة " جملون " ، وهى سريانية بمعنى السقف الهرمى ، من جملونا تصغير جمل ، ويطلق على ماكان محدبا من السقوف (٢) ، وايضا هذا النمط من العمران موجود حتى الان ، ويكثر بناء الجملونات فى المنازل الحكومية والتى شيدت للموظفين ورؤساء المصالح ، ومن الكلمات التى صاحبت عمليات البناء فى العهد التركى المصرى كلمة " سقاله " ، وهى ايطاليه (٣) ، وهى بمثابه سلم لرفع العامل .

كما ورث السودانيون كثيراً من الألفاظ الأجنبية فى العهد التركى تخص مجال الاثاثات مثل " بترينه " ، وهو نوع من الاثاث يكون واجهاته من الزجاج أو الشيش ويستخدم لحفظ الأوانى وغيرها أو لعرضها وهى من

---

(١) عون الشريف ، القاموس ، مرجع سابق ، ص ٣٢٨ .

(٢) " " " " " ، ٢٣٨ .

(٣) " " ، دراسات فى العامية ، مرجع سابق ، ص ٣٩

اللفظة الاوروبية " فترينه " ،(١) وهناك لفظة " موبيليا " وهى كلمة تطلق على الاثاث المصنوع من الخشب ، وهى فرنسية ،(٢) وايضا كلمة " دولاب " وهى فارسية ، وهو مايحفظ فيه الملابس ، ومن الالفاظ المتعلقة بالاثاث كلمة "شنطة" وهى تركية أيضا وما فتئت هذه الألفاظ تستخدم ، ومن الكلمات التى صاحبت العمل فى المعمار والتأثيث كلمة " اسطى " أو " أستا " وهو اسم يطلق على الصنايعى او من يشتغل بحرفة من الحرف قبل أن يصل الى درجة " معلم" الحرفة أو المهنة ، وقد دخلت التركية من الفارسية (٣) . والان هذا اللقب يستعمل بين العوام من الحرفيين ويطلقها عليهم كل قطاعات المجتمع وتطلق على الحرفيين بكل درجاتهم/المعلم وغيره . ومن الالات المستخدمة عندهم مايعرف " بالشاكوش" وهى أداة الطرق المعروفة وهى دخلت على التركية من الفارسية (٤) .

وفى جانب المواصلات ، فان الحكم التركى المصرى اعتمد فى بقائه على شبكة المواصلات النهرية داخل السودان ، وما كانت القوارب بأشكالها الكبيرة المريحة معروفة فى السودان ، اما قوارب الركاب للمسافات البعيدة " الذهبية " وكانت معظمها ملكا للحكومة وتصنع فى مصر من الاخشاب الأوروبية ، وبهياكل مجوفه ، واشرعة ثلاثية ، وكان للزبير باشا رحمة عدة ذهبيات استعملها فى تجارته الاولى كما أنشأت الحكومة فى السودان " ورشا" لصناعة نوع من المراكب الضخمة بطريقة بدائية ، وبدون هياكل لتعمل فى نقل البضائع عبر خطوط الملاحة الداخلية ، ولم تشهد البلاد البواخر النيلية حتى عام ١٢٧٤/١٨٥٧ حين جاءت أول باخرة صغيرة ذات محركات

---

(١) عون الشريف ، القاموس ، مرجع سابق ، ص٧٧ .

(٢) " " " " ، ١١٠٧ .

(٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المجلة التاريخية المغربية ، وثائق توضح دور الجالية المغربية فى تاريخ مصر فى العصر العثمانى ، تونس العدد السابع ، ١٣٩٧/١٩٧٧ ، ص٢٠٥ .

(٤) عون الشريف ، القاموس ، مرجع سابق ، ص٦٢٣ .

للتجديف تمخر عبر الشلال الثانى[1] ،فقد عرف السودانيون هذه الأنواع من المراكب واصبحت فى عهد الحكم التركى المصرى مألوفة لديهم وتمكن بعضهم من امتلاكها ثم انتشرت المراكب بانواعها الدخيلة هذه على طول المدن التى على ضفاف النيلين الازرق والابيض، لأنه بخلاف ترسانة الخرطوم اقامت الادارة التركية المصرية مراكز لبناء السفن من خشب السنط فى دنقلا وبربر والكاملين ،وود شلعى ، وسنار[2] .

ومن الالفاظ المستعملة بعد ظهور البواخر كلمة " بابور " أو" وابور" من الايطالية "Vapre" وهى تعنى البخار، والان تطلق فى السودان على كل المحركات، واى آلة تدور حتى محرك السيارة ، يقال لها " بابور السيارة " وجُمع" الوابور " الى " وابورات" واذا كان " بابور" فتجمع على بوابير" ، ولكن تطلق على " بوابير" أو" وابورات" المياة اسم طلمبة وتجمع على طلمبات ، وطلمبه كلمة شامية دخلت عليهم من الطليانية ، وهى تعنى مضخة المياة[3] .

ومن العادات التى انتشرت فى السودان الان ويرجع تاريخ دخولها الى العهد التركى المصرى هى عادة التدخين والتى تعرف بالسجائر وهى من الكلمة الاوروبية "Cigarate" ويقول بعض الكتاب الاوروبيون أن السودانيين قد نقلوا عادة التدخين هذه عن الاتراك والاوروبيين آنذاك وكان المخالطون كانوا يشعرون بالضيق من رائحة الدخان مماجعلهم غير مضايفين[4] .

---

(١) الايطالى مجهول الاسم ،مصدر سابق ،ص ٣٣ .

(٢) ابو سليم ،تاريخ الخرطوم ،مرجع سابق ،ص ٣٥ .

(٣) عون الشريف ،القاموس، مرجع سابق ص ٧١٣ .

(٤) Hill, op. cit., p. 4.
وانظر ايضا ابراهيم فوزى ،ج ٢ ، مصدر سابق ،ص ٣٢١ .

وقد اولت الادارة التركيةالمصرية عناية خاصة بأحوال الأسرة ونظامها راجين أن يدفعوا بها الى الأمام نحو النظام الشرعى والصحى ففى عام ١٨٤٥/١٢٦١ استجاب حاكم السودان عبد اللطيف باشا لموجة الاستنكار العارمة لعادة الطهارة الفرعونية[1]/أو الختان الفرعونى للفتيات، وقد اصدر الحاكم قوانين خاصة تمنع هذه العادة، كما حرص الحاكم على تنفيذ هذه القرارات والاجراءات ضد الختان الفرعونى ،وكان يرسل بعض رجاله للمرور على المديريات والمدن للتأكد من سريان تنفيذ تلك القوانين والاجراءات خشية أن يخالفه البعض سرا ،وقد عاقب الحاكم كثيرا من النساء اللواتى يتولين أمرها ،وهو اجتهاد مقدر من جانب عبد اللطيف باشا[2] .

ومن المظاهر التى صاحبت الحكم التركى ،رعاية الادارة التركية المصرية احتفالات المولد النبوى الشريف ،وجعلها من ضمن المناسبات الرسمية وكان حتى الحكام الأجانب يراعون الاحتفال بهذه المناسبة ويجعلون لهم أماكن فى صدر مكان الاحتفال ،وكان تجعل لكل مصلحة سرداق وتقام الزينات وتطلق نيران المدافع وكان آخر حفل بالمولد النبوى قبل حصار الخرطوم من قبل أنصار المهدى ،كان فى ليلة اثنتى عشره من ربيع الاول ١٣٠٢ أى قبل مقتل غردون وسقوط الخرطوم ببضع وعشرين ليلة ، فأقيم الاحتفال فى فناء الحكمدارية وزين بالرايات والفوانيس ودعى العلماء والكبراء وجلس غردون باشا فى صدر الحفل "ببذلة" التشريفه الكبرى فى وسط الحاضرين، وكان بخور العود يتصاعد من المجمرة المذهبة المرصودة لمثل هذه الحفلات فلما انتهت التلاوة اطلقت المدافع من بطارية السراى ومن طوابى باب

(١) هو قطع الشفرين الكبيرين من العضو التناسلى للمرأة

(٢) الايطالى مجهول الاسم ،مصدر سابق ،ص ٨٢ ، وانظر ايضا : عبد المجيد عابدين ، مرجع سابق ،ص ١١٧ ، وانظر ايضا نعوم شقير، مرجع سابق ،ص ٢٧٣ .

المسلمية والمقرن وتوتى/ "وراسخ بك" فى البر الشرقى وقد جلس الى المائدة المرحومان الشيخ الامين الضرير شيخ علماء السودان والعالم السيد حسين المجدى ، ولم يطل غردون الجلوس بل قام متفقدا القصاع التى وضعت على الارض لتوزيعه على الفقراء ، وقد قسم بيده الحلوى والملابس على الاطفال[1]، هذا الاهتمام الرسمى بالمولد قد انقطع ابان عهد الدولة المهدية الا أنه واصل المسئولون ابان العهد الثنائى الاحتفال به حتى صارت مناسبة رسمية تحتفل بها الحكومات المتعاقبة فى السودان والى عهدنا هذا .

كما دخلت الى السودان اضافة الى ماسبق الاشارة اليها من الفاظ ومصطلحات ، فقد دخلت ايضا الالفاظ التركية التى تبدأ أو تنتهى بالمقطع " باش" ومعناها " كبير" [2] ويستعمل هذا المقطع مضافا الى المصطلحات العسكرية - مثلما سبق ذكرها - مثل بكباشى ويوزباشى وأمباشى ، وبعض الألقاب والمصطلحات فى الحقل الطبى مثل حكيمباشى وباشممرض، ويستعمل فى بعض المصطلحات الادارية مثل باشكاتب .

ومن الكلمات التركية أيضا تلك التى تنتهى بكلمة "خانة" ومعناها " مكان " مثل " أجزخانه " ، وتعنى مكان الدواء [3] ، " سلخانه " وتعنى مكان السلخ والذبح و " أدبخانه " ، ويقصد بها المرحاض " دورة المياة " ويقال ايضا وجدنا خانة للتلميذ فى المدرسة ، ويعنى وجدت له فرصة للدراسة فى مدرسة ما . والمدرسون يستعملون هذه الكلمة فى تدريسهم لمادة الرياضيات فيقال مثلا ينتقل العدد من خانه الاحاد الى خانة العشرات .

وتستخدم كذلك الألفاظ التى تنتهى بالمقطع " دار " بمعنى صاحب مثل بيرقدار ، ودفتردار ، وحكمدار ، وسردار ، ومن الملاحظ أن معظم

---

(١) محمود القبانى ، مرجع سابق ، ص ٤٥ .
(٢) عون الشريف ، دراسات فى العاميه ، مرجع سابق ، ص ٢٨
(٣) المرجع نفسه ، والصفحه .

هذه الالفاظ تستخدم كمصطلحات فى الجانب الرسمى والادارى نتيجة لأن معظم حضارة الاتراك - كما سبق الاشارة اليه - كان فى الجانب الادارى - والعسكرى ، وقد تحول بعضها الى اسم علم مثل سرداو، وبيرقدار، ودفتردار

وقد تأثر السودانيون بالاتراك فى لهجتهم ، حين يعبرون عن " النسبة " الى مهنة أو عمل ما ، أو أى عمل يستغرق صاحبه فيقال مثلا "اجزجى" للذى يعمل فى مجال الادوية ، فاستخدمت تلك الكلمة بدلا عن صيدلى ، وايضا كلمة " عربجى " لصاحب المركبة التى تستخدم للاجرة " نقل" و" خضرجى" لبائع الخضار ، و" سكرجى" لمدمن الخمور وبذا فقد صار المقطع " جى " يعبر به السودانيون عن النسبة لعمل ما حتى فى كلماتهم العادية التى لم يرثونها عن الاتراك (١) .

وحتى فى مجال الشتائم ، فقد اخذ السودانيون كثيرا من الكلمات التى تستخدم للسب ، والتى يعبرون بها عن السخط ، فمثلا كثير منهم يلعنون " الخاش" والخاش جاءت الى اللهجة السودانية من " خاج" التركية بمعنى " صليب " ، ويبدو أن هذا النوع من اللعان يستخدمه الاتراك للنصارى عموما ، وخاصة للاقباط فى السودان ، وهم اكثر العناصر الوافدة تداخلا مع الموظفين الاتراك ، وذلك رغم كراهية الاتراك واضطهادهم اياهم ، ويبدو أن السودانيين يستعملونها لكراهية معظمهم للنصرانية التى انتشرت ابان الحكم التركى المصرى ، ومن تلك الالفاظ ايضا كلمة "بس" "Piss" وهى فى التركية تعنى "قذر" ، الا أن استخدام دلاله المعنى قد تطور الى معنى يفيد التهكم والاستنكار والاستياء ، واستخدامها مقتصر على النساء فقط ، حتى صارت كلمة لصيقة بالاستعمالات النسائية فى السودان .

---

(١) عون الشريف ، دراسات فى العامية السودانية ، ص ٣٩ .

وفى مجال التربيةوالتعليم هناك من المصطلحات التركية التى انتقلت الى اللهجه السودانية ، فمثلا فى ذلك العهد كان يستعمل كلمة " أفنديه " كمصطلح للمدرسين ، وهى جمع " أفندى" ، وفى التركية تعنى ، الرجل الرقيق ، الدمث الطباع ، أو القارىء أو الكاتب بصفة عامة ويطلق على العالم ، ثم صار هذا اللقب عنوانا للتعظيم ، وقد عم على كل الموظفين، فكان يقال فلان باشا أفندى ، أو فلان بك أفندى(1) ، وواضح أن هذه الكلمة أيضا ارتبطت بالمثقفين بصفة عامة .

ومن الالفاظ أيضا كلمة " طباشير " ،تلك المادةالجيرية التى تستعمل كوسيلة تعليمية يكتب بها المدرس للتلاميذ ،وهى كلمة تركية الا أنها فارسية الاصل وتعنى البياض (٢) .

ومن تلك الكلمات كذلك كلمة " الناظر" والذى يطلق على مدير المدرسة وكان هذا المصطلح يطلق فى السابق على روءساء المصالح والادارات فيقال " ناظر الجهادية " ،و" ناظر الحقانية " ،ولكن اقتصر فى السودان موءخرا على ناظر المدرسة.

ومن الكلمات ايضا كلمة " خواجه " وهى كلمة تركية بمعنى معلم(٣)، ثم صار هذا اللقب يطلق على الاوربى ،ويبدو لان الحكام الاجانب فى ذلك العهد قد تقمصوا شخصية الخواجه أوالمعلم، وأثرو فى الناس حتى تغيرت دلالة معناها من المعلم الى الاوربى بصفه عامة ، وأصبح يطلق أيضا على كل من يتقيد بسلوك وعادات الاوروبيين وتقاليدهم .

---

(١) حسن عثمان / المجمل فى التاريخ المصرى ، فى محمد عبد المنعم السيد الراقد ، الغزو العثمانى لمصر، القاهرة ، موءسسة شباب الجامعة للطباعه ، بدون تاريخ ،ص ٢٩٩ .

(٢) عون الشريف ، القاموس، مرجع سابق ،ص ٧٠٤ .

(٣) - - - - - - - - - - ص٩٤٨

وفى غرب السودان فان استعمالات كلمة خواجه بالاضافة الى استعمالاتها السابقة فانهم يستخدمونها أيضا للرجل الثرى وللمرفهين من الناس، ويبدو أنهم فى هذا متأثرين بالمغرب العربى وشمال أفريقيا لأنهم يستعملون كلمة خواجه لنفس المعنى .

ومما يذكر ان سكان الخرطوم فى العهد التركى المصرى كانوا متميزين فى مساكنهم وازيائهم ومآكلهم ، وحتى السوق الذى يتناولون منه احتياجاتهم ،وكان يطلق عليه اسم " السوق الأفرنجى" ،لأنه يشبه الأسواق الأوروبية فى التصميم ، ونوعية الباعة والمشترين ،وأيضا شكل العرض، ونوعية السلع المعروضة ، بينما كان السوق الذى يرتاده الاهالى ولايتردد عليه الاجانب عرف بالسوق العربى[١] .

ومازال هذا التقسيم معمولا به فى الخرطوم ،حيث نجد السوق الأفرنجى محافظا على طابعه الاوروبى ، من حيث السلع المستوردة وطريقة عرضها ومايزال به أصحاب متاجر أوروبيين وهنود واقباط .

أما السوق العربى فتعرض فيه مثلا سلع المنتوجات السودانية الصناعية و الزراعية ، من ادوات منزلية محلية وأقمشة واقطان ، وحبوب وزيوت وما الى ذلك .

ومما يجدر الاشارة اليه أن من بين الاعمال التى دخلت مع الحكم التركى المصرى الى السودان ،المقاهى ،والمطاعم ،وأول من بدأ هذا النوع من الاعمال ، اليونانيون الذين قدموا فى ركاب جيش اسماعيل باشا فانتهزوا فرصة خلو المدينة من المقاهى والمطاعم ،وسرعان ما فتحوا فيها محلات لعمل القهوة والشاى والاطعمة ،وكانوا يبيعونها للاهالى والضباط والجنود ،فكانت

---

(١) ابو سليم ،تاريخ الخرطوم ،مرجع سابق ،ص٣٧

تلك أول مطاعم ومقاهى عرفتها الديار السودانية [1] .

وفى ختام هذا الفصل أود ان اشير الى أن هذا (ليس) هو جميع آثار الحكم التركى المصرى على السودان فى مجال العادات والتقاليد واللهجات بل هناك عادات كثيرة وتقاليد ، وهناك ايضا آلافا من الألفاظ غير العربية دخلت على لهجة اهل السودان بتأثير من الحكم التركى المصرى ودرج السودانيون على التعامل معها وتقبلوها كجزء من تراثهم حتى اصبح امرا مألوفا بالنسبةلديهم ولا يفكرون فى أن هذه العادة أو الكلمة اتركية أم مصرية ، يونانية أم ايطالية .

---

(١) ضرار ، مرجع سابق ص ٣٩

الخاتمة

وبعـــــد . .

فان الحكم التركى المصرى قد كان له دور كبير فى وضع الاطـــــار السياسى والاجتماعى فى السودان فقد كان عهد نهضة وعمران وانفتـــــاح السودان على العالم الخارجى ، ولكن رغم ذلك فاذا كان السودانيون الى اليوم ينعمون بايجابيات آثار الحكم التركى المصرى ، الا انهم ، الى اليوم أيضا يعانون من سلبيات آثار ذلك العهد على الاصعدة السياسية والاجتماعية .

فعلى الصعيد السياسى :-

فانه بضم جنوب السودان ومديريات التاكا ودار فور وضم سواكن يكـون الحكم التركى المصرى قد ساهم مساهمة كبيرة فى رسم الشكل النهائى لخريطة السودان ، كما أنه بتلك الخطوات أنقذ تلك المناطق ، وقفل الباب أمـــام الطامعين من الدول المجاورة من أن يفكروا فى ضمها اليهم .

ولكن استقلال محمد على بملك مصر والسودان شجع الدول الأوروبية على الانفراد بمصر وبدأوا فى تنفيذ مشروعهم الكبير وهو انهاء استقلال مصـر ، فأثروا على استقلال القرار السياسى للدولة فى البداية وتدرجوا حتى تمكنـوا من احتلالها عسكريا ، وبالتالى فقد تأثر السودان سلبا بتنفيذ ذلك المشـروع فقد بدأ تدفق الاجانب اليه ، ثم عينوا حكاما ، ولم يكن لهم من قبل شـــأن يذكر فى بلادهم التى لفظتهم الى العالم الاسلامى ، ولذلك فاننا نجـــد أن هؤلاء الحكام مغامرون نذروا أنفسهم للمخاطر وحب المجازفة ، وكــــان بعضهم عاطلا لم يتمكن من الحصول على عمل يسترزق منه ، والبعض الاخـــر ما جاء الا ليمارس كراهيته للاسلام والمسلمين عبر المسئولية التى تولى أمرهـا ، لذا فان حكوماتهم علمت بميولهم ورغباتهم فساعدتهم على أدائها .

ومن آثار ذلك الاستقلال أيضا ان تحول السودان الى ميـــدان

صراعات دولية واقليمية ، حسمت فى النهاية لصالح الاحتلال الانجليزى .

ان كل مانتج من جراء العلاقات بين الحكم التركى المصرى وأوروبا ماهى الا مجرد صوره ومظهر من صور ومظاهر الصراع التقليدى بين الشرق الاسلامى والغرب النصرانى بصفة عامة وهو صراع قديم ومتجدد .

كما أن انهيار الحكم التركى المصرى فى السودان كان أمرا مقصودا من جانب الأوروبيين وذلك حتى يخلفه نظام من المتوقع أن يكون رخوا ، مايلبث أن ينهار هو الآخر. ومن ثم يخضع السودان تلقائيا للاستعمار الانجليزى .

ومن جهة أخرى فان الاوروبيين كانوا فى كثير من الأحوال يدلون بمشورة وتوصيات للولاه فى مصر وتؤدى تنفيذ المشورة أو الوصية فى الغالب الى نتيجتين مختلفتين ، تكون الاولى فى مصلحة الوالى والحكم التركى المصرى واما الاخرى فتكون فى مصلحة اوروبا والاستعمار . فمثلا اشارتهم الى الخديو اسماعيل بالقضاء على دولة الزبير ، وذلك لبسط نفوذ الحكومة على جميع أرجاء السودان دون أن يشاركها فى ذلك اى شخص آخر ، وأن يكون نفوذا خالصا للحكم التركى المصرى ، بينما كان هذا الاجراء يهدف الى القضاء على كل مايمهد للوجود العربى والاسلامى فى جنوب السودان بصفة خاصة وفى وسط افريقيا بصفة عامة . وحتى تتاح الفرصة للتنصير ليعشش ويفرخ ، وليكون حاجزا منيعا يوقف تيار الاسلام الزاحف من الشمال الى الجنوب .

كما أن الثورة المهدية والتى هى احدى آثار انهيار الحكم التركى المصرى فى السودان قد اعطت انطباعا عن مدى عظم العاطفة الدينية عند السودانيين ، وكيف أن الخروج عن المبادئ والقيم والاخلاق الاسلامية تستفزهم ويكون سببا فى اتحادهم ونسيانهم لاتجاهاتهم الاقليمية ، وليس أدل على ذلك من اشتراك جميع العناصر السودانية فى الثورة المهدية ،

وذلك لتحقيق هدف واحد هو انهاء الحكم التركى المصرى .

أما على الصعيد الاجتماعى :-

فمسألة وجود العناصر غير السودانية بالسودان ، خلصنا الى أن بعضا منها استطاعت الانصهار فى المجتمع السودانى ومن هؤلاء المسلمون بصفة خاصة كالمصريين المسلمين والاتراك واليمنيين والعناصر المغربية ، أما العناصر النصرانية بصفة عامة والاوروبية بصفة خاصة ، فمازالت كالجسم الغريب فى المجتمع السودانى شكلا ومظهرا ولهجة وولاء للسودان . وانفعالا يقضاياه وهمومه ومشاكله . ومما يجدر الاشارة اليه ان اكثر العناصر انصهارا فى المجتمع السودانى هو العنصر المصرى والعنصر اليمنى .

وخلصنا فى هذه الظاهرة بالذات الى أن كثيرا من هذه الأسر والعناصر محافظة على اسماء خاصة بها ، مثال أن تجد أن الذين ترجع أصولهم الى العنصر التركى تجد اسماءها تنتهى مثلا بخورشيد أو الكاشف ، أو أغا .

ويعتبر العهد التركى المصرى أول عهد فى السودان يهتم بتوطين الرحل وذلك باتباع شتى الوسائل الزراعية والصناعية والحيوانية والرعوية لتحقيق الاستقرار .

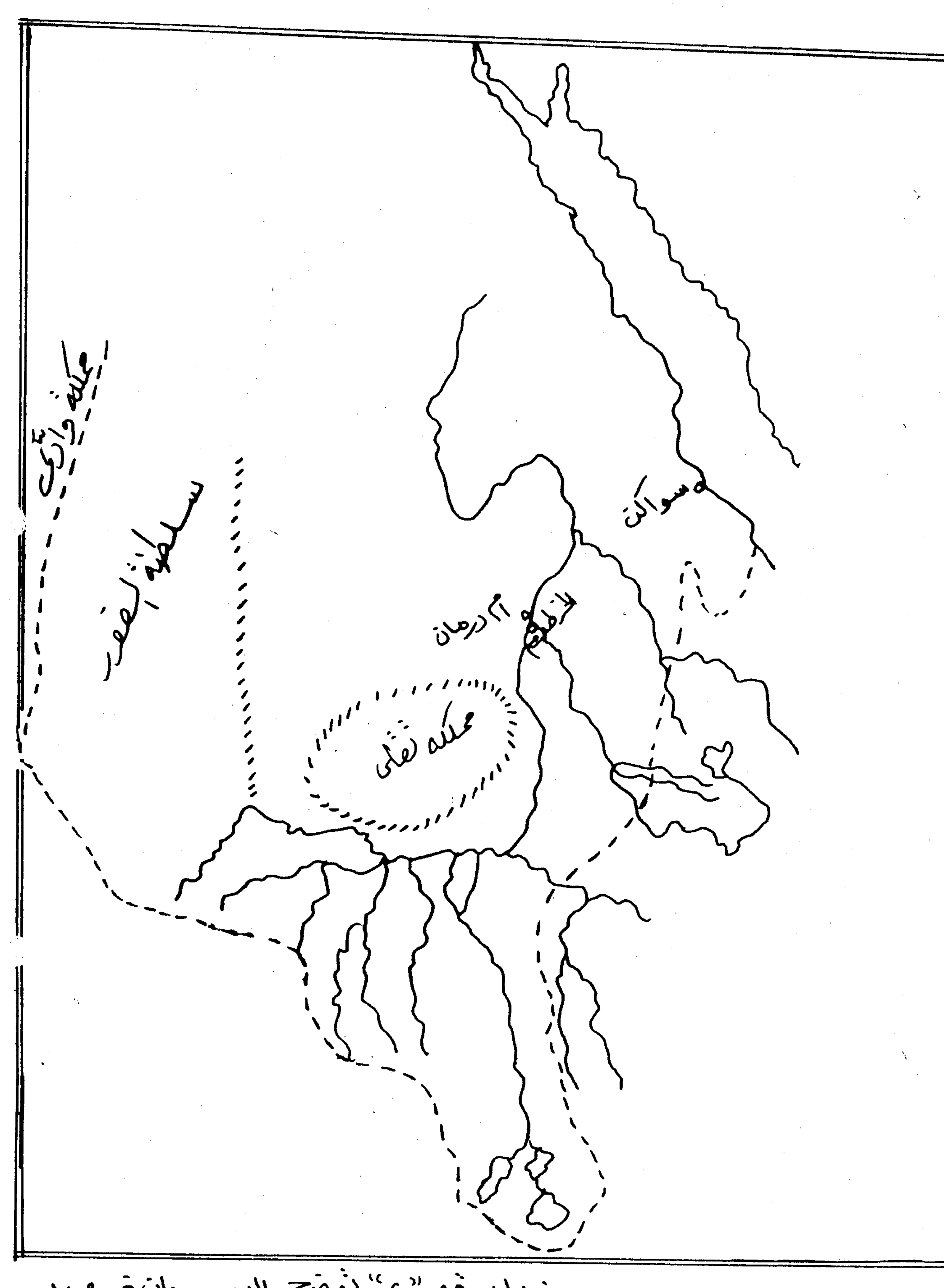
أما بالنسبة للحركات التنصيرية فقد صار السودان فى العهد التركى المصرى حقل تجارب للعمل التنصيرى ، بل جعل السودان نموذجا تجرب فيه ابتكارات العمل التنصيرى ، وبعد تقييم جدواها ، وشدة فعاليتها ، تعمم على بقية افريقيا لتطبق على الحياة الواقعية لدى الأفارقة .

اضافة الى ذلك فان عمليات التنصير فى السودان قد وجدت دعما ماديا وسياسيا منقطع النظير من جانب الانظمة الحاكمة فى أوروبا ، ولم يكن

الأمـل في العـودة الى ذلك الماضي المشرف، ويمكننـا أن نبدأ ذلك بالسودان ومصر، بأزالة الحواجز بينهما ، تأكيداً لأزليـة العلاقات بين البلدين ،وامتدادا لهما وهناك الكثير مـن الأيجابيات في العلاقة بينهما يستحسن الأخـذ بهـا وطـرح السلبيات جانبا .

خرائط

قائمة المصادر والمراجع



خريطة رقم "٢" توضح السودان في عهد الحكم التركي المصري بعد ضم الجنوب وأوغندا وسواكن

انظر محمد عوض محمد، مرجع سابق

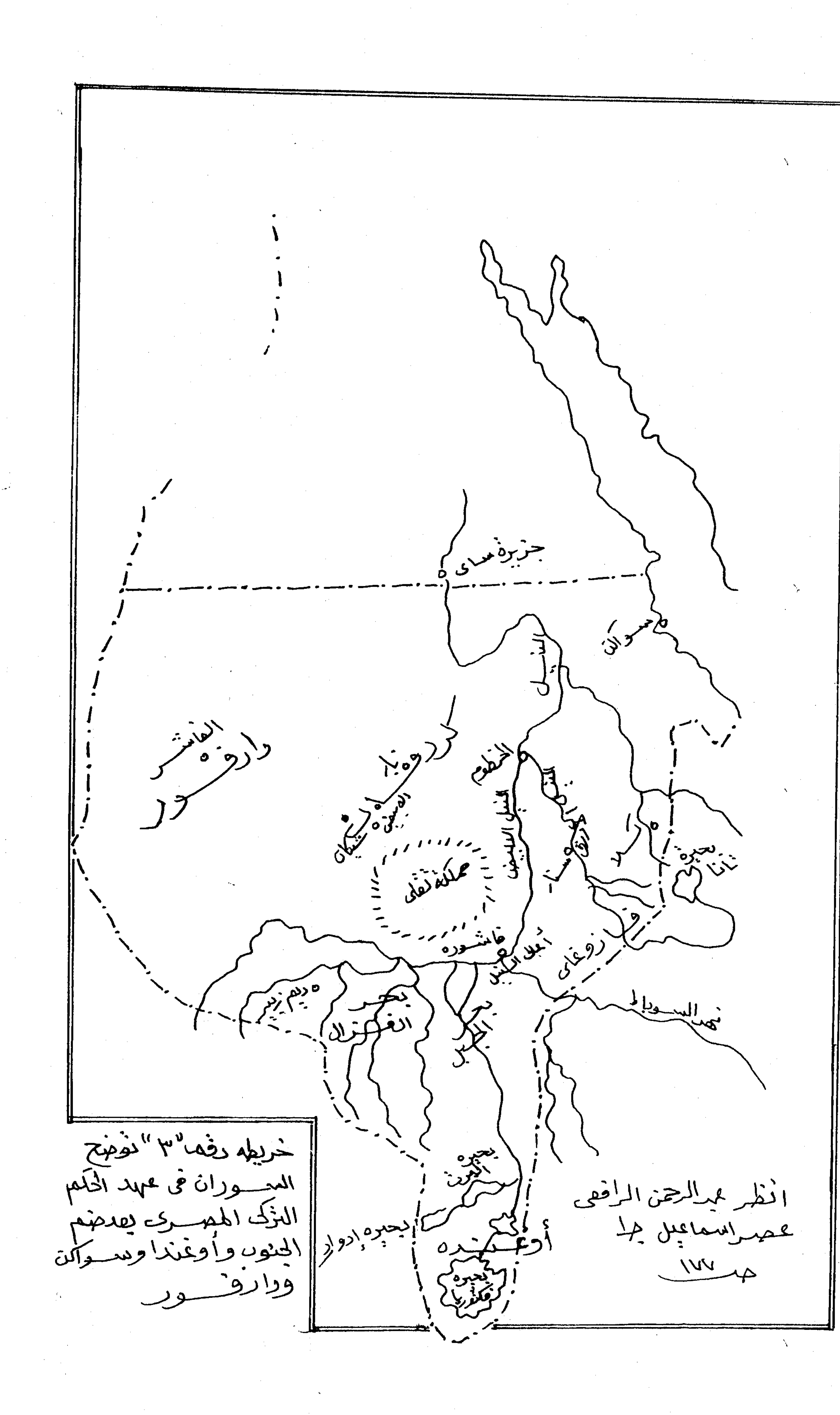
القاهرة
أسوان
سواكن
مملكة ودّاي
بئر النطرون
الفاشر
سلطنة الفور
بارا
الأبيض
شيكان
مملكة تقلي
جبل قدير
سنار

خريطة رقم "٣" توضح حدود السلطنات والممالك السودانية قبيل الحكم التركي المصري .

أنظر محمد عوض محمد

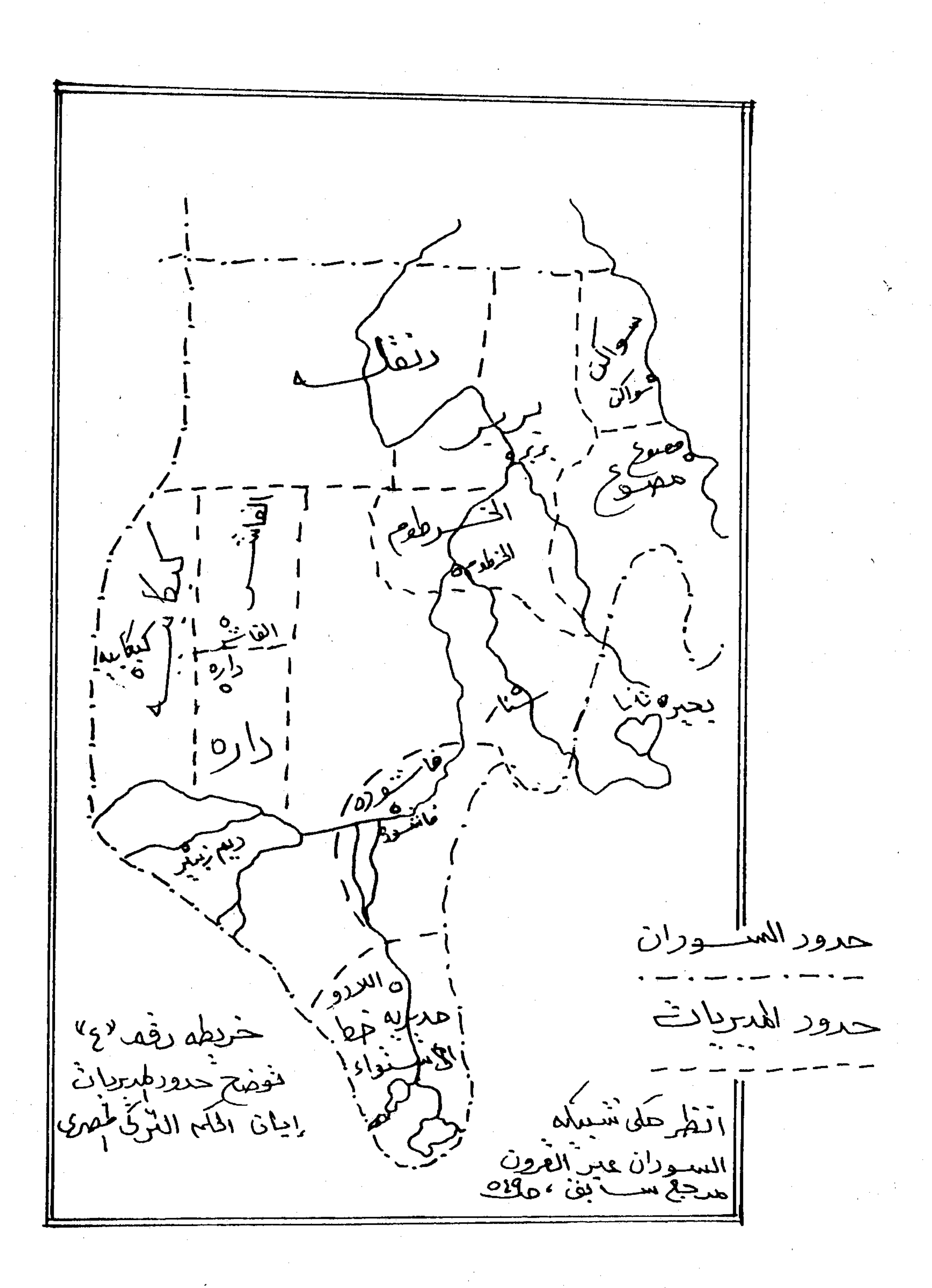
مرجع سابق

////////// حدود السلطنات



خريطة رقم "٣" توضح السودان في عهد الحكم التركي المصري بعد ضم الجنوب وأوغندا وسواكن ودارفور

انظر عبد الرحمن الرافعي عصر اسماعيل ج١ ص ١٧٧


دنقلة
سواكن
سواكن
بربر
بربر
مصوع
مصوع
الخرطوم
الخرطوم
الفاشر
الفاشر
كبكابية
دارة
دارة
سنار
بحيرة تانا
فاشودة
فاشودة
ديم زبير
اللادو
مديرية خط الاستواء
حدود السودان
حدود المديريات
خريطة رقم "٤"
توضح حدود المديريات
إبان الحكم التركي المصري
انظر مكي شبيكة
السودان عبر القرون
مرجع سابق، ص٥٤٩

اولا : المصـــــادر :

ابراهيم فـــوزى :

السودان بين يدى غردون وكتشنر ، (جزءان فى مجلد واحـــــد)
القاهرة ، مطابع جريدة المؤيد ،الطبعة الاولى ١٣١٩ / ١٩٠٢ ٠

أحمد الحاج أبو على :

مخطوطة كاتب الشونة ، فى تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية
القاهرة : تحقيق الشاطر بصيلى عبد الجليل ،مراجعة د . محمـــــد
مصطفى زياده، دار احياء الكتب العربية ١٣٨١ / ١٩٦١ ٠

الايطالى مجهول الاسم :

على تخوم العالم الاسلامى ، حقبة من تاريخ السودان ١٨٢٢/١٨٤١
الجزءالاول ،الخرطوم : ترجمة من الايطالية الى الانجليزية ريتشـــارد
هيل وترجمة من الانجليزية الى العربية عبد العظيم محمد احمد عكاشة
المطبوعات العربية للتأليف والترجمة الطبعة الاولى ١٤٠٧ / ١٩٨٧ ٠

محمد النور ود ضيف الله :

كتاب الطبقات فى خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فـــى
السودان ، الخرطوم : تحقيق ،د . يوسف فضل حسن ،دار التأليـــف
والترجمة والنشر،جامعة الخرطوم الطبعة الثالثة ١٤٠٥ / ١٩٨٥ ٠

محمد بن عمر التونســى :

تشحيذ الاذهان بسيره بلاد العرب والسودان ،القاهرة : تحقيــق
د . خليل محمود عساكر ،ود . مصطفى محمد مسعد ،الطبعة الاولى
١٣٨٥ / ١٩٦٥ ٠

سليمان كشـــه

تأسيس مدينة الخرطوم ،الخرطوم : الطبعة الأولى ، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م

سلاطين باشـــــا :

السيف والنار فى السودان ،اسم المترجم غيرمذكور ،بيروت، دار الجيل
الطبعة الثالث ،١٣٩٨ / ١٩٧٨ ٠

ثانيا : المراجـــــع :

ابراهيم شحاته حســن :

- مصر والسودان ، دراسة وثائقية فى الاصول التاريخية والفكريـة للثورتين العرابية والمهدية ، الاسكندرية : منشأة المعارف . الطبعة الثانية ، ١٤٠٢/١٩٨٢

آلان مورهيــد :

- النيل الأزرق ، القاهره : ترجمة نظمى لوقا ، دار المعـارف بمصر الطبعة الاولى ١٣٨٥/١٩٦٥ .
- النيل الابيض، القاهرة : ترجمة محمد بدر الدين خليـل ، دار المعارف بمصر، الطبعة الاولى ١٣٨٥/١٩٦٥ .

ب . م . هولـت :

- دولة المهدية فى السودان ، القاهرة : ترجمة جميل عبيـد واحمدعبد الرحيم مصطفى ، دار الفكر العربى ، بدون تاريخ .

بونـا ملـوال :

- مسأله الجنوب تاريخها ومراحل تطورها ، الخرطوم : مطابـع وزارة الثقافة والاعلام ، الطبعة الاولى ١٣٩٥/١٩٧٥ .

بشير كوكو حميـده :

- ملامح من تاريخ السودان فى عهد الخديو اسماعيل ، الخرطوم : مطبوعات كلية الدراسات العليا ، جامعة الخرطوم ، الطبعة الاولـى بدون تاريخ .

جميل عبيد (الدكتور) :

- المديرية الاستوائية ، القاهره : دار الكتاب العربى للطباعـة والنشر الطبعة الاولى ١٣٨٨/١٩٦٨ .

جلال يحيى (الدكتور):

- مصر الأفريقية والاطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر القاهرة : دار المعارف، الطبعةالاولى ١٤٠٤/١٩٨٤.

حسن أحمد ابراهيم (الدكتور) :

- رحله محمد على باشا الى السودان ،كراسة رقم (١٥)، الخرطوم : معهد الدراسات الافريقية والاسيويه . جامعة الخرطوم ١٤٠٠/ ١٩٨٠.

- محمدعلى فى السودان ،الخرطوم : مطابع دار التأليف والترجمة والنشر.

حسن مكى محمد احمد :

- السياسة التعليمية والثقافة العربية فى جنوب السودان ، الخرطوم المركز الاسلامى الافريقى شعبة البحوث والنشر ١٤٠٣/١٩٨٣.

خضر عبد الرحيم :

- النشاط الكنسى فى السودان أساليبه وطرق مكافحته ،رسالة دكتوراه ، لم تنشر، جامعة ام القرى ،كليةالدعوة قسم العقيدة ١٤٠٩/١٩٨٩.

خوجلى أحمد صديق :

- نظم الحكم فى السودان ١٨٢١/١٨٨٥ ، رسالة ماجستير جامعة ام القرى كليةالشريعة قسم الحضارة والنظم الاسلامية لم تنشر ، ١٤٠٧هـ.

رأفت غنيمى الشيخ :

- مصر والسودان فى العلاقات الدولية ، القاهرة : مطابع عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٣٩٩/١٩٧٩.

زاهر ريـــــاض :

- السودان المعاصر من الفتح المصرى الى الاستقلال ،القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ،الطبعة الاولى ١٣٨٦/١٩٦٦.

سعد الدين الزبـير :

- الزبير باشا رجل السودان / القاهره ،الطبعة الاولى ،١٩٥٢.

سليمان بن محمد الغنام (الدكتور) :

- قراءة جديدة لسياسة محمدعلى باشا التوسعية ١٨١١- ١٨٤٠ فى الجزيرة العربية والسودان واليونان وسوريا ، جده ، تهامة الطبعة الاولى ١٤٠٠/١٩٨٠.

السيد يوسف نصر :(الدكتور)

- الوجود المصرى فى افريقيا فى الفترة من ١٨٢٠-١٨٩٩ القاهرة : دار المعارف ،الطبعة الاولى ١٤٠١/١٩٨١.

الشاطر بصيلى عبد الجليل :

- تاريخ وحضارات السودان الشرقى والاوسط من القرن السابع الى القرن التاسع عشر الميلادى ،القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الاولى ١٣٩٢/١٩٧٢.

- معالم تاريخ سودان وادى النيل ،القاهرة : مكتبة العرب ، - الطبعة الثانية ١٣٨٦/١٩٦٦.

شوقى الجمل (الدكتور) :

- تاريخ سودان وادى النيل ، حضارته وعلاقته بمصر من أقدم العصور الى وقتنا الحاضر (جزءان) ، القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ،الطبعة الاولى ١٣٨٩/١٩٦٩.

- سياسة مصر فى البحر الاحمر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ،القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الاولى ١٣٩٤/١٩٧٤.

ضـرار صالح ضـرار :

- تاريخ السودان الحديث، دمشق : دار الفكر ،الطبعة الثالثة ١٣٩٥/١٩٧٥.

عبدالله حسين (المحامى) :

- السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية (جزءان في مجلد واحد) ، القاهرة : المطبعة الرحمانية ، الطبعة الاولى ١٣٥٤/١٩٣٥.

عبد الرحمن الرافعى :

- عصر اسماعيل ، (جزءان) القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الثالثة ١٤٠٢/١٩٨٢.
- عصر محمد على ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الاولى ١٣٧٦/١٩٥٦.
- مصر والسودان فى اوائل عهد الاحتلال ، القاهرة : دار المعارف الطبعة الرابعة ١٤٠٣/١٩٨٣.

عبد المجيد عابدين (الدكتور) :

- تاريخ الثقافة العربية فى السودان منذ نشأتها الى العصر الحديث - بيروت : دار الثقافة للطباعة والنشر - بدون تاريخ

عثمان بن حمد الله :

- دليل المعارف ، القاهرة : شركة الطباعة الفنية المتحدة الطبعة الاولى ١٩٦٥.

عبد العزيز حسين الصاوى / محمد على جادين :

- الثورة المهدية مشروع رؤية جديدة ، القاهرة : الدار القومية للثقافة والنشر ، بدون تاريخ .

عصمت حسن زلفو :

- كررى ، الخرطوم ، مطبعة التمدن ، الطبعة الثانية ١٣٩٨/١٩٧٨

عبد اللطيف بن دهيش (الدكتور) :

- قيام الدولة العثمانية ، مكة المكرمة : مكتبة النهضة الطبعة الاولى ١٤٠٩/١٩٨٩.

على ابراهيم عبده (الدكتور) :

- بحث فى العلاقات التاريخية بين مصر والسودان حتى نهاية القرن التاسع عشر ، فى كتاب التكامل المصرى السودانى ، القاهرة المجلس الاعلى للشباب والرياضة ، مطابع مصنع القاهرة للظروف والطباعة ، الطبعة الاولى ، بدون تاريخ .

عبد الودود شلبى :

- الاصول الفكرية لحركة المهدية ، القاهرة : دار المعارف ، الطبعة الاولى ١٣٩٩/١٩٧٩ .

عون الشريف قاسم :

- قاموس اللهجة العامية فى السودان ، القاهرة : المكتب المصرى الحديث الطبعة الثانية ، ١٤٠٥/١٩٨٥ .
- دراسات فى العامية ، الخرطوم : الدار السودانية ، الطبعة الاولى ١٣٩٤/١٩٧٤ .

محمد احمد الحاج :

- المهدية وافريقيا الغربية ، فصل فى كتاب ، دراسات فى تاريخ المهدية الخرطوم : مطبوعات قسم التاريخ بجامعة الخرطوم ، اعده للنشر د . عمر النقر ، الطبعة الاولى ١٤٠١/١٩٨١ .

محمد ابراهيم ابو سليم (الدكتور) :

- تاريخ الخرطوم ، بيروت : دار الجيل ، الطبعة الثانية ١٣٩٩/١٨٧٩ .
- فى الشخصية السودانية ، الخرطوم : دار جامعة الخرطوم للنشر الطبعة الاولى ١٣٩٩/١٩٧٩ .
- الحركة الفكرية فى المهدية ، بيروت : دار الجيل ، الطبعة الثانية ١٤٠٢/١٩٨٢ .

محمد عبد المنعم الرافد :

الغزو العثمانى لمصر ، القاهرة : مؤسسة شباب الجامعة للطباعة ، بدون تاريخ .

محمد أحمد الجابـــرى :

- فى شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويةأهله ، القاهرة : دار الفكر العربى الطبعةالاولى ، بدون تاريخ .

محمـــد احمد محجــوب :

- الديمقراطية فى الميزان ، بيروت ، دار النهار، الطبعة الاولى ١٣٩٣/١٩٧٣.

محمد صالح ضـــرار :

- تاريخ سواكن والبحرالاحمر ، دمشق ، دار الفكر ، الطبعةالاولـــى ١٤٠١/١٩٨١.

محمد عمر بشـير (الدكتور) :

- جنوب السودان ، القاهرة : ترجمة اسعد حليم ، الهيئةالمصريـــة للتأليف والنشر، الطبعة الاولى ١٣٩١/١٩٧١.

محمد عوض محمــــد (الدكتور) :

- السودان الشمالى ، سكانه وقبائله ، القاهرة ، مطبعة لجنةالتأليف والترجمة الطبعةالاولى ١٣٧٦/١٩٥٦.

محمد عبدالغنى سعـــودى :

- بحث عن التكامل الطبيعى فى كتاب التكامل المصرى السودانـــى ، القاهرة : المجلس الاعلى للشباب والرياضة ، مطابع مصنع القاهـــرة للظروف والطباعة ، الطبعةالاولى ، بدون تاريخ .

محمد فؤاد شكرى (الدكتور) :

- مصر و السودان ، تاريخ وحدةوادى النيل السياسية فى القرن التاسـع عشر القاهره : دار المعارف ، الطبعةالثالثة ١٣٨٣/١٩٦٣.
- مصر و السودان ، الوضع التاريخى للمسألة ، القاهرة : دار الفكـر العربى الطبعة الاولى ١٣٦٧/١٩٤٧.

محمد فوزى مصطفى (الدكتور) :

- الثقافة العربية وأثرها فى تماسك الوحدة القومية فى السودان المعاصر، بيروت ، دار الثقافة ، الطبعة الاولى ١٤٠٠ / ١٩٨٠.

محمد المكى ابراهيم :

- الفكر السودانى أصوله وتطوره ، الخرطوم ، وزارة الثقافة والاعلام مصلحة الثقافة ، دار النشر الثقافى ، الطبعة الاولى ، ١٣٩٦/ ١٩٧٦

محمد محجوب مالك :

- المقاومه الداخلية للثورة المهدية ، بيروت دار الجيل ، الطبعة الاولى ١٤٠٧ / ١٩٨٧.

محمود القبانى :

- تأسيس الخرطوم ، الخرطوم ، الطبعة الاولى ١٣٨٦ / ١٩٦٦.

مكى شبيكه (الدكتور) :

- تاريخ شعوب وادى النيل ، مصر والسودان فى القرن التاسع عشر بيروت : دار الثقافة الطبعة الاولى ١٣٨٥ / ١٩٦٥.
- السودان عبر القرون ، بيروت : الطبعة الثالثة ، بدون تاريخ .

ميمونه ميرغنى حمزة :

- حصار وسقوط الخرطوم ، الخرطوم ، دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ١٣٩٢ / ١٩٧٢.

موسى المبارك :

- تاريخ دارفور السياسى ، الخرطوم : دار جامعة الخرطوم للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى بدون تاريخ .

نسيم مقار (الدكتور) :

- الاسس التاريخية للتكامل الاقتصادى بين مصر والسودان ، دراسة فى العلاقات الاقتصادية المصرية السودانية ١٨٢١-١٨٤٨ ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الاولى ١٤٠٥/ ١٩٨٥.

نعوم شقير :

- جغرافيه وتاريخ السودان ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٨٧/ ١٩٦٧.

كرومر (اللورد) :

- بريطانيا فى السودان ترجمة عبد العزيز احمد عرابى ، القاهرة الشركة العربية للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ١٣٨٠/ ١٩٦٠.

يوسف فضل حسن (الدكتور) :

- مقدمة فى تاريخ الممالك الاسلامية فى السودان الشرقى ١٤٥٠- ١٨٢١ ، القاهرة : مطبعة الحيلاوى ، الناشر جامعة الدول العربية معهد البحوث والدراسات العربية الطبعة الاولى ١٣٩١/ ١٩٧١.

مراجع باللغة الانجليزية :

Hill, Richard. Egypt in The Sudan . 1820-1881 Oxford University Press 1959.

Gray, Richard. A history of The southern sudan. Oxford Green Wood. 1960.

Voll, John Obert. Historical Dictionary of The sudan. Metuch. N.T. and London. The scare Crow press / Inc. 1398-1978.

ثالثـــا : الدوريــــات :

أحمد سليمان (المحامى) :

- مذكرات يوسف ميخائيل ، الخرطوم : صحيفة الراية السودانيــة العدد (٤٧٥) ٦ محرم ١٤٠٨ / ٣٠ أغسطس ١٩٨٧ .

حميـده محجـــوب :

- الاسباب الجذرية و الخلفية التاريخية لمشكلة جنوب السودان ، الخرطوم : صحيفة القوات المسلحة السودانية العدد ١١١٦ ، صفر ١٤١٠ / سبتمبر ١٩٨٩

سعاد عبد العزيز احمد :

- بدأ تحديث السودان ، بغداد : مجلة المؤرخ العربى ، المجلد ١٤ ، ١٤٠٠ / ١٩٨٠ .

عبد الرحمـن زكـــى :

- حكمدارو السودان ، القاهره : المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الاول ١٣٦٥ / ١٩٤٨ .

عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم :

- وثائق توضح دور الجالية المغربية فى تاريخ مصر فى العصــــر العثمانى ، تونس " المجلة التاريخية المغربية " ، العدد السابـع ١٣٩٧ / ١٩٧٧ .

عوض عبد الهـادى العطــا :

- الاسلام فى سواحل البحر الاحمر الغربية ، الخرطوم ، مجلـــة الدراسات الافريقية ، العدد الثالث ، ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .

عبده كاســـوزى :

- انتشار الاسلام فى اوغنده ، الخرطوم : مجلة الدراسات الافريقية ترجمة عبد الرحمن احمد عثمان ، دار الاصالة للصحافة والنشر ، العدد الثالث ، ١٤٠٧ / ١٩٨٧ .

محمد سيد محمد (الدكتور) :

ـ المديرية الاستوائية ، مكة المكرمة : مجلة البحث العلمي والتراث الاسلامي جامعة أم القرى ، كلية الشريعة العدد السادس ١٤٠٣ / ١٤٠٤ - ١٩٨٣ / ١٩٨٤ .

ـ امبراطورية الزبير ، مكة المكرمة ، مجلة كلية الشريعة والدراسات جامعة أم القرى ، العدد الثاني ١٣٩٦ / ١٩٧٦ .

ـ المشروعات الفرنسية الاثيوبية في اعالي النيل ، مكة المكرمة : مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ، جامعة أم القرى ، العدد السادس ١٤٠٢ / ١٤٠٣ .

ـ العلاقات السودانية الحبشية ، مكة المكرمة ، جامعة الملك عبد العزيز ، فرع مكة المكرمة ، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية العدد الاول ١٣٩٥ / ١٩٧٥ .

مختار عجوبة (الدكتور) :

ـ مشكلة جنوب السودان و اثرها على مستقبل العلاقات العربية الافريقية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٨٨ ، ١٤٠٦ / ١٩٨٦ .

نسيم مقار (الدكتور) :

ـ رحلة واد نجشون في السودان ، عرض وتحليل ، القاهرة ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد (١٤) ١٣٨٨ / ٩٦٨ .

النور دفع الله (الدكتور) :

ـ البعد التاريخي لوحدة السودان الوطنية ، الخرطوم : صحيفة السودان الحديث العدد (٣٨) ١٤١٠ / ١٩٨٩ .

محتويات الرسالة

اســـم الموضـوع	رقم الصفحة

اسـم الموضـوع	رقم الصفحة

اســـــم الموضـــوع | رقم الصفحة

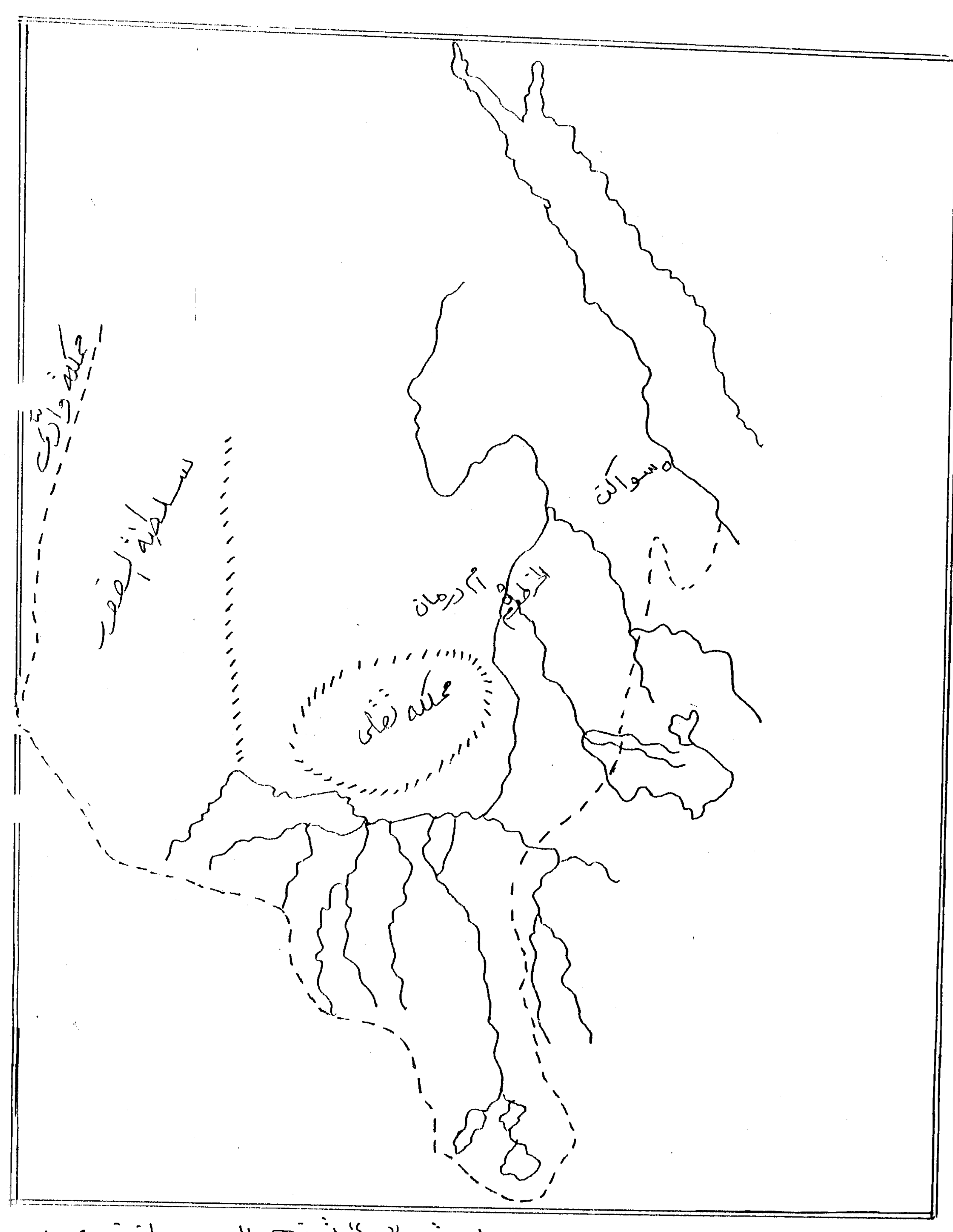
اسم الموضوع — رقم الصفحة

خريطة رقم "٢" توضح حدود السلطنات والممالك السودانية قبل الحكم التركي المصري .

أنظر محمد عوض محمد

مرجع سابق

حدود السلطنات ‎/////// /// //

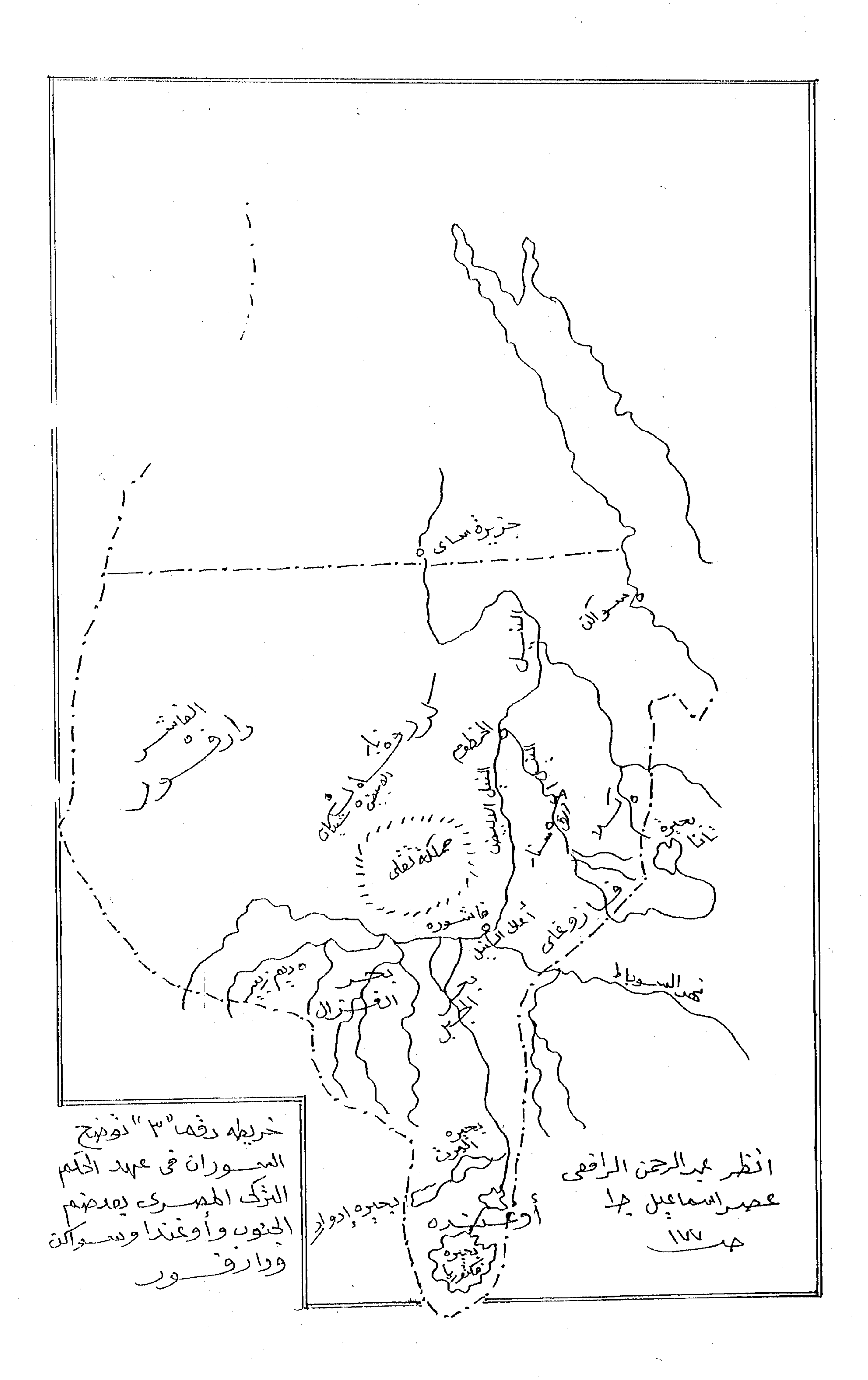


خريطة رقم "٢" توضح السودان في عهد الحكم التركي المصري بعد ضم الجنوب وأوغندا وسواكن

انظر محمد عوض محمد ، مرجع سابق

حدود السلطنات ،،،،،،،،،،

حدود السودان - - - - - -
في العهد التركي المصري.



خريطه رقم "٣" توضح السودان فى عهد الحكم التركى المصرى بمديريات الجنوب وأوغندا وسواكن ودارفور

انظر عبد الرحمن الرافعى عصر اسماعيل ج١ ص ١٧٧